قبائل شمال وسط كردفان

THE TRIBES OF NORTHERN AND CENTRAL KORDOFAN

هارولد ماكمايكل

H. A. MacMICHAEL

تعريب

سيف الدين عبد الحميد



مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي



مؤلف الكتاب
السير هارولد ماكمايكل

- من مواليد 15 أكتوبر 1882م
- تخرج في جامعة كمبردج
- تحصل على الدراسات العليا في التاريخ درجة الشرف الأولي
- اختير للعمل في خدمة السودان السياسية 1905م
- عمل في كردفان والنيل الأزرق والخرطوم والبحر الأحمر
- أصبح نائباً لمدير مديرية دارفور 1917_1918م
- عين مساعداً للسكرتير الإداري 1919_1925م
- ثم أصبح السكرتير الإداري في 1926 إلى تقاعده عن خدمة حكومة السودان في 1934م
- وضع سياسة الحكومة البريطانية تجاه الجنوب في 1930م.
- ألف عددا من الكتب معتمداً فيها على الوثائق التي جمعها من عدة مناطق من مختلف أنحاء السودان، منها كتاب قبائل شمال ووسط كردفان 1912م و (وسوم الجمال التي تستعملها قبائل كردفان الكبرى) و(تاريخ العرب في السودان) 1922م و (السودان الانجليزي المصري) وكتاب (السودان) 1954م.
- أسس مجلة السودان في رسائل ومدونات 1918م.
- عين حاكماً وقائداً بتنجانيقيا (تنزنيا حاليا) 1938م.
- عمل بعد ذلك مندوباً سامياً وقائداً عاماً لفلسطين ومندوباً سامياً للأردن 1944_1938م حيث نجا من محاولة اغتيال دبرها له اليهود.
- عمل مندوباً خاصاً إلى الملايو 1945م.
- وأخيراً عمل كمندوب للشؤون الدستورية في مالطا 1946م.
- حامل وسام فارس بدرجة الصليب الأعظم من جماعة القديس مايكل والقديس جورج. وحامل وسام الخدمة الممتازة بالإضافة إلى عدة أوسمة أخرى.
- توفي في 1969م

الأستاذ/سيف الدين عبد الحميد

* من مواليد حلة عبد الحميد مركز بارا ــ شمال كردفان فى عام 1959م.
* تخرج فى كلية الآداب ــ جامعة الخرطوم عام 1984م.
* عمل معلما للغة العربية بمدارس التقدم العليا للبنات في أم درمان ــ حي المظاهر
في الفترة من يوليو 1985م إلى فبراير 1987م.
* عمل فى الحكم المحلي ضابطا إداريا فى الفترة ما بين 1987 إلى 2001م.
* عمل من بعد فى مجال الترجمة بصحيفتى الصحافى الدولى والصحافة السودانيتين.

شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

ISBN; 978-99942-63-06-6
رقم إيداع :2016/527م

قبائل شمــــال وسـط كردفان

تعريب: سيف الدين عبد الحميد



مسطورات
MUSTORAT
INTERNET ARCHIVE

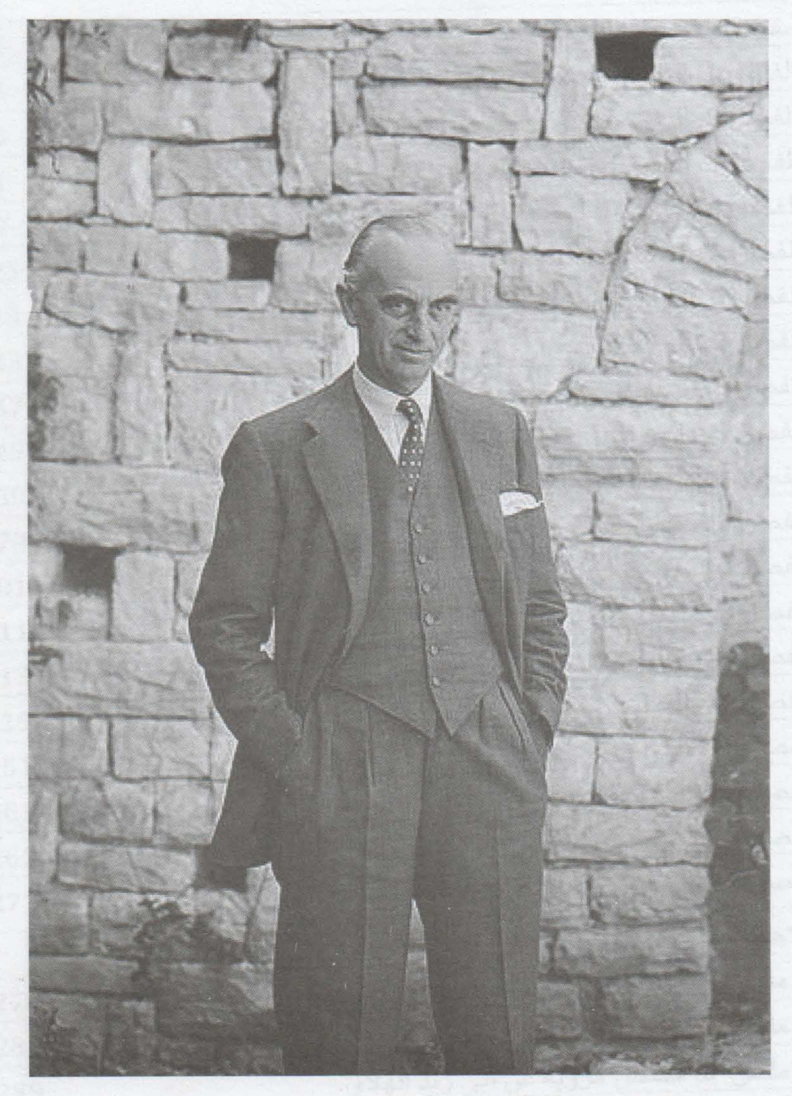
فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر - السودان
٩٢٩,١٠٧٢٠٦٢٨ مكمايكل هارولد، ١٨٨٢ - ١٩٦٩
هــ . ق
قبائل شمال ووسط كردفان/هارولد مكمايكل،
ترجمة سيف الدين عبدالحميد. - ام درمان: مركز عبدالكريم
ميرغني الثقافي، ٢٠١٦م
312ص ؛ ٢٤سم.
ردمك 6 - 06 - 63 - 99942 - 978
١. القبائل العربية - كردفان (السودان).
أ.العنوان
ب. سيف الدين عبدالحميد (مترجم)، ١٩٥٩

Second Edition, June 2017

الطبعة الثانية - يونيو 2017م
شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

إعادة التصميم الداخلي / سينان العالمية

THE TRIBES OF NORTHERN AND CENTRAL KORDOFÁN



H. A. MACMICHAEL

المحتويات

قائمة الصور التوضيحية

تقـــــــــــديم (1)

أ.د عمر شاع الدين

جامعة إفريقيا العالمية - كلية الآداب

يقيناً طرتُ فرحاً لما أخبرني صديقي الحصيف الأستاذ سيف الدين عبد الحميد المترجم البارع بصنيعه الماتع وما بذل من جهود الترجمة الطائلة، فالرجل في سائر كتاباته محسنٌ متقن، ثم معرفتي به جعلت فرحي الواحد أفراحاً، ثم جلال الموضوع وإن شئت جلله الذي شابته الشوائب يحتاج الإجلاء من قادرين لهم شأوهم (قبائل شمال ووسط كردفان) لهارولد ماكمايكل.

عرفتُ المترجم الأستاذ سيف منذ سنين في جريدة الصحافة الغراء مالكاً قلماً سلسالاً يتقطر عذوبة.. ولا مشاحة فالرجل شاعرٌ ضليع رضع لبان الأدب العربي واجتبى محاسن اللغة ثم فوق هذا له إلمامٌ بالموضوع (كردفان) فهي وطنه، وكأنه يسدي جميلاً لمواطنيه بعمله هذا، وكلنا يأكله الشوق لمعرفة كل كبيرة وصغيرة عن تلك الرقعة العامرة بالرجال. ومع كثرة ما كُتب إلا أننا لا نشك أن جهد ماكمايكل كان أوفرها نصيباً، فقد أحاط الرجلُ خُبراً وتقصى كل الجهود السابقة، ما يدفعك لأن تُدهش إعجاباً بثبت مصادره الضخم الذي كابد مراجعته، ثم منهجه الصارم الذي توخاه تحقيقاً، ومراجعه لجهود التونسي وسليجمان وبروس وبراون وبيركهاردت وكايو وبالمي وسلاطين وغيرهم.

في معرض الكلام وجدتُ ماكمايكل يتعاطف مع حالة المواطنين الذين تسحقهم الضرائب وتعنتهم دون رحمة فيصبُّ جام غضبه على طغيان سياسة محمد علي (تاجر الرقيق الكبير) والذي لا يتورع (ببيع بني جنسه من الكائنات البشرية) وهنا يخامرك الشك أنه يكيد كيداً بأقواله تلك مترصداً السياسة المصرية. وهناك قضايا كثيرة ستتضح رؤيتها بعد مطالعة الكتاب وقد تغلبك الدهشة وأنت ترى هذا الحشد من المعلومات غير المسبوقة تتدافع أمامك في سلاسة، فلا تملك إلا أن تحمد لماكمايكل

هذا، وأنت لا تجد مبرراً لتكبد المشاق سوى تسهيل مهمة الإداري المستعمر حتى يُحكم قبضته على السكان، وهناك إشارات أن أولئك الإداريين كانوا على يقينٍ أن معرفة القبائل وأصولها والعادات والتقاليد هذا يساعد كثيراً في إدارة البلاد ولذا شجعوا مثل هذه الدراسات بل اندفعوا لها، ثم عشق المعرفة مع قليل القصد أو كثيره، وأحسب أننا مهما تجافينا أو بلغت بنا السذاجة مبلغاً فليس يسيراً نكران جهود أولئك الغربيين الذين انكبوا بحثاً مضنياً شاملاً لكل تاريخنا المضاع. لقد كانت جهودهم سابقة، ومع ما شاب جهد بعضهم من الكيد وما تنكبوه من إجحاف وإبخاس، لكن بالمستطاع يسيراً تجاوز ذلك الآن فالفطنة الغالبة تجعل طيِّعاً كل عصي.

إن الكثير مما توارد في العمل العظيم تحصَّله ماكمايكل ـــ يوم كان رأساً في الحكم الثنائي ـــ بالبحث المضني والمشافهات العديدة التي تحتاج لدربة ودراية فوق الصبر، ولكنني أجزم أن هناك أيضاً ما تحصَّله ضربة لازب بالتخمين وقد أشار إلى مثل هذا في إلماحاتٍ ذكية، وهنا لا تملك إلا أن تحمد له المسعى في الحالين فهذا ما يتيحه البحث يقيناً. لكنا نغضب كثيراً عند غمار شكوكه التي لا تعدم مسحات الاحتقار قصداً عند كلامه عن الأنساب العربية، ولكنه يبدو كالواثق في كلامه أوالمترصد! الآن لكم نحتاج لترجماتٍ لكل ماكُتب، ما يتوافق مع رؤيتنا أو يتعارض.. فنحن يقيناً لا نعرف كثير شيء عن تاريخنا.. وما نعرفه ربما يكون غير صادق ولا يرضينا في الطموح إلا أن اليقين شيء غير الطموح ولا يضيرنا كثيراً أن نستقي ذلك من أعجميٍّ دخيل فهو ناقل ولا نحسب أن الكثير مما نقل من رأيٍ هو انطباعٌ خاص.

تبلغ السخرية بماكمايكل في حالاتٍ حداً لئيماً، فقد وجدته عند حديثه عن قبيلةٍ قال إنها نسيت تاريخها وأصلها يقول (لم يكن لديهم نسب ولكنهم كانوا يفكرون في إيجار فكي يخترع لهم نسباً مقابل 60 قرشاً)، ثم كثيراً ما يقول معترضاً على نسبٍ واصفاً له أنه (تلفيق) مع أنه يقول دائماً إنه حقق معهم في إشارةٍ للتوثق، وفي حالات يقول (نسبهم المزعوم). ووجدته يبرر اختلاق نسبٍ لقبيلةٍ تبريراً غامزاً ويبدو مهذباً في حالةٍ موضوعية (لا شك أنه اخترع «النسب» ببساطة باعتباره رمزاً سلفياً ملائماً يهدف لإثبات الوحدة العنصرية للقبيلة)، ومثل هذا التلطف يفعله مع قبائل لا يستطيع أن يخفي تعاطفه معها!! وربما تكون دوافع هذا التعاطف سياسية! ومثلما

يندفع حامداً، نراه يندفع ذامَّاً، فقد وصف حاكم كردفان محمد بك الذي خلعه محمد علي بأنه (وغدٌ من أسوأ طراز)، وحيناً يندفع لوصف شخص آخر هكذا (هو رجلٌ تافه من النوع الردئ)، وقد يذهب بعيداً بالوصف لغيره كأنْ يقول (القزم النذل الماكر)، وهذا يتم دون سبب يسوقه لنا! ولكنَّا نعلمه علم اليقين! وفي حالةٍ بلغت سخريته بجنود محمد علي في كردفان واصفاً سوء حالهم وأن مرتبهم مخزٍ ومع هذا (كثيراً ما يجب عليهم أن ينتظروا اثني عشر شهراً كاملة، وأن متأخراتهم تسدد حينذاك بالرقيق أو الجمال، وكثيراً ما يحدث في هذه المناسبات أن يستقبل الولد أباه أو أخاه بدلاً عن المرتب). ومع صدق هذا في النهاية إلا أن أسلوب الكتابة يطفح بالاحتقار. وفي حالات أنت لا تستطيع موافقته في كل حديثه.. فهناك اجتهادات كأنه يسدُّ بها فجوات تعترض تسلسل الأحداث، وقد أشار إلى مثل هذا مراراً. هذه المرارات لا سبيل للترجمة لتفاديها، فلا ضرر يصيبها، بل هي إن تحاشت هذا تكون قد أودت بجهود المؤلف وأطاحت برؤيته وأضرَّت بمناهج البحث العلمية وأجحفت. ولكم ارتعشتُ وأنا أقرأ كلاماً مرَّاً يمسُّ قبائلَ لها شوكتها الآن.. حتى نخاع الأخلاقية والعادات. والراجح أننا ليس بمستطاعنا رفض هذا التسلسل الذي كابد المؤلف في تحصله المشاق.. فجمع أنساباً سعى في دأب لتأصيلها، ونحن نعلم أنه لم يصطنع هذا فهو ناقل.. والراجح نقله من أفواه القبيلة مباشرة.. ولكن جهده يبدو واضحاً في التوثيق والتنسيق والتوافق المنطقي بمثل ما وجدنا (يولد بين الفينة والأخرى في الحرازة طفلٌ أصفر الشعر ووردي البشرة من أبوين يعيشان في الجبل... إن الأدلة على أن العنج لهم علاقة بقبائل البربر القديمة توجد في النظريات المقدمة في كتاب أصول البربر).

عندي أن الاشتغال بمثل هذه الأعمال يستحق التقدير.. فقد انحشى بفوائد جمة غنية بالمتعة. فمثلما نقل ماكمايكل كثيراً من عادات القبائل المستشرية بما يشكل مادة فلكلورية زاخرة بالغرابة أريد أن أنقل هنا ما لم أسمع قبلاً (هناك عادة غريبة جداً جديرة بالملاحظة توجد في كاجا وهي عادة غير عربية ولكن لا يمكن أن يقال إلى أيِّ عنصرٍ في السكان يمكن نسبتها بصورة أخص، وهي أنه في وقت درْس الذرة تكون هناك رغبة عامة في هبوبٍ كافية لتذروَ العُصَافة (القشور) من الذرة، ومن المألوف أن تثار الهبوب بالطريقة التالية: أن يأخذ أحد التوأمين ذكراً كان أم أنثى عصاً ينقب بها

في أجحار فئران المزرعة إذ من الواضح أن الفكرة هي أن الهبوب المحملة بالرمل تتخذ موطنها داخل هذه الأجحار... وبعد أن يفعل التوأم ذلك يتحرك إلى كوم قمامة القرية ويضرب عليه بعصاً حتى تكون هناك كمية كثيرة من الرماد المسحوق، ومن ثم يقذف بحفناتٍ منه في الهواء في إيماءةٍ إلى الهبوب لكي تأتي وتدور به بعيداً. وهناك خطة ثانية يتبنونها لذات الهدف لإثارة الهبوب وهي أن يؤتى بدجاجةٍ حية وتغطس في الماء ومن ثم تطلق إذ يعتبر احتمالاً أن عمليات الهز الاهتياجي للدجاجة على فكرة تجفيف ريشها يغري الريح بالهبوب). ومع سذاجة هذا الاحتمال إلا أنه مقبول ما دمنا لا نجد غيره مبرراً.

لقد سرَّني ما وجدته من أمر انشغال المؤلف بالتحقيق اللفظي فقد وجدته ينقل (أن أصل اسم «المجانين» الغريب يعزى إلى القصة الآتية: اعتاد أطفال سهل وعلي السمح أن يتشاجروا معاً جرياً على عادة الأطفال. وفي ذات يوم تدخل سليط ـــ أو مسهل وفقاً لرواية أخرى ـــ وأخذ دور أحد الأطفال ضد طفلٍ آخر ووبخه سهل على التدخل في مشاجرة أطفال على كبر سنه وسماه بـ(المجنون)، وقال سليط ـــ أو مسهل ـــ إنه لا يكترث إن كان (مجنون) فهو سيفعل ما يعجبه، واشتهر منذ ذلك الوقت فصاعداً بـ(المجنون) واشتهر أحفاده بـ(المجانين).

إن من الإنصاف أن نضيف لفطنة ماكمايكل في الفصل العاشر، الجزء (II) المعاقلة: أن البشارية يعود نسبهم إلى مؤسس القبيلة من خلال امرأة (خضرة) والدتهم، وهي نفسها معقلية من دمٍ مشيخي (قد زُوِّجت للحاج بشاري وهو فكي قدم من الشرق وأن الشيخ الحالي قد انحدر من زواجهما، وربما يمكن لنا أن نرى هنا آثار العرف الأمومي القديم للقبائل الشرقية كالبشاريين والعبابدة، ففكرة ربط كثير من المعاقلة بقبائل شرق السودان ستُعزز عندما نجد بين الفروع كلا البشارية «بشارة» والعبادية). رأيتُ أن هذا «الاستخلاص» لا يخلو بأية حال من الفطنة، والراجح أنه مدفوع لمثل هذا بأن الكثيرين من الذين سمع عنهم ونقل كانوا يتفادون (مواجهة الاستفسارات الأكثر دقة) ما يدفعه للاجتهاد والتخمين!

اجتهد بروفسور بودج في كتابه «تاريخ السودان» زاعماً (أن بقارة كردفان هم بلا

شك أحفاد الهكسوس المرعبين الموجودة آثارهم على النقوش المصرية)، وهذا ما يرفضه تماماً ماكمايكل الذي يرى (أن من الصعب أن تؤخذ هذه المقولة بأي معنىً سوى المعنى الاستعاري المبالغ فيه، وربما يكون الهكسوس قد عاشوا تقريباً في ذات المنطقة التي يعيش فيها البقارة الآن وربما ربَّوا الماشية لذات السبب لكون الظروف مناسبة للغاية، ولكن من الصعب أن تقوم هذه الحقيقة ــ إضافة إلى الوحشية المألوفة لدى الشعبين ــ دليلاً وأساساً على افتراض السلالة المشتركة). ثم يسند رأيه بأن البقارة (على الأقل عرب في الغالب الأعم بيد أن الهكسوس لم يكونوا افتراضاً كذلك). وفي ما يشبه الطرفة يفطن ماكمايكل إلى أن الحُمُر الذين يذهب القول إنهم منحدرون من الأسود العنسي مدعي النبوة ذي الخمار الكذاب، فيرفعن هذه النسبة مرجحاً أن الذي دفع إليها هو هذه البغضاء الزاخرة التي يضمرها أعداؤهم لهم وذلك لما كان الحُمُر (دراويش متعصبين تعصباً صريحاً خلال حكم الخليفة كله)، فقد بدا لي أن مثل هذا الإنصاف كان من الراجح ألا يصدر عن مثل ماكمايكل في قسوته العارمة تجاه المهدية.

لاحظتُ كثيراً في طيات الكتاب الاهتمام بجغرافية الأرض وطبيعتها، وهذا بداهةً مقبول لارتباط الناس بالأرض والماء وارتباط ذلك بالحياة، وفي ذات مرة يندفع في منحىً علميٍّ بحت لتحليل ظواهر نضوب الماء ما يدفع للهجرة (إن التغييرات التي تحدث في إمداد المياه الجوفية في شمال كردفان لهي تغييراتٌ ملحوظة، فالاتجاه العام يتعلق بنقصان في الإمداد المائي في أماكن الري القديمة، وفي ذات الوقت يتم اكتشاف مواقع جديدة من حينٍ لآخر (كما في الجبيلات مثلاً). هذه الظاهرة الحادثة على نطاق كردفان يلاحظها إسكيارك دولوتور في كتابه (الصحراء والسودان) حيث أقنعته الشهادة المجمع عليها من الناس أنه (من الضروري في أماكن كثيرة في الأعوام الأخيرة أن تحفر ثلاث مرات أو أربع مرات حفراً عميقاً للحصول على الماء كما كان عليه الحال في الأجيال السابقة، والآن مضت خمسون عاماً منذ أن كتب إسكيارك وبعد ذلك ما تزال الظاهرة ملحوظة. فمثلاً أن الحقيقة المعترف بها هي أن مستوى الماء في شرشار أدنى كثيراً مما كان عليه في وقتٍ متأخر جداً كما في أيام المهدي. يقول دولوتور: على أية حال أراني افترض أن هذه التغيرات في المستوى والطبيعة تعزى إلى فعل التيارات التحتية العنيفة التي تتحرك على انحدارات حادة وتعمل على تغيير الطبقات التي تمر

بها كما تعمل في كل لحظة على تمهيد المسارات الجديدة خاصة الترسبات المحلية التي تبدي مقاومة قليلة أمام فعلها القوي).

الآن أريد أن أقف عند معتقدٍ خرافي نقله لنا، وهذا من ضروب الفلكور الذي يزخر به الكتاب ما يدفع لأن يفرد له عملٌ خاصٌ، فقد قال: (تسود خرافة الآن فحواها أن الأدوات الحديدية إذا تُركت ملقاة على الأرض فإنها ستجذب ريح الشمال القوية وأن الرمل سيغمر الذرة، ونتيجة لذلك فقد تم جمعها بصورة جادة وقام «الفُكّيا» بالشكليات المطلوبة بإخفائها داخل الشقوق العميقة في الصخور، وقد اكتشفتُ أنا هنا كثيراً منها مغطىً بالحجارة). ثم نقل من عادات الزغاوة في دفن القتلى أن (جثمان الشخص القتيل يوضع رأسه إلى الشرق وقدماه إلى الغرب) ولم يستنبط مبرراً لذلك.

ونقل عنهم أن «الهوجي» الذين من شأنهم إنزال المطر يستخدمون قراءة القرآن والتفل مراراً على المسبحة، وينقل أنهم محبوبون ومحترمون، وفي موضع آخر يشير أن «الهوجون» عند أعالي النيجر هو منزِّل المطر أو الساحر إشارة إلى منبع الطقوسية. وأنا أمتع بقراءة هذه الترجمة في لغتها المتعالية كانت تبهرني دائماً إشارات مبثوثة فطن لها المؤلف بحيث جعلتني أقف مراراً متأملاً ــــ مثلاً ــــ كلامه عن جبل ميدوب مشيراً للكبابيش من ناحية الشرق والزغاوة من الشمال وبرتي من الغرب والجنوب ثم يقول (في الغالب الأعم هناك اسمٌ عربي واسمٌ محلي لهذا الجبل وأماكنه المائية المختلفة، فمثلاً الاسم المحلي لجبل ميدوب نفسه هو «تيدي» والميدوبي «تيدي»»، ويعرف المكان المائي بالنسبة للعرب باسم السِّريف (الزِّريف: على الخرائط الفرنسية) ويعرف باسم «كوندول» بالنسبة للميدوبيين). لقد بدا لي أن الإشارة للاسم المحلي «تيدي» للجبل تخص غير العرب (زغاوة وبرتي) بينما اسم «كوندول» كما توحي العبارة يخصُّ العرب، ولكن هناك ما يوحي أيضاً أن الاسم يخص غير العرب. إن اسم ميدوب يبدو مكيناً في لغته الأصل الدنقلاوية والمحسية، هذا كما تريد فطنة المؤلف الذهاب إليه. لا شك أن عمق معرفة ماكمايكل اللغوية هو الذي جعله يذهب مصوِّباً ما في الخرائط الفرنسية «الزِّريف» = السِّريف»، مع ما في الزِّريف من معنى «ذرف» بالذال، والراجح أن الخرائط مثلما جعلت (السين = زاي) هي أيضاً جعلت (الذال = زاي) لتحول بيننا وما يتاح تحصله من معنى الانصباب والسيلان في «ذرف» وفي «سرف» التي تجد

معناها في عاميتنا بمعنى الامتلاء والإتراع والزيادة وهو معنى الإسراف الفصيح.

كان ماكمايكل أميناً عندما اعترف أنه ليس بمقدوره أن يقدم تقريراً وافياً عن زغاوة دارفور وذلك أنه يستسقي معلوماته الوحيدة من (الشباب الذين يأتون إلى كردفان للعمل مقابل الأجرة، كما لم أجد الفرصة لمقابلة الناس في بلدهم).. كان يمكنه أن يغض الطرف.. ولا يذكر هذا. لفت انتباهي عند الكلام عن دار حامد أن ابن حامد (محمد مرمار أو مريمر سُمي نسبة للشخشخة ذات الخرير التي كان يصدرها وهو طفلٌ يحبو على الأرض)، هذا مع إشارته أن من المرجح أنه اسمٌ خرافي لتفسير اسم القبيلة. لقد وجدتُ صلة لغوية مألوفة بين «مرمار» والصوت ولكنها راجحاً صوت الحركة لصلة الدعك أو المرور على الأرض، وما يقرب أن المراد صوت الحركة.. شخشخة: صوت السلاح مثلما خشخشة لصوت الحُلي والكشيش لصوت الغليان، هذا يذهب لتأكيد الاسم، فالوصف (ذات الخرير) للصوت (حركة الماء). وكان من فطنة ماكمايكل الإشارة لما ذكره (وارن) و(بالمي) من الخلط بين (الهبابين) من قبائل كردفان التي ارتحلت إلى دارفور مع المعاليا والمجانين تفادياً للقمع التركي وقبيلة (الهبانية) إحدى قبائل البقارة التي لم تكن لهم بهم علاقة. ومما أفادني جديداً في عاميتنا أن مصطلح (عهدة) يقارب معنى (مسؤول) أو زعيم وذلك في كلامه عن (النواهية) فرع دار حامد: (كان عهدتهم الرسمية في نهاية التركية هو سعد أبوسيل)، وأنا لم أجد إشارة لهذا المعنى في غير هذا المكان.

إن إحسان ماكمايكل للعربية هو ما جعله يفطن لروح الاشتقاق الذي يدفع لترجيح سلطان الحيوان في حياة أولئك الذين يعتنون به (إن تسمية واحدة أو اثنتين من القبائل العربية ربما يرد ذكرها باعتبارها أدلة تكميلية اشتقاقاً للكبابيش من «كبش» إذا دعت الحاجة لذلك، فمثلاً يبدو اسم معاذ مشتقاً بطريقةٍ مماثلة من معَّاز «ماعز». ولكن مع هذا الإحسان للعربية والإتقان الذي ذكرناه إلا أن الراجح أن ماكمايكل قد وقع في خطأٍ جسيم بجعله اسم «معاذ» بالذال من اسم «ماعز» بالزاي، فقد فاته أن المعاذ في اللغة: الملجأ، أعوذ بالله: ألجأ إليه، معاذ الله: أعوذ به. ثم في منحىً آخر نراه يلفت الانتباه إلى اللاحقة «آب» التي تلازم أسماء القبائل كثيراً وهي بجاوية الأصل (ربما يلاحظ هنا أن اللاحقة «آب» التي تستخدم للإشارة إلى اسم الأب أو الأسرة لا تستخدم هكذا بين أيٍّ

من قبائل كردفان التي لم تأتِ من جهة الشمال الشرقي، فهي غير معروفة مثلاً وسط البقارة الأصليين). ولكن بمراجعة القوائم تجد الكثير منها والذي لم يأت من الشمال لكن هذا لا يحرمنا الرجوع إلى المعابر الأولى ناحية الشرق. لقد رأيتُ أن هذا يدفع لاستحضار دائرة الكواهلة الذين يزعمون أن البشاريين والعبابدة من مجموعتهم ونعلم أن هناك إشاراتٍ لاختلاطهم بالبجا ومعرفتهم للسانهم. إن اعتناء ماكمايكل بالأرومة العربية في بعض القبائل أشد ما يبدو عند كلامه عن الكبابيش، لقد تحاشى تماماً المساس بهم إلا في القليل، وأنت تدهش بقدر الاعتبار الذي أفرده لهم، ثم حديثه عنهم بإسهاب يبلغ حدَّ الحيرة والالتذاذ! هذا يتيح أن قولنا ربما يجد تبريراً بمواقف القبيلة التي ناصبت المهدية العداء، بل ذهبت موالية للحكومة، ومع أنه يبدو ساخطاً على أصحاب البشرة السوداء فيذمّهم دون حرج إلا أنه عند كلامه عن الناظر علي التوم يتلطف (يبلغ علي التوم من العمر الآن 37 عاماً، أي في هذا العام 1911م، وهو ذو بشرةٍ داكنة وذو ملامح عربية وهو طرازٌ رفيع للعربي المستنير كريم الأرومة ويجلُّه شعبه بأعظم إجلال من المهابة). هذا الرأي يبدو صائباً راجحاً مع بُني عليه من رأيٍ مجحف في حالاتٍ سابقة سالبة!! لقد كان مثل هذا يدفعني لتصنيف حالاتٍ في الكتاب أنها لا تخلو من الأثر الانطباعي مع حشود الصرامة التي تطبَّق عليه في الغالب، فأنت في حالة تجده لا يبعد عن الغرض والتخطيط مثل كلامه عن العبابدة والبشاريين: (استخدمت كلمة عبادي أيضاً لتشير إلى عرب مسيحيين وأن «بشارة» تعني الإنجيل أو عيد البشارة، ولا أدري ما إذا كان هذا مجرد مصادفة ولكنه شيءٌ غريب عندما يتذكر المرء أنه كانت هناك مملكة مسيحية في دنقلا حتى حوالى القرن الرابع عشر). ومثل هذه الفرضية تُهشم بوجود جماعة من اشتقاقات «بُشرى» سائرة في اللسان العربي وفي أسمائهم. ولكم تبدو بعض اجتهاداته فطيرة ومجهدة لا تجد سنداً يُعوَّل عليه مثلما وجدناه عند كلامه عن الشنابلة ينقل (إن بيركهاردت في 1810م اكتشف بعض «السهانبيل» جنوب شرق دمشق وهم يتبعون جزئياً إلى الدروز وكانوا نهابة سيِّئي السمعة وظلوا في هذا الحال منذ عهد هيرودس ابن انتيبار، وطالما أن هناك شنابلة يعيشون في الوقت الحالي شرق وادي النيل في مصر فهناك افتراض مقبول لعلاقةٍ ما بين شنابلة كردفان والقبائل المذكورة آنفاً). ربما الذي دفعه لهذا الافتراض

مسلك التقارب اللفظي (شنابلة = سهانبيل) ثم تقارب الأمكنة (شرق وادي النيل = جنوب شرق دمشق) لكن يقيناً هذا لا يتيح قوياً قبول مثل هذا الافتراض الذي اندفع إليه ماكمايكل في حذرٍ يشوبه الخجل!

من الإنصاف ألا نغمط مثل اجتهاداته هذه، وقد وجدناه ينقل عن ويلكنسون (إن اسم هواري يعني بالضبط «فارس» وهو يستخدم لسائس الخيول المحلي في مصر)، وهو قولٌ لا يتوافق مع رؤية ماكمايكل ويراه قلباً للحقائق (فشهرة الهواري هي التي جعلت لقب الهواري يطلق على سائس الخيل الماهر).. هذا منطقٌ مقبول، وهو يذكِّرنا بما نسمع من أن أصل اسم «الحرامي» يعود لقبيلة بهذا الاسم اشتهرت بالسرقة فصار بعدُ كلُّ فردٍ منها «بني حرام» سارقاً = حرامياً!! وفي حالاتٍ يستهويه «الحكي» فيندفع ناقلاً مثلما نقل ما تواتر من قصص أبي زيد الهلالي، ومع ما نجد من دوائر الاتفاق في بعضها إلا أن بعضها أضرابٌ من نسج الخيال أو أن الخيال فيها بُني على الأصل فتمدد واستطال. بعد كل هذا يدفعني الافتراض أن تشكك ماكمايكل في كثيرٍ من الأنساب العربية كان مقصداً يريد به أن يفصم عرى العصبية التي ألمح أن اختلاق الأنساب يساعد في جمعها، ثم أن يباعد بين بنيها ما يساعد في تشتيت الوئام وتفكيكه وخلق العزلة القبلية وغرس الضغائن المريرة.

هذه وقفاتٌ رأيتُ تدوينها وأنا أرتع أو (أكرع) من حوض المتعة الباذخة التي أعطانيها فيض الإتقان في الكتابة والترجمة سواء. لقد أسدى الأستاذ الصديق سيف الدين عبد الحميد جميلاً طائلاً وصنيعاً لا يضيع للثقافة العربية السودانية بعمله هذا، والمأمول ألا يقف العطاء.. فمثل اقتداره هذا الفارع نحتاجه كثيراً، فهناك دائماً ما يحتاج لمراسه ودربته ودرايته اللغوية. لقد أمتعني يقيناً ما طالعته.. وأسعدني حدَّ البذخ أن أشرَّف بفضل تقديمه للقارئ الكريم.. قشيباً مهيباً.. أرجو أن ينال الرضى.. فهو حريٌّ بالتقدير والتوقير. والحمد لله الذي تتم به الصالحات.

9 يوليو، 2011م

تقـــــــــــــديم (2)

بقلم: بروفسور عبد الله حمدنا الله

كلية الآداب ــ جامعة إفريقيا العالمية

مقدمة:

الكتابة عن القبائل والأنساب في السودان شغلت بال عددٍ من الكتَّاب السودانيين وغير السودانيين، فكان أن كتبوا بطرائق مختلفة، ولأسباب مختلفة. بعض هؤلاء كان دافعهم التوثيق لقبائلهم، مثل الشيخ عبد الله الخبير في كتابه (أنساب الجعليين)، والشيخ محمد الطيب عمر في كتابه (نسب الحلاوين) وهلمجرا، وبعضهم كتب عن الأنساب دون الاقتصار على قبيلة بعينها، كالشيخ صديق حضرة، والشيخ عثمان حمد الله، والأستاذ الدكتور عون الشريف قاسم في (موسوعة القبائل والأنساب).

ولعلَّ السير هارولد ماكمايكل (H. A. MacMichael) من أوائل الذين كتبوا عن القبائل في السودان من خلال كتابه "قبائل شمال ووسط كردفان" (The Tribes of Northern and Central Kordofan) الذي عرَّبه الأستاذ سيف الدين عبد الحميد، وصدرت طبعته الأولى عن مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي في فبراير 2012م.

المؤلِّف والمعرِّب:

تذكر السيرة الذاتية المصاحبة للكتاب أن السير هارولد ماكمايكل وُلد في أكتوبر 1882م، وتخرج في جامعة كمبردج، وتحصل على الدراسات العليا في التاريخ بدرجة الشرف الأولى، واختير للعمل في السودان عام 1905م، وترقى في العمل الإداري في عدد من مناطق السودان إلى أن أصبح السكرتير الإداري عام 1926م إلى تقاعده عن خدمة حكومة السودان في عام 1934م، وفي هذه الأثناء وضع سياسة الحكومة البريطانية تجاه الجنوب سنة 1930م. عمل بعد تقاعده في عددٍ من المستعمرات البريطانية حيث عُيِّن حاكماً وقائداً في (تنجانيقا) وعمل مندوباً سامياً وقائداً عاماً في فلسطين وفي الأردن ، ومندوباً خاصاً في الملايو، ومندوباً للشؤون الدستورية في مالطا. ألَّف عدداً من الكتب عن السودان، ومن بينها هذا الكتاب، وكان له الفضل في تأسيس مجلة «السودان في

رسائل ومدونات» سنة 1918م. حصل على عددٍ من الأوسمة، توفي في 1969م.

أما الأستاذ سيف الدين عبد الحميد فمن مواليد شمال كردفان، وتخرج في كلية الآداب جامعة الخرطوم عام 1984م، عمل معلماً وإدارياً ثم مترجماً في صحيفتي (الصحافي الدولي) و(الصحافة).

متى ألِّف الكتاب؟

تشير السيرة الذاتية للمؤلف إلى أن الكتاب صدر في عام 1912م، لكن مقدمة المؤلف كانت أكثر تحديداً إذ كُتبت في سبتمبر من ذات العام، ومن الواضح أن تأليف الكتاب استغرق نحو أربع سنوات، حيث نجد في متن الكتاب أو في هوامشه إشارات إلى بعض الوقائع التي كتبها في حينها ترجع إلى عام 1910م أو ما قبلها أو ما بعدها إلى سنة 1912م. ففي هوامش 7 و9 و10 في صـ 116 يتحدث عن عمدة بارا الحالي (1910) وكذلك عمدة الحرازة الحالي، وناظر كاجا وكتول الحالي وجميعهم في 1910م. وفي صـ 238 في هامش 3 يتحدث عن علي التوم ناظر الكبابيش وذكر أن عمره الآن 37 عاماً (أي في هذا العام 1911م). كما أنه في صـ 127 هامش «1» يتحدث عن إرساله عدداً من المذكرات حول لغة الزغاوة وأهل جبل ميدوب إلى مجلة الآنثروبولوجيا الملكية بغرض النشر وربما تظهر في نهاية عام 1912م تقريباً. ويبدو من الإشارة السابقة وبعض المصادر التي اعتمد عليها (صـ 292) أن الكتاب لم يؤلف حسب ترتيبه الموضوعي، إذ لا ارتباط لازم بين فصل وفصل آخر، وأن بعضه نُشر في مجلات قبل نشر الكتاب، أو نُشر بعضه. وإذا كانت سنوات الكتابة تقع بين عامي 1909م ــ 1912، فإن جمع مادة الكتاب بدأ قبل ذلك بسنوات كما تشير بعض المعلومات فيه خاصة الصور الشمسية التي يرجع تاريخها إلى الأعوام بين 1906م ــ 1912م مثل صورة علي الجُلَّة ناظر الحُمُر (العجايرة) سنة 1906م (صـ 189)، وصورة للزيادية 1907م، وصورة السيد علي التوم ناظر الكبابيش عام 1911م (صـ 247) الخ.

المصادر:

اعتمد المؤلف على عددٍ كبير من المصادر أوردها في بيبلوغرافيا في آخر الكتاب، وهي تتراوح بين الكتب والمخطوطات والتقارير والمجلات والموسوعات، وبعض تلك المصادر

لمؤلفين عرب قدماء أمثال السيوطي، وأبو الفداء، وابن بطوطة وابن خلدون، وبعضها لكتَّاب محدثين أمثال التونسي ونعوم شقير، وبعض المصادر التي اعتمد عليها كُتبت باللغات الأوربية (اللاتينية، الإنجليزية والفرنسية). على أن الرافد الكبير الذي استقى منه مادته كان الرواية الشفهية، فمعظم ما جاء في الكتاب استمده من أهل القبائل التي كتب عنها، ويبدو أنه كان أميناً في نقل المعلومة وإن خانه التوفيق في مواضع كثيرة في استيعاب المعلومة أو في الاستنتاج الصائب. إلى جانب ذلك كانت تجربته المباشرة مصدراً من مصادر الكتاب، حيث عمل إدارياً في كردفان، واتصل بأهلها، وخبر قبائلها وطبيعة سكانها.

هيكل الكتاب:

بعد صورة المؤلف، والمحتويات، وقائمة الصور التوضيحية، وتقديم أ. د. عمر شاع الدين في كلية الآداب ـــ جامعة إفريقيا العالمية، ومقدمة المترجم ومقدمة المؤلف، جاء الكتاب في تسعة عشر فصلاً، وخمسة ملاحق، وقائمة المراجع (البيبلوغرافيا). باستثناء الفصل الأول الذي تحدث فيه عن التاريخ العام لكردفان، فإن بقية الفصول تتحدث عن قبائل كردفان، إما عن الحديث عن قبيلة واحدة في الفصل الواحد، أو قبيلتين فأكثر في الفصل. كما احتوى الكتاب أيضاً على صور لبعض زعماء القبائل، أو لأفراد من عامة أفراد القبائل، أو صور لنقوش أثرية عُثر عليها.

منهج الكتاب:

يذكر الكاتب أن هدفه (منهجه) وصفي فيما يتصل بأسلاف القبائل التي تسكن كردفان، مع حذف الأوصاف الدقيقة للناس والأماكن، وتفادي النقاش في المسائل الحالية (وقت تأليف الكتاب) سواءً أكانت سياسية أو تجارية، وإلى جانب المنهج الوصفي اتبع الكاتب منهجاً تتبعياً يستقصي به القبائل منذ نشأتها وتطورها التاريخي، وأنسابها، وبطونها وأفخاذها، دون أن يغفل علم الأجناس، وتأثير البيئة والامتزاج العرقي على الأشكال وطبيعة الحياة، وتنوعها على الأحزمة الطبيعية التي تتكون منها كردفان.

القبائل:

تحدث المؤلف عن أكثر من ثلاثين قبيلة من قبائل كردفان، وبصفة خاصة تلك التي تقطن المنطقة الشمالية والمنطقة الوسطى، أما المنطقة الجنوبية التي يسكنها النوبة في الجبال فإن المؤلف لا يتحدث عنهم لسببين ذكرهما، أولهما أن المنطقة رغم أنها تعتبر جزءاً من المديرية لأسباب إدارية إلا أنها تتميز تمييزاً كاملاً بحيث إن كلمة (كردفان) لا تشملها عند الأهالي، وثانيهما أن معرفته بهذه الدار وبمواطنيها قليلة جداً إلا عن بُعد. وأيضاً لم يتحدث عن الدناقلة الذين تستقر أعدادٌ كبيرة منهم في كردفان لسببين أيضاً أولهما: أن الأجدر بتاريخهم أن يوصف في عمل محدد حول قدامى شعوب وادي النيل، وثانيهما أن ليس ثمة قدرٌ كبير من المعلومات المتعلقة بالدناقلة متاحة في أدب المائة عام الماضية. يكاد القارئ للكتاب يصل إلى نتيجة مؤداها أن كردفان كانت موضع جذب سكاني أكثر من كونها موضع طرد، فأكثر القبائل التي تحدث عنها امتدادٌ لقبائل وفدت من خارجها أكثر من أن تكون هي جذراً لتلك القبائل، ويبدو أن النزوح إلى كردفان جاء من اتجاهاتٍ شتى، ومن مختلف الطرق، فالزغاوة والمسبعات وبعض قبائل البقارة نزحت من دارفور وما خلفها، والبديرية جاءوا من الشمال، والمجانين والكواهلة والشنابلة جاءوا من الوسط أو من الشرق، بل إن بعضهم مختلفٌ في مكان نزوحه مثل قبيلة الداجو، وبعضهم من جنوب النيل الأزرق مثل قبيلة الغديات التي يراها متفرعة من الفونج. ثم هو في حديثه عن القبائل يطيل أحياناً فيبلغ عشرات الصفحات، مثل حديثه عن قبيلة الكبابيش، ويقصر أحياناً بحيث لا يتجاوز الصفحة الواحدة إلا قليلاً مثل حديثه عن الداجو، أو الغديات، أو البرقد، أو التمام، أو التمباب. وهذا الطول أو القصر ليس خاضعاً لضعف القبيلة أو لقلة أفرادها أو عدم ثراء تاريخها فحسب، بل هو راجع في الغالب لتعاطف المؤلف مع بعض القبائل لمناصبتها المهدية العداء مثل قبيلة الكبابيش، أو لتعاون القبيلة مع الحكم القائم والمؤلف من إدارييه في كردفان، لكن بصورة عامة فإن المؤلف قد جمع كثيراً من المعلومات القيمة والمفيدة خاصة من المصادر الشفهية، ولولاه لاندثرت تلك المعلومات.

التاريخ والبيئة:

اتبع المؤلف نهجاً قلَّ أن يحيد عنه إذا توفرت لديه المادة المناسبة، فهو يتحدث عن القبيلة متناولاً أصلها وجذرها والروايات المختلفة حول ذلك الأصل، ويحاول ما استطاع أن يستوعب تلك الروايات سواءً أكانت شفهية أو مكتوبة، وكثيراً ما يرجح رواية على أخرى وإن خانه التوفيق في بعض الترجيحات. ثم بعد أن يفرغ من الحديث عن أصل القبيلة يتحدث عن موطنها وتنقلها في البقاع المختلفة، ثم يذكر بعضاً من تاريخها وعلاقتها بالقبائل الأخرى من حولها، وقد يصدر حكماً قاسياً على قبيلة فيقول مثلاً إنها (وضيعة) أو إنها (مهلهلة الارتباط). ثم يتحدث عن سلسلة أنسابها وبطونها وأفخاذها، وينتهي إلى حاضرها، وقد يتحدث عن بعض شيوخها ويلحق ذلك بصورة لذلك الشيخ، كالشيخ أحمد عبد القادر الإعيسر ناظر الكواهلة (1911م) أو صورة عُمد المجانين والجليدات والهبابين والنواهية والجوامعة والجلابة الهوارة. ولا ينسى أن يتحدث عن بطون وأفخاذ القبيلة، فهو حين يتحدث عن قبيلة الحوازمة مثلاً يذكر أنها تتكون من تشكيلة قبلية مركبة، وتنقسم القبيلة إلى ثلاثة فروع رئيسية، وتنقسم أيٌّ منها مرة أخرى إلى فروع أصغر، ويورد قائمة تحوي الفروع الثلاثة من أقسامها الأصغر، ويتحدث عن الفرع الأصيل من القبيلة والفروع الغريبة الزائدة لاحقاً، بل نجده يشكك في صحة نسب فرع الشيخ الأصيل وينسبه إلى التكارير وليس إلى العرب. وبجانب التاريخ يتحدث عن البيئة، خاصة دار القبيلة، والآبار التي هي موضع نزاع بين القبائل، فهو حين يتحدث عن الجبال البحرية أو جبل الميدوب، يحدد الموضع والقبائل التي تجاور الموضع، فجبل الميدوب يحده من الشرق عرب الكبابيش، ومن الشمال الزغاوة، وبرتي دارفور من ناحية الغرب والجنوب، ويذكر الاسم العربي والمحلي للجبل، ثم يتحدث عن القرى والزراعة والرعي والثروة المعدنية إن وُجدت، والنزاع حول أماكن الشرب كالنزاع الذي كان بين الزغاوة وأولاد قوي أو الذي كان بين الزغاوة والكبابيش، وقد يلجأ أحياناً إلى التفسير العلمي أو المنطقي للظواهر الطبيعية في البيئة، خاصة فيما يتصل بالمياه والآبار، فهو يتحدث عن نضوب الماء في بعض مناطق شمال كردفان فيقول «الحقيقة المعترف بها هي أن مستوى الماء في شرشار أدنى كثيراً مما كان عليه في وقتٍ متأخرٍ جداً كما كان في أيام المهدي، يقول دو لوتور:

«على أية حال أراني افترض أن هذه التغيرات في المستوى والطبيعة تُعزى إلى فعل التيارات التحتية العنيفة التي تتحرك على انحداراتٍ حادة وتعمل على تغيير الطبقات التي تمر بها، كما تعمل في كل لحظة على تمهيد المسارات الجديدة خاصة الترسبات المحلية التي تُبدي مقاومة قليلة أمام فعلها القوي».

الأنساب:

اهتم المؤلف بالأنساب وإلى تفرع القبيلة إلى بطون وأفخاذ، وعلاقات القبائل بعضها بعضاً من حيث الأصل الواحد أو الأصول المتقاربة، وهو في ذلك يعتمد على الرواية الشفهية، وفي حال عدم وجود تلك الروايات يلجأ إلى الاستنتاج العقلي من حيث التشابه في الأشكال والأحجام، أو اللفظ ونمط الحياة وأحياناً يعتمد على الآثار وتفسيرها بما يتوافق مع معتقده. وإذا كان المؤلف قد وُفِّق في الاحتفاظ بروايات البطون والأفخاذ حسبما رُويت له فإن حديثه عن أصول القبائل لا يخلو أن يكون محكوماً بعاملَيْن هما: إنكار عروبة كثير من القبائل، أو قلة الدم العربي في بعضها الآخر، وانتحال أكثر القبائل لنسب يقيمه الرواة الوضاعون بغرض إلحاق القبيلة بدمٍ عربي، وقد تؤجِّر القبيلة من ينحلها ذلك النسب. ومن ثم تشيع عبارات في الكتاب مثل (نسبهم المزعوم) أو تقول جازماً (لا شك أنه اخترع النسب ببساطة باعتباره رمزاً سلفياً ملائماً يهدف لإثبات الوحدة العنصرية للقبيلة) وقد يلجأ إلى التصريح الجارح حين يقول عن قبيلة (لم يكن لديهم نسب ولكنهم كانوا يفكرون في إيجار فكي يخترع لهم نسباً مقابل 60 قرشاً). وإذا كان لشكوك ماكمايكل ما يبررها حين يجد أن أكثر قبائل كردفان تذهب إلى النسب الجهني والانتماء لأبي زيد الهلالي مع اختلاق أو تزيُّد في قصة أبي زيد الهلالي فإن التوسع في الشك وإنكار وجوده مطلقاً يحتاج إلى جهدٍ إضافي أكثر مما ذهب إليه المؤلف، إذ القياس يقتضي وجود أصل زيد فيه بدلاً من وضع شيء من لا شيء. أذكر أن صديقنا السفير خالد فرح كتب بحثاً ذهب فيه إلى أن التغريبة الهلالية في أصلها تغريبة سودانية المنشأ مما يشير إلى وجود الهلاليين في غرب السودان عامة (كنت أود أن انظر في هذا الموضوع من خلال كتاب «هجرة الهلاليين» للأستاذ إبراهيم إسحاق). ثم إذا هو اعترف بنسب القبيلة العربي نجده يحط من شأنها حتى لو كان لها شأنها بين القبائل السودانية، فهو يصف أكثر من قبيلة بأنها وضيعة النسب أو أنها مهلهلة الارتباط من حيث النسب.

الآثار:

يلتفت المؤلف إلى بعض الآثار الموجودة في بعض المناطق، ويحاول أن يستنطقها تاريخياً ليكتشف من خلالها العناصر السكانية التي ربما تكون قد سكنت المنطقة، أو يحاول ربطها بما يماثلها في بعض المناطق الأخرى ليصل إلى ذات الافتراض. فهو يقول إنه (توجد في الحرازة وأم درق وأبوحديد ـــ ولا توجد في كاجا وكتول ـــ حلقات عديدة من حجارة الجرانيت والفلسايت والحجر الرملي وحليٌ مخروطية مجوفة أو أدوات « لم يخبرني أحد عن استخدامها» حيث وُجدت في مواقع المستوطنات القديمة، وعُلِّقت في الأكواخ تحفاً وتمائم ويُطلقون عليها بلا تمييز "حجر أبوقنعان" أو آثار العنج). ويربط هذا بحجارة مشابهة اكتشفت في "جزيرة مروي" ويفترض من ذلك أنه بما أن هذه الحجارة لا توجد في كاجا وكتول فمن المفترض أن تكون من عمل أناسٍ استقروا في الحرازة وأبوحديد وأم درق لكنهم لم يستقروا في كاجا وكتول، كما يشير شكل الحجارة وصنعتها إلى التأثيرات الشمالية المصرية لا إلى التأثيرات الجنوبية والزنجية. وتبدو هذه الآثار أيضاً في الصناعات الجديدة القديمة على جبل الحرازة، أما الأشياء التي وُجدت في مكبات القمامة بالفرجاب فيربطها بخرز بيض النعام الذي اكتشف في ما يسمى بمقابر الناقوسية بمصر والتي تعتبر الآن ملكاً لليبيين.

الفلكلور:

لاحظ الدكتور عمر شاع الدين عند تقديمه للكتاب ثراءه بالمادة الفلكلورية ولا مشاحة في ذلك، لأن اعتماده على الرواية الشفهية المتناقلة منذ حقب وأجيال يجعل كثيراً من تلك الروايات مجهولة القائل، وهذا التراث الشفهي من صميم الفلكلور. والواقع أن المادة الفلكلورية في الكتاب تتجاوز مجرد الرواية الشفهية إلى محمولها من عادات وتقاليد ومعتقدات مشوبة أحياناً بالخرافة ونحو ذلك من طرائق الحياة لتلك المجتمعات البدوية. وقد فطن ماكمايكل إلى ارتباك بعض الروايات في تفسير بعض الظواهر، ومع أنه أورد تلك الروايات إلا أنه نبه إلى ارتباكها وتعقيدها، ففي قصة حيازة نحاس دار حامد ولمن يؤول، يذكر أنه من الواضح أن حق الحيازة لم يكن وراثياً من ناحية عملية ولكنه يؤول إلى الزعيم الأقوى في الحلف القبلي، ومع إيراده لقصة تسلسل النحاس نجده يذكر أنها قصة معقدة ومرتبكة، أي أنها لا

تعدو أن تكون قصة فلكلورية لا أكثر. وعند حديثه عن العادات، نجده يفطن أيضاً إلى غرابة بعضها، وينبه على ذلك، فقد أورد عادة في كاجا وصفها بالغرابة وأنها جديرة بالملاحظة، وذكر أنها (عادة غير عربية ولكنها لا يمكن أن تقال إلى أي عنصر من السكان يمكن نسبتها بصورة أخص، وهي أنه في وقت درس الذرة تكون هناك رغبة عامة في هبوبٍ كافية لتذروَ العصافة « القشور» من الذرة، ومن المألوف أن تثار الهبوب بالطريقة التالية: أن يأخذ أحد التوأمين ـــ ذكراً كان أم أنثى ـــ عصاً ينقب بها في أجحار فئران المزرعة، إذ من الواضح أن الفكرة هي أن الهبوب المحملة بالرمل تتخذ موطنها داخل هذه الأجحار وربما تضايق هذه الهبوب أو تترك حرة طليقة، وبعد أن يفعل التوأم ذلك يتحرك إلى كوم قمامة القرية ويضرب عليه بعصاً حتى تكون هناك كمية كثيرة من الرماد المسحوق ومن ثم يقذف بحفناتٍ منه في الهواء في إيماءةٍ إلى الهبوب لكي تأتي وتدور به بعيداً. وهناك خطة ثانية أيضاً يتبنونها لذات الهدف هدف إثارة الهبوب وهي أن يُؤتى بدجاجة حية وتُغطس في الماء ومن ثم تُطلق، إذ يعتبر احتمالاً أن عمليات الهز الاهتياجي للدجاجة على فكرة تخفيف ريشها يغري الريح بالهبوب). من الواضح أن ماكمايكل يحاول ما استطاع أن يجمع كل العادات المتصلة بالظاهرة مع محاولة التفسير المنطقي أو العملي لها.

رؤية نقدية:

أحسن المؤلف حين وثَّق في وقتٍ مبكر نسبياً الروايات الشفهية للحياة السودانية في شمال ووسط كردفان من حيث القبائل وأنسابها وحيواتها، ومن أفواهٍ ربما عاصرت تلك الأحداث، ولولا ذلك التوثيق لفقدنا تراثاً عزيزاً كنا غافلين عنه. وأحسن أيضاً بالاحتفاظ بصور لشخصيات من زعماء القبائل أو عامة الناس، مع بعض الصور لأماكن أثرية لم ينتبه إليها أحد، بل لم يكن من يدرك أهميتها في ذلك الوقت. لكل ذلك يُعدُّ الكتاب مرجعاً مهماً في دراسة القبائل والأنساب، بل في دراسة الحياة السودانية خلال حقبٍ من الزمان، وزاده ثراءً الاستنتاجات والمقارنات والتعليقات والهوامش التي حفُل بها رغم رأينا في بعضها وفي دوافعها، لكن ذلك لا يقلل من قيمته بل لا يمكن لباحث في فروع المعرفة التي حفل بها الكتاب أن يستغني عنه غير أن المؤلف لم يكن مخلصاً في الالتزام بالتجرد العلمي المطلوب، بل كان محكوماً بالنظرة الاستعمارية

وبموقعه الإداري في كردفان، ويبدو ذلك جلياً في حديثه عن تاريخ السودان، وخاصة فترة الحكم التركي وفترة المهدية، وآرائه حول المهدي والخليفة والأنصار، وهي ذات الآراء الاستعمارية التي اجتهدت في تشويه تلك الحقبة الوطنية بكل طريق، وتبدو تلك النظرة أيضاً في حديثه عن الدين الإسلامي ووصفه بالدين المحمدي. كما تبدو تلك النظرة من خلال تعاطفه مع القبائل التي كانت مدابرة للمهدية ومتعاونة مع الحكم الثنائي، وفي ذات الوقت الحط من شأن القبائل التي أيدت المهدي ودابرت الحكم الثنائي، وقد فطن الدكتور عمر شاع الدين لهذا الانحياز الاستعماري حين قال (وهنا يخامرك الشك أنه يكيد كيداً بأقواله تلك مترصداً السياسة المصرية)، ويقول في موضع آخر معلقاً على إسهاب المؤلف في حديثه عن قبيلة الكبابيش وتلطفه في الحديث عن الشيخ علي التوم فيقول (وأنت تدهش بقدر الاعتبار الذي أفرده لهم، ثم حديثه عنهم بإسهاب يبلغ إلى حد الحيرة والالتذاذ! هذا يتيح أن قولنا ربما يجد تبريراً بمواقف القبيلة التي ناصبت المهدية العداء، بل ذهبت موالية للحكومة). وتبدو الغطرسة الاستعمارية مداها حين أغفل قصة عبد الله ود جاد الله ناظر الكواهلة الذي عُرف بكسَّار قلم مكميك معه سنة 1910م، وهي قصة صارت بها الألسنة، ولكن ماكمايكل أغفلها تماماً سوى هامش وحيد تحدث فيه عن فصل عبد الله ود جاد الله من نظارة القبيلة، وتعيين أحمد عبد القادر الإعيسر بدلاً عنه، ولا نعتقد مع سيف الدين عبد الحميد في أن الإمساك عن ذكره قد يعود إلى التواضع أو الخجل أو البرود الإنجليزي أو من قبيل عفا الله عما سلف، بل نعتقد جازمين أنه يعود إلى الغطرسة الاستعمارية التي تضن على هذا البدوي الجلف شرف صفع مفتش إنجليزي، بل إن الاستكبار ذهب إلى إنكار وجود أرض للكواهلة في كردفان، فالأرض مملوكة للكبابيش وللكواهلة حق الانتفاع بالرعي. مما يؤخذ على ماكمايكل أنه أحياناً يثق بالمعلومة دون التحقق من صحتها، وقد مضى عليها حكماً، من ذلك قوله إن قبيلة اللحويين كانوا يُعتبرون كبابيش حتى عام 1910م، والذي يسوقه اللحويون أنهم فرع من قبيلة رفاعة، ثم هو لا يستبعد أن يكون العوايدة الذين هم بطن من بطون الكبابيش، لا يستبعد أن يكون هؤلاء فرع من قبيلة رفاعة انضم إلى الكبابيش، ولكن عند الرجوع إلى نسب رفاعة كما هو ثابت في (نسب الحلاوين) و(نسب العسيلات) ـــ وهما من بطون رفاعة ـــ لم

نجد العوايدة فرعاً من تلك القبيلة.

مهما يكن فقد أحسن ماكمايكل للدراسات السودانية بهذا السِّفر القيِّم وهو جهدٌ يضاف إلى جهوده الأخرى في الدراسات السودانية، كما أحسن سيف الدين عبد الحميد الذي وُفِّق في ترجمته، وهو توفيقٌ يضاف إلى توفيقه في ترجمة كتاب إدوارد عطية (عربي يحكي قصته).

مقدمة المترجم

وَقَعَ اسم ماكمايكل على مسمعي أول ما وقع بلقبه المحرَّف «مِكْميك» وهو تحريفٌ برع فيه الكردفانيون ـــ إن كان في التحريف براعة ـــ وذلك لصعوبة نطق الاسم الإفرنجي، لذا يلجأ عامة الناس وبدون وعيٍ منهم إلى ترويض الاسم بنفض حروفه نفضاً حتى يصبح بواسطة هذه الصناعة أقرب إلى مفرداتهم المألوفة وأشبه بها: و«المِكْميك» لغة محلية من «المَكْمَك» وما «المَكْمَك» عند مُزارعي كردفان إلا نوعٌ من المعازق الصغيرة (الحشَّاش) التي تنظف بها الزراعة من الأعشاب الطفيلية. وكما وقع التحريف على اسم ماكمايكل فقد وقع على اسم سلفه النمساوي سلاتين باشا الذي أصبح سلاطين باشا عند الصفوة وأمسى «سِليطين» ـــ مصغراً ـــ عند العامة، وهو جمعٌ لكلمة «سلطان» وتصغيرٌ لها. أقول إن اسم «مِكْمِيك» اشتهر بين أهل كردفان بسبب الحادثة المشهورة التي وقعت بينه وبين زعيم قبيلة الكواهلة السابق عبد الله ود جاد الله الذي تقول الرواية إنه قام بكسر قلم المفتش ماكمايكل إثر شجارٍ وقع بينهما فاشتهر عبد الله ود جاد الله بـ«كسَّار قلم مِكْميك» وربما أتت كلمة «كسّار» هنا بصيغة المبالغة لهول الموقف أو لأن قلم المسؤول الإنجليزي أقوى من أن يُكسر، وكان في ذلك تحدٍّ عظيم لرمز الإدارة الاستعمارية القابضة، فكانت النتيجة فصل الناظر عبد الله ود جاد الله من النظارة في عام 1910م وتعيين أحمد عبد القادر الإعيسر بدلاً عنه. ومن الغريب أن المفتش ماكمايكل لم يُشر إلى هذه الحادثة عندما تطرق إلى الحديث عن قبيلة الكواهلة إلا في الجزئية المتعلقة بفصل ود جاد الله وتعيين ود الإعيسر وهي جزئيةٌ ضنَّ بها المؤلف على متن الفصل السادس عشر فأودعها هوامشه، ولا أدري إن كان الإمساكُ عن ذكر هذه الحادثة من جانب ماكمايكل تواضعاً أم خجلاً أم بروداً إنجليزياً أم من قبيل عفا الله عما سلف أو كما يقول التعبير الإنجليزي let bygones be bygones[1].

انضم هارولد الفريد ماكمايكل (1882م ـــ 1969م) إلى خدمة حكومة السودان

1 استقيت من أحد المصادر التي لها علاقة مصاهرة بالناظر عبد ود جاد الله أن المذكور لم يقم بكسر قلم ماكمايكل حقيقةً، ولكنه كان يتجاهل أوامره ولا ينفذها، ومن هنا جاءت تسمِية " كسَّار قلم مكميك".

عام 1905م حيث عُيِّن مفتشاً لمديرية كردفان أولاً ثم مديرية النيل الأزرق ثم الخرطوم، كما عمل ضابطاً في استخبارات الحملة التي أعادت فتح دارفور عام 1916م، ومن بعدُ ترقى في المناصب الإدارية حتى بلغ منصب السكرتير الإداري الذي عمل فيه لمدة سبع سنوات من عام 1926م إلى عام 1933م. ومن أهم مؤلفاته كتاب (السودان) و(تاريخ العرب في السودان) و(قبائل شمال ووسط كردفان) الذي هو بين يدي القارئ ومؤلفات أخرى. وشرعتُ في الترجمة في آخر مارس 2011م وفرغتُ منها في آخر مايو 2011م، ولدى مثول هذه النسخة العربية للطبع تكون قد مضت على نشر الطبعة الإنجليزية الأولى (1912م) مائة عام تقريباً وعلى نشر الطبعة الإنجليزية الثانية (1967م) خمسة وأربعون عاماً. وقد تحريتُ ــ شأنَ الناقل الأمين ــ ترجمة مادة المؤلف وقعَ الحافر على الحافر فمَنْ رأى كُفراً فناقلُ الكفر ليس بكافر. ولما كان المؤلف نفسه يشكو من عسر تهجئة أسماء فروع القبائل التي كثيراً ما تساء تهجئتها ــ أو كما قال في مقدمته ــ أراني أشكو أنا من نقله السَّماعي الذي لا يلتزم فيه أحياناً بمنهجه الذي اتبعه لتمييز الحرف اللاتيني الذي يشترك في كتابته حرفان عربيَّان يختلفان في النُّطق، فمثلاً حرفا الدال والضاد العربيَّان يشتركان في الحرف اللاتيني «D» فإذا كان نُطق الحرف دالاً تركه على حاله وإذا كان ضاداً تجده يضع نقطة تحت الحرف، وكذلك الهاء والحاء اللذان يشتركان في الحرف «H»، فإذا كان نُطق الحرف هاءً تركه على حاله وإذا كان حاءً يضع نقطة تحت الحرف وهكذا مع السين والصاد ومع الجيم والقاف. وهو أسلوبٌ منهجيٌّ جميل لكنه لا يتقيد به دائماً، فمثلاً في كلمة (نصب الحُصان) Nisab el Husan وهو اسم جبل يقع في بادية الهواوير تجد المؤلف يضع نقطة تحت حرف الـ«S» في كلمة «الحُصان» لتنطق صاداً ولكنه يهملها ــ عمداً أو سهواً ــ في كلمة «نصب» مما يخلق خلطاً في احتمال أن تنطق «نِسب». ومما دعاني اضطراراً إلى العزوف عن ترجمة الكلمة الإنجليزية river بمعناها الحرفي «النهر» إلى وضع كلمة «البَحَر» بدلاً عنها هو قربُ كلمة «البَحَر» إلى الوجدان الشعبي العام خاصة لدى أهل كردفان، وذلك حيثما كان استخدام كلمة «البَحَر» ضرورياً، فتجدني مثلاً أترجم في الفصل الرابع النصَّ الآتي: (أما الشويحات عموماً فيزعمون أنهم منتسبون إلى البديرية انتساباً وثيقاً بيد أنهم غير خاضعين لهم،

وأن النسبة المذكورة أعلاه تؤكد بالأحرى رأيهم، كما أن جبل شويح الصغير في العَقَبَة الواقعة بين الهشابة والبَحَر تمت تسميته عليهم). شيءٌ آخر وهو اختلاف القصة الواردة في القرآن الكريم عن القصة الواردة في العهد القديم The Old Testament فعندما يتحدث ماكمايكل عن البدو والبداوة في بداية الفصل الخامس عشر تجده يقول «إن حياة البدوي ظلت تتغير تغيُّراً طفيفاً منذ الأيام التي سقى فيها يعقوب أغنام لابان في مدينة حاران»، فهنا وضع يعقوب في مقابل (موسى) وأغنام لابان في مقابل (أغنام بنتيْ شعيب) ومدينة حاران في مقابل (مَدْيَن) ولكنني آثرتُ التقيد بروايته المأخوذة من العهد القديم. وهناك خطأٌ غريب ورد في «الفصل الحادي عشر» حيث نقله ماكمايكل من «نسبة دنقلا» وهو يتحدث عن الأسود العنسي «ذي الخمار» إذ ورد في النص الإنجليزي «سيد الحمار»،ويبدو أن نقطة «الخاء» في كلمة «الخمار » سقطت في المصدر «نسبة دنقلا» فأصبحت «الحمار» فالتقطها ماكمايكل المسكين كما هي وهو يتحدث عن أصل المسيرية الحُمُر، يقول:

Before leaving the Humr it is amusing to note that the «Dongola nisba» remarks of their origin, « they are descended from the master of the Ass, El Aswad the Liar, the False Prophet who appeared in Yemen, of the tribe of 'Ans, whose name was Aihala».

استوقفني حديث ماكمايكل عن حملة الدفتردار التركية وعن الحكام الأتراك في كردفان والظلم الذي ألحقوه بالأهالي وكأنَّ ماكمايكل كان شاهداً من أهلنا!!! لا أزعم أن الرجل غالى واشتطَّ في الحديث ولكنه قَصَدَ أن يقول لنا بطريقةٍ إيحائية إن ذا القرنين الإنجليزي الذي أوتيَ من كل شيءٍ سببا أتى لإنقاذ السودان من يأجوج التركي الذي كان مُفسداً في الأرض وأن ذا القرنين الجديد لن يكلفكم أن تؤتوه بزبر الحديد وهو الذي أتى يُجرجرُ أذيال الحديد. وهنا استميح القارئ عذراً لإيراد المثل العربي السائر بالدارجة السودانية «الجمل ما بشوف عَوَجَة رقبته»، وهو مثلٌ ينطبق على حالة ماكمايكل الذي لا يرى في نفسه ما يرى في الآخرين. بقي أن نقول إنصافاً لماكمايكل الباحث المؤرخ إنه لم يدَّخر جهداً في تتبع المعلومة واستقصائها سواءً أكان من المصادر والمراجع المختلفة أو من خلال المشافهة المباشرة من الأهالي أو من خلال

ملاحظاته الشخصية، ولا غرو فقد أَوْدَعَ تسعين مرجعاً متنوعاً من المراجع الأوربية والعربية والأهلية وغيرها في قائمة المراجع (البيبلوغرافيا) داخل هذا الكتاب مما يدل على قدرة الرجل على الاطلاع الدائب بجانب مهامه الإدارية والسياسية الراكزة. ولكن يبقى التساؤل قائماً حول هذه المعلومات الشفاهية التي استقاها ماكمايكل كفاحاً من الأهالي ومدى صدق حجيتها، إذ لو كان المصدرُ الأهلي المستقى منه المعلومة المتعلقة بقبيلةٍ ما هو القبيلة ذاتها أو الفرع أو العشيرة فإنها ستنجرف وراء التيار العاطفي مما يفقدها مصداقيتها في كثيرٍ من الأحيان، أما إذا كان المصدرُ هو جهة أخرى فإن المعلومة نادراً ما تخلو من الغرض والتزييف.

ومما يؤخذ على النص الإنجليزي كتابة الاسم (العَلَم) أحياناً بطريقةٍ مفارقة لا تمتُّ إلى الاسم الحقيقي بصلة، وخير مثال لذلك: أم دُخُن Um Dufun، أم ختارش Um el Hatasha، محفورة Mafura، الكَربكان Kurban، جرْجور Kurkur وغيرها. ومع ذلك نلتمس العذر لماكمايكل ونظرائه من المؤرخين الأجانب الذين أخجلوا تواضعنا المعرفي وفضحوا جهلنا بالتدوين والتوثيق إذ لم نعثر نحنُ الخارجين من ظُلُمات السلطنة الزرقاء على أثرٍ لتاريخنا المحلي إلا في الأحاجي والمشافهات والملاحظات التي كان زبدتها كتاب الطبقات ومخطوطة كاتب الشُّونة.

سيف الدين

الخرطوم ـــ يونيو 2011م

مقدمــــــــة

لا يزعم هذا الكتاب إعطاء تقرير كامل عن كردفان بل لا يمكن القول إن المواد المؤلَّف منها تعكس المتانة التي تعتبر شرطاً أساسياً لعملٍ تاريخيٍّ علمي. كان هدفي أن أصف ــ مهما كانت النتيجة ناقصة ــ أسلاف القبائل التي تقطن حالياً المديرية بقدرما يمكن الحصول على أية معلومات حول الموضوع من المصادر الأجنبية أو من الروايات الأهلية الحالية. وفي ذات الوقت الذي أعمل فيه على حذف الأوصاف الدقيقة للناس والأماكن وأتفادى نقاش المسائل الحالية سواءً أكانت مسائل سياسية أو تجارية، وجدت من المستحسن إقرار استثناءاتٍ عَرَضيَّة حيث أن التقييد غير الضروري في مجال هذا العمل يمكن له أن يضعف فهم ظروف الماضي والروابط التي تربطه بالحاضر. وبقدرما يهدف هذا العمل إلى التعامل مع علم التطور البشري Anthropology يجب عليَّ أن اتذرع بالاعتذار لنقائصه المختلفة ذلك أنني مجرد مبتدئ لم يتسلح بمعرفة الخبير في علم التطور البشري أياً كان. وعلى أية حال إن هناك حقيقة واحدة ذات طابعٍ عرقي تعتبر مؤكدة وهي ذات أهمية أساسية لأخذها في البال بحكم أنها تنطبق بدرجاتٍ مختلفة على أية قبيلةٍ في البلاد: ذلك أن التناسل من النساء المسترقات اللواتي أُسرن من كثيرٍ من القبائل السوداء في الجنوب والغرب بات لعدة قرون يؤثر على الملامح العنصرية لما يُسمَّوْن بالعرب ويؤثر على وضعهم بدرجةٍ ملحوظة. فكثيرٌ من السكان المقيمين وكثيرٌ من البقارة يمكن أن يوصفوا بأنهم زنوج من حيث المظهر، ولكن البدو الأبَّالة ظلوا يحتفظون بأكبر قدرٍ من نقاء الصورة.

أما جنوب كردفان ("دار النوبة") فرغم أنها تعتبر الآن جزءاً من المديرية لأسباب إدارية إلا أنها لكل الأغراض والأهداف تتميز عنها تمييزاً كاملاً بحيث أن كلمة "كردفان" لا تشملها عند الأهالي. إن معرفتي بهذه الدار وبمواطنيها قليلة جداً إلا عن بعد، ولقد ذكرت النوبة من قبيل الصدفة فقط وبقدرما ظلت قضاياهم تؤثر على مجرى الأحداث في كردفان الأصلية. ولذات الأسباب ذكرت القليل عن السكان القاطنين على البَحَر في مديرية النيل الأبيض. ولم يخصص فصلٌ منفصل للدناقلة

الذين تستقر أعدادٌ كبيرة منهم في كردفان رغم كثرة الإشارات إليهم، فتاريخهم أجدر بأن يوصف في عملٍ محدد حول قدامى شعوب وادي النيل، وفي الواقع ليس ثمة قدر كبير من المعلومات المتعلقة بالدناقلة متاحة في أدب المائة عام الماضية. ويكفي أن نقول إن ما تحتاج إليه كردفان فيما يتعلق بالشئون الحالية هو زيادة في السكان من محترفي الزراعة والصناعة، فعائداتها تفوق إنفاقها بقدرٍ كبير وبشكلٍ دائم وذلك بفضل ثروة غابات الهشاب الكثيفة التي تنقصها التنمية إلى حدٍّ كبير. ففي الوقت الحالي نجد مديريات السودان الإنجليزي/ المصري ذات الإنتاج الأقل أو الإنفاق الأكبر تزدرد الفائض الذي توفره كردفان، ولكن عندما تصبح تلك المديريات معتمدة اعتماداً ذاتياً على نفسها ستكون كردفان مؤهلة لأن تنفق بسخاءٍ جمٍّ على احتياجاتها الخاصة من الأموال التي توفرها. إن موارد كردفان الطبيعية ليست سهلة رغم أنها لا تروى بالأنهار، فالماشية والأغنام الموجودة بأعدادٍ كبيرة يمكن تربيتها كما يمكن زيادة عدد الآبار وإصلاحها، ويمكن زراعة المساحات الواسعة بالقمح والسمسم والفول السوداني والسنمكة ومنتجات مماثلة. والتجارة في ريش النعام ــــ وهي توجد أصلاً بحجم كبير ــــ لن تكون آفاقها ضيقة إذا نُظمت تنظيماً كافياً وأديرت تحت إدارة ذات خبرة، كما يمكن تطوير غابات الصمغ تطويراً غير محدود. وحتى اليوم ظلت تكلفة النقل إلى النهر تمثل عقبة كؤوداً ولكن خط السكة حديد قد وصل إلى الأبيض في شهر يناير 1912م وكانت نتيجة تغير الأحوال بائنة سلفاً. إن القارئ ربما يشكو من أن الكتاب قد أعطى أهمية غير مطلوبة للأنساب الأهلية أو قائمة الأنساب لأنها باعتراف الجميع غير دقيقة وغامضة ومتضاربة، ولكن كما يقول إسكيارك دولوتور (إن علم أنساب الزعماء العرب غير مطلوب دائماً بهذا النظام العجيب والدقة النادرة التي تميز الأنساب الألمانية). من ناحية أخرى فإن القبائل المعنية تعتبر هذه الأنساب شيئاً قيِّماً ولكن التصديق بها لم يكن في مكانه وله أثره الكبير على الشئون المتداخلة بين القبائل. وعلاوة على ذلك ومهما كانت تفاصيلها غير دقيقة لكن بصيصاً من الحقيقة يظهر هنا وهناك ولا يمكن تجاهله من جانب امرئٍ يحاول إيجاد ضوءٍ خافت داخل الظلام السادل.

ربما تُلاحظ نقطةٌ في هذا الصدد وهي أن الكبابيش ودار حامد وحَمَر وقبائل أخرى

كثيرة من قبائل شمال ووسط كردفان يدَّعون نسباً نهائياً ينحدر من عبد الله الجهني الذي ينتمي لقبيلة جهينة. ولكن ليس هناك تفاصيل واضحة لحياة عبد الله الجهني وعصره، وفي الحقيقة أن "الفُكَيا" يجهلون الأصل القحطاني لقبيلة جهينة وينسبون إليه عموماً سلالةً من عدنان جدّ النبي الإسماعيلي. إنها كرامةٌ طريفة طرافةً واضحة أنِ اعتبر أصلُ جهينة القحطاني بذلك شرفاً ناقصاً وتم تلفيق الانتساب بالنبي لتأييده، لأن المؤرخين العرب ـــ وعلى أسسٍ مماثلة ولكن على اتجاهاتٍ مفارقة ـــ يُدركون النقاء الأسمى للدم القحطاني ولكن لا يرغبون في الاعتراف بأيِّة وضاعةٍ في أرومة محمد ونسبوا إلى إسماعيل زوجةً من الخيال ذاتِ دمٍ قحطانيٍّ أصيل وتجاهلوا الرواية اليهودية المأثورة من ناحية أخرى والتي تقول إن إسماعيل اتخذ زوجةً من بلاد مصر.

ربما كانت الكلمة ضرورية فيما يتعلق بكتابتها بحروف اللغة الأخرى transliteration فقد حاولتُ أن اتبع نظاماً منهجياً ومترابطاً ولكن بلا شك يوجد عدم الدقة وبالأخص في تهجئة أسماء فروع القبائل التي نادراً ما تظهر في الكتابة والتي عندما تُكتب كثيراً ما تساء تهجئتها. وفي هذه الحالات يجب على المرء أن يثق أساساً في السماع وفي اشتقاق الكلمة المحتمل. وفي حالة كلماتٍ معينة يعتريها التصحيف مثل (El Obayyid) "El Obeid"، (Um Durman) "Omdurman" (Khartum) "Khartoum"، (El Kilyat) "El Geleit" تركتُ التهجئة الإملائية المألوفة على حالتها لكي اتجنب ظهور الحذلقة غير اللائقة.

بقي لي فقط أن أعبِّر عن عظيم امتناني لكتابيْ السردار الحاكم العام الحالي للسودان اللواء/ السير فرانسيس ريجنالد ونجت، والمفتش العام اللواء السير رودلف بارون فون سلاطين للمعلومات المتعلقة بفترة ثورة الدراويش. لقد كان الكتابان التاريخيان المذكوران ذَوَيْ قيمةٍ لا تقدر بالنسبة لي ذلك لأن الروايات الأهلية غامضة وغير مترابطة وكثيراً ما تكون متناقضة. وأنا مدينٌ أيضاً بالشكر للبروفسور وليم ريدجواي وللدكتور أ. سي. هادون والدكتور سي. ج. سليجمان لنصيحتهم ومساعدتهم التي لا تقدر بثمن والشكر موصول لمستر س. أ. تيبتس للمعلومات التي أعطاني إياها بكل أريحية عن الهبانية وفروع معينة من الجوامعة، والشكر للنقيب دبليو. لويد من كتيبة الرماة الإسكتلندية مدير مديرية كردفان الراحل للمذكرات المختلفة حول قبائل

غرب كردفان، ولمستر هــ ر. بالمر مفتش العائدات بشمال نيجيريا لإعطائي كثيراً من المذكرات القيِّمة حول قبائل غرب السودان، وللدكتور ف. أ. باظر من المتحف البريطاني ولمستر ج. دبليو. غراهام من مصلحة معارف حكومة السودان لمساعدتي بكل أريحية في تحديد الأشياء التي اكتشفتْ في الجبال البحرية وفي الفرجاب وتم تصويرها في اللوحتين، وللنقيب هــ ر. هيدلام للسماح لي باستخدام الصور التي التقطها من ناظر الكبابيش وناظر الكواهلة.

هارولد ماكمايكل

سبتمبر 1912م

الفصل الأول

التاريخ العام لكردفان

يمكن تقسيم المنطقة المعروفة حالياً باسم كردفان[1] إلى ثلاثة أحزمة عَرْضيَّة متوازية تقريباً، وهي: الجبال الجنوبية التي يقطنها النوبة السكان الأصليون المستقرون كما يقطنها جزئياً البدو البقارة، والمنطقة الوسطى الخصبة نسبياً ويسكنها عنصرٌ خليطٌ من العرب والسود، و القفار الشمالية الجافة المكشوفة موطن البدو العرب. وربما كان النوبة في العصور الأولى وآلاف السنين التي تلتها يشغلون الجزء الأكبر من هذه البلاد باستثناء الصحارى في أقصى الشمال. والآن تراجع النوبة إلى جبال كردفان الجنوبية بعد أن تغلبت عليهم العناصر الأخرى التي حكمت ضفاف النيل في الأجيال المتعاقبة أو القبائل الداخلية وأخيراً البدو العرب. ونحن لا نعرف شيئاً عن الظروف التي كانت سائدة في كردفان في عهد الفراعنة بل لا يمكن أن نخمِّن إلا القليل منها، فالمعلومات المتاحة لتحديد حالة السودان إجمالاً في تلك الأيام المظلمة تعتبر شحيحة بيد أن المعلومات التي لدينا كثيراً ما تنطبق على أجزاء البلاد الأخرى مثلما تنطبق على كردفان[2]. ففي الألفية الرابعة قبل الميلاد كان فراعنة الأسر الرابعة والخامسة والسادسة يُغيرون على السودان على فتراتٍ متقطعة أو يتاجرون معه. لقد تضاءل نفوذ مصر في السودان آنذاك حتى حوالي عام 2500 ق.م عندما فرضت الأسرة الثانية عشرة نفوذها من جديد. ولا يُعرف شيءٌ تقريباً عما حدث في السودان منذ أيام الأسر الثالثة عشرة وحتى الأسرة السابعة عشرة، ولكن أماسيس الأول أول ملك للأسرة الثامنة عشرة قام بغزو بلاد النوبة وربما تغلغل في كردفان، وكان على نجله أمنحيتب الأول وحفيده توثميس الأول وخليفتيْ توثميس جميعهم أن يتغلبوا على الغارات والثورات بمساعدة قبائل السودان البدوية الوحشية. أما الأسرة التاسعة عشرة فقد كانت مهتمة أساساً بشأن سوريا وحدودها الجنوبية الشرقية، وفي عهد الأسرة العشرين

---

1 انظر الملحق «1» بالنسبة لأصل كلمة كردفان.

2 لُخِّصت التعليقات التالية حول العهد الفرعوني من كتاب «تاريخ السودان» لمؤلفه بادج.

تضاءل نفوذ مصر سريعاً على أتباعها الخاضعين لها. وعندما قام شاشانق الأول (وهو شيشاك المذكور في الكتاب المقدس) مؤسس الأسرة الثانية والعشرين بطرد كهنة آمين من مصر هربوا إلى نبتة مما شجَّع الأمراء النوبيين المحليين الذين كانوا يحكمون هناك على تكوين مملكةٍ مستقلة. وقد أصبح نفوذ هؤلاء الأمراء عظيماً بحيث قام الملك بعانخي الذي كان يحكم نبتة في حوالي عام 750 ق.م بغزو مصر وهزيمتها حيث أكمل خليفته شبكة عمل الغزو. وفي حوالي عام 693 ق.م استولى ترهاقا الذي كان يُعدّ ملكاً تابعاً لبلاد النوبة على عرش مصر ولكن نفوذ النوبيين في مصر دام حوالي 88 عاماً فقط (750 ق.م ــ 622 ق.م) وانهار من بعد ذلك. وأسس بسماتيك الأول ملك الأسرة السادسة والعشرين حامياتٍ في أسوان واهتم بتعزيز نفوذه إلى الشمال، وفي عهده ترك الهاربون من الجندية أو ما يسميهم الكتَّاب الكلاسيكيون بالأجانب الدخلاء مخافرهم على الحدود واستقروا في السودان جنوب ملتقى النيلين الأبيض والأزرق واختلطوا هناك بالسكان المحليين. وفي حوالي عام 580 ق.م احتل هارسيوتف ملك نبتة في تسع حملات وادي النيل من قرب حلفا إلى خط عرض سنار تقريباً. وحكم ناستاسن (المتوفى عام 517 ق.م) جزءاً كبيراً من السودان من نبتة، وفي عهده قام قمبيز بمحاولته الطائشة لغزو البلاد. ومنذ عام 517 ق.م كانت هناك فجوة زمنية تربو على مائتي عام في معرفتنا بالأمور، ومن ثم وفي عهد بطليموس الثاني (283ــ 247 ق.م) سمعنا بملكٍ من ملوك النوبة "نشأ في رحاب المعرفة والفلسفة الإغريقية" وقد قام بإلغاء عادات أسلافه البربرية وقتلَ الكهنة الذين كانت تعاني منهم البلاد[1]. وفي حوالي عام 30 ق.م شرع النوبيون بادئ ذي بدء في الاتصال مع الرومان الذين أنشأوا في ذلك العام ولاية في مصر. وسمعنا أن بدو الشرق من البليميين كانوا يشكلون بالتحالف مع هؤلاء النوبيين الهمجيين مصدر إزعاجٍ مستمر وقد أصبحوا أقوياء بحيث أن دقلديانوس (284ــ 305م) قد استسلم في النهاية ليصبح أداةً لدعمهم بالمال وأوكل حراسة حدوده في أسوان للنوبيين الذين توسعوا آنذاك إلى أقصى الشمال حتى بلغوا واحة الخارجة. وفي حوالي عام 540مَ اعتنق هؤلاء النوبيون المسيحية ولم يُسمع عن أخبارهم إلا قليلاً حتى فتح العرب لمصر.

ومنذ فتح مصر فصاعداً انخرط النوبيون باستمرار في الحروب والغارات

1 يسمى هذا الملك أرجمنيس. انظر ديودوروس، الجزء «3»، صــ 174 وما يليها.

المضادة والثورات ضد العرب مع قدرٍ متضائل من النجاح، وأصبح التدفق المستمر من الدم السامي يتغلغل تدريجياً في كردفان وبقية السودان. صحيح أن العرب استولوا على السودان في عام 1275م ولكن حتى حوالي منتصف القرن الرابع عشر شكلت مملكة دنقلا المسيحية سداً جزئياً أمام تيار الهجرة العربية على طول نهر النيل، ولكن من غير المفترض أن تكون مملكة دنقلا قد فرضت أيَّ عائق ذي بال على الحركة الجنوبية للبدو في الداخل أو على الهجرات المجهولة للقبائل غير العربية إلى الجنوب والغرب من أراضيها. وفي عام 1365م وبعد عشرين عاماً لاحقاً من تلك السنة احتل أولادُ الكنز المتمردون أسوان، ورغم أن أولاد الكنز هُزموا في عام 1412م بواسطة الهوارة البربر الذين طردهم العرب من شمال إفريقيا إلى جهة الجنوب لكنهم ظلوا ممسكين بالسلطة العليا في شمال السودان حتى عام 1517م. وتلاشى نفوذ النوبيين خلال هذه السنوات وتُرك السود عملياً وجهاً لوجه مع العرب في الجنوب: وكانت نتيجة الوقائع باختصار هي مزجٌ عامٌّ للسلالات واعتناق الجميع للإسلام ــ بدوافعَ سياسية ــ ما عدا جنوب السودان. ومنذ عام 1517م عندما احتل سليم مصر لم يُعرف إلا القليل عن شئون السودان لمدة 300 عام، فقد كانت هناك حاميات مرتزقةٍ من "التركمان الغُز" منتشرة على نطاق البلاد كما أن خليط العرب الحاميين والسود قد تم ضبطه إلى حدٍّ ما. ويمكن تحديد الدور الذي لعبته كردفان في الأحداث التي ورد وصفها عن طريق التخمين فقط، فيمكن أن نكون على يقين من البداية إلى النهاية بأن ذاك الجزء من البلاد الواقع شمال جبل الحرازة لم يكن أكثر من مأوىً للبدو غير القابلين للترويض أياً كان أصلهم وممن كانت يدُهم مرفوعةً ضد يد أيٍّ من حكام ضفاف النيل المتعاقبين. وربما كان وسط كردفان بسبب خصوبته مأهولاً بالعناصر النوبية المختلفة وبعناصر ممالك الغرب السوداء حتى قام المهاجرون العرب بطرد كليهما أو استيعابهما، بل ربما كانت جبال جنوب كردفان مأهولة بالنوبة أو بالعناصر الزنجية التي تركت المنطقة للنوبة بحكم أن النوبة فقدوا نفوذهم في الشمال وأُجبروا على التحرك جنوباً.

إن كردفان نفسها لم تكن أبداً مملكةً مستقلة ــ كاستقلال ممالك سنار ودارفور وودّاي وباقرمي وغيرها ــ وبالتالي لم تكن وثائقها محفوظة بصورةٍ دائمة كما حدث إلى حدٍّ ما في حالة الدول المذكورة أعلاه التي احتفظ حكامها ــ من أجل مجدهم ووفقاً

للعرف الشائع لكل الدول المستقلة ــ بتقريرٍ لماضي تاريخهم وهو تقريرٌ واقعي رغم أنه مصبوغٌ بدرجةٍ عالية. كما لم تحظ كردفان ــ التي شكلت الثغرة الوحيدة في سلسلة ممالك سلالية تمتد وسط إفريقيا من الشرق إلى الغرب ــ بنصيبٍ متساوٍ من الاهتمام من المهتمين بحلِّ الخيوط المتشابكة لتاريخ إفريقيا الباكر. وبالتالي يجب أن يُجمع تاريخ كردفان بدءاً من الوقت الذي لم يعد فيه هذا التاريخ ضرباً من التخمين حتى الغزو المصري عام 1821م من (1) وثائق سنار التي شكلت مملكة منفصلة من كردفان بواسطة النيل (2) وثائق دارفور التي تحدُّ بكردفان من جهة الغرب (3) من المأثورات المحلية الشفاهية في كردفان وأماكن أخرى، إذ لم يُكتشف شيء من البقايا الأثرية التي تعين المحقق بشكلٍ عملي. إن تاريخ كردفان بإيجاز هو تاريخ منطقةٍ فاصلة تصبح مرة فريسة لجيرانها من الشرق ومرة فريسة لجيرانها من الغرب. وربما لم يكن من المستبعد أن يكون شمال كردفان في السابق وطناً لأولئك العنج الغامضين الذين تشير إليهم دائماً كلُّ دلائل الاستيطان البشري قبل مجيء العرب كما أن اسمهم يُستخدم مرادفاً عملياً للسكان الأصليين[1]. والأناس القدامى الذين توجد لهم آثار في كردفان هم الداجو[2]، ولا يعرف عنهم إلا القليل جداً ولكن الروايات المأثورة تتحدث عنهم بأنهم وثنيون وسود اللون مع مسحةٍ عنصرية من الدم العربي. ويسجل بارث مأثورة فحواها أنهم أتوا من فازوغلو وكانوا يُعرفون بـ"ناس فرعون"، وبزعمهم أنهم أتوا من الشرق ــ ربما في حوالي القرن الحادي عشر أو الثاني عشر ــ ويبدو أنهم لم يستقروا في كردفان بالدرجة التي استقروا فيها في دارفور حيث يبدو أنهم عاشوا جنباً إلى جنب مع الفور الأصليين لبعض القرون وأصبحوا القوة الحاكمة بمرور الزمن. ويجب أن نتبع الآن اتجاه الأحداث العام في دارفور لكي نفهم على الأقل ما حدث لاحقاً في كردفان، فمن المحتَمل أن عنصراً من العرب الوثنيين يُدعون التنجر[3] بدأوا يهاجرون إلى دارفور في حوالي القرن الرابع عشر وكانوا ذوي حضارةٍ أكثر تقدماً من الداجو أو الفور بيد أنهم تصاهروا مع أسرة الداجو الحاكمة حيث حصلوا تدريجياً على السلطة والنفوذ على حساب الداجو، وأخيراً حلُّوا محلَّهم بالكامل واستولوا على مقاليد الحكم. ولكن بمرور الزمن بدأ التنجر أنفسهم يفقدون شخصيتهم العرقية واندمجوا مع

1 انظر الفصل «6» بالنسبة للعنج.

2 انظر الفصل «2».

3 انظر الفصل «2».

مواطني البلاد القدامى من الفور إلى أن ورث العرش في حوالي القرن الخامس عشر واحدٌ اسمه دالي كانت والدته من الكيرا- الفور ووالده ينتسب جزئياً إلى التنجر. وفي ذاك الوقت كان الفور أكثر هيمنة في الشرق وكان التنجر يوسِّعون نفوذهم تدريجياً إلى جهة الغرب نحو باقرمي وذلك تحت الضغط الواقع عليهم من الشرق. إن دالي المذكور آنفاً هو جدُّ السلالتين اللتين تصفهما الرواية المأثورة دائماً بأنهما حكمتا كردفان لاحقاً واللتين سيرد ذكرهما فيما بعد، أي الكنجارة والمسبعات. وفي ذات الأثناء وفي حوالي تاريخ نهاية حكم التنجر في دارفور كانت الأحداث المليئة بالأهمية العظيمة لكردفان مستقبلاً تحدث في الجانب الشرقي من كردفان. فعلى مشارف نهاية القرن الخامس عشر[1] وحَّد عمارة دنقس تحت قيادته مجموعة مختلفة من القبائل عرفت بالفونج[2] وبالتحالف مع زعيم منطقة قري[3] شرق النيل الأزرق اجتاح البلاد الواقعة ما بين فازوغلو والخرطوم. كانت القوة التي قادها عمارة دونقس قوة عربية إلى حدٍّ كبير وتنتمي اسمياً على الأقل إلى الدين المحمدي وأنها قطعاً كانت تضم أجداد فروعٍ كثيرة مما يسمى بالقبائل العربية الموجودة الآن في كردفان. ويبدو أن الفونج بعد أن احتلوا الجزيرة قاموا أيضاً بتوسيع هجراتهم إلى كردفان وأن بعضاً منهم استقر هناك. والمعلوم بدون شك أن أول القادمين من القبائل التي تقطن كردفان حالياً هم الغديات والبديرية والجوامعة والجِمِع والجليدات والشويحات حيث تقول الروايات المأثورة إنهم ـــ وعلى الأخص الغديات ـــ منتسبون إلى الفونج. وبالتالي فمن المحتمل أن يرجع تاريخ استقرارهم في كردفان من بداية القرن السادس عشر تقريباً حيث اتخذ الشطرُ الأكبر من هذه القبائل مساكنَ بالقرب من الرهد والبِرْكة وجبل كردفان وأنهم ـــ بحكم الحقائق الراجحة ومأثور الأعراف والأدلة الخارجية ـــ تصاهروا مع القبائل النوبية. ويبدو أنهم إلى حدٍّ ما اتحدوا تحت نوعٍ من المحكّمين الأعلى الذي اختير من بينهم والذي يحكم في كل النزاعات الكبيرة. لكن الرواية التي تقول إن أفراد هذه القبائل كانوا أجداداً لبقارة غرب كردفان رواية لا تؤيدها المأثورات: فالأكثر

1 يقول بروس إن التاريخ هو 1504م، وستيوارت 1493م، وكايو 1484م، وأن «تاريخ سنار» هو 915هـ (1509م). ويوضح تريموكس كيف اختلف تاريخا بروس وكايو، وهو يفضل 1504م. ويُسمِّي ستيوارت زعيم الحركة «عمارة دونقس» ويسميه كايو «آمآره دوناكس»، أما بروس فيسميه «عمرو ود عدلان».

2 انظر الملحق «2».

3 »عبد الله جماع ـــ الكريناني» (ستيوارت)، «عبد الله جماع» («تاريخ سنار»).

احتمالاً أن البقارة (الحُمُر والمسيرية والرزيقات، الخ) قد وصلوا إلى دارفور وكردفان في ذات الوقت تقريباً أو بالأحرى لاحقاً وذلك من جهة الشمال والشمال الغربي عن طريق الداخل. ولكن ربما برز الالتباس من الحقيقة التي تقول إن الغديات والبديرية وغيرهم كانوا في البداية "بقارة"، أي أصحاب مواشي. ومن المحتمل جداً أنه في الفترة من عام 1500م (أو قريباً من ذلك) أن يكون الفونج ملوك سنار قد اعتبروا كردفان مقاطعةً من مملكتهم ولكن من المُشْكِل جداً ما إذا كان لديهم حقيقة نفوذٌ هناك أم لا.

يجب أن نعود الآن إلى دارفور[1]: تقول إحدى الروايات المأثورة إن الملك دالي هو جدّ كلٍّ من تمساح "جدّ المسبعات" وكورو "جدّ الكنجارة": وقد تشاجر الأَخَوَان، فهاجر تمساح شرقاً إلى كردفان ("صَبَّحْ" فاشتقت من ذلك "المسبعات"). وتقول رواية أخرى إن سليمان سولونج حفيد دالي كان له أخ يسمى مُسبَّع أعطاه كردفان بعد فتح تلك البلاد وتعهد أيٌّ منهما باحترام نفوذ الآخر. كما تقول نسخة ثالثة من الرواية إن سولونج وسلمان كانا أَخَوَين وكان الأول هو جدّ الفور وكان الثاني جدّ المسبعات، وفي كل الأحوال يعتبر سليمان سولونج عملياً هو أول شخصية بارزة تظهر في كردفان فقد حكم دارفور من عام 1596م حتى عام 1637م وفي خلال تلك المدة فتح كردفان ـــ (المكونة افتراضاً من خليطٍ من الفونج والعرب الذين هاجروا إليها منذ عهد عمارة دونقس) ـــ وقام مؤقتاً بتوسيع سلطانه على حساب سنار التي كانت في هذا الوقت في أضعف الحالات بسبب سلسلةٍ من الحروب الأهلية[2]. وقيل إن والدة سليمان كانت عربية واتخذ هو نفسه زوجة عربية له، وكان هو أول واحدٍ من ملوك دارفور اعتنق الديانة المحمدية[3]، ولكن مواطنيه لم ينبذوا الوثنية ضربة لازب بل تبنوا الدين الإسلامي تدريجياً والذي أصبحوا بواسطته يتصلون اتصالاً لصيقاً أكثر فأكثر بالتجار العرب من خلال التعامل. وقد سهّلت هذه النزعة التواصلية فتوحات سليمان الذي امتدت هيمنته حتى عطبرة[4].

1 انظر الفصل "2" بالنسبة لروايةٍ مطولة للآتي.

2 يقول بروس إن أونسه خُلع من الحكم عام 1606م وعبد القادر في عام 1610م وعدلان ود أونسه في 1615م، وأن بادي ود عبد القادر مات في عام 1621م.

3 كذلك ناختيجال وتبعه إنسور وشوارتز (صـ 544). ويقول إسكيارك دولوتور عن سليمان سولونج "كان والده من التمورقا وتنتمي أمه إلى قبيلة البِدِريه، وقد تعلم القرآن في مصر والذي ربما كان البِدِريه بالكاد يعرفون اسمه".

4 انظر شوارتز صـ 545.

ربما كانت جنوب كردفان وجبال الداير وتقلي منذ عهد عمارة دونقس، وربما قبل ذلك، أكثر ارتباطاً بسنار مما هي بدارفور وأن سنار كانت تعتبر حتى عام 1788م تقريباً القوة الأهم في تلك المناطق. ويؤيد هذه الحقيقة أن سنار كانت قبل التاريخ المذكور تزود بالرقيق الذين يتم القبض عليهم في جنوب كردفان ومن الداير وتقلي[1] أساساً وحيث تقوم بتجنيد أفراد جيشها بالكامل من هناك. على أية حال والأمر كهذا فإن الحادثة الوحيدة الموثقة فعلاً والتي حدثت في وقتٍ مبكرٍ نسبياً وتوضح هذه النظرية هي الهجوم الذي شنه بادي أبودقن (ابن رباط) على تقلي في حوالي منتصف القرن السابع عشر[2]. لقد مات سليمان سولونج عام 1637م واضمحلت سلطنة دارفور، ولا شك أن بادي استفاد من هذا الاضمحلال فقام بتدمير كردفان وأخضع تقلي وجعلها تابعة لسنار، ومهما كان الحال قبل عهد بادي فقد بقيت تقلي والمنطقة المحيطة بها خاضعة لسنار مع فتراتٍ فاصلة حتى عام 1788م تقريباً[3]. ومهما كان للفونج من نفوذٍ في جنوب كردفان لكن لم تكن لهم في أيِّ وقت يدٌ عليا في وسط كردفان قبل عام 1748م تقريباً، أما في شمال كردفان فلم تكن لهم يدٌ أبداً. صحيح أنه بعد انهيار سلطنة دارفور عقب موت سليمان سولونج بدا أن للفونج نفوذاً في كردفان أكثر مما لدارفور لكن اختلفت حظوظ كلا الطرفين بدرجةٍ كبيرة في النسبة بحكم أن شئونهم كانت ناجحة في الداخل تقريباً، كما أن المسبعات في ذلك الوقت وطدوا سلطانهم بقوة في كردفان بحيث لا يمكن أن يقال أن أياً من الفونج أو الفور كان

1 يقول بروس عن هؤلاء النوبة الذين التقى بهم في سنار «يبدو أن كثيراً من الذين تناقشتُ معهم زنوجٌ من نوعٍ أكثر نبلاً من أولئك القادمين من بحر العيص، أي أكثر نبلاً من أولئك الذين يتكوَّن منهم الفونج أو حكومة سنار»، (المجلد «4»، صـ 420). ويقول عنهم بروس أيضاً إنهم مولعون بالقمر لا بالشمس وأيضاً بالشجرة والحجر «رغم أني لم أجد أبداً أية شجرةٍ هي أو أيَّ حجرٍ هو، إنها لا توجد في بلاد سنار لكن توجد في البلاد التي ولدوا فيها». انظر أيضاً تقرير ستيوارت...، صـ 3. فهو بالتالي يجد تفسيراً لعدد القرى الموجودة في سنار التي لها ذات الاسم بأماكن في كردفان. وسمع بروس أيضاً أنهم يحكون في سنار بأن العنصر الأصل لموطن الفونج كان قرب الداير وتقلي حيث هاجروا بعد أن نجوا من طوفانٍ عظيم.

2 يوضح ستيوارت التاريخ بأنه العام 1635م. يعطي كتاب «تاريخ سنار لقب «أبودقن» لبادي بن رباط ويصف هجومه على تقلي ونتائجه. ويعطي بروس تاريخ بادي بن رباط بأنه 1651م ـــ 1789م، ويعطي «تاريخ سنار» التاريخ بأنه 1641م ـــ 1677م، أما كايو فيقول إنه من العام 1638م إلى 1675م. إذن يكون العام 1635م مبكراً جداً.

3 يقال إن مكوك كثيرٍ من الجبال الجنوبية، كالدباتنا مثلاً، هم فونج حتى اليوم.

أعلى نفوذاً. ويبدو أن أية سلطنةٍ كانت تعتبر كردفان مقاطعةً من مملكتها رغم أن ذلك الاعتبار كان بدون تبرير كافٍ إذ لا شك أنها كانت تلجأ إلى الابتزاز ما استطاعت، ويبدو أن المسبعات كانوا يعتبرون أنفسهم في هذه الأثناء غير خاضعين لأيٍّ منهما. ومنذ عهد بادي أبودقن حتى فتح الفونج لكردفان لم تكن لدينا أية معرفة بأية أحداث محددة قد تكون وقعت. وعلى أية حال وفي عام 1733م[1] في الوقت الذي كان فيه عمر ليلي سلطاناً لدارفور وكان المسبعات مهيمنين إن لم يكونوا مستقلين في كردفان جلس السلطان بادي أبو شلوخ ابن النول على عرش سنار. ودخل بادي بعد توليه الخلافة مباشرة في حربٍ طويلةٍ مع الحبشة، ويحدثنا بروس أن بادي كان يساعده في مجالسه حميس أمير دارفور [الذي] طُرد من بلاده في ثورة أخيرة كان سببها حربٌ فاشلة ضد السيلي والباقرما وهرب إلى سنار. وربما جرَّد حميس [خميس؟) أيضاً فريقاً من الرجال[2] وبعد أعوامٍ طويلة من الاقتتال تم طرد الأحباش. ودخل بادي بعد أعوامٍ لاحقة وبعد أن استرد قوته في حربٍ مع المسبعات[3] وربما بتحريضٍ من حميس لأننا أُخبرنا أن الفونج أخضعوا كردفان بمساعدة حميس[4]. وقد صُدَّ بادي مرتين، ولكن في حوالي عام 1748م[5] ألحق

1 العام 1733م هو العام الذي يقدمه بروس. و»تاريخ سنار» يعطي التاريخ بأنه عام 1135هـ (1723م)، وكايو يقدم العام بأنه 1721م.

2 يؤكد «تاريخ سنار» أن الفور عاونوا سنار، ويعطي تاريخ هزيمة الأحباش في العام 1743م. يؤرخ بروس (المجلد «2»، صـ 635) لتواريخ اندلاع الحرب في حوالي 1736م أو 1737م.

3 يعطي «تاريخ سنار» تاريخ الحرب مع المسبعات في 1747م (1160هـ)، أي بعد أربع سنوات أو خمس سنوات من نهاية الحرب الحبشية.

4 لا يصف بروس الحرب مع المسبعات، ومن خلال تعليقه عندما يذكر بدايةً «حميس» وهو يطير إلى سنار باعتبار «أن الفونج أخضعوا كردفان بمعاونته» ربما يفترض المرء ـــ لكن بالنسبة «لتاريخ سنار» ـــ أن حرب المسبعات سبقت الحرب الحبشية بدلاً من افتراض العكس.

5 بروس لا يعطي تاريخ هزيمة المسبعات ولكن معلوماته مهمة عندما تسجل بداية علوِّ الفونج في كردفان، وأدناه الأسباب التي جعلتني أحدد ذلك بعام 1748م تقريباً:

بروس يقول إن تواريخ بادي أبو شلوخ هي 1733م ـــ 1766م، ويقول «تاريخ سنار» إنها 1723م ـــ 1762م أما كايو فيقول بأنها 1721م ـــ 1761م. ويصف «تاريخ سنار» بداية الحملة في 1747م ولكن لم يقل لنا بعد كم من الوقت كسب أبو لكيلك نصره بعد اندلاع الحرب. وسنرجع الآن إلى الرواية الرائجة الخاصة بعدد السنين التي استنفدتها السلالات الحاكمة قبل مجئ الأتراك، تقول نسبة دنقلا: «حكم الفونج كردفان لسبع سنوات ومن بعدُ حكمها الغديَّات (وهم هَمَج في الأصل) لمدة ثلاثة عشر عاماً وبعد ذلك حكمها المسبَّعات لمدة سبعة عشر عاماً وحكمها بعدهم الكنجارة لمدة ستة وثلاثين عاماً ومنهم استولى عليها الأتراك». فالكنجارة فتحوا كردفان عام 1784م (توفي تيراب عام 1785م [انظر شورتز، صـ 545] ويقول التونسي إن وفاته كانت في العام الذي تلا حملته الظافرة، ولكن بودج يضع وفاته في عام 1787م).

قائد الفونج محمد أبو لكيلك[1] هزيمةً ساحقة بالمسبعات وعُيِّن حاكماً لكردفان وحكمَ حكماً عادلاً وجيداً وكان بطل الشعب لفترةٍ طويلة. ولكن مجرى حياته كان أكثر مغامرة وتقلباً، فقد تمرد هو وأخوه عدلان على بادي في عام 1764م[2] وخلعوه عن العرش ونصَّبوا ابنه ناصر على عرش سنار. وفي عام 1769م قام أبو لكيلك مرة ثانية بخلع ناصر ونفيه وعندما حاول ناصر استرداد عرشه تم ذبحه. وخلف ناصرَ إسماعيل عام 1769م[3] ولكن بقيت السلطة كلها في أيدي أبي لكيلك وأخوه عدلان وزيراً، وقد استقر عدلان قرب سنار كما كان أبو لكيلك يقضي كثيراً من وقته في مقاطعته كردفان[4]. لقد سجل بروس المدخل

لذا يكون تاريخ احتلال الفونج هو عام 1784م ناقصاً 37 سنة هجرية أو 36 سنة إفرنجية تقريباً، أي عام 1748م تقريباً. وإذا تركنا عاماً واحداً لمدة الحرب بعد اندلاعها فسيتفق هذا التاريخ جيداً مع التاريخ الذي يوضحه «تاريخ سنار» الذي ربما يكون صائباً كل الصواب. وحتى لو كانت تواريخ بروس المتعلقة بحكم بادي صحيحة فإن النظرية التي تقول إن كردفان فُتحت عام 1748م ليست نظرية ضعيفة. ويقول بالمي (صـ 12): «إن القبائل التي ترعى الأبقار حول جبل كردفان أصبحت تتعرف بشكلٍ أفضل على سنار وذلك على مشارف نهاية منتصف القرن الماضي [القرن الثامن عشر]. وأرسل ملك سنار شخصياً في عام 1779م الشيخ نسيب مع ألفيْ فارس للاستيلاء على البلاد حيث استسلمت القبائل طواعية لمصيرها دون إبداء كثير مقاومة، وبهذا بقيت تحت حكومة سنار لمدة خمس سنوات». ويقول بثريك (صعيد مصر، صـ 263): «على مشارف منتصف القرن الماضي توسعت مملكة سنار عن طريق الفتوحات المختلفة حتى امتدت... إلى النهر الأبيض... فملكها عدلان... وقد أحيط علماً بالقبائل التي تقطن في كردفان... وقد اختمرت في عقله فكرة إخضاعها... قام بغزو البلاد عام 1770م تحت قيادة الشيخ نسيب مع 2000 فارس من الخيَّالة... وأبلى نسيب بلاءً حسناً من أجل إرضاء عدلان بحيث أن عدلان سماه ملكه أو نائبه في المُلك، وقد ازدهرت البلاد تحت إدارته السلسة». ويقول كلا بالمي وبثريك إن الفور أعادوا فتح البلاد لاحقاً من «الملك الهاشما» (أي هاشم المسبَّعاوي)، لكن من الواضح أن كليهما كان لديه انطباعٌ بأن هاشم هو واحد من الفونج. في واقع الأمر أن بثريك ينتحل بحُرِّية وبدون معرفة معلومات بالمي ويضيف إليها تفاصيل منمقة من عنده، وكلاهما غامض وغير دقيق. ورغم ذلك فإن قصة نسيب ظلت مقبولة أحياناً، ولكن لا أحد في كردفان في الوقت الحالي سمع به رغم أن أبا لكيلك وهاشم كانا اسميْن معروفيْن جداً، وحتى بروس وبيركهاردت وبراون لم يذكروا اسم شخصٍ كهذا. ومن المؤكد تقريباً أن معلومات بالمي الغامضة كالعادة تحدثت عن ملك سنار وهو يرسل «نسيبه» أي قريبه وأن بثريك قلَّد بالمي فقط. ولا أدري كيف توصلا إلى تواريخهما: بالمي لم يذكر عدلان وبثريك يذكر عدلان بكونه «ملكاً»، ولكن في عام 1770م كان إسماعيل هو الحاكم وليس عدلان أبداً. فربما كان هناك خلط بين عدلان الذي كان وزيراً نافذاً وبين شقيق (نسيب؟) أبي لكيلك والملك الدُّمية عدلان (1776م ــ 1788م).

1 بروس يسميه "محمد كيلك" وبراون يسميه "آبلي كالك" ويسميه برودو "محمد آبلي كيلك" (انظر مجلة الآنثروبولوجيا الملكية، المجلد "5"، 1835). ويقول المؤلف برودو المذكور إن والد بادي قتله " آبلي كيلك" الذي قام لاحقاً بخلع بادي ولكن "بادي عاد للحكم لدى وفاة آبلي كيلك": وربما لم يكن هذا دقيقاً.

2 انظر بروس، المجلد "2"، صـ 669.

3 بروس في "تاريخ سنار" وكايو متفقان فيما يتعلق بهذا التاريخ.

4 كان في سنار في وقت زيارة بروس إلى سنار عام 1772م.

الآتي في مدونته اليومية المؤرخة بتاريخ 1 أغسطس 1772م: "حملت الأخبار أن أهل دارفور زحفوا بجيشٍ لاحتلال كردفان إذ يُخشى أنهم سيفعلون ذلك في الحال مع إعداد حوالي 12000 حصان ومع ما يعتقد من أن مَهُومِت أبو كيلك سيرتد إلى سنار إذا لم يتم تطويقه.... وقد عسكر جيش الفور في مكانٍ يسمى ريل جنوب غرب لُوبيِّض لمدة سبعة أيام أو ثمانية أيام تقريباً حيث توجد كمية وفيرة من الماء. إنه مكان التقائهم بحوالي نفس مسافة فور".

ربما نفترض أن حكم أبي لكيلك في كردفان كان بشكلٍ متقطع وبالأخص بعد قضاء أولى سنواته القليلة هناك طالما أن بروس يذكر لنا أيضاً أنه وفي هذا الوقت كانت كردفان كثيراً ما تحتلها دارفور وتستردها وطالما أن أبا لكيلك كان يقضي جلَّ وقته وهو يقوم بتعيين الملوك في سنار. ووفقاً للتقدير العرفي أن الفونج كانت لهم اليد الطولى في حكم كردفان لمدة سبع سنوات فقط، ولذا يبدو أن أبا لكيلك كثيراً ما انسحب إلى سنار بعد عام 1755م تقريباً، ذلك أنه كان يمثل قوةً في كردفان ـــ إن لم يكن كذلك حتى وفاته في عام 1776م ـــ وفي ذلك تشير مذكرة براون بالقول "... إن ملكاً باسم أبلي كيلك هو محبوب أهل كردفان حيث حكم قبل أربعة عشر عاماً [أي حوالي أربعة عشر عاماً قبل عام 1793م وهو تاريخ وصول براون في دارفور]، وهو مشهور بالنزاهة والعدل)[1]. ويقال إنه من العام 1755م حتى عام 1768م كان الغديات مهيمنين ـــ والغديات أنفسهم كما نذكر كانوا خليطاً من الفونج والهمج والنوبة الذين أذلوا العناصر العربية المقيمة في جنوب كردفان شمال المنطقة الجبلية ـــ ومن الأرجح أنهم بلغوا ذروة نفوذهم تحت حكم أقاربهم في سنار وخلفوهم بصورةٍ سلمية تقريباً[2]، وقيل إن الأبيض بُنيت وأصبحت عاصمة في عهدهم[3].

1 عام 1776م هو العام الذي يعطيه «تاريخ سنار» لوفاة أبي لكيلك: وربما يكون صحيحاً طالما أن بروس وتاريخ سنار يتفقان على التواريخ التي يقدمانها بالنسبة لحكم إسماعيل وعدلان الثاني. انظر براون، صـ 352.

2 يدعي الغديَّات أن الفونج عندما أخلوا البلاد تركوهم حاكمين عليها ويدعي المسبَّعات ذات الادعاء لأنفسهم. ويقول براون (صـ 352) «ظل مك سنار يوفد ملوك كردفان حتى بعد وفاة نجل آبلي كالك بعد أن اغتصب الفور الحكم نتيجة ضعف الحكومة في سنار وخلافاتها«.

3 قيل إن الغديَّات عندما شرعوا في بناء قريةٍ على جانبي الخور ولم يحددوا تسميتها كان هناك حمارٌ أبيض لامرأةٍ تسمى منفورة وقد مات، لذا سُميت القرية «الأبيِّض». ويقول آخرون إن المسبَّعات بنوا المدينة، ولكن هذا القول أقل رجحاناً.

عندما توفي أبو لكيلك في عام 1776م خلفه بحسبانه شيخاً بادي ود رجب: وكان لهذا الرجل نفوذٌ جمٌّ مثل النفوذ الذي كان في أيدي أبي لكيلك، فعندما حاول إسماعيل أن يتخلص من عبوديته نفاه ونصَّب عدلان الثاني على العرش (1776م).

والآن برز للأهمية في كردفان واحدٌ اسمه هاشم المسبعاوي وذلك في فترةٍ ما في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ومن الأرجح ما بين عامي 1768م و1776م (تاريخ وفاة أبي لكيلك): كان هاشم هو سلطان المسبعات في كردفان والسليل المباشر لمحمد تمساح الذي ذكر آنفاً بأنه المؤسس المزعوم لسلالة المسبعات الحاكمة. وقيل إن هاشماً كان متحارباً مع الفونج (أو ربما خلفائهم الغديات) وقد طردوه إلى كتول في الشمال الغربي. ومن هذا الموضع المواتي أغار على البلاد في جهة الجنوب، وقبل أن يمضي وقتٌ طويل أصبح أقوى رجلٍ في شمال ووسط كردفان. وعندما انسحب الفونج عاد هاشم إلى الأبيض واسترد نفوذه. ومن المحتمل جداً أن يشير القيد المأخوذ من مدونات بروس ـــ المؤرخ يوم 1 أغسطس 1772م ـــ إلى هجوم هاشم، ولكن مع مغادرة بروس لسنار في يوم 5 سبتمبر فإننا لا نعرف نتيجة الغزو المهدد الذي ذكره. وعلى أية حال وما أن وطد هاشم أقدامه في السلطة إلا وأصبح منهمكاً في حربٍ مع دارفور تحت حكم تيراب الذي تولى الخلافة في عام 1752م[1]. ومن المستحيل بل من غير المهم أن نحدد ما إذا كان هاشم أم تيراب هو المعتدي لكن الحقيقة المهمة هي أن الحرب اندلعت في 1784م ـــ 1785م، ونشير قبل البحث في موضوع هذه الحرب إلى أنها كانت ما بين عامي 1780م و1788م وربما كانت أقرب إلى العام الأخير. وقد جربت سنار محاولتها الأخيرة لفرض نفوذها المتلاشي في كردفان، ففي عام 1780م[2] ثار شيوخ سنار ضد سلطان بادي ونصَّبوا محمد ود رجب شيخاً ووزيراً بدلاً عنه، وقام محمد ود رجب بمهاجمة جنوب كردفان، بيد أن الملك عدلان استغل فرصة غيابه وقام بقتل معظم أقارب الوزير وأصبحت سنار فريسة للفوضى مما جعل محمد ود رجب يعود مسرعاً من كردفان ليُهزم ويُقتل في عام 1788م. ومنذ ذلك الحين فصاعداً كانت سنار في حالةٍ فوضوية شديدة بحيث لم تستطع أن تمارس أيَّ نفوذٍ مطلقاً في كردفان. وربما لم تزد حملة محمد ود رجب في الحقيقة على كونها غارة معزولة من أجل الرقيق

1 انظر شوارتز (صـ 545). ويقول بودج إن التاريخ هو 1768م.

2 وكذلك «تاريخ سنار».

والغنائم، فالنفوذ الحقيقي للفونج في كردفان قد انتهى قبل وفاة أبي لكيلك. ولنعدْ الآن إلى هاشم وتيراب: فقد كوَّن هاشم جيشاً قوامه 10000 رجل مكوَّناً في الأساس من الدناقلة والشايقية والكبابيش والرزيقات[1] وبدأ سلسلةً من الغارات على الحدود (التي ربما لم تكن في ذلك الوقت أبعد من أم صميمة، طالما أن ذلك المكان ذكره بيركهاردت في عام 1814م باعتباره الحدَّ الغربي لكردفان ويبعد مسافة ثلاثة أيام غرب الأبيض). وتقول إحدى الروايات[2] إنه مع قدوم هاشم كتب تيراب إليه شاجباً الغزو على أساس أن كليهما من سلالةٍ مشتركة، وتم إقرار السلام، ولكن عند رجوع تيراب لم يكن "أمراؤه" راضين وأصروا على أن هاشم ليس لديه حقٌّ في كردفان التي فتحها أجداد تيراب وهي تؤول بالتالي إلى دارفور. ومن ثم كوَّن تيراب جيشاً وأرسله في اتجاه الأبيض تحت قيادة أحد الأمراء، ولكن هاشم هزم هذه القوة هزيمةً كاملة بين الهَوَيْ والطينة وأبوقعود. وبعثت الكنجارة بقوة أخرى لاقت نفس المصير، ولكن تيراب غضب غضباً شديداً وأقسم أنه سيزحف إلى الأبيض في فصل الصيف وأنه سيأخذ معه قوة كبيرة بحيث أن نقط الماء التي تتسرب من الأسقية تجعل العشب ينمو عالياً فيصبح مأوىً لدجاج الوادي. وسار تيراب بهذه القوة العملاقة حتى الدومة، أما هاشم نفسه فقد ولى الأدبار وعسكر في جبل حنيك قرب أم درمان بعد أن فصل كل الأطفال وكبار السن من الرجال والنساء من أتباعه وأرسلهم في اتجاه النيل، ومن جبل حنيك انسحب عبر النيل وحطم كل المراكب خلفه. وبعد أن استولى تيراب على الأبيض تعقب هاشم في اتجاه النهر ووجد كل المراكب محطمة وقضى أشهراً عديدة وهو يسدُّ النهر بالأشجار أملاً في أن يعبر بهذه الوسيلة. وكان محظوظاً فقبل أن ينفذ هذه الخطة استولى على قليلٍ من المراكب فعبر بها النهر، ولكنه سرعان ما عاد وقفل راجعاً إلى الفاشر.

أما رواية التونسي فأكثر تفصيلاً ومن الأرجح أن تكون صحيحة، فالتونسي يقدم التقرير التالي عن الحرب بين هاشم وتيراب إذ يقول: عندما بدأ هاشم يغير على دارفور احتج تيراب ولكن احتجاجاته كانت رياءً في واقع الأمر بحكم أن دارفور كانت في حالة غضب، ولم يجد حرجاً في تبني الحيلة المألوفة حيلة التدخل الخارجي لتخفيف الضغط في الداخل وإثارة عاطفة مشتركة وصرف الانتباه الشعبي. وعلاوة على ذلك

---

1 انظر التونسي.

2 أي رواية المسبَّعات التي ذكرها السلطان حامد جبر الدار حفيد هاشم.

كان تيراب يرغب في أن يخلفه ابنه إسحاق في الوقت الذي يجب أن يخلفه إخوته واحداً تلو الآخر وذلك بموجب شروط وصية والده أحمد بكر. وكان تيراب يأمل في أنه إذا ترك إسحاق وراءه وأرسل إخوته إلى الجبهة فربما يلاقون مصير أوريا الحُثِّي. ويبدو أنه كانت هناك بعض الصعوبة في تكوين جيش طالما أن تيراب لديه حتى الآن 200 عبداً زنجياً فقط وبعض رسوم القرويين غير المسددة، ولكنه جمع تدريجياً جيشاً من 2000 عبد (بجمع المساهمات من التجار وقبول العبيد بدلاً من الجزية) كما جمع 3000 من فرسان البدو ودخل كردفان عن طريق كاجا السُّروج. وزحف في اتجاه الجنوب الشرقي والتقى بهاشم على رأس 1500 فارس و2500 من المشاة في "فرشة" بدار حَمَر وهزمه[1]. وفرَّ هاشم في اتجاه الشرق إلى سنار بحثاً عن الحماية عند أعداء دارفور اللدودين وترك مخازن أمتعةٍ ضخمة لتيراب الذي تظاهر بأنه محرر كردفان. وقاد تيراب جيشه الظافر عبر كردفان حتى بلغ أم درمان حيث بنى تلك الجدر الحجرية في الطرف الجنوبي من المدينة والتي ما زالت أنقاضها بادية للعيان[2]. وقد عومل أهل كردفان معاملة طيبة وبدلاً من أن يُنهبوا طُلب منهم فقط أن يُطعموا الجنود الذين حلُّوا عليهم، كما مُنح الجنود البدويون إعفاءً من الضريبة لمدة ثلاث سنوات وعادوا إلى دارفور. وبدأ عهدٌ سعيد: أصبحت الضرائب خفيفة وازدهرت التجارة مع الجزيرة العربية ومصر والهند والحبشة، وفي ذلك الوقت أيضاً كانت بارا ــ التي أنشأها الدناقلة أصلاً ــ قد زيِّنت بالأشجار والحدائق[3].

طلب الجنود العودة إلى ديارهم في السنة التي أعقبت غزو الكنجارة لكردفان، ولكن تيراب استبطأ عودتهم فهو لم يتخلص بعد من إخوته كما كان يفضل كردفان على دارفور المضطربة. ولم يمض وقتٌ طويل حتى دبَّر حَمُوهُ علي ود برقان مؤامرةً ضده ولكن المؤامرة فشلت ووجد علي ود برقان حتفه على يد الحرَّاس. وكانت خطوة تيراب الثانية هي التظاهر بالمرض لكن لسوء الحظ أصبح التظاهر حقيقة، ولما أحسَّ تيراب بدنوِّ أجله أرسل رسولاً إلى ابنه إسحاق في دارفور وألقى على عاتق أمرائه آخر وصية فحواها الاعتراف بابنه إسحاق خليفةً من بعده. وفي ذات الوقت كانت هناك مؤامرة

1 انظر بثريك، صعيد مصر...، صـ 267: لكن «ابن الفضل» لم يكن سلطان دارفور كما يوضح. «فرشة» هي فرشاحة قرب رهيوة.

2 انظر سلاطين، الفصل «2».

3 انظر بثريك.

أخرى تدور، ذلك أن كنانة زوجة تيراب الأكبر التي كانت تأمل في ضمان الخلافة لابنها حبيب فكرت في أنَّ أسلم طريقة للقيام بذلك هي أن تعِد عبد الرحمن الرشيد الأخ الأصغر لتيراب بتأييدها له شريطة أن يتزوجها فيخلف تيراب ويقوم بتعيين ابنها حبيب خليفة له. وعند هذه النقطة مات تيراب (1785م) واستولى عبد الرحمن الذي وافق على مؤامرة كنانة فوراً على الشارة الملكية وأعلن نفسه سلطاناً. أما الأمراء الذين حاولوا إخفاء حقيقة موت تيراب ريثما يُعلن إسحاق سلطاناً فقد أصبحوا في معضلةٍ فوافقوا بعد أن أصبحت يدهم مغلولةً على الالتزام بشروط وصية أحمد بكر. كانت هناك اعتراضات مختلفة ضد إخوان تيراب الأكبر، واختير عبد الرحمن أخيرا سلطاناً لدارفور وكردفان من خلال ممارسةٍ عمليةٍ إقصائية[1]. وعاد عبد الرحمن إلى دارفور بعد أن خلق له شعبية ببذل الهبات على مستوىً ملكي، وقد أغار على جبل طرَّة وهو في طريقه إلى دارفور واصطحب معه الرزيقات والمسيرية البقارة لكي يقمعَ بهم إسحاق، ونجح في ذلك وهُزم إسحاق بالكامل وقتل[2]. عندما رجع عبد الرحمن من كردفان ترك عليها حاكماً هناك ولكن هاشمَ ظهر مرة ثانية في عام 1791م[3] وطرده منها. وكان براون في هذا الوقت في دارفور من عام 1793م حتى 1796م وهو يعطينا بعض المعلومات فيما يتعلق بمجرى الأحداث بعد رجوع هاشم إلى كردفان. ففي خلال عام 1794م تم تنفيذ الإعدام على خمس شخصيات مهمة في دارفور بتهمة القيام بمراسلات مع هاشم تتعلق بالخيانة. ومرة ثانية وعلى مشارف نهاية عام 1795م "تم حشد مجموعة من القوات وتم استعراضها لكي تحلَّ محلَّ تلك القوات التي ماتت بسبب الجدري في كردفان والتي قيل إنها تبلغ ما يربو على نصف الجيش". وقيل إن القوات المجندة الأصلية كانت حوالي 2000 من الرجال وأن التعزيزات يُبعث بها مراراً وتكراراً، ولم تنتهِ الحرب عندما غادر براون دارفور في عام 1796م. ولنعدْ إلى التونسي لمعرفة نهاية الحرب، فقد زار التونسي دارفور عام 1803م في عهد محمد الفضل، إذ يقول لنا التونسي "إن عبد الرحمن أرسل محمد كُرَّا[4] ـــ الذي كان هو وكنانة واسطةً

---

1 رواية التونسي تُستأنف من هنا. لقد زار براون دارفور في هذا العهد.

2 ناختيجال.

3 وصل براون دارفور في عام 1793م ويقول إن السلطان كان منهمكاً لمدة عامين في حرب خطيرة مع مغتصبي كردفان.

4 يشتهر محمد كُرَّا باسم «أبو شيخ» ويعطى الاسم للمخصِّي الرئيس للعائلة المالكة (إنسور وسلاطين،

رئيسة في ظفره بالعرش ـــ لخلع هاشم. وقام كُرَّا بالمهمة[1] وبقي حاكماً لكردفان لمدة سبع سنوات وهو يحكم باستقامةٍ وحكمة ويبعث دورياً بمؤنٍ ضخمة من الثروة إلى دارفور. ولكن الدساسين في دارفور سمَّموا عقل عبد الرحمن ضد كُرَّا فأرسل الأمير محمد ود علي ود جامع على رأس قوةٍ من الجيش لاعتقال محمد كُرَّا وإحضاره إلى دارفور. ولم يُبدِ محمد كُرَّا مقاومة ولكنه تبنى أسلوباً هادئاً ووقوراً وبدا أمام سلطانه بهذا الأسلوب، واقتنع عبد الرحمن بسلوكه وأعاد تنصيبه على كردفان بسلطةٍ أكبر من ذي قبل وأضفى عليه غلالات الشرف.

في عام 1799م مات عبد الرحمن وعاد كُرَّا إلى دارفور حيث أمَّن الخلافة لمحمد الفضل ابن عبد الرحمن، وبعد أن وضعه على العرش ساعده على إعادة تنظيم المملكتين[2]. إن لدينا معلوماتٍ قليلة عن هذه الفترة من تاريخ كردفان بيد أن حقائقَ مثيرةً كثيرة قد ذكرها بيركهاردت الذي زار شندي عام 1814م والتي كانت آنذاك أكبر مدينة في السودان باستثناء سنار وكوبي في الوقت الذي كان فيه المقدوم مُسلَّم يحكم كردفان من الأبيض بحاشيةٍ تتكون من 500 فارس. ويتعلق الجزء القيِّم من رواية بيركهاردت بالتجارة بين كردفان وشندي، فمن كردفان كان يأتي الفلفل الأحمر والصمغ وثمار اللالوب (من شجرة "الهجليج" ويؤكل باعتباره طعاماً لذيذاً ويعتبر علاجاً للنفاخ) وقماش الزراق القطني والحبال الجلدية والأكياس الجلدية المصنوعة من جلود الثيران وقِرَب الماء غير المخروزة والطاسات الخشبية وريش النعام، ولكن معظم التجارة تتكون من الرقيق: وقليلٌ من هؤلاء الرقيق كانوا كردفانيين، ففي الغالب الأعم يَشتري التجار الرقيق

الفصل «2»).

1 كذلك التونسي وإنسور. من ناحية أخرى يتحدث بيركهاردت (بلاد النوبة...) عن هاشم «ملك كردفان» وقد طرده «متسلِّم» من كردفان. وربما يكون هذا غير صحيح، فقد كان مسلَّم ـــ كما يقول بيركهاردت ـــ يحكم كردفان في عام 1814م، ولكن براون كان في دارفور من عام 1793م حتى عام 1796م في الوقت الذي كانت فيه الحرب مع هاشم في ذروتها وقد التقى بـ«مُسلَّم» في الفاشر (انظر براون، صـ 216): فهو يقول عنه إنه كان عبداً في القصر وأُخصي لتدخله في شئون النساء وكان مهرِّجاً جاهلاً وغير مثقف رغم كونه وزيراً رئيساً. وربما خلف محمد كُرَّا، وكان يشتهر بالمقدوم مُسلَّم، ولكن هولرويد (المجلة الملكية، فبراير 1839) يسميه تواشي إمْ سَلَمْ. كان لقب «المقدوم» يعطى لمخصِّيِي القصر فقط مثل الذين كانت ترسلهم دارفور عادةً ليحكموا المقاطعات الثانوية (انظر ونجت، المهدية...).

2 حكم محمد الفضل من 1799م حتى 1839م. وقد ثار محمد كُرَّا ضده في النهاية وقُتل.

الذين يأتون من دار فرتيت (على حدود الكونغو الفرنسي الحالية) ومن أماكن أخرى حيث تتم عملية الشراء في دارفور ومن هناك يتحركون إلى الأبيض حيث يرتاحون لفترةٍ قصيرة مع أسرهم وبعد ذلك يتحركون إلى شندي حيث تكون لهم عموماً أسرة ثانية جاهزة لاستقبالهم. ويقوم هؤلاء التجار لدى وصولهم إلى شندي ببيع الرقيق ويشترون ببعض العائدات الخرز الذي يشترون به دفعة ثانية من الرقيق في دارفور، ويمكن تصور الأرباح التي يجنيها هؤلاء التجار إذا كانت الــ1000 خرزة تكفي لشراء ست إماء في دارفور. ويُستورد العطرون أيضاً من دارفور إلى شندي. وكانت الواردات من شندي إلى كردفان هي حجر الكحل والخرز وخاصة خرز العقيق[1] والتوابل والأدوات المنزلية والدمور والمواد القطنية والحرير والبن.

إن الأحداث التي قادت إلى الفتح المصري لكردفان عام 1821م يمكن إيجازها باختصار في الآتي:

هزم محمد علي سلالة المماليك الحاكمة في عام 1811م ورغب في أن يكون مستقلاً عن الهيمنة التركية وكان المال والرجال مطلوبين لهذا الهدف وأن السودان سيعطيه فرصة للحصول على كليهما، كما أن حبه الغريزي للفتوحات والمشاريع الكبيرة شجعه أيضاً على المضي إلى الأمام. ووفقاً لذلك فقد غزا دنقلا واستولى عليها وأرسل جيشاً لمهاجمة سنار وجيشاً آخر إلى كردفان تحت قيادة صهره[2] محمد بك الدفتردار. وغزا الدفتردار كردفان

1 يذكر بروس ثلاثة طرق كبيرة للقوافل في كردفان بين 1768م و1773م:

(أ) طريق القوافل الكبير من النيجر إلى القاهرة الذي يمر شمال الحرازة بحوالي 60 ميلاً قادماً من اتجاه الجنوب الغربي ويسير إلى القاهرة عبر موضع يقع غرب النيل بمسافة 50 ميلاً تقريباً و30 ميلاً جنوب مدار السرطان ويسير من هناك في اتجاه الشمال.

(ب) طريق القوافل إلى مكة عبر سواكن الذي يأتي من الغرب ماراً شمال الحرازة بمسافة 30 ميلاً إلى موضعٍ على النيل يقع شمال الحلفاية (أي الخرطوم بحري) بمسافة 10 أميال.

(ج) الطريق الثاني يعبره طريق القوافل القادم من دارفور إلى مكة عبر دنقلا من اتجاه الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي (في موضعٍ شمال الحرازة بمسافة 30 ميلاً). انظر الخريطة الملحقة بكتاب بروس.

2 تزوج محمد بك الدفتردار نازلي هانم ابنة محمد علي (انظر ولكينسون، مصر الحديثة...، المجلد «1»، صــ 199).

التي كانت تحت حكم المقدوم مُسلَّم عن طريق كَجْمَر[1] وذلك بواسطة 4000 من الفرسان والمشاة وعشر قطع مدفعية وحوالي 1000 بدوي. وفي شمال بارا التقى بجنود كردفان قليلي الخبرة تحت قيادة المقدوم مُسلَّم[2]، فالأسلحة النارية لم تكن معروفة بالنسبة لجنود المقدوم مُسلَّم: كان الفرسان مسلحين بالسيوف ويرتدون الدروع وخيولهم مزيّنة بقطع النقود النحاسية، وكان المشاة ــ أي معظم جيش كردفان ــ مسلحين بالدروع الخشنة والسهام والفؤوس وكانوا عراةً تقريباً. وعلى أية حال فقد أبدوا مقاومة أكثر بسالة وكان النصر في الواقع متكافئاً حتى قتل المقدوم مُسلَّم بواسطة شيخٍ جميعابي، وبعد ذلك تفرق الكردفانيون وفرُّوا، واستبيحت بارا وبعد يومين من استباحتها لاقت الأبيض ذات المصير حيث وقعت ثروة عظيمة في أيدي الأتراك. وحدثت آخر مقاومة من جانب الكردفانيين في دار حَمَر حيث كسب الغزاة مزيداً من النصر بعد فترة قصيرة، وتم آنذاك إخضاع كردفان كلها باستثناء الجبال الجنوبية، ودخلت كردفان في أسودِ فترةٍ من تاريخها. صحيح شهدت كردفان سابقاً حروباً واضطراباتٍ ولكن الضرائب كانت خفيفة وكان الحكام عادلين وفقاً لمعيار وقتهم. ولكن الآن تغير كل ذلك، فقد استولى عنصرٌ أجنبي على البلاد وأصبحوا يديرونها حصرياً لمنافعهم الخاصة وفي تحدٍّ للعدالة ولأيِّ قانونٍ من قوانين الإنسانية. لقد كان الدفتردار حيواناً مرعباً

---

1 قيل إن الأتراك تحركوا مسافرين في شهور الشتاء وسلكوا الطريق التالي من دنقلا: الحفير، العُرضي، الخندق، أبو قتسي، الدبة (وهنا غادروا النهر)، أم بليلة، العامري، الهوبجي، الصافية، أم مصارين، جبل الحرازة، جبل العطشان، كجْمَر، القرناية (أم نالة)، أم دايوكة الفكي، بارا، أم سوط، الغبوش، كريتة، فولة كُرباج، الأبيض. كان يمكن أن تكون الحرازة أكثر موضع مواتٍ لحاكم كردفان لكي يعوق تقدم الدفتردار كما يشير إسكيارك دولوتور في كتاب «الصحراء»... صــ 439، فقد أشار المؤلف قائلاً: «في عام 1821م طلب الشيخ الذي تؤول إليه القيادة المحلية لهذه الجبال من سلطان دارفور القوات الضرورية لصد هذه المسيرات العسكرية حيث تعهد بإيقاف الزحف الظافر للجيش المصري وإبادته إبادة كاملة، ولكن سلطان دارفور لم يدرك إلا بعد فوات الأوان أهمية جبل الحرازة الإستراتيجية الذي مرَّ به المصريون الذين إذا قدَّر لقائدهم أن يستسلم فسيؤخذ أسيراً ويقطع رأسه».

2 يقول هولرويد إن «إمْ سلام» قد عاونه «إبراهيم إدور» أحد سلاطين دارفور. كايو يدعو مسلَّم بــ«سالم». ويقول بودج: «إنه عندما عبر إسماعيل بلاد النوبة في عام 1820م حاول الكاشف حسين سليمان أن يمنعه ولكنه بعد ذلك هرب إلى كردفان بصحبة 300 عبد وقتل المقدوم مسلَّم وأخذ حريمه وثروته إلى سلطان دارفور الذي تزوج ابنته». ويتحدث بودج أيضاً لاحقاً عن الدفتردار بأنه استولى على كردفان ومن بعد ذهب إلى شندي ليثأر لمقتل إسماعيل من قبل الشايقية وعاد فيما بعد للاستيلاء على الأبيض. ومما لا شك فيه أن الدفتردار هو الذي تقاتل مع المقدوم مسلَّم.

في الأعمال الوحشية غير الإنسانية إذ تُحكى القصص البشعة عن الانتهاكات التي ارتكبها هو وخلفاؤه[1]. فالمال وإشباع الشهوات كانت أهدافهم الوحيدة، فهم لم يسحقوا الأهالي تحت كعب الحذاء الحديدي فحسب بل غرَّروا عَرَضاً بحكومتهم ذاتها على حساب الأهالي ولدى كل منعطف. إن استبداداً عسكرياً ذا سلطةٍ تخول له إيجار المراكز الإدارية التي تحت تصرفه إلى المزايدين الذين يعرضون سعراً أعلى لا يمكن له بالكاد أن يعمل لصالح الأهالي تحت الظروف الأكثر ملاءمة: فعندما يكون الطغاة لا ضمير لهم البتة وكذلك المزايدون الناجحون ستكون النتائج باعثة على الأسى، وقد كان هذا هو الحال في كردفان. إن مجموعة القوانين واللوائح التي تُحال بها المسائل ذات الأهمية إلى القيادة الرئيسة وقاضٍ مؤهل يحكم في الأحوال القضائية ليس لها سوى فائدةٍ قليلة حيث يتم تجاهل القانون بالحصانة عندما يكون المحك الوحيد لمزايا الإجراء الإداري هو كمية المال التي يجنونها بسرعة وحيث يكون القاضي ألعوبةً ويكون الحاكم في السلطة العليا مستبداً جائراً. ومع ذلك فقد كان هذا هو حال الأمور في كردفان خلال الشطر الأكبر من القرن التاسع عشر، فالمديرية التي كانت حدودها الإدارية هي جبل الحرازة في الشمال وجبل قدير في الجنوب وحدَّاً يبدأ من كاجا إلى الهُوَيْ في الغرب[2] قد تم تقسيمها إلى أربع مناطق،

1 انظر بالمي، صـ 17ـــ 26 وانظر بثريك، صعيد مصر، صـ 276ـــ 281.

2 يتحدث بيركهاردت في كتاب (بلاد النوبة) عن أم صميمة الواقعة على مسافة ثلاثة أيام غرب الأبيض بأنها كانت تقع على حدود كردفان ودارفور في عام 1814م. ويقول بالمي، (صـ 1): «تمتد كردفان في الشمال من الحرازة إلى الكُدرو في جنوب جبال النوبة وشرقاً من كاكيا [أهي كاجا؟] إلى جبال الشلك أو الشلوك حوالي أربع درجات من خط الطول». ويقول مرة ثانية (صـ 2): «ليس لكردفان أقسام إدارية على بحر أبيض أو النيل الأبيض لأن القرى الأقرب إلى هذا البَحَر تقع على مسافة حوالي أربع ساعات مشياً من ضفته. فالقبائل البدوية التي تقطن الشاطئ الغربي والتي تنتمي لدوائر سنار مختلفة اختلافاً كاملاً عن أهالي كردفان».

الهُوَيْ (الخُوَيْ) ذكرها بارون فون مُلر (1847م ـ 1849م) بأنها تقع على حدود دارفور حيث قال: إن قرية مَرْكَب تقع في دارفور. ويلاحظ براوت (1876م) أن الحدود الغربية تسير قرب كاجا (جهة الشمال) وأبو حراز (جهة الجنوب). إن الحد الغربي على كل حال لم يحدد تحديداً مضبوطاً أبداً ويتغير في الأوقات المختلفة، لكن كان الاتجاه الواضح هو توسيع كردفان على حساب دارفور. ويتضح أيضاً أن حداً تقليدياً كان لبعض السنين السابقة لعام 1877م قد تم رسمه شمالاً وجنوباً عبر جبل بعشوم، وكان سلطان دارفور في عام 1902م ما يزال يدعي هذا باعتباره حداً نافذ المفعول. إن الحد التقريبي الحالي الذي يسير غرب أم بادر وكاجا السُّروج ومنطقتي مومو والمجلد قد تم تثبيته بشكلٍ تقريبي في عام 1877م بعد فتح دارفور بواسطة الزبير، ولكن أعيد تعديله وتصحيحه بتفاصيل صغيرة منذ إعادة الاحتلال. وقد ثارت النزاعات حول الموضوع في عام 1903م وبعد إقرار التسوية تم تثبيت الحد حيث

هي: خرسي وبارا والتيارة وأبو حراز[1]. وبعد استدعاء الدفتردار في عام 1822م كان حاكم المديرية عموماً هو قائمقام القوات في الأبيض[2] وكان تحت إمرته "الكشَّاف" وهم الضباط المسؤولون عن المناطق كما كان تحت إمرة الكشَّاف الموظفون الأدنى درجة والموزعون في المحليات النائية. وكان الحاكم والكشَّاف من الأتراك وكان كتبتهم في العادة من الأقباط، أما الموظفون المرؤوسون فهم عموماً أشخاص متعلمون ذوو نفوذ وينتمون إلى القبائل النهرية أو يكونون أحياناً من أهالي البلد. فبين المواطن وهذا الحشد من المغامرين المتلهفين لإثراء أنفسهم ـــ قبل أن يدخل منافسٌ طامح يزايد لصالح الحاكم ـــ يقف فقط المشائخ المحليون ونظام جباية الضرائب وهو الشيء الوحيد ذو الأهمية الذي يقتضي عادةً سلب المواطن للمصلحة الخاصة بدرجات مختلفة لأي شخصٍ يعلو عليه في السلطة بما في ذلك مشائخه ذاتهم. لم تكن الضرائب والرسوم الجمركية في مستوىً ثابت أو نسبة مضبوطة وكان يتحصلها "الكشَّاف" ومرؤوسوهم نقداً أو عيناً أو رقيقاً وهي دائماً في زيادة بنسبة يحددها الحاكم أو بالمصادرة العاجلة. وإذا استنزفت منطقة ضريبياً ولم تفِ بعد بالربط المقدَّر فإن العجز سيُنتزع من منطقةٍ أخرى. كان العدلُ اسماً فقط حيث يُستخدم التعذيب لانتزاع الاعترافات وتُنزل العقوبات البربرية لسوء الأفعال أو عدم لين الجانب. إن الفقرات التالية من رحلات بالمي في كردفان تعكس فكرةً ما عن حالة الأمور:

1. [3]"تجبى العائدات جزئياً نقداً وجزئياً عيناً، أي في شكل محاصيل أو رقيق، فليس ثمة تدابير منهجية في الأسلوب الذي تجبى به الضريبة... في عام 1838م أُرغمت البلاد على أن تدفع إضافةً إلى الرسوم النقدية وعلاوةً على الماشية كذلك الزبدة والرقيق و4000 أردب (حوالي 118000 جوال) من الذرة أو الدخن، وأن تدفع قبائل البقارة الرحل 12000 ثوراً وبقرة. وتُستلم الماشية من القرويين فقط

يسير في الوقت الحالي من غرب أم بادر عبر جبلي درساني وسكينجو، ومن هناك يتجه جنوباً إلى أبو طوق، ومن هناك يأخذ اتجاه الجنوب الغربي إلى شرق أم شنقة عبر جبل الكبش وعلى اتجاه الجنوب غرب منطقة الزلطة إلى حفير عُقر، ومن هناك يتجه جنوباً ويميل إلى الشرق قليلاً نحو بحر العرب.

1 لم تكن كجْمَر منطقة ـــ كما يقول بالمي ـــ لكنها كانت مركزاً عسكرياً فقط لجمع الجزية من البدو.

2 أخذ هذا التقرير عن المديرية أساساً من بالمي.

3 كتاب بالمي «رحلات في كردفان»، صـ 37ـــ 39.

عندما لا يستطيعون الدفع نقداً حيث تأخذ الحكومة الثور الضخم آنذاك بقيمة 35 قرشاً (حوالي 9 أشلان أسترلينية). فخلال سنين عديدة كان يُرسل إلى القاهرة سنوياً 8000 رأس من الأبقار القرناء حيث يُهلك الجزء الأكبر منها في الطريق... إن من المستحيل أن تصف القسوة التي تجبى بها الضرائب، ومن الغريب حقيقة أن يكون من الممكن بعدُ استنزاف بلادٍ ـــ حيث تمارس تجارة قليلة ـــ من هذه المبالغ الضخمة سنوياً... وفي الواقع أن الناس سيُرغمون في النهاية على الهجرة مثلما فعلوا سلفاً من مناطق عديدة أو ستكون النتيجة تمرداً عاماً... فالجفاف أو زيادة معدلات الأمطار قد تتسبب في فشل موسم الحصاد أو قد يلتهمه الجراد التهاماً كاملاً، وعلاوة على ذلك فإن الماشية قد تقع فريسة للأمراض الوبائية، ولكن لم يؤخذ أيٌّ من هذه الظروف في الاعتبار وأن الضرائب قد فُرضت بدون رحمةٍ أو رأفة... وعندما لم يترك لقريةٍ ما شيء تدفع به ضرائبها فإنها ترغم على أن تقدم عدداً معيناً من الرقيق ليتم استيعابهم مجندين في الأفواج المختلفة أو ليباعوا علناً، وفي الحالة الأولى فإن الحكومة تستلم هؤلاء الرقيق بقيمة 150 قرشاً إلى 300 قرشاً (... من 30 شلناً إلى 3.10 جنيه أسترليني) للرأس، أما الأطفال فبقيمة 30 قرشاً أو أكثر ولكن يكونون دائماً أقلَّ من سعر السوق وذلك لكي يكسب محمد على تاجر الرقيق الكبير شيئاً عبر الصفقة على حساب مرؤوسيه المضطهدين. إن نسبة كبيرة من الرسوم تدفع آنذاك في شكل رقيق".

2. [1]"يقوم نائبُ ملك مصر سنوياً ـــ مرة أو مرتين خلال السنة ـــ بعملية اقتناص فعلية في جبال النوبة وفي البلدان المجاورة ويقبض على عددٍ معين من الزنوج عن طريق الحيلة أو بالقوة وذلك لكيما يدفع المتأخرات المطلوبة إلى جنوده في كردفان بهؤلاء الناس التعساء بدلاً عن الدفع بالنقود الجاهزة أو لكيما يزيد عائداته ببيع بني جنسه من الكائنات البشرية.... ويقع عبءُ هذا المصير الدموي بأشدّ ما يقع على سكان جبال النوبة التعساء، ففي عام 1825م أي بعد أربعة أعوام من عملية الفتح قدِّر عدد العبيد الذين اقتيدوا إلى الأسر بأربعين ألف، وفي عام 1839م ارتفع العدد الكلي إلى مائتي ألف على الأقل دون اعتبار أولئك الذين سرقهم البقارة واشتراهم الجلابة".

---

1 كتاب بالمي «رحلات في كردفان»، صـ 306 وما يليها.

يبلغ عدد القوة التي تشارك في عمليات اصطياد الرقيق عادةً ما بين 1000 إلى 2000 جندي نظامي ومن 400 إلى 800 مَغربي ومن 300 إلى 1000 من الأهالي، كما أن الذرة واللحوم المطلوبة للقوة كان يتم الاستيلاء عليها بالطبع أينما وُجدت بدون أيِّ مقابلٍ يدفع لها. ولا يمكن أن يقال إلا القليل عن الأحداث الفعلية التي وقعت في كردفان من عام 1821م وحتى طرد الأتراك، ففي أكتوبر عام 1822م وفي الوقت الذي كان فيه الدفتردار منهمكاً في تدمير كردفان من أجل لَهْوِه الخاص اغتيل إسماعيل نجل محمد علي ـــ بعد أن فتح سنار ـــ على يد الملك نمر "مك" الشايقية في شندي. وزحف الدفتردار فوراً على رأس قوةٍ إلى شندي حيث أعملَ فيها وفي المتمة السيف وتعقب المتمردين إلى جزيرة توتي وهزمهم مرة ثانية ثم عاد إلى كردفان[1]. وفيما بعد استدعي الدفتردار حالاً إلى مصر بواسطة محمد علي الذي أُخطر بعددٍ من الشكاوى التي تلقاها وبأخبار ثوراتٍ صغيرةٍ عديدة مفادها أن هناك حداً ليس من الحكمة تجاوزه للتجبر على الأهالي. ومات الدفتردار عام 1838م حيث قيل إن حماه قام بتسميمه[2]. إن إقصاء الدفتردار لم يُحدِث تغييراً كثيراً في المناهج التي كان يستخدمها في الإدارة، فربما يكون قد تم مؤقتاً تنفيذ شيء من التحسين الطفيف في حالة الأمور ولكن ظل النهبُ والاختلاس هما كلمة السر لحكام كردفان، ولا يبدو أن هناك شيئاً غير المألوف قد حدث خلال هذه السنين[3]. كان وسط كردفان في حالة إذلالٍ مدقع واستنزف تدريجياً من كل ثروته وهاجر كثيرٌ من سكانه إلى دارفور والجبال الجنوبية. أما البدو في الشمال فقد دفعوا كثيراً من الجزية بأكبر قدرٍ يمكن اغتصابه منهم وابتزوا في عقود نقلهم، وفي الجنوب تؤخذ سنوياً رسومٌ باهظة من البقارة، كما أن الحكومة والبقارة يُغيرون معاً أو بالتناوب على "الجبال" من أجل الرقيق. ولكن هناك "جبلَيْن" ـــ ورد ذكرهما آنفاً ـــ قد صدَّا كل محاولات

1 انظر ستيوارت.

2 يوجد تقرير عن الدفتردار في كتاب ولكنسون (مصر الحديثة وطيبة)، المجلد «1»، صـ 199.

3 جدير بالملاحظة أنه عندما كان الرائد/ دنهام والنقيب/ كلابرتون في سكوتو في شهر أغسطس 1824م استلما خطاباً من شيخٍ في برنو يقول فيه «تقول الأخبار الواردة من الداخل إن... حاكم الفور أرسل أيضاً جيشاً ضد الأتراك الذين يوجدون في كُرْدَفال أو كُرْدُفال وقيل إنه خاض معركة في مكانٍ يسمى كاجا حيث انتهت بهزيمة جيش الفور وقتل ثلاثة من أعيانهم علاوة على ما سقط من جنود، ولكن الزعيم المذكور يعمل على حشد جيش أكبر ينوي إرساله في مجابهتهم» (انظر قصة الرحلات...، بقلم الرائد دنهام، والنقيب...).

إخضاعهما بشكلٍ كامل، وهذان الجبلان هما جبل الداير وجبل تقلي. وجبل الداير بالذات لم يتم إخضاعه أبداً رغم أنه هُوجم مرةً تلو المرة، فسكانه الأقوياء كانوا يعيشون بواسطة النهب وأغاروا غاراتٍ ناجحة في اتجاه الشمال حتى وصلوا المِلِبس، بل حتى "الجلابة" كانوا يترددون في زيارته. ومن الناحية الأخرى كان جبل تقلي يدفع الجزية بناءً على طلب البلاد ولكن عندما يحاولون ابتزازه كالعادة فإنه يدلف إلى حالة من التمرد السلبي كما أن سلسلةً من الحملات التي تُشنّ عليه لم تُحدث شيئاً لحوالي عشرين عاماً[1]. كان سكانه مسلمين وفيهم مزيجٌ كبير من العناصر الفونجية والفوراوية وينضم إليهم من وقتٍ لآخر أشخاصٌ مشاغبون من وسط كردفان، وكانوا يعيشون تحت سلطانٍ ذي حكمٍ مطلق وكانوا جميعاً في حالة حضارةٍ أكثر تقدماً من أيٍّ أناسٍ آخرين من الجبال الجنوبية. ولم يمنعهم رفضهم لدفع الجزية من ممارسة التجارة بحريةٍ مع "الجلابة" وخصوصاً الاتجار في العاج وفي الرقيق الذي يُقبض من الجبال المجاورة[2]. وقيل إنه تم إخضاعهم في وقتٍ ما في منتصف القرن عندما كان نصر هو "الملك" وأُمروا بدفع 90 عبداً بالغاً و380 أوقية من الذهب سنوياً[3]، ولكن يبدو أن النتيجة كانت نفس الشيء تقريباً كما كانت في السابق، فقد تهربوا باستمرار من الدفع وأحبطوا كل المحاولات التي بذلت لإرغامهم.

1 أعدَّ خورشيد باشا نفسه حملة ضد تقلي عندما كان حاكماً عاماً بين عامي 1826م و1834م.

2 إن بارون ج. دبليو. مُلر القنصل العام النمساوي في إفريقيا الوسطى (1847م ــ 1849) يقدِّر الاستيراد السنوي من العاج من تقلي ما بين 60 إلى 100 قنطار، ويقول إن السعر المألوف للعاج ذي الطراز الأجود كان ما بين 850 قرشاً إلى 900 قرشاً نقداً للقنطار و1050 قرشاً إذا دُفع النصف نقداً والنصف سلعاً، و12000 قرش مقابل الثلث نقداً ومقابل الثلثين سلعاً (مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، المجلد «20»).

3 كان بالمي في كردفان في عام 1839م وتحدث عن تقلي باعتبارها ما تزال مستقلة. ويقول بثريك في عام 1836م «تكلا أُخضعت ورغم أنها لم تمنح حامية لكنها كانت تابعة لمصر بدفع ضريبة سنوية من الرقيق والذهب»، انظر رحلات في إفريقيا الوسطى، المجلد «2»، صـ7. ويصف إسكيارك دولوتور وهو يكتب بين تاريخي بالمي وبثريك (صـ 453) كيف أن حاكم كردفان مصطفى باشا ألقى القبض على نصر شقيق الملك الحاكم في غارةٍ واعتقله. ووعد نصر مصطفى باشا بأنه إذا وضع تحت إمرته مجموعة من المشاة فإنه سيستولي على تقلي ويدفع جزية قدرها 4000 عبد سنوياً، وقد نجحت هذه الخطة إلى الدرجة التي استولى فيها نصر فعلاً على تقلي وقتل شقيقه. وكانت خطوته التالية أن يوطِّن جنود مصطفى باشا السود في تقلي ليتمتعوا بالأراضي والزوجات ويقوم بقطع حناجر الضباط. وغنيٌّ عن القول إنه لم يدفع جزية في هذا الوقت وقد حاول الحكام المتعاقبون إزاحته ولكنهم لم ينجحوا.

ولندلف الآن إلى كردفان الأصلية: فقد استمرت الأمور في حالتها الرديئة، وفي حوالي 1838م ـــ 1839م ذهب محمد علي إلى الخرطوم وأجرى تحقيقاتٍ في كثيرٍ من الانتهاكات التي سمع عنها من جواسيسه الكثر. لقد خُلع[1] حاكم كردفان محمد بك ـــ وهو وغدٌ من أسوأ طراز ـــ كما قدّم إلى المحاكمة كل ضباط الأركان وتسعة ضباط آخرين وأقباط، ولكن لم تكن النتيجة ذات فائدةٍ للناس لأن إدانة الجناة تمخضت فقط عن مصادرة محمد علي لممتلكاتهم. وفي ذات الوقت استدعى نائب الملك كثيراً من المشائخ إلى الخرطوم وكان من بينهم شيخ الكبابيش، فهذه القبيلة اضطهِدت اضطهاداً واضحاً وشكواهم كانت شكوى معيارية: فمعظم ترحيل الصمغ كان على أيديهم، وكان المتوقع منهم أن يُسلِّموا الصمغ في نهاية الرحلة بنفس الوزن كما تم تسليمه لهم ولم يؤخذ في الحسبان فقدان الوزن بسبب الحرارة. ورغم ذلك فإن العجز الذي أُرغموا على تسديده تم تقديره وفقاً للأسعار في الإسكندرية. والشيء الثاني أن الأجرة التي تدفعها الحكومة للجمل الواحد الذي يحمل السلع من الأبيض إلى الدبة هي 45 قرشاً فقط، وهذا المبلغ الخاضع لتخفيضاتٍ تعسفيةٍ مختلفة كثيراً ما يُدفع سلعاً قطنية يُغالى مغالاةً فادحة في قيمتها. وكان شيخ القبيلة يُحمَّل شخصياً المسؤولية عن كل الخسائر، ففي واحدةٍ من الحالات عندما هجر الكبابيش حمولة 17 جملاً من الصمغ والجلود في الطريق أجبرت السلطات في الأبيض الشيخ على دفع 30000 قرش رغم أن قيمة السلع كانت حوالي 1000 قرش وأن الصمغ والجلود وصلت أخيراً سالمة إلى دنقلا. وقد استرضى محمد علي الكبابيش برفع نسبة حمولة النقل من 45 قرشاً إلى 80 قرشاً، لكن الانتهاكات استمرت فالمبلغ ما بين 45 قرشاً إلى 60 قرشاً الذي يدفعه "الجلابة" نقداً كان يفضل دائماً على مبلغ الـ80 قرشاً الاسمي الذي وعدت به الحكومة. كانت إصلاحات محمد علي على العموم غير ذات قيمة لأيِّ أحد إلا له هو نفسه، فقد ترك نظام غارات الرقيق على طبيعته رغم أن الاحتجاجات الأوربية أجبرته دورياً على التظاهر بمنعه، ففي عام 1838م طلب 5000 عبد من كردفان وتحصل عليهم. يورد بالمي تقريراً صادراً من الأبيض ظهر في 1838م ـــ 1839م وكرره

---

1 انظر بالمي، صـ 42، 114، و264ـــ 266. كان محمد بك عقيداً بالفرقة الأولى من القوات وهو قوقازي بالميلاد. وقد جئ به إلى مصر عبداً وكان جاهلاً بليداً مغروراً خرافياً، وقد خلف مصطفى بك حاكماً لكردفان في عام 1835م أو 1836م (انظر هولرويد). في عام 1827م كان واحدٌ اسمه رستم بك حاكماً (انظر لينانت) ولكن تاريخيْ تعيينه ونقله مجهولان.

بثريك جزئياً، وأدناه النقاط الرئيسة المثيرة للاهتمام:

بعد أن استولى الأتراك على الموضع (الأبيض) أعادوا بناءه في شكل ستة أجزاء (حارات): واحدة سكن فيها الدناقلة والتجار وواحدة (الأورطة) ضمت المباني الحكومية والسوق وواحدة تتكون من السود القادمين من دارفور وواحدة للحجاج الفلاتة وواحدة للكنجارة وواحدة للقوات غير النظامية (المُغربين). ويسكن في حي الكنجارة السلطان تيما المُخَصِّي الرسمي للصبية الأرقَّاء، فقد كان الطلبُ كبيراً على هؤلاء الخصيان لحراسة الحريم في مصر، وكانت أجرة عملية إخصاء الصبي حوالي 150 قرشاً ولكن حوالي نصفهم تقريباً مات تحت العملية.

كان العدد الكلي للسكان حوالي 12000[1] – وكان الأهالي يعيشون في أكواخ من القش مكتظة اكتظاظاً لصيقاً مع بعضها وكان الموضع كله متسخاً وسيئ التنظيم. كان هناك أربعة مساجد من القش وواحد من الطوب وكانت مباني عامة الناس ومباني الموظفين من الطين، وكانت المشنقة مواجهة للمباني الحكومية وكان السوق بالقرب منها. ويبدو أن المؤن والحيوانات رخيصة جداً في هذا السوق، فأكبر خروف تكلفته ما بين 15 قرشاً إلى 18 قرشاً ويمكن شراؤه في القرى خارج الموقع بستة قروش كما أن أفضل الجمال يباع بمعدل 150 قرشاً أما سعر الجمال العادية فما بين 40 قرشاً إلى 80 قرشاً[2]–. ويتولى الدلالون كل يوم تجارة الرقيق حيث تبلغ تكلفة الصبية والفتيات من الرقيق الذين تتراوح أعمارهم من 10 سنوات إلى 15 سنة ما بين 100 قرشاً إلى 300 قرشاً، وأن سعر العبيد الآخرين يختلف باختلاف الطلب.

يقول بالمي إنه قبل حوالي 15 سنة من زيارته للأبيض كان الماء هناك بعمق 20 قدماً تحت السطح ولكن في عهده كان الماء بعمق 50 قدماً. ويقول بثريك الذي مكث

---

1 قدَّر هولرويد (1836م ــ 1837م) عدد السكان بـ30000 نسمة. وفي كل سنة يكون السكان في موسم الجفاف ضعف العدد في موسم الأمطار تقريباً وذلك عندما يرتاد السكان الزراعة ويكون لديهم الماء الوفير في القرى المجاورة، ومن هنا جاء الاختلاف في تقديرات بالمي وهولرويد. في عام 1908م وُجد العدد الأقصى لسكان الأبيض 12000 نسمة، أي كما كان في عهد بالمي.

2 في عام 1847م وجد بثريك الأسعار التالية مألوفة في الأبيض (انظر صعيد مصر، صــ 285): سعر البعير 150 قرشاً، سعر البقرة أو العجل 45 قرشاً، سعر العِجْلة ما بين 25 إلى 35 قرشاً، سعر الشاة 5 قروش، سعر بوشل الذرة 3 قروش. وكانت قيمة القرش التي استخدمها بثريك آنذاك هي نفس قيمته الآن، أي أن الخمسة قروش تعادل واحد جنيه أسترليني.

في البلاد من عام 1848م إلى عام 1853م: "إن الآبار ــ وهناك كثير منها في لوبيِّض ــ تغور إلى عمقٍ يتجاوز في بعض الأوقات مائة قدم... ولكن هذه الآبار تنتج ماءً ثقيلاً ومالحاً باستثناء بئرين أو ثلاث آبار..."[1]. ويقول بالمي فيما يتعلق بالقوات إنها تتكون من ثلاث كتائب من الجنود منهم 1000 جندي سوداني و800 جندي غير نظامي من المُغربين وحوالي 40 جندي مدفعية وحوالي 200 من الباشبوزق (فرسان أتراك غير نظاميين):ــ "لم التق أبداً من بين كل جنود مِحِمد علي... بفوج مجهزٍ تجهيزاً رديئاً ومدربٍ تدريباً سيئاً وعاجزٍ عجزاً كاملاً في الانضباط كهذا الفوج"[2]. كانت أسلحتهم في حالةٍ مخزية وكان التمرد متفشياً والاستهتار سائداً. كان مرتبهم 20 بارات في اليوم وحصة من الطعام، ولكن كثيراً ما يجب عليهم أن ينتظروا اثني عشر شهراً كاملة وأن متأخراتهم تسدد حينذاك بالرقيق أو الجمال. وكثيراً ما يحدث في هذه المناسبات أن يستقبل الولد أباه أو أخاه بدلاً عن المرتب. ويدفع للجنود الأطفال مرتبهم اعتباراً من تاريخ ميلادهم، وعندما يصيرون كباراً يتم تسجيلهم طبَّالين أو زمَّارين. ويقول بالمي إن قائداً جديداً تم تعيينه وأحدثَ قدراً من الإصلاح، ووجد الجنود المُغربون غير النظاميين أنفسهم يرتدون زياً ويمتطون الخيول ومجهزين بجهازاتٍ لكن دون أي أملٍ في تعويض في حالة حدوث خسارة، فقد تم تسليحهم ببندقيةٍ طويلة ومسدسيْن وسيف. وتم تقسيم معظمهم إلى أرباع في الأبيض ووزعت البقية إلى المناطق. أما تدابير المستشفى بالنسبة للجنود فيمكن أن توصف فقط بأنها مبتذلة:ــ "إن الأطباء والصيادلة المصريين نادراً ما يتخرجون من المدارس الابتدائية ويوضعون في مكانهم اللائق، فهم يعالجون الجنود المرضى كالماشية ولا يحلمون أبداً في التشخيص ويحددون طبياً أي شيءٍ يدخل في رؤوسهم وقليلاً ما يكترثون بأنهم ينقذون حياة رجل أو أنهم يقتلونه... إن أيَّ أوامرٍ تصدر على مبدأ "الله كريم". كان الحَمَر ــ أكبر مالكي الإبل في البلاد في ذلك الوقت ــ يمدّون الجنود بجمال النقل، كما كانت ذات القبيلة مسؤولةً عن حماية حدود دارفور وكثيراً ما تُعيرهم الحكومة مجموعة من الخيالة لتساعدهم بها على شنِّ الغارات داخل دارفور للاستيلاء على

---

1 انظر «صعيد مصر، صــ 306 وما يليها. في عام 1911م كان معدل عمق الآبار في المدينة حوالي 18 متراً، وكانت توجد من بينها أيضاً آبار ضعيفة عمقها 13 متراً كما توجد على الأرض العالية آبار قليلة عمقها 28 متراً. ومعظم هذه الآبار عذبة الماء.

2 انظر بالمي، صــ 200.

البهائم التي يدفعون بها جزيتهم.

إن أثرى أثرياء القبائل وأفضلهم تعليماً كانوا هم الدناقلة الذين كانوا تحت حماية الأتراك حيث وظَّف الأتراك أكبر قدر منهم في الإدارة، وعملياً كانت كل تجارة الصادر في أيديهم كما تاجروا أيضاً في الرقيق والعاج في الجبال الجنوبية، ويصفهم بالمي بعدم الأمانة والكذب وأنهم أكثر ولعاً بالكونياك. أما البقارة فقد عانوا معاناةً كبيرة على أيدي الأتراك حتى قبل زيارة بالمي بوقتٍ قصير عندما مُنع تصدير الماشية من مصر، فقد كانت الجزية دائماً تجبى منهم عيناً بواسطة الجنود، وكان عليهم أن يرضخوا لعمليات السلب التي تقع عليهم من جانب متحصلي الضرائب الرسميين ناهيك عن الـ8000 أو الـ9000 رأس من الماشية التي تنتزع منهم كالعادة، ولكن من ناحية أخرى كان يُسمح لهم بإطلاق يدهم بحريةٍ كاملة ليغيروا على الرقيق وسط جبال النوبة. إن أفضل ما يمكن أن يقوله بالمي عن حالة الأمور هو أن يوسف بك الذي خلف محمد بك في عام 1839م حاول تحسين انضباط الجنود وتحسين أسهم نصيبهم، ذلك أنه كان أكثر رفقاً وأقلَّ تعسفاً في نهج تصرفاته وبالتالي كان الرحالة الأوربيون في قليلٍ من الخطر. ولم يقل بالمي شيئاً سيئاً بما فيه الكفاية عن حالة البيئة، فلقد مات ستة إنجليز من بين الثمانية إنجليز الذين أتوا إلى البلاد للعمل في تنقيب المناجم، فقد كانت الحُمِّيَّات والإسهالات والدمامل وداء الاستسقاء والجدري والزهري وبراغيث النمل متفشيةً (حيث أتى بها الجنود المصريون معهم). يقول بالمي: "لم أمرَّ في كل رحلاتي ببلادٍ البيئة فيها غير صحية وحيث توجد مختلف أنواع الأمراض مثل كردفان". لكن يجب أن نعزي الأحوال التي وصفها بالمي إلى غياب الوسائل الصحية وإلى حالة العيش الملوثة التي تتبناها الكثافة السكانية طالما أن كردفان الواقعة شمال الجبال الجنوبية هي الآن عموماً أبعد ما تكون عن كونها غير صحية ربما باستثناء شهر سبتمبر. ويقول بالمي عن التجارة: "إن الاحتكار الذي تحظى به الحكومة المصرية في هذه المديرية يعوق بصورة عامة التجارة إعاقة كاملة، فالسلع التجارية الرئيسة لا تُشترى فحسب بواسطة السلطات التي يحميها فضلاً عن ذلك قانونٌ يحظر أي شخص آخر من إدخالها إلى السوق بل إن الرسوم الكبيرة التي تفرض على السلع تجعل من المستحيل تصديرها إلى مصر، وينطبق هذا القانون خاصة على العاج. لذا فإن أي شخص مُرغم على البيع للحكومة". ويقول بالمي مرة ثانية: "إن سلع الصادر

هي: الصمغ والجلود وأوراق السنمكة والعاج وقرون وحيد القرن والماشية وتمور الهند وريش النعام وبيض النعام والذهب في شكل خَتَم أو في شكل شذرات وقِرَب الماء والملح والتبغ والسمسم والرقيق. والسلع الثلاث المذكورة في البداية هي الأكثر ربحاً بوجهة النظر التجارية وتحتكرها الحكومة بالطبع، فالصمغ العربي يتم التقاطه في الغابات بعد أشهرٍ قليلة من موسم الأمطار، وقد نقول إن التقاطه يتم بالقوة لأن الحكومة تدفع قنطار الـ44 وقَّة ـــ ما يعادل 110 رطلاً ـــ بـ 15 قرشاً (4س.4د) فقط.... وتنتج كردفان في متوسط السنوات من 3500 شحنة إلى 4000 شحنة من هذا المحصول أو من 10000 إلى 14000 قنطار ذي 44 وقَّة. وقد أكد لي أشخاصٌ كثر أنه يمكن إضافة 6000 قنطار إلى هذه الكمية إذا كوفئ جهد الأشخاص المُخدَّمين في اللقيط مكافأة أفضل. إن العاج الذي شكَّل الجزية التي تدفع لدارفور بواسطة روافدها المساعدة يتم إرساله من هناك بكمياتٍ كبيرة إلى الأبيض وبارا، ويُجلب كثيرٌ منه أيضاً من جبل شيبون وبلاد الشلك. وكان سعر القنطار في كردفان 10 جنيهات أسترلينية و18 سنتاً شاملة الضريبة. ويُشحن كل العرض من السلعة ويُرسل عملياً إلى سواكن والقليل منه إلى مصر رغم أن محمد علي يحتكر التجارة اسمياً. وتنقل تجارة الصادر بالقوافل من القاهرة وسنار وسواكن وتصحبها تكلفة باهظة جداً جزئياً بسبب النقل وفي الأساس بسبب الضرائب الباهظة. ويتم دفع ضرائب شحنة السلع في الإسكندرية والقاهرة ودنقلا والأبيض حيث تدفع في الأبيض ضريبة 300 قرش لشحنة الجمل الواحد من المواد القطنية و150 قرش لشحنة الأرز و100 قرشاً للنبيذ. وتأتي معظم السلع التجارية من النمسا وتشمل مرهم النردين ومقالي الطبخ والأمواس والسيوف[1] ونواقيس الجِمَال وحجر الكحل والزرنيخ والحديد والأسلاك النحاسية وأعواد الثقاب والمنتجات البوهيمية والأقمشة والمرايا والخواتم والخرز،الخ. ويستورد نسيج الشيت القطني من إنجلترا والبن من الحبشة والنارجيلة وأباريق الوضوء والحقن، الخ من الشام. وتشمل قائمة السلع المستوردة أيضاً القرنفل والفلفل والسكر والكبريت والأرز والصابون والقماش القطني المطبوع والخمور والزيت والكهرمان، الخ من بروسيا.

1 يقول بالمي «يبلغ طول السيوف ذات الشفرتين المصنوعة في النمسا 36.5 بوصة وعرضها 1.5 بوصة وذات قطر متساوٍ على مستوى طولها، وهي مستديرة دون المستوى بـ7.5 بوصة، وتحمل علامة تجارية بالرقم 5 وصورة أسد. أما أغماد السيوف ومقابضها فتصنع في البلاد. ... وتفضل [السيوف] التي تحمل صورة رأس الميت المصنوعة في مصانع بيتر نِلْ في زولينغن» (صـ 298).

زار كردفان في عام 1847م ــ بعد أن غادرها بالمي بأقل من عقدٍ من الزمان ــ جون بثريك بصفته مهندس تعدين وذلك لكي يُعدَّ تقريراً عن رواسب خام الحديد، وفي خلال الأعوام 1848م ــ 1853م كان بثريك يعمل تاجراً في الصمغ داخل المديرية. ويُعطي بثريك وجهة نظرٍ أقل قتامةً عن الأمور سواءً أكان السبب هو مزاج بثريك الأكثر ابتهاجاً أو لأنه كان أكثر تصلباً، فكثيرٌ من الحقائق والحكايات التي تحصَّل عليها لا يعترف بها بالمي. لقد سافر بثريك من الخرطوم على النيل إلى الترعة الخضراء ومن هناك امتطى جملاً عن طريق أبو جراد حيث كان هناك سوق كبير ونقطة جمارك تحت مسؤولية ضابط في كتيبة الجند الأولى ومن ثم إلى الهشابة والدوم وزرزور وبارا ثم الأبيض. كان نظام الضرائب الباهظة والأساليب المجردة من الضمير ما زال قيد التنفيذ، يقول بثريك[1]: "بدءاً من الحاكم ووكيله حتى أصغر موظف عبر سلسلةٍ كاملة من الموظفين تشمل ضباط الجيش ممن توظف خدماتهم كثيراً في جباية الضرائب كان هناك نظام ابتزازٍ ونهب يُنفذ تنفيذاً منهجياً ضد دافعي الضرائب بحيث أن المبلغ الذي يدفعه الناس يساوي أكثر من ضعف مبلغ الدخل الصافي كما توضح السجلات الحكومية". ورغم أن الغارات على الرقيق مُنع التصديق بها حينئذٍ وسيلةً للحصول على المجندين لكن يمكن شراؤهم لهذا الهدف بمبلغ 6ــ 8 جنيهات أسترلينية حيث ما زال سوق الرقيق بالأبيض مزدهراً. وعلى أية حال كان تحرير تجارة الصمغ من الاحتكار الحكومي ذا فائدةٍ كبيرة للأهالي ومكَّن معظمهم من دفع ضرائبهم نقداً[2]، فالقبائل في جهة الغرب والجنوب ما زالت تدفع عيناً، كما لم تعد الأعمال الوحشية الفظيعة هي ذات الأعمال التي كان يرتكبها الموظفون كتلك التي جعلت الدفتردار

---

1 انظر «صعيد مصر»، (صــ 245).

2 عندما ترك محمد علي في البداية احتكار التجارة بصورة عامة حافظ على تجارة الصمغ والسنمكة والعاج محتجاً بأنها منتجات طبيعية وهي ملك لمن يجمعها، ولذا فهي تعتبر دخلاً إضافياً. وخلال هذه المدة كان السعر الرسمي للصمغ الذي يباع لمحمد علي أو يقبل به مقابل الدفع هو 50 قرشاً للقنطار ذي الــ120 رطلاً. وعلى أية حال فإن البائع يفضل عادةً الــ40 قرشاً أو الــ45 قرشاً المضمونة من التجار. وعندما حُرِّرت التجارة من الاحتكار أخيراً ازداد الإنتاج بصورةٍ كبيرة وانخفضت الأسعار، ففي شهري مارس وأبريل من عام 1850م انخفض سعر الصمغ إلى 27 قرشاً للقنطار. وكانت تكلفة ترحيل شحنة خمسة قناطير (600 رطل) من الأبيض إلى القاهرة عن طريق دنقلا حوالي 150 قرشاً، وإذا أضيف سعر التكلفة في الأبيض فيمكن عموماً تقدير وصول القنطار إلى القاهرة بتكلفة 80 قرشاً. ومن الواضح أن الأرباح كانت كبيرة بحكم أن القنطار يمكن الحصول عليه بسعر 220 قرشاً في القاهرة إذ كان المشتري هو الذي يدفع رسوم الاستيراد (انظر إسكيارك دولوتور، كتاب «الصحراء»...).

وخلفاءه سيِّئ السمعة. كان حاكم كردفان في عام 1847م هو مصطفى باشا وكان رجلاً حسن الطبع وأميناً نسبياً ومحبوباً، وكان أصله بالميلاد من جزيرة كريت وتم اختطافه وبيعه إلى رجلٍ تركي، وبعد تجنيده خدم في الجندية حتى وصل رتبة عقيد. استقر مصطفى باشا في بارا وترك وكيله في الأبيض ليقوم بتصريف معظم أعماله. وفي عام 1847م قاد حملة بقوة 1500 جندي من المشاة و1000 فارس من خيالة حَمَر و400 جندي باشبوزوق وبعض الحوازمة لجمع متأخرات الجزية من قبيلة سليم البقارة في النيل الأبيض، وتم الاستيلاء على الآلاف من الماشية وحصلت القوة على متأخرات عشرة أشهر. وعُزل مصطفى باشا في عام 1848م، وفي عام 1854م مات محمد علي وكانت أولى إجراءات خليفته سعيد باشا أن زار السودان عام 1855م وقام بتنفيذ عددٍ من الإصلاحات[1]. وكان أهم هذه الإصلاحات ــــ بحكم تأثيرها على كردفان ــــ هي منع عادة جباية الضرائب بواسطة العساكر وصدور أمرٍ بأن تجبى الضرائب فقط بعد موسم الحصاد عندما يكون الناس في وضعٍ يمكِّنهم من الدفع، وإلغاء تجارة الرق (في 1837م). كان هذا الإصلاح الأخير نتيجة عاصفة الغضب التي ثارت في أوربا بناءً على تقارير المبشرين والمستكشفين. وأُرغمت مصر على الإذعان للضغط، ولكن منع التجارة ومنع الغارات الرسمية على الرقيق داخل بلاد السود حَرَمَت الموظفين من كثيرٍ من دخلهم، وكانت النتيجة هي "أنه إذا كانت التجارة أكثر خطراً فهي أكثر ربحاً، و... أن الموظفين غطوا خسارة دخلهم بالرشاوى[2]. ويمكن تقديم تقرير موجز هنا لنظام الإدارة المحلية السائدة تحت إشراف الحاكم و"الكشَّاف" في خلال الفترة من 1821م إلى 1881م والتغييرات التي اجتازتها[3].

وجد الأتراك النظام القبلي العربي سارياً، فكل قبيلةٍ من البدو كانت تحت رئاسة شيخ وتحته مشائخ الفروع المختلفة، وكان للناس المستقرين أيضاً مشائخهم الرئيسون وكان تحتهم كلا مشائخ الفروع ومشائخ القرى. وفي القبيلة كانت تتداخل سلطة مشائخ الفروع ومشائخ القرى وهو أمر لا يمكن تجنبه حيث يكون أناسٌ منهم في عملية انتقال من حالة البداوة إلى حالة الاستقرار وكما يزال هو الحال. وفي

---

1 انظر ستيوارت.

2 انظر شوارتز، صـ 558.

3 أُخذ الآتي من المصادر الأهلية المحلية.

البداية وضع الأتراك فوق هذا النظام نظاماً آخر بتعيين "شيخ مشائخ" بسلطةٍ تعلو على كل المشائخ الآخرين، ومنذ ذلك الحين سُمي المشائخ الرئيسون للقبائل المستقرة "مشائخ أخطاط" (مفردها "شيخ خط") وتُرك مشائخ القرى تحت رئاستهم، وكان رؤساء القبائل البدوية الكبيرة بالطبع خارج سيطرة "شيخ المشائخ". أضف لذلك أنه كان هناك "معاونون"، أي موظفون محليون مستقرون في مقر الرئاسة وقابلون للتوزيع في أي اتجاه ليساعدوا في جمع الضرائب. وتم انتهاج هذا النظام لحوالي 40 عاماً، وكان آخر من تولى منصب "شيخ المشائخ" هو محمد يس الدولابي من خرسي ومن أسرة دنقلاوية ذات نفوذ، وكان جدّه يس محمد دوليب قد تولى ذات المنصب قبله لعدة سنوات[1]. وعندما كان موسى باشا حاكماً في حوالي 1860م وجد من المناسب إلغاء وظيفة "شيخ المشائخ" وتوزيع مهامها بين أربعة "نظَّار" محليين بذات الواجبات والصلاحيات حيث تم تعيين "ناظر" لكل منطقة، ولذا تم تعيين محمد يس "معاوناً" بمقر الرئاسة ومحمود دوليب نسي ناظراً لخرسي وواحدٌ اسمه صلاح من الجوابرة الدناقلة من أسْحَفْ ناظراً لبارا والطاهر الفكي بدوي ناظراً لأبو حراز وناظر رابع للتيارة[2]. وكان تحت أيِّ واحدٍ من هؤلاء النظَّار عهدتان باعتبارهما مساعديْن لمتحصلي الضرائب، وكل هؤلاء الأشخاص هم دناقلة أو أفراد من القبائل النهرية. وقد خُصصت لكل عهدة مجموعة معينة من القبائل التي كانت عموماً قبائل مستقرة، كما كانت للقبائل الأخرى عُهَدٌ ممثلة في مشائخهم الذين يدفعون الضرائب مباشرةً إلى مقر الرئاسة وكان وضعهم عملياً هو وضع "النظَّار" في الوقت الحالي. واستمر هذا النظام حتى أصبح حسن باشا حلمي الجويزر (حاكم دارفور لاحقاً) حاكماً لكردفان فألغى الأربعة نظَّار ورجع إلى النظام القديم حيث عيَّن عبد الهادي صبر ناظراً لبارا وخرسي والتيارة والمنطقة الواقعة قرب النيل الأبيض، ولكن أبو حراز تُركت تحت إدارة ناظرها ذاته. وقبيل المهدية مباشرة أعاد جيجلر باشا تأسيس نظام ناظر لكل منطقة[3].

1 انظر شجرة نسب الدواليب الموضحة في الفصل السادس.

2 خلف محمد يس لاحقاً عبد الهادي صبر (خليفة محمود دوليب نسي) ناظراً لخرسي.

3 أعفى جيجلر باشا عبد الهادي قبل اندلاع المهدية بوقتٍ قصير وذلك نتيجة للشكاوى المُلِّحة ضد عبد الهادي (انظر سلاطين، الفصل «4»). وكان النظَّار الذين تم تعيينهم آنذاك هم: محمد أغا شدَّاد ـــ بارا، محمد يس ـــ خرسي، سليمان أغا ـــ التيارة، عبد الرحيم الفكي أبوصفيَّة (بقي في المكتب) ـــ أبو حراز. وكان الآتية أسماؤهم هم النظَّار المختلفون لمنطقة بارا: (1) صلاح (2) الطيب (3) عثمان أحمد (4) عثمان حامد (5) أحمد يس ـــ وكل هؤلاء كانوا جوابرة من أسحف ـــ (6) عبد الهادي صبر

ولنعدْ الآن إلى مجرى الأحداث: كانت سنة 1865م سنة مجاعةٍ فظيعة وما زالوا يتذكرونها باسم "سنة الفتَّاشة"، وفي عام 1874م أُلحقت دارفور بمصر وأرسل العقيد بوردي إلى دارفور والعقيد كولستون إلى كردفان لإجراء استطلاعات. وفي العام التالي أجرى المهندس المدني ف. س إينسور مسحاً لخط سكة حديد مقترح من دنقلا إلى الفاشر على طول وادي المِلك، وفي عام 1877م عُيِّن غردون حاكماً عاماً للسودان، وفي 4 أغسطس وُقعت معاهدة بين بريطانيا العظمى ومصر حُظرت بمقتضاها كل التجارة السائدة في الرقيق. وفي عام 1879م استقال غردون من منصبه وفي الحال تجددت تجارة الرق خلسةً بتواطؤٍ من المسؤولين المصريين ـــ وفي الواقع لا يمكن القول بأن تجارة الرقيق قُضي عليها قضاءً كاملاً. كانت البلاد مهيأةً للثورة فقد فاقت درجة الاحتمال حدودها، فالإصلاحات التي تم تنفيذها لم تكن كافية وأن أعظمها جميعاً ـــ أي حظر تجارة الرقيق حظراً فعلياً ـــ كان لسخرية القدر أمراً غير مقبول. كان المسؤولون في الغالب الأعم فاسدين ولا ضمير لهم كالعادة ونُهبت البلاد من كل ثروتها وكان العدلُ مهزلة. لقد كان البقارة على وجه الخصوص هم الناقمون على محاولات الحكومة بين الفينة والأخرى لوضع حدٍّ لعادتهم القديمة المتعلقة بالإغارة على الرقيق. ويعطي المقتطف التالي من عمل السيدين ويلسون وفلكين بعض الفكرة عن أثر ما يسمى بالإصلاحات. فقد وقعت الحادثة في أم شنقة عام 1881م:

" لم تستطع الجمال أن تذهب أكثر، فنزل مستر/ ويلسون من ظهر الجمل بحثاً عن جمال جديدة فوجد واحداً اسمه ود علي أفندي بمباشي الذي وعد أنه سيحاول الحصول على بعض الجمال لنا. وبعد أن ذهبنا لننام جاء لمقابلتنا الشرطي المصاحب له وهو قوقازي الأصل وقال لنا إن سيده أمره بإحضار الجمال لنا وسأل ما إذا كان لدينا عبيد نريد بيعهم لأنه في حاجة كبيرة لبعض العبيد، وقال إنه اشترى فتاة وامرأة الأسبوع الماضي مقابل 43 دولار. إن البمباشي طُرد من الخدمة الحكومية في الأبيض ولأن المسؤولين هناك لم يكن لديهم مال يدفعون به مرتبه فقد أُرسل لجباية ضريبة

(ناظراً عاماً) (7) محمد شدَّاد. وقد اعترض على محمد شدَّاد هذا أهل أسْحَفْ وحلَّ محله جابر ود الطيب الجابري حتى قيام المهدية. ولقد كان جابر وشيخ الدرديري الدولابي في السابق «عُهدَتْين» لدى محمد شدَّاد إذ كان جابر مسؤولاً عن ربط جزية البدو من القبائل المخصصة له وكان شيخ الدرديري مسؤولاً عن جزية المواطنين المستقرين من هذه القبائل. وكانت القبائل التي تدفع جزيتها عبر «عُهد» بارا هي: المَرامْرَة والهبابين والجليدات وبعض النواهية والعريفيَّة ـــ وكلها فروع من دار حامد ـــ ومختلف الفروع المنتشرة الأخرى.

قليلة على حسابه الخاص. كان المبلغ المطلوب له ما بين 200$ إلى 300$ وأن الشرطي قال لنا إنه يخشى ألا يكون باستطاعته الحصول على أكثر من 1000$ بحكم أن الناس كانوا فقراء جداً في تلك المنطقة. لقد شاهدنا صباح اليوم التالي إحدى الطرق التي يجمع بها مستحقاته فقد استولى على عشرين جملاً فقام صاحب الجمل الأول بتخليص بهيمته بمبلغ يتراوح ما بين دولار إلى 5 دولارات ومن بعد تلاه آخر حيث ذهبت النقود إلى جيب البمباشي".

في عام 1881م اختلف محمد أحمد "المهدي" مع زعيم الطريقة السمانية وجعل من نفسه واعظاً دينياً في الجزيرة أبا حيث تبنى دور مجددٍ غيور ونصح بمحاربة الفساد السافر في أزمنةٍ شبيهة بعهد محمد بن عبد الوهاب قبل قرنٍ من الزمان والذي فعل ذلك بنجاحٍ غامر في الجزيرة العربية. والاختلاف المهم بين الرجلين يكمن في أن الوهابي كان متزمتاً أميناً مخلصاً في حين أن محمد أحمد ـــ بعد أن ذاق النجاح ـــ لم يُظهر نفسه بأكثر من رجلٍ متعصبٍ ماجنٍ وحشيٍّ طموح. كان أول ما فعله أنْ قام بزيارةٍ قصيرة إلى كردفان ليجوب أنحاءها ويقيس فرص نجاحه هناك، وبعد أشهرٍ قليلةٍ لاحقة انضم إليه في المسلمية عبد الله محمد من التعايشة الجُبارات والذي عُرف لاحقاً بـ"الخليفة". كان هذا الرجل أنصارياً ذا فائدةٍ كبيرة لأنه كان ذا درايةٍ كاملة بقبائل البقارة الثائرة ولديه نفوذ كبير فيهم، ولذا قام محمد أحمد بناءً على اقتراحه برحلةٍ ثانية إلى كردفان وهي رحلة أتت هذه المرة بعزيمةٍ قاطعة على إثارة الغضب الذي كان متفشياً. وبعد أن مرَّ ببلد الجِمِع زار الأبيض وضَمِنَ تأييد السيد المكي زعيم الطريقة الإسماعيلية وتأييد أناسٍ آخرين كثيرين. ومن هناك ذهب إلى تقلي وبحث عن تأييد المك آدم دبالو، وكان المك آدم دبالو قد رفض في الآونة الأخيرة دفع الجزية إلى إلياس باشا ود أم برير الجعلي الذي عيَّنه غردون حاكماً لكردفان في مواجهة التحيز المحلي، ولكن ود أم برير كان أدهى من أن يورط نفسه حتى تلك اللحظة. ومن تقلي رجع محمد إلى الجزيرة أبا عن طريق شركيلا. وفي هذا الوقت أدركت حكومة الخرطوم خطر السماح له بالبقاء من دون تدخل فأرسلت محمد بك أبو السعود لإحضاره إلى الخرطوم، ولكن محمد أحمد رفض الحضور بشكلٍ قاطع، ولما رأى أن الوقت قد حان أعلن الجهاد صراحةً كما أعلن نفسه المهدي المنتظر الذي ينتظره كل المؤمنين المخلصين. وأرسل رؤوف باشا الحاكم العام حملة لإلقاء القبض عليه لكن المحاولة

انتهت بهزيمة قوات الحكومة وكسبت قضية المهدي قوة دفع مماثلة. ولما قيل إن مهدي الإسلام الحقيقي سيأتي من جبل ماسا بدا الآن للمدعي أن من السياسة أن يُطلق ذلك الاسم على مكان وجهته التالية ويبدأ من هناك حملته بصورةٍ جادة، فالمكان الذي قرر الذهاب إليه هو جبل قدير في جنوب كردفان حيث تحرك إلى هناك عن طريق تقلي مع مجموعةٍ من كنانة ودغيم عبر بلاد الجِمِع وهو يجمع الأنصار في طريقه. وفي تقلي أُحبطت آماله في الحصول على التأييد رغم عدم حدوث شيء يعوق تقدمه إلى قدير. وفي 9 ديسمبر 1881م هاجم راشد بك حاكم فشودة المهدي قرب قدير ولكن المهدي شتت القوات الحكومية ذات الثقة المفرطة بالنفس وقتل قائدهم. وتم بعد ذلك إعداد حملة في الخرطوم تتكون من 4000 رجل تقريباً ووُضعت تحت قيادة يوسف باشا الشلالي لتتعاون معها أيضاً في كردفان كتيبة مشاة وبعض المتطوعين تحت قيادة عبد الله ود دفع الله.

تحركت حملة الخرطوم في 15 مارس 1882م ورابطت في الكوة في انتظار فرقة كردفان ولكن كان على تلك الفرقة أن تواجه صعوبات كبيرة لأن عبد الله ود دفع الله كانت تعوقه في أي منعطف مكائدُ خصمه إلياس باشا الحاكم السابق الذي خلفه الآن محمد باشا سعيد. وعلى أية حال تحركت في النهاية من كردفان قوة غير متجانسة من 2000 جندي إلى الكوة وتحركت القوة المشتركة إلى فشودة في مايو ومن هناك زحفت داخل البلاد إلى ميسات قرب جبل قدير. وهنا هوجمت القوة يوم 7 يونيو وأبيدت إبادة عملية، ووضع هذا النجاح الذي أحرزه المهدي جنوب كردفان جميعها في يديه ووفر له أيضاً عتاد الحرب. وفي ذات الوقت لم يكن مساعدوه في الشمال في حالة خمول، ففي مايو 1882م أرسل محمد باشا سعيد قوة من 1200 رجل من الأبيض لتحرير البِركة ومن ثم تحرير مركزٍ حكوميٍّ محصَّن كان يحاصره عبد الله ود النور وحشدٌ مختلط من البديرية والحوازمة والغديات والحُمُر. وفي 13 مايو هُزم الدراويش بالقرب من كازقيل ولكن مع انسحاب القوات الحكومية استؤنف الحصار وسقطت المدينة بعيد ذلك حيث قتل 2000 جندي من قوات الحامية وفرَّ حوالي 1000 جندي إلى الأبيض. وفي مايو أيضاً هاجم البديرية أبو حراز وأبادوا أهله وقتلوا الناظر، وفي 19 مايو هاجم خليطٌ من حَمَر ودار حامد والشويحات بقيادة السماني قرية أسْحَفْ الدنقلاوية التي كانت تمدُّ الأتراك بكثيرٍ من متحصلي الضرائب وأعملوا السيف في معظم سكانها،

كما هُزمت القوات التي أرسلت من بارا لرفع الحصار عن أسْحَفْ. وبدأ الجوامعة بقيادة رحمة منوفل يحاصرون بارا ويقطعون إمداداتها، وفي بداية يونيو صُدَّ رحمة ولكن نطاق الدراويش كان يُعزز باستمرار وأن نجاح حامية بارا كان نجاحاً مؤقتاً لا غير. وكانت حامية بارا في هذا الوقت مكونة من 2000 رجل وثماني بنادق، وفي 23 يونيو هاجمها الدراويش بأعدادٍ كبيرة، ولكن الهجوم صُدَّ ورجع رحمة للحصول على تعزيزات. وفي يوم 7 يوليو 1882م تجمع عددٌ كبير من الثوار في شاتورة جنوب غرب بارا تحت قيادة النور، وفصلت قوةٌ من بارا لمواجهتهم. وصدت القواتُ الحكومية هجوم الدراويش ولكنها وجدت طريق العودة إلى بارا مقطوعاً، ووصلتها تعزيزاتٌ من الأبيض وشتتت القواتُ المتحدة العدو واستدعيت بعد قليلٍ إلى الأبيض. وفي يوم 17 يوليو ظهر رحمة بقوةٍ جديدة أمام بارا وحُوصرت المدينة حصاراً محكماً لبقية العام. وفي أغسطس وصلت تعزيزاتٌ من البَحَر إلى هناك تحت قيادة محمد باشا إمام، ولكن هذه التعزيزات استدعيت بصورةٍ عاجلة لأن المهدي شخصياً تحرك الآن في اتجاه الشمال لمواجهة الأبيض وخصَّصَ في ذات الوقت قوة لتساعد في حصار بارا. ولذا تم الاحتفاظ بجزءٍ من التعزيزات في بارا وأُرسلت البقية إلى الأبيض[1].

بعد هزيمة يوسف باشا قرب قدير يوم 7 يونيو دخل المهدي في مفاوضاتٍ مع الزعماء الدينيين وكبار التجار في الأبيض وخاصة مع الحاكم الخائن السابق إلياس باشا الذي كان على رأس الفرقة التي قاومت محمد بك سعيد وأحمد بك دفع الله (شقيق سيِّئ الطالع عبد الله دفع الله). وفي يوم 3 سبتمبر ترك المهدي بناءً على دعوة إلياس عمَّه محمد شريف في قدير وزحف إلى الأبيض وطلب استسلامها، وفي هذا الوقت كانت المباني الحكومية محصنة تحصيناً قوياً بحلقةٍ رباعية من الخنادق كما أنشئت ثمانية حصون على الجُدُر. كانت القوات مكونة من حوالي 8000 جندي نظامي وباشبوزوق ومجموعة من المجندين غير النظاميين الجدد تحت قيادة أحمد بك دفع الله، ولذا رفض محمد باشا الاستسلام وقام بشنق رسل المهدي. وبرغم موقف محمد باشا إمام هذا فرّ جزءٌ من الحامية ومجموعة من أهل المدينة في ذات الليلة إلى المهدي، وفي يوم 8 سبتمبر هاجم الدراويش الأبيض في الصباح ولكنهم صُدوا مع

1 قيل إن أفضل تهكم يُوجه إلى هؤلاء الدراويش عندما يُقبضون ويُرغمون على العمل في الخنادق هو أن يقال لهم «إنتو تقولو لنفِسْكُم أنصار الدين وأنا أقول ليكم أنصار الطين، يلا يا كلاب».

فقدان حوالي 10000 رجل بما فيهم محمد شقيق المهدي ويوسف شقيق الخليفة وخسارة 63 راية. وقتل 300 فقط من غير النظاميين في الحامية، ومن ثم انسحب المهدي لمسافة ميل في انتظار أسلحة وذخائر أكثر متوقع وصولها من قدير ولدى وصولها أطبق إطباقاً مُحكماً على المدينة. وأُرسلت من الخرطوم إلى الأبيض (يوم 24 سبتمبر) كتيبتان من الجنود النظاميين و750 باشبوزوق وتعزيزات تحت قيادة علي بك لطفي. وانقض الجوامعة بقيادة رحمة على هذه القوات في الكوة وقتلوا ما يربو على 1100 منها وفرّ حوالي 200 كما أن دخولها إلى بارا أعاقته غارةٌ تحت قيادة النور عنقرة. وفي ذات الوقت تقريباً كانت التيارة التي تحميها مجموعتان من الباشبوزوق محاصرة بواسطة الفكي المنا إسماعيل من قبيلة الجوامعة وذلك على رأس مجموعةٍ من الجوامعة والجِمِع والبديرية والحوازمة وقد استسلمت بعد مقاومةٍ قصيرة وأبيدت التعزيزات التي أرسلت من الأبيض لرفع الحصار عنها. وفي الجنوب حوصرت الكنيسة الإرسالية التي أنشأها الأب بونومي في الدلنج وذلك في الفترة من أبريل إلى سبتمبر واستولى عليها آنذاك الملك عمر. وفي نوفمبر قام أحمد ود مالك أحد أعيان بارا بمحاولةٍ غادرة لإضرام النار في المدينة خلال هجومٍ شنه العدو، ولم تنجح المحاولة نجاحاً كاملاً ولكن معظم الذرة أُحرقت وأصبحت الحامية في عسرٍ شديد إلى الغذاء. وتخلى النور عنقرة عن المدينة الآن، واستسلمت الحامية المكونة من 2000 رجل بأسلحتها وعتادها لعبد الرحمن النجومي يوم 5 يناير 1883م وانضموا للثوار. وما زالت الأبيض صامدة ولكنها كانت تحت أشد المصاعب، فثلاثون رجلاً أو أربعون رجلاً كانوا يموتون يومياً من الجوع، ولم يؤكل كل القمح (الذي لم يُخزَّن منه إمدادٌ كاف) فحسب ولكن الكلاب ذاتها تم أكلُها ولم يوجد غذاءٌ أفضل من ليف النخيل والصمغ والجلود. وأخيراً وفي 16 يناير 1883م قررت الأبيض الاستسلام شريطة ألا تزهق أرواح جنود الحامية، ووافق المهدي على هذه الشروط واستولى على المدينة يوم 17 يناير. وفيما بعد أُرسل محمد باشا ـــ وهو أحد ضباط الحامية ـــ إلى عَلُّوبة حيث قُتل ضرباً بالفؤوس على يد المنا إسماعيل وأُرسل علي بك شريف إلى البِركة وهناك قُطع رأسه على يد نوَّاي أحد رجال الحوازمة وتم ترحيل أحمد بك دفع الله ومحمد يس إلى شكا حيث قتلهم الرزيقي شيخ مادبو لدى وصولهما، ونُفي آخرون إلى جبال النوبة أو دار الحُمُر. وأُرغمت الحامية المكونة من 3500 رجل على الانضمام إلى الدراويش وتم الاستيلاء على حوالي 100000

جنيه أسترليني نقداً وحوالي 6000 بندقية بذخيرتها، وتعرضت المدينة للنهب وأُتلفت كل السجلات الحكومية. وفي تلك اللحظة تشاجر المنا إسماعيل (الذي دخل في مشكلة بسبب إطلاق يده بحرية في عملية النهب في الأبيض) مع الخليفة عبد الله وحاول أن يستقل بنفسه، فحرَّضوا عليه أبا عنجة وعبد الله النور وود النجومي وقُبض عليه فجأةً وتم إعدامه. وشرع المهدي الآن في تأمين موقفه وتوسيع نفوذه بإرسال الرسل في كل اتجاه، فشهرة أعماله البطولية متوَّجةً باستيلائه على الأبيض استقطبت عملياً كل أهل السودان إلى قضيته، لكن جهوده التي كانت في اتجاهٍ واحد لم تكن مجدية: فالسنوسي أرسل مندوباً إلى الأبيض ولكن المندوب وقد اشمأز من قصص النهب والعنف التي سمعها حذر أناسه في الغرب من ألا يكون لهم تعاملٌ مع الدجال المنافق في الأبيض الذي كان من الواضح ـــ وهو المتعصب ذو المبادئ السامية ـــ أنه يعيش في رذائلَ شهوانية. في ذات الأثناء لم تكن الحكومة المصرية خاملة عاطلة ذلك أن الحاكم العام عبد القادر باشا قد أيد بحكمة سياسة عزل الثورة المهدية في كردفان ودارفور بخطٍّ من الحاميات القوية على طول النيل الأبيض، ولكن السلطات في القاهرة كانت أكثر طموحاً ـــ أو أقلَّ حساسية ـــ فاستدعت عبد القادر باشا وأجرت الاستعدادات لإعادة فتح كردفان. وتم تعيين الجنرال هكس للقيام بالمهمة وكانت مهمة باعثة على اليأس من البداية، فالقوات التي جُهزت كانت أوباشاً همجيين جبناء وغير مؤهلين بالكامل، ولم يكن لدى هكس ضباط أوربيون كفاية وكانت تعوقه عوائق الغيرة والدسائس في كل خطوة. كان هكس في الخرطوم في شهر مارس 1883م وبعد مضيٍّ شهر على تدريب مجنديه غير الراغبين في الحرب وبعد إجراء مسحٍ للمنطقة الواقعة بين الخرطوم وسنار تهيأ للحملة على كردفان. ولكن الدسائس أخرته حتى شهر سبتمبر، ومن بعدُ تحرك بحوالي 7000 جندي من المشاة و400 باشبوزوق و10 بنادق جبلية و500 من الخيالة و100 فارس شاكي الدروع و2000 من جنود المعسكر المرافقين، وقد وصلوا الدويم. ومن الدويم عزم هكس على الذهاب إلى الأبيض عن طريق بارا ولكن نائبه علاء الدين باشا الذي خلف عبد القادر باشا أقنعه أن يتخذ طريقاً بجهة الجنوب لأن علاء الدين خشي ألا يكون هناك ماءٌ كافٍ للقوات على الطريق الشمالي. ولذا تقدم هكس ببطء بكامل قوته واتجه إلى شركيلا التي كان يزحف إليها عن طريق شات، الزريقة، دريفيسة، الشَّراقنة، النورابي، قلبِن حارْ، العقيلة إلى أن وصل شركيلا يوم 14 أكتوبر.

ولم يستطع هكس أن يحتفظ ـــ كما أراد ـــ بخط اتصالاتٍ مع الدويم عبر سلسلةٍ من المخافر العسكرية لأنه وفي المقام الأول لم يكن هناك ماءٌ كافٍ، وثانياً لم يستطع أن يدَّخر رجالاً أو أن يثق فيهم وثالثاً أن العرب سيكون باستطاعتهم إبادة الجنود المصريين البائسين مخفراً إثر مخفر. وكان احتمالاً بعيداً أيضاً ـــ من قبيل المجازفة ـــ أن تحاول حاميات هذه المخافر إرسال أيِّ إمدادات قد تصل إليهم. وفي الواقع أن قوةً مكونة من 3000 بقاري تحت قيادة عبد الحليم مُساعَد ومحمد أبو قرجة وعمر نجل إلياس باشا وخليط من الجِمِع والجوامعة تحت قيادة عساكر ود أبو كلام كانت تتعقب خطى هكس على طول الطريق وتقطع عليه خط رجعته بقفل كل الآبار وتعمل على تجفيف البلد من الغذاء. وفي 20 أكتوبر وصل هكس الرهد، وذهب عبد الحليم إلى الأبيض وقابل المهدي فقام المهدي بإرسال كل الرجال المقاتلين الذين استطاع حشدهم لينضموا إلى قوات الأمراء. والتقت الفرقتان المكونتان من 40000 رجل في علُّوبة وكمنوا في شيكان في انتظار هكس. وفي ذات الأثناء أصبحت العلاقات بين هكس وعلاء الدين متوترة جداً كما أصبحت آمال الحملة معرَّضة نسبياً للخطر. وتقدم الجيش إلى علُّوبة وتوقف هناك حيث أرسل هكس خطاباً إلى المهدي وردَّ عليه المهدي مهدداً وطالباً منه استسلام القوات، وفي أول نوفمبر غادر المهدي الأبيض لينضم إلى أنصاره في شيكان. وفي يوم 3 نوفمبر تحرك هكس بكمية ماءٍ تكفي ليومين، وفي اليوم التالي هاجم أبوعنجة مؤخرته وقُتل عددٌ من رجاله وأتلفت أسقية الماء. ومن بعدُ طوَّق العدو جيش هكس تطويقاً كاملاً، وفي يوم 5 نوفمبر انقضوا عليه في شيكان بضراوة المتعصبين، فقد قاد ود النجومي الهجوم بمساعدة الخليفة عبد الله وشقيقه يعقوب وعلي ود حلو وأمراء آخرون في الوقت الذي انقضَّ فيه أبو قرجة وعبد الحليم على المؤخرة. وجنود هكس الذين كانوا يزحفون في وقت الهجوم في تشكيلةٍ من ثلاثة مربعات انكسروا في الحال في ارتباكٍ كامل وبدأوا يطلقون النار عشوائياً في كل اتجاه. لقد ذُبحوا ذبح الشياه ولم يفقد الدراويش أكثر من 500 رجل، ووقف هكس نفسه وِقفة رجلٍ شجاع ولكنه تلقى طعنة رمحٍ من محمد شريف. وهرب 300 جندي فقط من الجيش المنحوس واستولى الدراويش على كل المؤن والأسلحة وتفرقوا إلى ديارهم باستثناء 12000 رجل تقريباً بقوا مع المهدي ليدخلوا الأبيض في انتصارٍ همجي. وحالما انتشر الخبر في الخارج أصبح المهدي ذا بأسٍ شديد من دنقلا إلى خط الاستواء

ومن البحر الأحمر إلى ودَّاي، وبقي له فقط أن يستولي على مقاليد البلاد. لقد أرسل ابن عمه محمد خالد زقل للاستيلاء على دارفور حيث أجبر سلاطين بك على الاستسلام بعد مقاومةٍ شاقة، وأصبح كرم الله الأعلى سلطة في بحر الغزال كما تمت إبادة القوات المصرية في شرق السودان.

في ذات الأثناء تم إرسال غردون بموافقة الحكومة البريطانية ووصل الخرطوم يوم 18 فبراير 1884م في مهمته المصيرية الأخيرة ودخل فوراً في مفاوضاتٍ مع المهدي واعترف به سلطاناً لكردفان بيد أن المهدي كان في موقفٍ يجعله يتجاهل مزايدات غردون وأن يردَّ ببساطة ـــ كما فعل مع هكس ـــ مطالباً بالاستسلام. وصَرَفَ المهدي الآن اهتمامه لمدةٍ من الوقت إلى جبال النوبة المضطربة، فقد استسلم الملك آدم مك تقلي وجاء إلى الأبيض ولكن جبل الداير كما كان دائماً جبلاً جموحاً مستعصياً فتم إرسال أبي عنجة لإخضاعه. ولما كان الماء غير كافٍ في الأبيض للحشد الكبير من الدراويش تحرك المهدي في شهر أبريل بقوةٍ إلى الرهد تاركاً قريبه السيد محمود في الأبيض. وبدأت الحملة ضد الخرطوم الآن بشكلٍ جاد وأُرسل أبو قرجة لمحاصرتها ولحق به ود النجومي بعد فترةٍ قصيرة، وفي نهاية رمضان تم استدعاء أبي عنجة من جبل الداير وأعلن المهدي أنه ماضٍ إلى الخرطوم وأمر أي أمير بجمع أناسه وهُدِّد المتقاعسون بعقوباتٍ أليمة. لقد زحف الجزء الأكبر من سكان كردفان يوم 22 أغسطس في اتجاه الشمال الشرقي تاركين حامية صغيرة في الأبيض تحت رئاسة السيد محمود. وسلكت قبائل الأبَّالة الطريق الشمالي الذي يسير بخرسي والهلبة والترعة الخضراء، أما معظم السكان المستقرين الذين يمثل الجوامعة أكثرهم عدداً فقد زحفوا مع المهدي وكبار الأمراء والسيد المكي عن طريق التيارة وشركيلا وشات والدويم وسلك البقارة مصطحبين حجماً كبيراً من ماشيتهم الطريق الجنوبي الأكثر ماءً. وجدت هذه الهجرة الكبيرة رواجاً كافياً في البداية ولكن قبل أن يمضي وقتٌ طويل أصبحت السبب الأساس للسخط، فالأهالي ظنوا أن عملهم سينتهي بتدمير القوات الحكومية والاستيلاء على البلاد وبعد ذلك سيقعدون ويستمتعون بالغنائم ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أنه غُرِّر بهم بشكلٍ بالغ فقد أُجبروا مرة تلو المرة على ترك قطعانهم وزراعتهم المحببة والعيش لأجلٍ غير مسمى في المنطقة القاحلة حول أم درمان حيث تتفشى الأمراض بينهم وحيث يعزُّ وجود الغذاء بل يصعب الحصول عليه وأن أسلوب الحياة غريبٌ بالنسبة لهم.

فالبديل الوحيد هو الموت المفاجئ أو على الأقل السلب الكامل إذا تقاعسوا، وكان هذا بوضوح أمراً مضجراً بالنسبة للبدو الأبَّالة والبقارة. ولنتركْ المهدي وأمراءه أمام أم درمان والخرطوم وأن نقول فقط إن أم درمان سقطت يوم 15 يناير 1885م وإن الخرطوم سقطت بعد أحد عشر يوماً من سقوط أم درمان. ومن الوقت الذي غادر فيه المهدي كردفان حتى يناير 1885م كان كل شيء هادئاً في المناطق الوسطى والشمالية لأن البلاد كانت عملياً مقفرة. وعندما سقطت الخرطوم أرسل المهدي أبا عنجة مرةً ثانية بقوةٍ كبيرة إلى جنوب كردفان لقمع النوبة وإرسال الرقيق إلى أم درمان وجمع أيِّ متخاذلين يجدهم وإرسالهم لزيادة عدد جيش المهدي. وبعد فترةٍ قصيرة مات المهدي وخلفه عبد الله محمد من التعايشة. وأصاب أبوعنجة نجاحاً جزئياً في جنوب كردفان في محاولاته لاقتحام المعاقل الجبلية المنعزلة، وأرسل الخليفة بعد توليه الخلافة مباشرة ابن عمه عثمان آدم للانضمام إلى أبي عنجة. وفي ذات الوقت أرسل يونس ود الدكيم تجاه الجِمِع الذين رفض كثيرٌ منهم مغادرة بلدهم والذهاب إلى أم درمان حسب الأوامر الصادرة، فشيخهم عساكر ود أبو الكلام تم اعتقاله سلفاً في أم درمان. وجَمَعَ يونس ود الدكيم حوالي 7000 من الجِمِع وقام بنقلهم إلى ود العباس قبالة سنار وأرسل آخرين إلى أم درمان. وفي ذات الأثناء غادر السيد محمود الأبيض إلى أم درمان وترك عبد الهاشمي وكيلاً له في الأبيض، ولكن سرعان ما اندلعت ثورة في الأبيض قام بها الجنود السود الذين كانوا أساساً مجندين من جبال النوبة وقُتل عبد الهاشمي. وتلت ذلك معاركُ بين السود والدراويش في المدينة والمنطقة المجاورة لها وانتصر السود وفروا فرحين إلى جبالهم. وعاد السيد محمود حالاً إلى الأبيض وتعقب المتمردين ـــ متجاهلاً توجيهات الخليفة ـــ إلى جبلي الغلفان والجمانج وهناك هُزم وفقد حياته عندما حاول الهجوم على الغلفان (نوفمبر 1885م). وفي هذا الوقت كان أبوعنجة يرابط قريباً حيث كان مكرِّساً نفسه معظم عام 1885م لمحاولة إرغام المك كمبو مك جبل الداير على الاستسلام وللقبض على الرقيق والإغارة على سكان الريف. ولم ينجح أبوعنجة في أول هذه المغامرات نسبة لصلابة الجبل الطبيعية ولكن نجح في المغامرتين الأخريين نجاحاً مفرطاً.

إن الحُمُر والمسيرية والحوازمة الذين لم يذهبوا بكامل قوتهم إلى أم درمان قد ثاروا في شهر سبتمبر وأبادوا إحدى فرق أبي عنجة المُغيرة بين قدير وتلودي، ولكن عندما

جازفوا لمهاجمة أبي عنجة نفسه سُحقوا سحقاً كاملاً وفقدوا 10000 رجل. وراد أبوعنجة في هذا الوقت أن يثأر للسيد محمود ولكن الخليفة طلبه لمهمة أخرى: فقد كان محمد خالد زقل في دارفور مشكوكاً في أمره من جانب الخليفة ـــ كما كان هو الحال بالنسبة لكل أنصار الراحل المهدي المقربين ـــ وتم استدعاؤه إلى أم درمان. وقد صدر أمرٌ لأبي عنجة أن يتحرك بكل سرعة إلى بارا في مارس 1886م ليعترض سبيل زقل ويعتقله، وقد فعل ذلك إذ وضعه في السلاسل وأرسله إلى الأبيض حيث بات مضطجعاً في السلاسل لمدة عام قبل أن يُرسل إلى أم درمان، وأُدرجتْ كل قوة زقل المكونة من 1000 فارس ومجموعة كبيرة من المشاة الدراويش في قوة أبي عنجة. وسُمح لمختلف أمراء الغرب بالتحرك إلى أم درمان وهناك استقبلهم الخليفة باحترامٍ عظيم، وأحست بقية القبائل بنذير شؤمٍ إذ وجدت نفسها خاضعة تدريجياً وأكثر فأكثر لبقارة الغرب الذين هم من أصل الخليفة ذاته. وسُمح الآن لأبي عنجة بالتحرك بقوةٍ كبيرة معززة لمواجهة متمردي الغلفان حيث استسلم بعضهم وتفرق آخرون وقتلت البقية، وكان عثمان آدم خلال هذه الأحداث مستقراً في الأبيض ويتصرف باعتباره حاكماً لكردفان، واكتسب بهذه الصفة وبمآثره البطولية اللاحقة شهرة كونه شاباً جسوراً ذا صفاتٍ رجولية ـــ لأنه لم يبلغ بعد سن العشرين من عمره ـــ وجديراً بالاحترام ومُراعياً لمشاعر الآخرين وطرازاً من طُرُز الفروسية العربية. كانت لديه مشكلةٌ ما مع الحُمُر والمسيرية ولكن كان الجزء الأكبر من المديرية خائفاً وهادئاً. وعلى أية حال فإن صالح بك فضل الله في أقصى الشمال مع حفنةٍ من الكبابيش من فرعه فرع النوراب لم يكونوا أبداً راضين عن المجموعة الكبيرة من القبيلة التي انشقت منهم وانضمت إلى المهدي ولذا دخلوا في شغلٍ شاغل من النصر والهزيمة المتبادلتين. وبعد معركة جُنس عام 1885م كان صالح بك فضل الله يتبادل الرسائل مع سير ف. قرنفيل وأدى عملاً جيداً بعزل مجموعاتٍ صغيرةٍ من الدراويش، وفي يونيو 1885م جمع قوةً متواضعة من الكبابيش ورابط في جبل العين، وفي الشهر التالي تكبد هزيمة جعلته يرابط في جبل أم عودين لبقية السنة. ولم ينجز شيئاً خلال عام 1886م ولكنه جدد عملياته في مطلع عام 1887م وقبض على 500 بعير كانت في طريقها إلى اتجاه الشمال لتنضم إلى ود النجومي. وفي مارس ألحق فعلاً هزيمة بود النجومي فبعث إليه الخديوي بشكره كما أرسل إليه سير ف. قرنفيل إمداداً من الأسلحة والذخيرة، ولسوء الحظ

فقد وصله القليل منها. وفي مايو أرسل عثمان آدم بأوامر من الخليفة قوةً تحت قيادة فضل الله عقلان وبعض بني جرار بقيادة ود نوباوي[1] وبعض المعاليا والمجانين تحت قيادة سيماوي أمبدة[2] (كلا والده وعمِّه قتلهما فضل الله والد صالح) ليقبضوا على صالح أو يقتلوه. ووقع اشتباكٌ في أم بادر حيث نجح صالح في اليوم الأول، وفي اليوم التالي قُتل أخوه جامع وفرَّ عددٌ من الكبابيش وبعد ذلك هرب صالح في اتجاه الشمال الشرقي ولكن قطع عليه الطريق وقُتل.

في يونيو 1887م عاد أبوعنجة إلى أم درمان عن طريق الترعة الخضراء مع قوةٍ قوامها حوالي 20000 رجل ومؤن كبيرة من الغنائم، وقد أُرسل بعد فترةٍ قصيرة إلى الحملة الحبشية حيث لم يعد أبداً. وقد تُرك عثمان آدم في الأبيض كما كان من قبل، وفي ذات العام اندلعت ثورة في دارفور بقيادة السلطان يوسف الذي تركه زقل أميراً في الفاشر، ولذا أرسل الخليفة عثمان آدم بجيشٍ كبير يتكون أساساً من قبائل كردفان ليتولى القيادة العليا ويعيد تأسيس سلطته. ولم تُترك حامية في كردفان لأن بلاد الجِمِع هُجرت والكبابيش أُخضعوا لدرجة الضعف وأصبح الجوامعة كلهم في أم درمان وقوة النوبة حطمها أبوعنجة أما بقية القبائل إما أن تكون قد تحركت مع عثمان آدم أو أُرسلت إلى أم درمان. ورغم أن السواد الأعظم من أية قبيلة قد جُمع في أم درمان لكن في بعض الحالات كانت هناك فروعٌ منها تُركت في كردفان تحت قيادة عثمان، فمثلاً بقيت نسبة كبيرة من قبائل دار حامد تحت قيادة أميرها سيماوي أمبدة في كردفان ودارفور مع عثمان في حين بقيت فروعٌ أخرى تحت زعامة مشائخها مع الخليفة في أم درمان[3]. وقد انضم عثمان آدم وجيشه في الحال إلى كرم الله في دارفور وهزموا أتباع السلطان يوسف واستولوا على شكا، وهزموا في ديسمبر من ذات العام زايد حليف السلطان يوسف بالقرب من دارا. وفي يوم 8 يناير 1888م تم تشتيت قوات زايد مرة ثانية والاستيلاء على العاصمة الفاشر، وأصبح عثمان آدم في تلك اللحظة حاكماً لدارفور وسادَ السلام لمدةٍ قصيرة في دارفور وكردفان. ولكن الحال لم يكن هكذا في البَحَر لأن الخليفة قرر في هذا المنعطف أن يُحيط نفسه بحرسٍ منيع ممن يمكن أن يثق

1 انتقم الكبابيش لأنفسهم لاحقاً من بني جرَّار حيث قتلوا محمد ود نوباوي بالقرب من جبل الحرازة.

2 ملقب بـ"جريجير" وعند سلاطين "جريجر".

3 توجد أسماء أمراء قبائل دار حامد وبعض التفاصيل في الفصل التاسع عن دار حامد.

فيهم ثقة مطلقة وممن لا يمكن أن يثيروا اعتراضاتٍ على الإقصاء التدريجي لأنصار المهدي القدامى لصالح أنصاره هو، ولذا قرر أن يأتي بكل قبيلته قبيلة التعايشة إلى أم درمان. وتحرك حوالي 24000 من هؤلاء البقارة العنيفين يحدوهم الأمل الذي بُسط لهم وزحفوا عبر كردفان إلى أم درمان وقد ألحقوا الخرابَ والدمار بالبلد وهم ماضون في طريقهم، وسار في أثرهم آخرون أغلبهم تعايشة وهبانية. وحكم عثمان آدم دارفور بقبضةٍ حديدية، وقد تميز النصف الأخير من عام 1888م بنشوب ثورة أبي جمِّيزة المتعصب الذي ينتمي إلى قبيلة المساليت وأعلن نفسه "الخليفة عثمان" وكسب تأييداً فورياً وحاراً من مجموعةٍ من الفور والبديَّات والزغاوة وقبائل دارفور الأخرى. وفي يوم 16 أكتوبر قطَّع أبوجميزة جيش عبد القادر دليل إرباً إرباً، وبعد أسبوعٍ لاحق كسب نصراً ثانياً على محمد بشارة، وفي فبراير 1889م نجح عثمان في إلحاق الهزيمة الكاملة بالمتمردين قرب الفاشر. وكانت لعثمان آدم منذ تلك اللحظة حتى وفاته لاحقاً في ذات العام السلطة الأعلى في دارفور وكردفان بينما كان التعايشة في البَحَر يسلبون وينهبون بكلِّ غطرسة أيَّ [بنك] ويُرعبون القبائل الأخرى إلى درجة أن الخليفة نفسه لم يستطع إذا أراد أن يفعل إلا القليل لكبح جماحهم. إن الحشد الهائل من الدراويش في أم درمان وإهمال كل الحِرف الهادئة في المديريات البائسة سببت في تلك اللحظة نقصاً في الذرة ومجاعةً فظيعة عمت كل البلاد، وبالطبع أحسوا بضغطها في أم درمان حيث هلك المواطنون بالآلاف من الجوع والمرض. وأحس الجنود في دارفور أيضاً بالمجاعة لأنه لم تتمَّ تحضيراتٌ للزراعة كما أن القبائل الواقعة في جهة الغرب منعت تصدير الذرة إلى الفاشر. وفي النهاية قرر عثمان آدم في عام 1889م أن يهاجم هذه القبائل الغربية لكنه واجَهَ مقاومةً عنيفة وقبل أن تصله التعزيزات أصابته حمى التايفويد في مطلع سنِّ العشرين. وكان خلَفَه محمود أحمد رجلاً من طرازٍ مختلف، كان غاوياً شبِقاً جشعاً ومفتقراً للكفاءة رغم أنه كان فوق ذلك جسوراً طموحاً. وظل محمود سيداً في الغرب حتى نهاية عام 1892م ومن بعدُ تم استدعاؤه إلى أم درمان مع 5000 جندي ولكنه عاد إلى دارفور بعد ذلك بوقتٍ قصير. وغنيٌّ عن القول إن كل النشاط التجاري غرب النيل كان في حالة جمود خلال هذه الأعوام وأن الجزء الأكبر من الأرض ظل غير مزروع وبات سكانه يحيون حياة نهبٍ مع محمود. كان هذا الأمير لعدة أعوام منهمكاً انهماكاً كاملاً بدرجاتٍ مختلفة

من النجاح في الحروب مع دار قِمِر والمساليت ودار تاما وقبائل الغرب الأخرى، ولكن أخيراً وبنهاية عام 1896م عندما بدأ الزحف البريطاني النهائي وبعد سقوط دنقلا استدعي محمود وكل الأمراء الآخرين إلى التجمع الكبير للحشود في أم درمان. كان زحفُ محمود إلى البَحَر مع جيشه هو الذي دمَّر كردفان في النهاية، فقد دشَّن مع 10000 رجل تقريباً مسيرة الدمار الفظيعة حيث دمَّر تدميراً كاملاً أية مدينةٍ وأية قريةٍ وأية قطعة أرضٍ تافهة من الذرة وجدها في طريقه لمنع احتمال الهروب، وأيما رجلٍ أو امرأةٍ أو طفلٍ تم القبض عليه ولم يحصل على استثناء بواسطة الرشوة فإنه يُخطف ويُضم إلى الجيش، وهذا أيضاً على أيدي ذات القبائل التي ملكت البلاد. وصل محمود محطته الأخيرة في مايو 1897م وأُرسل في الشهر التالي إلى المتمة ليُدخل الرعبَ في الجعليين المترددين ويصدّ تقدم القوات البريطانية، وفي أول يوليو هاجم محمود المتمة حيث تحداه الجعليون وأبادَ حُماتها وبقي هناك لبعض الوقت لأن الخليفة لم يسمح له بالتقدم أكثر. وفي يوليو سقطت أبو حمد أمام القوات البريطانية واحتلت بربر في شهر سبتمبر، وفي أكتوبر وفي نوفمبر كذلك مَخَرَ أسطولٌ صغيرٌ مياه النهر واستكشف موقع محمود في المتمة وقصف المدينة وعاد أدراجه. وفي نهاية العام أمر الخليفة بتحركٍ عامٍّ من أم درمان ولكن الخلافات ثارت وفشل المشروع، ولم يُؤذن لمحمود بالتقدم نحو بربر حتى فبراير 1898م. ودارت معركة عطبرة في الثامن من أبريل وتم القبض على محمود ومُسحت قواته من على وجه الأرض وأُحبطت آخر آمال الخليفة. وفي ظل الظروف الراهنة سقطت أم درمان وهربَ الخليفة إلى شركيلا عن طريق الحُمَرَة، وفرَّ الرزيقات والحُمُر والبقارة الآخرون عبر دار حامد، وواجَهَ البقارة الذين لم تهاجمهم قبائلُ دار حامد ونوبة كتول ابتزازاً خطيراً من جانب بقية المسيرية وحَمَر الذين تفادوا سابقاً كل المحاولات الهادفة لاستدراجهم إلى أم درمان أو إرغامهم على الذهاب إليها، ووصلوا بلدهم في حالة خيبةٍ وإملاق. وعلى أية حال نجح الهاربون في حالةٍ واحدة وذلك حين ألحقَ موسى مادبو الرزيقي هزيمةً بالغة بقبيلة حَمَر قرب منفورة وقتل زعيمهم محمد الشيخ.

ظل الخليفة ماكثاً طول شتاء 1898م ـــ 1899م في شركيلا معقل الهبَّانيَّة الذين كانوا أحبابه المُفضَّلين باستثناء التعايشة. وفي مطلع عام 1899م ذهب إلى فنقور عن طريق قدير، وفي سبتمبر تحرك السردار سير هربرت كتشنر على النهر وتراجع

الدراويش مرة ثانية إلى شركيلا حيث كان يهاجمهم النوبة المتلهفون للنهب والذين كانت لهم حزازات يريدون تسويتها وذلك بسبب المعاملات التي تلقوها من أبي عنجة في الماضي. وفي يوم الرابع والعشرين من نوفمبر ألحق الكولونيل ونجت الضربة القاضية بالخليفة في أم دبيكرات بعد أن هزمه في أبو عديل ودمّر جيشه، وأُعيد احتلال البلاد جميعها ما عدا دارفور. وفي شهر ديسمبر تم تعيين الكولونيل ب. ماهون حاكماً على قفار كردفان المُقفرة، وبدأت بقية الدراويش المهزومين ومعهم قليلٌ من خصومهم السابقين الدناقلة الذين ما زالوا على قيد الحياة يعودون تدريجياً وبشكلٍ خفي ليستقروا في مثاويهم ذاتها وبدأوا مرة ثانية يَحيُون حياتهم الهادئة التي حرمهم منها بكلِّ فظاظة حقدُ التعصب الأعمى. لقد وقعت خلال العشر سنوات الماضية أحداثٌ قليلة أزعجت كردفان: فالمديرية قد حققت بفضل الإدارة العادلة وبفضل مواردها الطبيعية الكبيرة المتمثلة في غابات الصمغ قدراً كبيراً نسبياً من الازدهار وأن السكان الذين استنزفتهم الحربُ والمجاعة على نحوٍ خطير بات عددهم يزداد باضطراد، ولم تحدث أية اضطرابات إلا في أطراف كردفان المعزولة رغم أن عدة حملات ضد نوبة جنوب كردفان الهمجيين العنيدين اعتبرت ضرورية لدى أوقاتٍ مختلفة. في أكتوبر 1904م تم إخضاع جبل الداير، وفي مايو 1906م هاجم السود الهجين في جبل تلودي الحامية الحكومية هناك ولكنهم لم يجدوا دعماً من القبائل المجاورة وسرعان ما تم إخضاعهم، وفي الأعوام اللاحقة واجهت الجبالُ المتمردة المختلفة العقاب لما جَنتْ على نفسها. كانت هناك مشاكلُ قليلة مع العرب الموجودين هناك رغم أن الحُمُر الهمجيين في الجنوب الغربي ظلوا يدخلون من حينٍ لآخر في صراعٍ مع الدينكا في الجهة الجنوبية منهم كما ظلوا يؤخِّرون دفع الضريبة. وحدثت ثوراتٌ دينيةٌ صغيرة مرةً أو مرتين ولكنها أثبتت فشلها، كما ظل البدو الوحشيون غير الخاضعين لأيِّ إنسان في أقصى الشمال يُغيرون بين الفينة والفينة على أبَّالة شمال كردفان ودنقلا. في عام 1905م استقطعت منطقتا الدويم والجديد من كردفان ودُمجتا في مديرية النيل الأبيض، وفي عام 1907م حُوِّل جزءٌ من منطقة النوبة إلى شبه مديرية.

الفصل الثاني

الجزء I.

الداجو، التنجر، الكنجارة والمُسبَّعات

لم يكن الداجو أو (التاجو) في كردفان إلا بقية من عنصرٍ عظيم، فهم ليسوا عرباً ولكنهم سود. لقد توصل الرحالة براون "1794م" من خلال القصص الأهلية في دارفور إلى أن عنصر الداجو أتى أصلاً من الشمال بعد أن طُرد من ذاك الجزء من إفريقيا الخاضع لنفوذ تونس. ويقول آخرون إنهم أتوا من الشرق وبالتالي فقد كان أول ملك لهم اسمه كوسبر[1]. ويقول مرجعٌ قديم كابن سعيد (الذي استشهد به ابن خلدون)[2]: "إن الذين انضموا إليهم (أي إلى نوبيِّي دنقلا) هم الزغاوة ـــ المسلمون ـــ وواحدة من قبائلهم تدعى تاجورة، وتلتها الكانم...".

أما رأي بارث فهو على نقيض ذلك إذ يقول إن الداجو مختلفون اختلافاً كاملاً عن سلالة الزغاوة ويبدو أنهم أتوا من فازوغلو، والزغاوة في الوقت الحالي ينفون كل علاقة لهم أياً كانت بالداجو. إن مصادر معلوماتنا الرئيسة عن الداجو عبارة عن مراجع موجزة في أعمال براون وبارث وناختيجال وسلاطين، إذ سمعنا من هذه المصادر أن الداجو قاموا في تاريخٍ مبكر جداً باحتلال دارفور وحكموا البلاد من الأماكن النائية المنعزلة بجبل مرة ولم يعرف عنهم أكثر من ذلك إلا القليل[3]. ويحكي براون أنه قيل إنه كان لديهم تقليد يقومون فيه بإيقاد نارٍ عند تنصيب ملكٍ من ملوكهم ولا يتركون

---

1 انظر شورتز، صـ 544.

2 عاش ابن سعيد من عام 1412م (أو 1208هـ) حتى 1286م تقريباً. انظر تاريخ البربر لابن خلدون... (دي سلين)، الجزء 11، صـ 105 وما يليها. أنظر أيضاً كولي، صـ 116 وما يليها.

3 يقول بارث إنهم سيطروا على دارفور في القرن العاشر من الإسلام، لكنهم ربما كانوا هناك لعهود في السابق. يقول شورتز (صـ 544) إن عدد ملوكهم يرد بصورٍ مختلفة على أنهم 12، 13، أو 5 فقط. ويتحدث براون خطأً عن سليمان سولونج باعتباره من «الداجو»، ويتحدث أيضاً عن الـ«بيقو أو الداجو» وكأنهما ذات الاسم.

هذه النار تخبو أبداً حتى وفاة الملك. وقيل إن المُلك انتزع من الداجو في عهد حكم أحد ملوكهم ويدعى كور وذلك بسبب غزوات التنجر[1]. وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان الداجو مستقلين إلى حدٍّ ما في دارفور ولديهم سلاطينهم الخاصون بهم بيد أنهم لم يكونوا نافذين مطلقاً واعتبروا أتباعاً خاضعين للجزية[2].

هناك عدد من الداجو في كردفان في ما يسمى بجبال المسيرية قرب أبي زبد ولكن الناس هناك يعتبرونهم نوبة ولا يقيمون لهم وزناً. وتعيش مجموعة أخرى صغيرة من مجموعاتهم في جبل الداجو بشرق الأبيض، ونسي أفراد هذه المجموعة الأخيرة تماماً كل معرفة لهم بسلطنتهم السابقة في دارفور، فهم يربطون أنفسهم بالفونج (والغديات) ويقولون إنهم أتوا من الشرق، ولم يكن لديهم نسب ولكنهم كانوا يفكرون في إيجار فكي ليخترع لهم نسباً مقابل 60 قرشا[3].

الجزء II.

لا شك أن التنجر ـــ مثلهم مثل الداجو ـــ كانوا ذات مرة قبيلة عظيمة رغم أنه لا يعرف من تاريخهم إلا القليل ولا يعرف من أين أتوا. ولكنهم بادوا في الوقت الحالي أو دمجوا في عناصر أخرى، وأدناه قصة بارث عنهم[4]: "قيل إن التنجر أتوا أصلاً من دنقلا حيث انفصلوا من قبيلة بطاليسا المصرية التي كانت مستقرة ذات مرة في بينيسي، وعندما تحرك أفرادها غرباً في القرن السادس عشر وجدوا الداجو ممسكين بالسلطة في دارفور فهزموهم وتغلبوا عليهم[5]. ومن ثم وسعوا إمبراطوريتهم من دارفور غرباً وشكلوا بالتالي قلعة قوية للإسلام وجعلوا من كادما عاصمة لهم. وعلى

1 انظر سلاطين، السيف والنار...، الجزء 11، الفصل 2.

2 انظر براون، إنسور، التونسي، وبارث، المجلد 3، صـ 543 وما يليها.

3 تشير «نسبة دنقلا» بأنهم «عنج»، أي السكان الأصليين. ويقول سلاطين إن المستوطنات الصغيرة الوحيدة للداجو التي بقيت في دارفور تقع بالقرب من دارة وفي دار سولا في الغرب. (انظر سلاطين، صـ 2).

4 انظر بارث، الفصل 51، صـ 429.

5 حدث هذا مباشرة بعد أن قام ليو أفريكانوس برحلته وهو شاب مع القوافل التجارية عبر الممالك الزنجية في عامي 1513 ـــ 1515م. ولم يورد ذكراً للتنجر.

أية حال فقد فشلوا في الحفاظ على ملكهم في الشرق في ذات الوقت حيث هزمهم كورو الفوراوي الجد الثالث لسليمان[1] وأسس مملكة وثنية. وقيل إنهم احتفظوا بسلطانهم في ودّاي لمدة 99 عاماً[2] وفي عام 1020هـ (الموافق 1611م) أطاح بهم عبد الكريم بن جامع مؤسس إمبراطورية ودّاي المسلمة[3]. ويقول د. شورتز ــ متبعاً ناختيجال في معظم روايته ومتبعاً سلاطين[4] جزئياً ــ إن التنجر كانوا عنصراً ذا حضارة سامية وجاءوا إلى دارفور من الشرق حيث حلوا محلَّ الداجو في السلطة وانتشروا تدريجياً في ودّاي وبالتالي كان أول حاكم لهم في دارفور هو أحمد المعقور كما كان آخر حاكم لهم هو شاو. وكان أول ملك من سلالة الكيرا اندمج مع التنجر وحلَّ محلهم تدريجياً هو دليل بحر أو دالي مشرِّع القانون وأخ شاو غير الشقيق[5]. يقول شورتز: (ربما سقطت حكومة [دالي] هذا في منتصف القرن الخامس عشر). ويورد سلاطين في

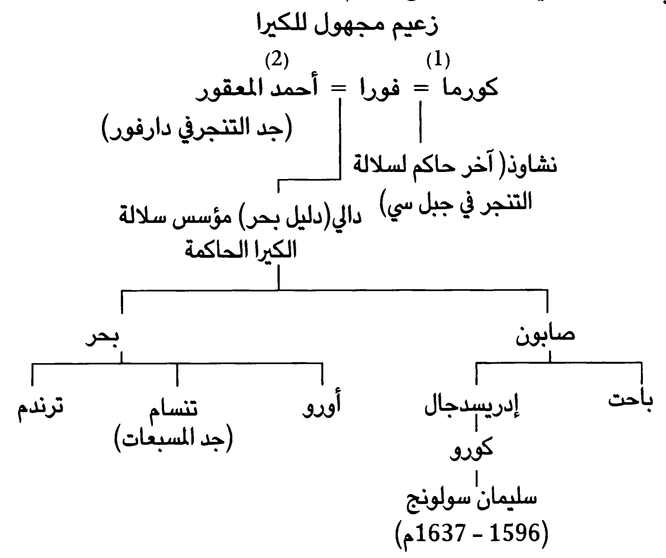
1 سليمان سولونج أو «سيلنج سولونج» كما يسمى أحياناً هو أول حاكم مسلم لدارفور. يحدد د. هلموت تاريخه ما بين 1596م ــ 1637م.

2 99 هو الرقم العربي المفضَّل الذي يمثل أي رقم كبير.

3 هلموت يحدد تاريخه (صـ 584) ما بين 1635م ــ 1655م، وأن اسم ملك التنجر (وهو وثني) في كاداما هو داؤود: ــ كان هذا خصوصاً بعد كتاب ج. ناختيجال "الصحراء والسودان"، الجزء 3.

4 السيف والنار... الفصل 2.

5 د. هلموت يعطي الجدول التالي: (انظر تاريخ العالم، المجلد 3، صـ 585):



قارن الأسماء في شجرة الأنساب هذي مع بعض الأسماء الواردة في نسبة المسبعات والتنجر داخل النص.

كتابه (السيف والنار)[1]..."إنه ووفقاً للروايات المأثورة أن التنجر أتوا من الشمال من تونس تحت قيادة الأخوين علي وأحمد في حوالي القرن الرابع عشر وانتشروا في بورنو وودّاي ووصلوا أخيراً إلى دارفور واستقروا قرب جبل مرة. هذان الأخوان الشقيقان تشاجرا حول امرأة وعقر علي أخاه أحمد في وتر العرقوب وبالتالي أصبح أحمد يلقب بـ"المعقور". ومن ثم تحرك علي إلى جهة الغرب تاركاً اثنين من خدمه لرعاية أحمد، فأخذ الخادمان أحمد إلى قرية الملك كور وهو رجل وثني وكان آخر سلالة الداجو الحاكمة. وتأثر كور كثيراً بميزات أحمد الحضارية السامية وقام بترقيته تدريجياً إلى السلطة وزوّجه لابنته المحبوبة، ولدى وفاة كور خلفه أحمد وعقب هذا الحدث تدفق عددٌ كبير من التنجر إلى دارفور. واختلط هؤلاء التنجر بحرية مع الداجو وحلوا محلهم بدرجة كبيرة. وكان حفيد أحمد هو دالي الذي كانت والدته من الكيرا الفور. إن أوجه الشبه والاختلاف في هذه الروايات واضحة لكن مما هو جدير بالملاحظة أنه لا يوجد في أيٍّ منها إشارة لبني هلال.

إن أية روايةٍ كردفانية مأثورة في الوقت الحاضر لغزو العرب لدارفور واندماج العناصر العربية والسوداء في عنصر واحد يعطي أهمية كبيرة لبني هلال، فمثلاً نجد القلة من التنجر في كردفان ــ برغم غموضهم وعدم تنظيمهم ــ يقولون إن أحمد المعقور كان من بني هلال (والأخ الأصغر لأبي زيد الهلالي) وكان لديه ثلاثة أبناء هم: عبد الرحمن وكِنَّة (ابنة) وأخٌ آخر، ومن هؤلاء كان عبد الرحمن هو جدّ التنجر وكانت كِنَّة والأخ الآخر هما جدَّا الكنجارة والمُسبَّعات. وأخبرتُ أيضاً أن السلطان الحالي علي دينار يزعم بطرق مماثلة أنه ينحدر من بني هلال[2].

ويفسر التنجر اسمهم بالقول إنه عندما تُرك أحمد المعقور أعرجَ في دارفور استحدث له مصدر عيش فأصبح نجاراً وأن الناس الذين كانوا يريدون منه عمل شيء يأتون إليه وهم يقولون ["تنجر، تنجر"].

والرواية الأوفى يرويها مسبّعات دارفور[3]:

---

1 الجزء 1، صـ 2.

2 قيل إن أجداد أسرة المك بتقلي هم بنو هلال الذين هاجروا من دارفور وقدَّموا حكاماً للسود.

3 يرويها حامد جبر الدار، فهو نفسه سليل مباشر لسلاطين المسبعات القدماء. وأدناه الأنساب التقليدية للتنجر والمسبَّعات كما رووها بأنفسهم:

فهم يقولون إن أحمد المعقور كان أخاً لأبي زيد الهلالي ولكن — وفقاً لروايتهم — أن التنجر كانوا في السلطة في دارفور عندما غزاها بنو هلال. وبعد أن تحرك أبو زيد شمالاً تاركاً أحمد خلفه تزوج أحمد بنت سلطان التنجر وكان أحفاده هم الكنجارة (الذين يعتبر المسبَّعات فرعاً منهم). وفي حين كان سلطان التنجر غائباً يحارب في غزوة في الجنوب ترك أحمد وصياً على السلطنة فانتهز أحمد الفرصة لاغتصاب العرش، وقد خلفه ابنه محمد دالي. ومرة ثانية حكى لي التكارير القادمون من الغرب إنه عندما هاجر العرب (الذين يشملون أجدادهم أنفسهم بالطبع!) إلى جنوب برقو وجدوا التنجر في السلطة وطردوا معظمهم، وقالوا لي «إن هذا كان قبل عهد بني هلال وأحمد المعقور الهلالي». وتقول «نسبة دنقلا»: (إن التنجر من هلالة وقد حكموا دارفور)، وتضيف أيضاً أن المسبعات انحدروا من هلالة. والسؤال هو: من هم بنو هلال هؤلاء؟ وما هي الأسس التي يقوم عليها افتراض غزوهم لدارفور؟ وما هي علاقتهم بالتنجر؟ إن الجزء الأول من السؤال إجابته سهلة ولكن السؤالين الثاني والثالث ليسا كذلك. إن بني هلال الحقيقيين كانوا باختصار قبيلة عربية كبيرة وشهيرة وقد غزت إفريقيا في القرن الحادي عشر واقتتلت لعدة سنين مع البربر في الشمال. إن أعمالهم البطولية تحت قيادة البطل «أبو زيد» تشكل دورة كاملة من الأساطير التي كانت حتى وقتٍ

التنجر-غالب-لؤي-كعب-هاشم- عبدالمطلب-العباس-عبدالله-........؟-سعد-الجراح-عامر-إسحاق-مأمون-عجب-بطنان-قصير-جيرمون-سرحان-سفيان المعقور-عبدالرحمن الهلالي-إسحاق -نول عوامل-سريح-قون-بات-رفاعة-شاو-عمرو-إسماعيل-بكر-النور-عثمان-الناير-يوسف-(الجيلُ الحالي)

المسبعات-خزيم-كنعان-النضر-عبدالسلام الأسمر (إمام البصرة)-هلال -إدريس-مأمون-عيسى-ناجل-عجب-بطنان-رفاعة-كاس-السلطان جعفر جرمون-سفيان-رزق-أحمد المعقور-السلطان محمد دالي-

السلطان هوباية(؟)

السلطان محمد صابون جعل

محمد تمساح
السلطان إدريس جربحت
السلطان بحر
السلطان محمد جنقل
السلطان عيساوي
السلطان هاشم
السلطان أحمد الغالي
السلطان محمد جبر الدار
السلطان حامد
(الجيل الحالي)

أحمد كورو
(جد الكنجارة)

متأخر سائدة على نطاق مصر[1].

لا أعرف دليلاً تاريخياً يقول إن بني هلال وصلوا بعيداً في اتجاه الجنوب الغربي حتى دارفور وكردفان، لكن يبدو من ناحية أخرى أن الأهالي يعتقدون أنهم وصلوا إلى هناك وهم يحكون قصصاً كثيرة عنهم وعن «أبي زيد»[2]. وربما تكون كل هذه القصص محض اختلاق أو أصداءً لدورة الأساطير العربية المتعلقة ببني هلال القدامى، ولكن القصة التالية ربما تكون أيضاً نظرية محتملة حيث تقول: إن عدداً من الأعراب هاجروا من النيل وصعيد مصر في اتجاه الغرب في حوالي القرن الخامس عشر أو السادس عشر أو في فترة مبكرة قبل ذلك وأنه كان من بينهم عددٌ محدد من بني هلال الموجودين في كل مكان. هذا وقد اجتاز هؤلاء العرب الذين اشتهروا في تاريخ لاحق بالتنجر كردفان وتغلبوا على الداجو كما وصفهم بارث وآخرون[3]. ولكونهم كانوا على الأرجح في البداية خليطاً متنوعاً من قبائلَ كثيرة فإنهم سرعان ما شرعوا في توطيد

---

1 انظر إ. دبليو لين: أعراف وعادات المصريين الحديثين، الفصل 21، صـ 397 ــ 406، وكليمنت هوآرتس: الأدب العربي، صـ 405.

2 هذه الروايات وردت في الملحق 3. يقول إسكيراك دولوتور في عمله التاريخي الباكر (1853) إن جنوب صحارى التيبو من السنغال وحتى النيل الأزرق يقطنها عرب أبو زيد الذين أتى أجدادهم وفقاً للرواية العامة من اليمن أيام الإسلام وذلك تحت قيادة أبي زيد عن طريق البحر الأحمر، وعبروا النيل الأبيض وانتشروا في السودان. وتكوَّن بهذه الطريقة أولاد راشد والسلامات والرزيقات وبني هلبة [أي قبائل البقارة] وقبائل السنغال العربية والبرنو وودّاي، وتكوَّن في كردفان أيضاً الكبابيش وبني جرار والهبابين والجوامعة والمجانين، الخ. وعلى أية حال استدرك إسكيراك دولوتور وأقر في بحث لاحق نشر عام 1855م أنه ركز كثيراً على ترحال أبي زيد: واكتشف الآن نظرية جديدة فحواها أن كل القبائل العربية تقريباً في دارفور وودّاي والباقرمي، الخ هي قبائل قرشية أصلية، وأن أسلافهم وجدوا طريقهم إلى إفريقيا عبر البحر الأحمر. ومع ذلك فهو يحذف من هذه القبائل «القرشية الأصلية» الكبابيش والحُمُر وحَمَر والتنجر وأخر كثيرين.

3 لاحظ أنه عندما أرسل السلطان سيف الدين قلاوون في 1287 ــ 1289م جيشاً لغزو بلاد النوبة كان هناك عدد من بني هلال بين القوات (انظر مذكرات كوارترمير، الجزء 2، صـ 101 وما يليها). وربما استقر بعض من هؤلاء في بلاد النوبة وشقوا طريقهم غرباً في تاريخ لاحق. انظر أيضاً الفصل «5» حول الجوامعة، فهناك فرع كبير من الجوامعة يسمى الجعفرية استقر قرب أم دم في كردفان. وهناك فرع من بني هلال يسمى الجعفرية، كما كانت هناك قبيلة عربية بذات الاسم استقرت بين إسنا وأسوان بعد احتلال العرب لضفاف النيل. ربما تكون العلاقة بين هذه الإشارات المختلفة للجعفرية أكثر من مصادفة وتؤيد النظرية المقدمة فيما يتعلق بهوية التنجر وبني هلال. ولا علم لي بأية إشارة لأي كاتب عن قبيلة باسم التنجر أو أي اسم يشابهها في مصر أو على النيل أو في شمال إفريقيا في أي وقت من الأوقات. وقرر ناختيجال بأن التنجر من سلالة عربية.

سلطانهم، وفي الوقت الذي كانوا يتصاهرون فيه مع أهالي البلاد باتوا في ذات الوقت يشبعون غرورهم باختلاق نسبٍ شريف لأنفسهم. وقد اختاروا أن يغتصبوا لأنفسهم شجرة نسب بني هلال على أساس أنهم ضموا بينهم بعض أفراد بني هلال تلك القبيلة الشهيرة كريمة المحتد. ونجحت هذه الحيلة ـــ الشائعة على العموم ـــ إلى الدرجة التي ظل فيها أولئك الغزاة يشتهرون في كردفان بأنهم بنو هلال حتى هذا اليوم، فهناك مأثورات محلية قليلة تعطي لوناً لهذه النظرية لكنها ليست كافية بأي شكلٍ من الأشكال لإثباتها: فإن كانت لهذه النظرية أية ميزة فربما كانت هذه الميزة في تفسيرها لبعض التناقضات التي نجدها في أصل التنجر واحتلال العرب لدارفور والتوفيق بين هذه التناقضات. وأدناه تحديد هذه المأثورات المحلية:

1. هناك رغبة للفور والتنجر في إثبات أن أحمد المعقور ـــ جدَّ التنجر في دارفور ـــ كان هلالياً كما ورد ذكر ذلك. والحوازمة البقارة والتكارير يتحدثون أيضاً (كما لاحظنا) عن أحمد المعقور بحسبانه هلالياً.

2. هناك جبل صغير يقع على بعد حوالي 30 ميلاً شمال بارا، بوسط كردفان، يسمى جبل الزناتي يعتقد الناس أن بني هلال تحت قيادة أبي زيد قد هزموا في هذا المكان فريقاً من البربر الزناتة بقيادة واحدٍ يدعى «خليفة الزناتي»[1].

3. يقول أهل كتول في شمال كردفان أن أبا زيد وبني هلال قد حكموا كتول لبعض الوقت وأشاروا إلى موقع منزل أبي زيد (وهو عبارة عن أنقاض خشنة من الحجارة) على جبل كتول.

4. اشتهر الجزء الضحل من النيل جنوب الدويم لفترة طويلة بأنه (محطة أبي زيد)، ويقال إن أبا زيد وبني هلال عبروا النيل في ذاك الموقع. ويقال إنه بالإمكان تحديد الأماكن المختلفة التي عسكروا فيها في رحلتهم من اتجاه الشرق.

5. يقول الجوامعة الفرجاب (شرق بارا) إن أول عرب يجتازون كردفان هم بنو هلال حيث أبادوا العنج ـــ السكان الأصليين ـــ ولكن دارت عليهم الدائرة حين

---

1 برز "الزناتي خليفة" في دورة أساطير بني هلال بأنه كان حاكماً لتونس عندما هاجر أبو زيد وبنو هلال إلى الغرب. انظر هورت، صـ 408.

دفع بهم حكام سنار الفونج إلى اتجاه الغرب.

والآن وبغزو قبيلة مشهورة كبني هلال لكردفان ودارفور من المحتمل جداً أن توجد وثيقة متاحة لهذه الواقعة، لكن يبدو أنه ليست هناك وثيقة ولا يبدو أن الرحالة في دارفور قد سمعوا بها، وفضلاً عن ذلك يقال إن التنجر الذين فتحوا دارفور كانوا وثنيين. من ناحية أخرى تؤكد الأساطير المحلية ــ كما أوضحنا ــ أن قبيلة عربية غزت في تاريخ مبكر البلدان المعنية من جهة الشرق قبل هجرة القبائل الحالية. وطالما كان هناك منطق يحملنا على الاعتقاد بأن التنجر كانت هي القبيلة المعنية [أنظر بارث]، فمن المحتمل على الأقل أن كثيراً من الروايات التي تحكي عن بني هلال والتنجر في كردفان ودارفور لها صلة بذات الناس. والنظرية الثانية وربما الأكثر إقناعاً وتتفق ببساطة مع كلتا روايتيْ بارث وسلاطين حول التنجر هي أن التنجر لا يتصلون كثيراً من ناحية النسب ببني هلال كاتصالهم بالبربر والقبائل ذات الأصل الواحد التي طردها بنو هلال والعرب الآخرون من شمال إفريقيا في القرون التي تلت فتوحات عمرو بن العاص. واعتقد أن بطاليسا التي يقول بارث إن التنجر انشقوا منها هي فرع من البربر الزناتة[1]، ومما لا خلاف فيه بالطبع أن العرب والبربر لم يحتربوا فقط لكنهم مزجوا عناصرهم بدرجة ملحوظة عبر التصاهر وكانت النزعة الناتجة عن ذلك باستمرار هي ادعاء السلالة العربية لا البربرية. إذن ربما يمثل التنجر مزيجاً من الزناتة البربر وغزاتهم العرب بني هلال (ناهيك عن العرب أو أنصاف العرب الأخر الذين ربما كانوا ممثَّلين في المزيج)، وربما هاجروا إلى دارفور إما مباشرة من الشمال وإما عن طريق دنقلا. بل حتى من الممكن أن يكون التنجر زناتة على وجه الحصر تقريباً واختاروا ادعاء العلاقة ببني هلال للشهرة فقط. وفي الوقت الحالي هناك تنجر قليلون وسط المسبَّعات في الجكَّة جنوب غرب الأبيض وأكثر من ذاك العدد بقليل قرب الرهد[2]. ويشير هؤلاء الناس إلى التقسيمات الفرعية الآتية للقبيلة:

كروا	كيران
كراسي	بور جلاب

---

1 انظر ليو آفريكانوس، جمعية هاكلويت. الطبعة، المجلد «2»، الجزء «3»، صـ 645.

2 يقول بعض الزغاوة من دارفور إن التنجر كانوا ذات مرة عمالاً كباراً في الحديد، وربما كانت بعض الأشغال الحديدية التي ما تزال مواقعها مشهودة في شمال كردفان تعود إلى التنجر. وصهر الحديد يعتبر الآن فناً طواه النسيان في شمال كردفان

رشايدات | نفر بحر
هاشم الخلا | نفر أبو تاروس
أولاد ملايق

الجزء III.

ندلف الآن إلى إشارة أبعد للكنجارة والمسبَّعات. لقد أشير إلى دالي أو (دليل) بحسبانه أول ملك لذاك العنصر المركب الذي يعرف عموماً باسم الفور والذي انبثق من اتحاد الداجو والعناصر الأخرى القديمة والتنجر المهاجرين. وسرعان ما فقد هؤلاء الفور أية مسحة عربية قليلة قد تكون فيهم[1]، وقد قسموا إلى ثلاث مجموعات كبيرة هي: الكنجارة والكراكريت والتمورقة، وقد قدَّمت مجموعة الكنجارة لدارفور السلاطين[2]، ولسنا معنيين هنا بالكراكريت والتمورقة، ولكن برز من بين الكنجارة إلى مستوى الأهمية الأناس الذين يُدعَوْن المسبَّعات الذين حكموا كردفان فيما بعد حتى أفسحوا المجال بعد ذلك لنسابتهم الكنجارة الأصليين، وهناك روايات مختلفة لبروز المسبَّعات سنرويها لاحقاً. فقد أصبحت البلاد بعد وفاة دالي فريسة للحرب الأهلية لعدة أجيال، وقد كان لدالي حفيدان[3] هما تنسام وكورو[4] وتنسام هو جدُّ المسبَّعات وكورو هو والد سليمان سولونج وجدُّ الكنجارة. ورواية انفصال المسبعات من الكنجارة كما يرويها المسبعات هي كالآتي: كان للسلطان محمد صابون حفيد دالي ولدان هما محمد تمساح وأحمد كورو، وقد نشب حسدٌ بليغ بين هذين الأخوين وبلغ الشعور السيئ ذروته عندما التقيا ذات يومٍ وحلَّا ضيفين على سيدة حيث قدمت هذه السيدة نبيذاً أحمر إلى كورو بفضل ثروته ونفوذه العظيمين وقدمت إلى محمد تمساح نبيذاً أبيض فقط. ونهض محمد تمساح من الحصير الذي كان جالساً عليه وأقسم أنه لن يكون بعدها في موضع

1 انظر ناختيجال (مستشهداً به إنسور) والتونسي. يقول التونسي إن جبل مرة كان يقطنه في أيامه (1803م) فورٌ صرف كانوا غرباء بالكامل على اللغة العربية والعادات العربية.

2 انظر التونسي.

3 انظر ناختيجال. يقول المسبعات إنهم كانوا أحفاداً عظماء: انظر صـ 83.

4 »تونسام» أو «تنسام» أو «محمد تمساح»: «كورو» أو «أحمد كورو». انظر نسبة المسبعات في صفحة 83. إن صيغتي محمد تمساح وأحمد كورو تمثل بلا شك المحاولات المبذولة لتعريب الأسماء الوثنية الأقدم .

دناءة وسيهاجر شرقاً إلى كردفان. وفعل ما نواه حيث جمع حاشية متنوعة من مختلف القبائل العربية والكنجارة وهاجر شرقاً. وقد أطلقت مجموعة الناس الذين بقوا في دارفور على أتباع محمد تمساح لقب (مُصَبَّحَات) ـــ أي «المُشرِّقين» أو « الناس الذاهبون إلى الشرق» ـــ وأصبحت كلمة « مُصَبَّحَات» تدريجياً «مسبَّعات». وهناك رواية مختلفة قدمها التونسي يقول فيها إن أناساً ثقاة أخبروه أن سليمان سولونج[1] كان له أخ اسمه مسبَّع، وهذان الأخَوَان تقاسما مملكتيْ دارفور وكردفان اللتين شكلتا في الأصل حكومة واحدة وقد تعهدت أيٌّ منهما باحترام مجال نفوذ المملكة الأخرى. ويقول ناختيجال مرة ثانية (كما استشهد بروايته إنسور) إنه بعد وفاة دليل (دالي) اندلعت الحرب بين تونسام وكورو وأن تونسام نجح في البداية وطرد سليمان «ابن كورو» إلى المسبَّعات في شرق دارفور، ولكن سليمان عاد وطرد تونسام من جبل مرة [إلى كردفان على الافتراض]، ومن ذلك الوقت يتحدد تاريخ انفصال سلالة المسبعات الفوراوية التي فقدت لغتها الأصلية وتبنت عادات العرب وأعرافهم. ويقول شورتز أخيراً[2] إنه بعد سقوط حكومة دالي كانت هناك حرب أهلية وكان سليمان سولونج هو أول من أمسك بزمام الحكم بقوة ونجاح، فلقد هرب سليمان عندما كان طفلاً إلى ودّاي وعاد ليحارب عمه العظيم تنسام وأقام في جبال مرة، ومن ذلك الموقع أخضع منطقة دارفور وقام بتوسيعها. ويقول شورتز أيضاً «إن المسبَّعات كانوا يشكلون تهديداً دائماً لموسى (ابن سليمان وخليفته: 1637م ـــ 1682م) وأن سلطانهم جُنقل[3] ادعى حقاً في العرش على أساس علاقته بالسلالة الحاكمة». وقد أصبحت كردفان من الآن فصاعداً أكثر وأكثر استقلالاً.

كان المسبَّعات يقاتلون باستمرار سلاطين الفور الذين كانوا بلا شك يتوقعون منهم دفع الجزية، ولكن ربما كان نفوذهم متقلباً إلى حدٍّ كبير ولم يبلغ ذروته لحوالي قرنٍ بعد وفاة سليمان سولونج. ولم يكن المسبعات قلقين من ناحية الفور فحسب بل إضافة لذلك كان ملوك سنار من جهة الشرق والجنوب يدَّعون في أوقاتٍ معلومة أيلولة

---

1 التونسي يسميه «سالون أو سليمان» ـــ أول جد لسلاطين دارفور الحقيقيين. وربما كان سليمان صيغة معربة لاسم سيلنق أو سالون. أما سولونج فقد كان لقباً ينطبق على أولئك الذين يظنون أنفسهم من سلالة عربية (انظر سلاطين، صـ «2»).

2 صـ 544.

3 ربما يكون محمد جنقل في المذكرة «1»، صـ 83.

كردفان لهم. كانت سنار في حوالي منتصف القرن السابع عشر[1] وبعد وفاة سليمان سولونج ناشطةً نشاطاً واضحاً في كردفان وكان الجزء الجنوبي من البلاد خاضعاً لها، وفي حوالي عام 1748م شنت حرباً على المسبعات وهزمتهم. ودام حكم سنار اسمياً لأكثر من قرن من الزمان، ولكن في الواقع أن الغديات كانت لهم اليد الطولى في جنوب كردفان في حوالي عام 1755م. ويبدو أن هؤلاء الغديات أنفسهم كانوا في الأصل من الفونج بنسبة أكثر من خمسين في المائة ولكنهم استقروا في كردفان بشكلٍ دائم وأنهم ارتدوا عباءة الفونج ــــ إذا جاز التعبير ــــ عندما وقع الفونج في فواجع الحرب الأهلية في سنار وهجروا كردفان إلى مدىً بعيد، وتصاهر الغديات بدرجة كبيرة مع المسبعات[2] الذين أضحوا ذوي نفوذ في شمال ووسط كردفان. وبعد أن كان الغديات همُ الأعلَوْن ــــ مع فترات من الصراع ــــ لمدة ثلاثة عشر عاماً تقريباً تحول النفوذ السلطاني الأكبر إلى المسبعات (في حوالي عام 1768م). وفي حوالي هذه الفترة كان يعيش السلطان هاشم المسبعاوي الشهير، وقد كان هاشم هو حفيد محمد جنقل والسليل المباشر لتونسام (تمساح). وانهمك السلطان هاشم في حروب مع الفونج أو الغديات لمدة 17 عاماً تقريباً وطُرد إلى كتول[3]، ومكث هناك لعدة سنوات ومن بعدُ عاد إلى السلطة عندما أصبح سلطان الفونج في أضعف أحواله. وأخيراً أصبح منهمكاً في حرب مع السلطان تيراب الكنجاري سلطان دارفور[4]، وفي عام 1785م هُزم وطُرد من كردفان. ولكن تيراب مات في ذات العام في كردفان ورجع خليفته عبد الرحمن إلى دارفور تاركاً حاكماً كنجارياً على كردفان. وعاد هاشم في عام 1791م تقريباً وطرد الحاكم واستمر في شنِّ حرب متقطعة ضد الكنجارة لفترة أخرى من السنين، وفي النهاية تعقبه القائد الكنجاري وهرب إلى شندي حيث لقي مصرعه هناك في خاتمة المطاف. وفي ذاك الحين كانت الحرب الأهلية تمزق سنار وبات الكنجارة حكاماً لكردفان بلا منازع حتى فتح الأتراك البلاد في عام 1821م[5].

1 بالنسبة لما يلي انظر الفصل "1"، صـ "41".

2 يقول الغديات أنفسهم بذلك.

3 انظر الفصل «6» حول الجبال البحرية.

4 بالنسبة للتفاصيل انظر الفصل «1».

5 الرواية المأثورة التي يكررها أحفاد هاشم هي أن الحسانية استقبلوه استقبالاً طيباً في جبل حنيك الذي فر إليه، ولكن بقية الناس أطلقوا صرخة بأنه غزو فوراوي وهاجموه، ففر عبر النيل إلى منطقة الجميعاب

قسِّمت العاصمة الأبيض آنذاك إلى أحياء حيث سكن بقية الكنجارة في حي وسكن المسبعات تحت زعامة آدم دبالو نجل هاشم في حي آخر. ويحدثنا هولرويد أن كلتا الكنجارة والمسبعات «القبيلة المنسوبة تماماً إلى كردفان» كانتا موجودتين بأعدادٍ كثيرة في عام 1836م، وبعد عامين أو ثلاثة أعوام قال لنا بالمي نفس الشيء: ففي عهد بالمي كان حي الكنجارة تحت زعامة السلطان تايما الذي كان المُخَصِّي الرسمي والحائز على نحاسيْن كبيرين متباهياً بهما حيث أعطاه إياهما محمد علي[1]. وعلى أية حال إن كثيراً منهم في العهد التركي رجعوا إلى دارفور، وفي عام 1876م كان هناك بضع مئات من الكنجارة والمسبعات تُركوا في الأبيض والمنطقة المجاورة لها[2]. ولم تزد أعدادهم منذ ذلك الحين وقد ارتبطت القبيلة بدارفور تقريباً باستثناء قرىً صغيرة قليلة (في الجكة مثلاً) وبعض المشردين في الأبيض.

وعندما رفضوا أن يتركوه يمر بأرضهم أقسم أنه سيقتل منهم 100 شخص على الأقل. ووفقاً لهذا القسم قتل كل ما استطاع قتله، ولكن عندما جمع الجثامين الموجودة هناك كان عددها 99 جثة فقط، ولذا قتل كلباً ليكمل العدد. وواصل هاشم آنذاك سيره إلى الغرب من بلاد الشايقية إلى «جزيرة نسري» حيث زوَّج ابنته الأميرة شريفية لمالك سبيل من الشايقية. وبعد أن مكث هنا لبضع سنوات واصل تقدمه إلى المتمة وزوَّج واحدة أخرى من بناته ـــ الأميرة جعلية ـــ لمالك الزبير الشايقي. وشكل هاشم الآن تحالفاتٍ مع الشايقية والجعليين والدناقلة، وقرر أخيراً أن يسترد كردفان ووفقاً لذلك كتب إلى «الأفندية» في مصر طالباً عونهم، فأرسل محمد علي فوراً الدفتردار الذي استولى على الأبيض. وتقول الرواية إن هاشماً لسوء الحظ مات في المتمة ولذا لم يعين سلطاناً لكردفان أبداً. وفي واقع الأمر يقول بيركهاردت إن هاشماً بعد أن طُرد من كردفان اتخذ له ملجأً في التلال الواقعة غرب النيل وجنوب بربر حتى فرَّ إلى شندي بعد أن ضغط عليه الشايقية بشدة، وهناك لقي مصرعه على يد المك نمر بتهمة التواطؤ. ويقال إن قبة الفكي أبو قرون في الأبيض تقف شاهداً على موقع منزل هاشم قبل خلعه من العرش.

1 انظر بالمي، صـ 275.

2 انظر براوت.

الفصل الثالث

الغديات، البرقد، التُّمام والتمباب

يسكن الغديات والتمام والبرقد والتمباب تقريباً بين جبال النوبة وخط عرض الأبيض، وهذا الموقع الطبوغرافي مع وجود السود إلى الجنوب والعرب الخليط إلى الشمال يمثل بالضبط وضعهم العرقي وسط قبائل كردفان. والدم العربي في الغديات أبعد ما يكون عن كونه طاغياً فيهم، ذلك أن وجودهم في كردفان حقيقة مؤكدة [1] قبل وصول أغلب العرب إليها. ورغم أنهم بلا شك يضمون بعض العرب وكثيراً من النوبة بل وحتى الدم الفوراوي لكنهم كانوا متحالفين تحالفاً وثيقاً ـــ أكثر من أيِّ أناسٍ آخرين في كردفان ـــ مع فونج سنار الذين كانوا سائدين في جنوب كردفان من القرن السادس عشر حتى النصف الأخير من القرن الثامن عشر. وهم أنفسهم يقولون إن كلمة غديات لها علاقة بكلمة «غدة» العربية ـــ أي جزء أو قطعة ـــ طالما أن أولئك الفونج الذين أتوا أولاً إلى كردفان قد انشطروا من بقية قومهم واستقروا هناك. وربما دخلوا كردفان في البداية في وقتٍ مبكرٍ من القرن السادس عشر، أي مباشرة بعد أن وحَّد عمارة دونقس الفونج وبدأ فتوحاته، ويقولون إنهم استقروا حول جبل كُرْباج والمِلبس قريباً من موقع الأبيض الحالي. وكان النوبة آنذاك مهيمنين ويحكمون البلاد من جبل كردفان والجبال المحيطة به، ويقولون إن «مك» النوبة كان اسمه كُلدو ومنه أتت تسمية جبل كردفان وفيما بعد أخذت المنطقة كلها اسم كردفان، وهي تصحيف لكلمة «كُلدو فار» أي «كلدو استشاط غضباً»[2]. ويقول الغديات إنهم عاشوا لفترة من الزمن في وئامٍ مع النوبة ومن ثم أغروهم للنزول من جبالهم لسماع «الدلُّوكة» ولكنهم قطعوا عليهم خط الرجعة وقتلوهم: وبعد هذا كانت للغديات اليد العليا لمدة من الزمن[3] فقد عاشوا تحت حكم ملك يسمى «مانجل»:

---

1 أية روايةٍ مأثورة تعترف بذلك. انظر أيضاً بالمي وبثريك وبراوت.

2 انظر الملحق «1».

3 تشير أنقاض مباني الغديات على جبل كردفان إلى أنهم جعلوا من ذلك الجبل أحد معاقلهم.

ويقال هذا المصطلح عند الفونج ليشير إلى حاكمٍ مطلق ذي سلطاتٍ أتوقراطية كاملة، ولكن يضاف إلى ذلك أن كلمة «مانجل» لم يكن لها شرفٌ بعد وفاته وقد تركت طيَّ النسيان بمجرد أن مات، وأصبح خليفته «مانجل» في الوقت الذي كان يتحدثون فيه عنه هو نفسه بلقب «شيخ» بعد الوفاة. إن معظم جنوب كردفان بما فيه جزء كبير من منطقة الجبل كان ــ كما أشير من قبل ــ تحت سلطان الفونج أو (الغديات) لبعض الوقت قبل القرن التاسع عشر، وفي الوقت الحالي فإن كثيراً من المكوك المهمين في الجبال الشرقية مثل الملك الزيبق مك رشاد فيهم كثير من دم الفونج. وفي خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر كان الفونج يغزون جنوب كردفان مراراً وتكراراً باعتباره مصدراً للمجندين والرقيق، ولا شك أن أعداد الغديات والقبائل الأخرى التي هاجرت أيضاً ــ البديرية والجوامعة مثلاً ــ ازدادت بالتالي بصورة ملموسة. وقيل إن البرقد كانت لهم الصولة في الأجزاء الشمالية من كردفان خاصة في جبال كاجا في هذا الوقت تقريباً وقبل اندلاع الحروب بين هاشم المسبعاوي والفونج، فهناك آثار لمساكنهم القديمة في كاجا وكتول ظاهرة للعيان حتى الآن على الجبال. وقد طُردوا جزئياً بواسطة البديرية تحت قيادة «السلطان بلول» الذي هزمه بدوره السلطان هاشم. هؤلاء البرقد (البركت) قد ذكرهم بارث[1] من بين القبائل الزنجية القاطنة قرب الحدود ما بين ودّاي ودارفور وهي البلاد التي يوجدون فيها بأعداد أكبر. وتقول روايات دارفور المأثورة[2] إن جدَّ البرقد كان عبداً لأحد قواد غزوة التنجر لدارفور. في القرن الثامن عشر دخل الفونج في حروب مع مسبعات دارفور الذين كانوا مهاجرين شرقاً بأعدادٍ كبيرة، فالأعمال العدائية المستأنية استمرت كما رأينا لبعض السنوات، ولكن رغم أن الغديات ارتبطوا ارتباطاً لصيقاً بالفونج ورغم أنهم بلا شك أيدوا قضية الفونج بدلاً عن قضية المسبعات لكن قيل إنهم تصاهروا مع المسبعات بحرية بعد أن تم طرد الفونج.

إن القبيلة المرتبطة ارتباطاً لصيقاً بالغديات هي قبيلة التمام: فقد قيل إنه بعد واحدة من هجمات الفونج على البلاد تحت قيادة واحدٍ اسمه أبو الديس وقبل أعوام قليلة من عهد المسبعات، كان الغديات والتمام يدفعون بالتناوب كل الجزية المطلوبة

1 انظر بارث، المجلد «3»، صـ 543 وما يليه.

2 انظر سلاطين، السيف والنار، الفصل «2».

من البلاد إلى سنار. هذه الجزية لم تكن تدفع نقداً بحكم أنه لم يكن هناك نقد لكنها كانت تدفع إما ماشية أو حديداً «حشَّاش أم حنانة»[1]. إن الغديات بحسب الاتفاق العام مرتبطون عن طريق المصاهرة بالتمام والبرقد والبديرية والتمباب ولكن بحكم المجموعة فإنهم قريبون من الفونج تقريباً. إن البديرية اختلطوا في الغالب بالعرب وإن البرقد مرتبطون ارتباطاً لصيقاً في الغالب بالعناصر السوداء. كانت أيام هيمنة الغديات في وسط كردفان في الفترة ما بين 1755م إلى 1768م تقريباً ولكن كان لديهم نفوذ كبير جنوب الأبيض حتى حوالي بداية القرن التاسع عشر، ويزعم الغديات أن كثيراً من الأراضي التي يقطنها الآن الجوامعة الموجودون

1 هذا «الحشَّاش» أشار إليه بيركهاردت (بلاد النوبة...) وأشار إليه بالمي، وتعني الكلمة حرفياً المعزقة. ويقول بيركهاردت إنه كانت هناك عملة حديدية في كردفان (رغم أن «الذرة» والأبقار كانتا الوسيط المألوف للتبادل)، وبالتالي فإن تلك العملات المعدنية صكت في شكل رؤوس سهام وأدوات أخرى. ويكتب بالمي مضيفاً إنه بالإضافة إلى العملة التركية «هناك عملة معدنية صغيرة من الحديد تسمى «الحاشية» رهن التداول حيث ضربت خلال حكم سلطان دارفور واستمرت تستخدم عملة منذ تلك الفترة: إنها قطعة صغيرة من الحديد يتراوح طولها من بوصتين إلى ثلاث بوصات وهي في شكل مرساة منفرجة. إن 150 قطعة من هذه القطع كانت تعتبر سابقاً مساوية لدولار واحد وقد انخفضت قيمتها لاحقاً إلى 250 وقيمتها الحالية تصل إلى 800 مقابل الدولار أو «بارة» واحدة مقابل كلٍّ منها» (انظر بالمي، صـ 303). يبدو من أول وهلة أن بيركهاردت وبالمي لم يعرفا كلمة «حشَّاش» بأنها معزقة وبالتالي فإن رؤوس المعزقة الحديدية كانت تستخدم وسيط تبادل فقط. ولكنني أشك ما إذا كان هذا هو التفسير الوحيد، لأن بعض الناس ما زالوا يتذكرون هذا «الحشَّاش» بأنه كان يستخدم حصراً في شكل عملاتٍ وأن بعض الحشَّاش الذي وجدته في جبل الحرازة (انظر الفصل السادس) كان صغيراً جداً على استخدامه للعزق أو الحش. ويبدو إذن أن رؤوس المعازق التي كانت أساساً من صناعة دارفور أو صاغها السود الذين قدموا من دارفور واستقروا في الجبال البحرية حيث كان هناك حديد استخدم أولاً في شكل عملة، وعندما برزت الحاجة إلى تمييز أكثر لمواد العملة قام الناس بصناعة رؤوس معازق أصغر لاستخدامها حصراً في شكل عملاتٍ لا لأي استخدام للزراعة، أو بمعنى آخر أن هؤلاء الناس تقيدوا في صناعة أول عملات معدنية لهم بشكل العملة ذات الرأس المعزقي المألوف بدلاً من صناعة عملات معدنية دائرية أو مربعة. ويجدر بالملاحظة في هذا الصدد هذا الاقتباس المأخوذ من شفاينفورث (الفصل 4): «اللوجو كلُّوتي هو الوسيط المتبادل للبنقو، وهو المعادل الوحيد الذي تمتلكه إفريقيا الوسطى للنقود من أي نوع. ويقول ميجور دنهام الذي زار السودان الأوسط في عام 1814م أنه كانت هناك في ذلك الوقت بعض القطع الحديدية التي يتم تبادلها باعتبارها عملة في منطقة لوجون في أسفل نهر شاري، وهي تجيب على ما يستخدم الآن وسط البنقو... إن اللوجو كلُّوتي يصاغ في دوائر مسطحة ويختلف في القطر من 10 بوصات إلى 12 بوصة. وفي أحد أطرافه مقبض قصير وفي الطرف المواجه نصل بارز عبارة عن شيء في شكل مرساة. بهذا الشكل يتم تخزين المعدن في كنوز الأغنياء، وهو يعمل حتى الوقت الحالي رؤوس رماح ومجارف مقابل النقد أو التبادل....». ويطلق على سوق هذه اللوجو كلُّوتي اسم «ملود». واعتقد أن الجور أيضاً يستخدمون حتى اليوم «الملود» حشَّاشاً أو معازق ووسيطاً للتبادل، وفي حالة التبادل يكون «الملود» في شكل معازق ولكنه صغير جداً أن يستخدم حشَّاشاً. (بالنسبة لعبارة «أم حنانة» انظر الفصل 6 حول الجبال البحرية).

في الجنوب قد منحها لهم زعيم الغديات عياد ود أم بلينة[1]. وقيل إن هذا الزعيم ـــ عياد ود أم بلينة ـــ كان معاصراً لأبي الديس المذكور آنفاً وقد قاوم غزوه، وتغلب عليه أبو الديس، ولكن عندما رجع أبو الديس إلى سنار بسبب الخلافات الداخلية التي نشبت هناك ترك عياد وصياً له على القبائل الواقعة جنوب الأبيض[2]. وقد وجد الفتح التركي عام 1821م عمر ود الضو زعيماً على هذه القبائل ولكن الشكاوى التي رُفعت ضده قادت إلى عزله وتفريق القبائل المختلفة إلى «عموديات» مستقلة كلاً منها تحت شيخها الخاص[3].

ينقسم التمام إلى خمسة عشر فرعاً، هم:

فدرجين	نفر الفيل	نفر علي
أنقورة	نفر النصر	نفر أبو حماد
نارفا	نفر شربة	نفر بقل
شومة	نفر حسب الله	(فرعان آخران)
نفر عُقلة	نفر عمر	

وينقسم الغديات إلى حوالي عشرين فرعاً وأدناه بعض منها:

نفر المراد	نفر أبو خدرة	الكعوك
نفر عمر	السلامات[4]	المِجابدة[5]
نفر صافي	البُرُوح	السرارير
سعيد	العِضيْرات	

إن النسبة المتفق عليها في العادة بالنسبة للبديرية والغديات والتمام...الخ توصل

1 يقال إن بصماتٍ من ختم «عياد» الضخم ما زالت موجودة في حرز بعض الجوامعة الذين منحهم الأرض. ووصف بالمي (صـ 12) مكانته بين الغديات بأنها شبيهة بمنصب «الناظر» أو المحكَّم الأعلى.

2 يقال إن أبا الديس أرسله «ملك سنار محمد ود رجب والد عدلان». ومن المرجح أن تكون الإشارة إلى رجب ود محمد وزير الملك عدلان الذي هاجم ـــ كما رأينا ـــ جنوب كرفان بين عامي 1780م و1788م (انظر الفصل «1»).

3 إن الغديات والبديرية والتمام، الخ بقوا مستقلين اسمياً، ولكن الحوازمة البقارة في الوقت الحالي يتكونون إلى حدٍّ كبير من مركَّب من هذه القبائل. وقبل إعادة احتلال كردفان في 1900م تم اعتماد «عبد الصمد» البديري ناظراً لكثير من هذه القبائل بحكم عدم انضمامها إلى الحوازمة أو بقائها مستقلة بالكامل.

4 فرع من قبيلة البقارة بذات الاسم في البرقو بدارفور، الخ.

5 فرع بديري أصلاً بحكم العنصر.

نسبهم إلى كِرْدَم جدّ الجعليين الشهير. ويقول البعض إن حامد جدَّ الغديات وعلي جدَّ التمام هما ابنا سُمَيْرَة بن سرار بن كردم، ويقول آخرون إن تمام كان ابن كردم وأن سُمَيْرَة هو جدّ الغديات والبطاحين والقنن والقصاص، أما البديرية فينحدرون من سمرة أخ سُمَيْرَة وأن الجوامعة والجمع ينحدرون من مِسمار أخيه الآخر. إن الاستنتاج الوحيد المسموح به هو أن هذه القبائل المختلفة ترتبط ارتباطاً ضعيفاً ببعضها البعض[1]. لقد كان الياس ود الكنونة أميراً للغديات في المهدية، وقد ساق معظم القبيلة إلى أم درمان بناءً على دعوةٍ من الخليفة. ويقطن الغديات في الوقت الحالي في ذات الأماكن التي سكنوها في بداية مجيئهم إلى البلاد، أي الأماكن الواقعة حول الرهد والبِركة.

---

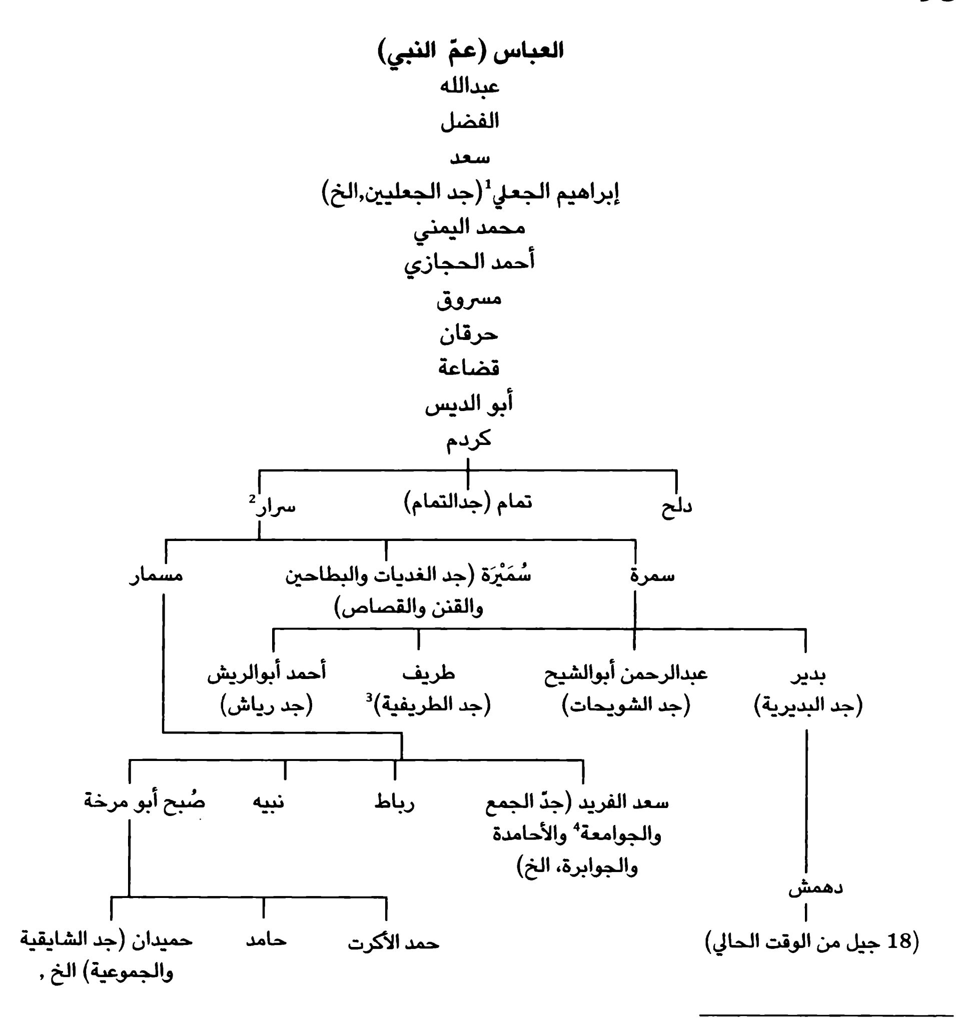
1 انظر الفصل «4» حول البديرية.

الفصل الرابع

البديرية

قبيلة البديرية قبيلة وضيعة وهي قبيلة مستقرة قطنت كردفان منذ زمن طويل. ومثلما أن الغديات يمثلون سلالة الفونج المهاجرة القديمة فإن البديرية أيضاً يمثلون الفروع الدنيا من الجعليين والشايقية أهل المناطق النهرية الذين كانوا ذوي شوكةٍ فيما مضى. ويزعم البديرية أنهم والشايقية من سلالةٍ مشتركة مع الجعليين، وأن شجرة النسب المتفق عليها عرفاً والتي تعكس العلاقة هي كالآتي:[1]

1 إن مدى انحدار الجعليين من العناصر العربية وانحدار الشايقية من العناصر غير العربية أمر ناقشه باطلاع رحالة كثر أعمالهم متاحة بكل سهولة، فمثلاً الرحالة هارتمان يرى أنهم ينتمون في الواقع إلى سلالة نوبية. وتشير «نسبة دنقلا» إلى أن «البديرية في السودان يضمون بعض العباسية [أي بني العباس] وبعض العنج [أي السكان الأصليين]»، وربما كان هذا صحيحاً مع شيء من الالتباس. ويلاحظ أن واحداً اسمه بدير أو محمد بدير قد قدِّم باعتباره جداً للقبيلة. ويقول البعض إن هذا الشخص دُفن في دنقلا بيد أن رواية شاذة من دار حامد تقول إن بدير أتى مع أبي زيد الهلالي قاضياً عندما طرد أبوزيد الزناتة البربر من شمال إفريقيا إلى جهة الجنوب. ويقول سير سي. ويلسون إن اسم القبيلة مشتق من «بدير» تصغير كلمة «بدر»، ولكن لأن البدر يعتبر رمزاً عربياً للجَمَال فإن تصغير بدير من الواضح اسم يسمى به الطفل، ولكن الجدل لم يتطور. ويقول فصل في «نسبة دنقلا» كتب بيدٍ مختلفة في وقت أبكر من وقوع الرواية التي استشهدنا بها آنفاً: «إن البديرية الحقيقيين انحدروا من بدر ابن عمرو بن قوفة بن عرظان بن ثعيلبة بن عادي بن فزارة، وأنهم بذلك فرع من فزارة» (بالنسبة لفزارة انظر الفصل «15» والفصل «18»). إن كثيراً من أسماء الأشخاص والقبائل في شجرة النسب المقدمة قد حُذفت حيث كتبت هذه الشجرة في دنقلا للسيد المكي الشيخ الديني الكبير الذي كان من بين أتباع المهدي الأوائل. ولم يكن السيد المكي حقيقةً بديرياً أو دهمشياً ولكنه كان جزئياً من أصل تكروري، ولكن طالما أن دهمشية دنقلا يزعمون أنهم أشراف (انظر الفصل «6») وأن بعضاً منهم كانوا بين البديرية الذين يعيشون مع السيد المكي فقد رأى السيد المكي أن هذه صلة نسب مناسبة يجب إقرارها.



1 يقول مؤلف كتاب شجرة الأنساب عن إبراهيم الجعلي: فيما يتعلق بـ«جَعَل» [أي الجعليين] فإنهم ينتمون إلى بني العباس ولا يجب تسميتهم قبيلة لكنهم بالأحرى أحد أفرع بني هاشم، وأنهم فقط اشتهروا باسم جَعَل لأن جدهم عُرف بهذا الاسم لأنه كان رجلاً كريماً، وفي زمن المجاعة كان الأناس الضعاف يندفعون نحوه وهو يقول لهم [جَعَلناكم] لذا لقبوا باسم جَعَل. والآن جدُّ كل قبائل جَعَل هو كردم ابن أبو الديس وأن أياً من لم يكن من بين أحفاده فهو ليس بجعلي، وقد كان موطنه في أرض الحجاز.

2 يقال إن سرار هو الذي أتى شخصياً بأسرته إلى كردفان وأضفى اسمه على بئر سرار وهي عبارة عن بئر وجبل شمال بارا بمسافة يوم. وتؤول الآن إلى الجوامعة (أولاد مُرُنج).

3 بالنسبة للطريفية، انظر الفصل «5» حول الجوامعة.

4 انظر الفصل «5»: ستلاحظ أن الجوامعة أنفسهم في الغالب يقولون إنهم لم ينحدروا من سعد الفريد بل من صُبْح أبو مرخة.

ومن المؤكد أن البديرية كانوا خاضعين للشايقية في القرن الثامن عشر على الأقل في منطقة البَحَر، وفي وقتٍ متأخر ولدى اندلاع «المهدية» تحدث عنهم سير سي. ويلسون بأنهم «نوبة مع مزيج من الدم العربي وما زالوا يتكلمون بينهم بالرطانة (أي رطانة النوبة)»[1]. إن كثيراً من الجعليين والشايقية (بما فيهم البديرية أياً كان وضعهم) وقبائل أخرى قد دخلوا كردفان إما مع المهاجرين الأوائل من الفونج أو بعدهم وذلك خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر واستقروا حول موقع الأبيض الحالي وتصاهروا إلى حدٍّ كبير مع النوبة، ونتيجة لذلك أصبح لدينا البديرية والجوامعة الحاليون وبعض القبائل الأصغر الأخرى، وبالتالي نجد أيضاً وسط البديرية بقايا قبائل أخرى بارزة كما سنرى. ويتكون البديرية الحاليون في كردفان من فرعين رئيسين، هما الدهمشية وأولاد نعيمة: ويضم الدهمشية:

أولاد حليب	الشويحات	أولاد شحاتة
الزنارة	رياش	أولاد هلال
العياتكة	الكدومة	الحسينات
أولاد محمد	أولاد علي	

ويتكون أولاد نعيمة من:

أولاد حمد الله	أولاد ملكة	أولاد موسى
أولاد مطيع	العنانيَّة	

ويجب أن يقال الكثير عن هذه الفروع:

يقال إن كثيراً من الدهمشية قد انحدروا من دهمش حفيد غلام الله بن عايد الذي كان جدَّ جزءٍ كبير من الركابية بما فيهم دواليب شمال كردفان، وهذا يعني أن فيهم دماً دنقلاوياً[2]: وهو شيءٌ محتمل لأننا عرفنا من بيركهاردت وآخرين أن البديرية استقروا قبل سنين عديدة في دنقلا كما هم الآن. أما الزنارة فهم بقايا قبيلة قديمة جداً وربما

1 انظر كتاب «بلاد النوبة» لبيركهاردت وورقة سير سي. ويلسون.

2 انظر الفصل «6» حول الجبال البحرية. تُدخل شجرة الأنساب المذكورة في النص دهمش بأنه ابن بدير جدّ البديرية. وربما كان هذا تلفيقاً من كاتب شجرة الأنساب لأسباب أوضحت آنفاً.

كانت من أصل بربري، ولقد ذكرهم المسعودي[1] (956م) والمقريزي[2] (1400م) وابن خلدون[3] (1406م) بأنهم من البربر البدو في مصر والمغرب، ووصفهم ابن خلدون بأنهم فرع من فرع البربر اللُواتة الكبير. والحالة المماثلة هي حالة الجلابة الهوارة وهم فرع من الهواوير في كردفان والذين هم أيضاً من أصل بربري[4]. وكان الزنارة أيضاً إحدى القبائل الصغيرة التي ساعدت مع خمس قبائل أخرى على تكوين فرع الحوازمة المعروف الآن باسم الحلفة. أما الشويحات عموماً فيزعمون أنهم منتسبون إلى البديرية انتساباً وثيقاً بيد أنهم غير خاضعين لهم، وأن النسبة المذكورة أعلاه تؤكد بالأحرى رأيهم، كما أن جبل شويح الصغير في العَقَبَة الواقعة بين الهشابة والبَحَر تمت تسميته عليهم. أما الحسينات فهم بديرية بالمصاهرة فقط إذ ينتمون من ناحية أبيهم بالحسينات الموجودين على النيل، وقد تزوج أحدهم ــــ عبد الرحمن ــــ ابنة موسى الصافي زعيم البديرية ودفين الأبيض، وسُمّي ابنهم بدوي. وينتمي لهذا الفرع «الناظر» عبد الصمد[5] وهو درويش مشهور. أما أولاد مطيع فقد ذكرهم بيركهاردت من بين قبائل كردفان الرئيسة ولكن لا اعتقد أن أحداً آخر قد أورد ذكرهم. إن البديرية ليسوا مقتصرين على كردفان مطلقاً، فما تزال هناك أعداد كبيرة منهم على النيل في أقصى الشمال حتى أسوان، وترى من «النسبة» أيضاً أن البديرية مرتبطون ارتباطاً لصيقاً بالجوامعة والقبائل الأخرى بحيث من الصعب أن تضع خطاً مميزاً بينهم. بل قيل إن فرع الطريفية الجوامعة كله وفرع الأسِرَّة الحازمي إضافة إلى أسرٍ كثيرة صغيرة يُصنفون بأنهم بديرية تماماً. ويقول سير سي. ويلسون: «ربما أسست أعداد من قبيلة البديرية ــــ في شمال الشمال الغربي من كردفان آنذاك ــــ سلطاناً انتزعه منهم الشايقية فيما بعد». وبعد أن تراجع حدّ دارفور غرباً بأبعد مما كان عليه في ذلك الوقت (1885م) أصبح «شمال الشمال الغربي لكردفان» أي شرق الشمال الشرقي لدارفور يتطابق مع شمال الشمال الغربي لكردفان، وحتى وقتٍ لا يتجاوز

1 انظر ترجمة باربير دومينارد، المجلد «3»، صـــ 240 وما يليها.

2 انظر كواترمير.

3 أنظر ابن خلدون (دو سلين) ,الجزء «1», صــ9-11 وصــ235.

4 انظر الفصل «19» حول الهواوير والجلابة هوارة.

5 انظر الفصل «3» حول الغديات، الخ.

منتصف القرن الثامن عشر فإن سلسلة الجبال في شمال الشمال الغربي لكردفان التي تضم كاجا السُّروج وكاجا وكتول كان يقطنها السود إذ كان جزءٌ منهم نوبة وجزءٌ برقد. ومن بعد بدأت حركة في اتجاه الشمال من تلقاء البديرية الذين كانوا مستقرين سابقاً غرب موقع الأبيض الحالي وغرب الجنوب الغربي منه وربما كانوا تحت سلطان الغديات. كان زعيمهم في هذه الحملة الشمالية واحداً اسمه بلول حيث هزم كاجا السُّروج وجعل مقر رئاسته في جبل بشارة الطيب الذي كان يمثل قاعدة مريحة لأهداف الغارات. كان هذا الجبل في عهد بلول وحتى وقتٍ متأخر يعرف باسم كاب بلول (قلعة بلول)، ولم تكن في ذاك الوقت آبار قرب جبل بشارة الطيب[1] وأن ناس كاجا السُّروج كانوا آنذاك يشربون من مستودعات مياه الأمطار المحفوظة بين الصخور مثلما يفعلون الآن. إن طريقة حفر السَّواني ـــ الآبار التي تحفر خلال الطبقة الصخرية ـــ لم تنجز ولكنها أدخلت على يد المسبَّعات بعد ذلك بوقتٍ قصير كما سنرى. ولذا قيل إن بلول أجرى ترتيباً تقوم بموجبه في فصل الجفاف ورديات يومية من 100 جمل بنقل ماءٍ كافٍ لأناسه من أبو حراز الواقعة على بعد 150 ميلاً تقريباً شرق الجنوب الشرقي إذ لم تكن هناك آبار أقرب مفتوحة آنذاك. وفي الوقت الذي كان فيه السلطان بلول مُستكنّاً بهذه الطريقة مع أناسه البديرية حول «كاب بلول» كان هاشم زعيم المسبَّعات متحركاً من دارفور في اتجاه الشرق حيث طلب السماح له بالاستقرار في هذه المناطق. وقام بلول بتقديم هاشم إلى كاجا السُّروج وأدى الزعيمان قسم الإخاء، لكن هاشماً حنث في القسم بعد أن جمع مؤناً ضخمة من الأسلحة في كاجا السُّروج وبعث برسالة إلى بلول طالباً المساعدة ضد عدوٍّ [متوهَّم] متحرك من جهة الغرب. وفي الحال كان بلول حاضراً مع مضيفه، وطلب منه هاشم إلى حين وصول الأعداء [المتوهَّمين] أن يستقر في بيته ـــ بيت هاشم ـــ وأن يترك بالمثل أي بديري ليحلَّ ضيفاً على واحدٍ من المسبَّعات. وفي الليل وبعد أن اتخذ المسبَّعات التدابير الاحتياطية بأن جعلوا كلَّ البديرية سكارى مخمورين قاموا بقتلهم. واستولى هاشم على جبل بشارة الطيب وحصَّنه[2] وحفر الآبار في فوجا، ومن ثم تحرك أكثر إلى

1 كانت هناك آبار كثيرة رائعة في فوجا في القرن التاسع عشر على مسافة قريبة غرب الجبل. وهذه الآبار جافة الآن: انظر الفصل «12» حول الحَمَر.

2 التحصينات الحجرية التي هي في شكل جدران حجرية طويلة ما تزال بادية للعيان رغم أنها مهدَّمة.

جهة الشرق وحفر الآبار في كاجا سودري وأماكن أخرى[1]، ويقال إنه تحرك بعد ذلك جنوباً وفتح الأبيض[2]. إن عدداً من الهجين في كاجا هم أحفاد اللاجئين من أنصار بلول والبديرية الآخرين الذين استقروا في الأماكن المجاورة، فنجد مثلاً فرع السِّرار فار من الكاجا يحسبون أنفسهم بديرية أصلاء وأن دعاواهم لا ينفيها البديرية الموجودون في الجنوب. وفي عهد التركية عندما فشلت منطقة أبو حراز ـــ التي يقطنها البديرية في الغالب ـــ في دفع جزيتها كاملة كانت المتأخرات تنهال على كاجا وكتول، وهذا دليل على أن كثيراً من البديرية قد هاجروا إلى جبل كتول. وفي عام 1882م ولدى أول اندلاع لثورة الدراويش انتهز البديرية الفرصة للهجوم على أبو حراز التي طردهم منها الغرباء القادمون من البَحَر وذبحوا السكان بدون رحمة بما فيهم عُهد الحكومة والناظر عبد الرحيم الفكي بدوي الحسيني. كان أمير البديرية في الأوقات التي أعقبت ذلك الحادث هو عبد الصمد المذكور آنفاً، فقد هاجر عبد الصمد ومعظم قبيلته إلى أم درمان في حين أن البقية استقرت في كردفان تحت زعامة إبيِّض ود الحاج وود السنجك والنصري العالم، وقد كان النصري قاطع طريق سيء السمعة. وهؤلاء الثلاثة أرسلوا فيما بعد إلى الحملة الحبشية تحت قيادة الأمير أبو عنجة وعاد منهم إبيِّض ود الحاج فقط حياً. وأصبح عمدة الشويحات الحالي سليمان الزاكي أميراً على أهله أيضاً. إن للبديرية في الوقت الحالي عدداً كبيراً من القرى بالقرب من جنوب الأبيض وغربه وشماله واختلط الكثير منهم بالحوازمة البقارة.

وينسبها البعض إلى بلول بدلاً من هاشم.

1 انظر الفصل «6» حول الجبال البحرية. كل الآبار المذكورة عبارة عن «سواني» وأن العرب والنوبة يعيدون افتتاح عددٍ منها سنوياً.

2 بالنسبة لمجرى حياته في كردفان، انظر الفصل «1».

الفصل الخامس

الجوامعة والجِمع

الجزء I

الجوامعة عنصرٌ وضيعٌ جداً وهم يتزلفون بلقب العرب إلى درجةٍ أكبر من المألوف في السودان. صحيح إنهم يحملون دماً عربياً في عروقهم ولكنهم اختلطوا إلى حدٍّ كبير بالعناصر الأخرى، ذلك أنهم سود اللون على منوالٍ واحد وتعكس ملامحهم كثيراً من خصائص السود. ويُعزى هذا إلى أن أجدادهم من جهة العرب كانوا من بين أول المهاجرين العرب أو شبه العرب إلى كردفان من جهة الشرق، ولأنهم كانوا أقلية فقد استوعبتهم إلى حدٍّ كبير العناصر المحلية الأصلية في البلد المُضيف. ويزعم الجوامعة في الأصل أنهم عباسية ومتحالفون عنصرياً مع الجعليين ولكن قبيلة الجعليين نفسها من سلالة مختلطة وأن الأنساب المزعومة للجوامعة والجعليين على السواء فيها القليل الذي يفضي بدعواهم إلى الدقة[1]. لقد اتفقت الأغلبية الأكثر تعليماً من سواد القبيلة على أن اسم الجوامعة (المفرد جامعي) مشتق من الفعل «جَمَعَ» الذي يدل على مجموعة من أفراد القبائل المختلفة تماماً كما يُزعم بطرق مشابهة بأن أصل كلمة جعليين «مفردها جعلي» مشتقة من «جَعَلَ» ذلك أن واحداً اسمه إبراهيم من سلالة العباسية أنفق ثروته في عمل الخير في زمن المجاعة ولذا جمع حوله خليطاً من الأتباع الذين أصبحوا «مجْعولين» من خلال كرمه[2]. إن أجداد الجوامعة العرب دخلوا تقريباً إلى كردفان مهاجرين في القرنين السادس عشر والسابع عشر في الوقت الذي كان فيه نفوذ العنصر الهجين المعروف غموضاً باسم الفونج مهيمناً في سنار. كان هذا في وقت التوسع والفتوحات في اتجاه الغرب، وتماماً مثلما كان غديات اليوم يمثلون العنصر الفونجي الغازي كذلك ربما كان الجوامعة والقبائل الأخرى مثل الجليدات والجمع والبديرية

---

1 انظر الفصل «4» حول البديرية والإشارات الواردة بهذا الشأن.

2 نفس المذكور أعلاه.



ناظر ومشائخ الجوامعة في الأبيض، 1906م

يمثلون الأحلاف العربية لأولئك الفونج إضافة إلى دفعاتٍ من المهاجرين القادمين من البَحَر في فتراتٍ متقطعة (ربما الجعليون والمجموعات الأخرى التي يصعب وصفها).

إن الفونج والعرب أو قل الغديات والجوامعة ــــ كما أصبحوا بهذه الصفة ــــ قد استقروا معاً جوار الرهد والبِرْكة مصاقبين لشمال السلسلة الرئيسة لجبال جنوب كردفان في بلادٍ ملائمة للزراعة وتربية الماشية التي إما جلبوها معهم أو يكونون كما تقول الرواية المأثورة قد حصلوا عليها من الحُجَّاج الفلاتة القادمين من الغرب. لقد تصاهروا مع بعضهم البعض ومع النوبة ثم قاموا تدريجياً بطرد النوبة من الأرض التي ملكوها والواقعة شمال جبل الداير وأجبروهم على الرحيل جنوباً إلى المنطقة الجبلية التي ما زالوا يقطنونها. يبدو أن الغديات كانوا في البداية هم المسيطرون على الحلف وأن الجوامعة كانوا تابعين لهم، ولكن قبل أن يمر وقتٌ طويل أصبح الجوامعة قطعاً أقوياء بحيث أصبحوا أنداداً لهم إن لم يفوقوهم، وحَكَمَ العنصران (مع قبائل أخرى تابعة وحليفة) حتى بلغوا شمالاً المنطقة التي كانت تمتلكها آنذاك ــــ كما تمتلكها الآن ــــ قبائل دار حامد. وعندما وصل المهاجرون المتأخرون وأرادوا الاستقرار في وسط كردفان كان عليهم أن يطلبوا ملكية أرض[1] إما من دار حامد أو من الغديات والجوامعة. ولا يمكن القول في أي وقتٍ بدأ الأناس المختلفون الذين طفقوا يكوِّنون قبيلة الجوامعة يتبنَّوْن هذا الاسم رسمياً لأنفسهم إذا جاز التعبير، فبعضهم تحركوا في وقتٍ ما غرباً واستقروا في البلاد التي اجتاح الحَمَر بقيتهم فيها لاحقاً وأن أحفادهم ــــ ويُدْعَوْن الجوامعة (فرع الجعفرية) ــــ ما زالوا هناك بأعدادٍ كبيرة حول السعاتة[2]. ووطَّن قليلون آخرون منهم أنفسهم شرق جبل أم شديرة على حدود دار حامد الجنوبية الغربية قرب منطقة أم أربعة الحالية. لكن الجزء الأكبر من القبيلة ــــ إذا أمكن تسميتهم قبيلة عندما يتذكر المرء العناصر المتنوعة الكثيرة التي يحتوونها ــــ تركوا الغديات والبديرية وآخرين قليلاً إلى جهة الغرب والجمع إلى جهة الشرق

1 انظر الفصل «3» حول الغديات، الخ. الجلابة الهوارة الذين يعيشون شمال شرق الأبيض حصلوا على أرضهم من الجوامعة، وبالمثل حصلت قرى مختلفة على أراضٍ حول أم أربعة إلى الشرق من جبل أم شديرة. وهناك أيضاً حالات أخرى كثيرة.

2 هؤلاء الجوامعة هاجروا في الغالب الأعم إلى دارفور واستقروا قرب أم شنقة وذلك في القرن الثامن عشر ورجعوا في المهدية.

واتخذوا موطنهم في الأراضي الغنية نسبياً التي تحيط بأماكن أم دم والتيارة والرهد الحالية ولم يُخرجوا منها أبداً. فالجوامعة والحَمَر يشكلون الآن مجموعة سكان المديرية المستقرين.

إن المجموعات التالية تشكل فروع الجوامعة وبطونها في الوقت الحالي، وسنرى أن القبيلة تقسَّم إلى فرعين رئيسين هما الحُمران والجميعة وكلاً منهما يقسم أكثر إلى فروع أصغر:

I.
الحُمران

أ. أولاد جامع

1.أشقر
2.الأعوج
3.البخيت
4.الملكاب
5.الكرامشة
6.المسيخ
7.الدشاش
8.أولاد شريكي
9.أولاد أبو سليمان
10.أولاد زيدان
11.الخاتراب
12. المعيناب
13. أولاد نليت
14. النكارمين
15. التركاب
16. المشايخة
17. الفرارين
18. الشبراوين
19. البلوح
20. الكركو
21. الهجو
22. التك

ب. الطريفية[1]

1.الحرانية

(أ)أولاد شايق
(ب) الكتاتيل
(ج) السليمية
(د) التيمو
(هـ) أولاد زايد
(و) الفراجية
(ز) أولاد أبو مخيرة

1 بعض فروع الطريفية الصغيرة تعود بنسبها إلى «علي ولد طريف» وبعضهم يعود به إلى شقيقه «معلا ولد طريف»، فمثلاً الفروع رقم 8 و12 تزعم انحدارها من علي ولد طريف، والفروع رقم 5 و17 و18 تزعم انحدارها من معلا ولد طريف. ولكن العدد الأكبر يقول إن شايق الأخ الأكبر لعلي ومعلا هو جدهم.

2.الزرازير أو (أولاد زرزور)[1]

3. أولاد عمير

4. أولاد عبد الأحد

5. أم قرطة

6. النعمانين

7. أولاد عبد

8. أولاد علي

9. الشلالين

10. العدوسة

(أ) أمبارك حريحير

(ب) أمبارك حمداوين

11. الحيادبة

(أ) أولاد علوان

(ب) الشدوانية

(ج) أم طلِّيق

(د) أم طلِّيق حيدوبي

12. أولاد ماجة

13. أولاد سهيل

14. الحليقة

15. العردة

16. القدل

17. أم دودة

18. أم وديد

19. أولاد سرير

20. العليق

21. المرازيق (أو أولاد مرزوق)

22. العثمانين

23. الرحاحيل

24. أولاد قاسم

25. أولاد مقيِّل

26. أولاد عاروك

27. أولاد عافونة

28. أولاد شريفية

29. أولاد شريك

30. أولاد توتو

31. أولاد جامع

32. النمراعية

33. أولاد نور

34. أم آدم

35. أولاد أبوجن

ج. السريحات

1. الدقاشمة

2. أولاد موسى

3. أولاد أبو جندية

4. أولاد أبو سنود

21. أولاد أم قوت

22. المراكيب

23. الكدوبسي

24. البعاشيم

---

1 أولاد قُويْ (دار حامد) في الأصل.

5. أولاد أبو غلمان
6. القرعان*
7. أولاد جميعة
8. أولاد جماعة
9. البلولين
10. الحبايسية
11. أولاد فرج
12. أولاد بقاري
13. أولاد الحُر
14. أولاد الشيخ
15. القلاليم
16. أولاد لجام
17. الحامدانية
18. أولاد عوالي
19. الشبلاوين
20. البساط
25. ناس الأحمر
26. القدادين
27. الجابرينين
28. الرمضاني
29. أولاد هبيلة
30. أم إسماعيل
31. أولاد عجب
32. أولاد رفاعة
33. أم كلمان
34. أولاد أبوسن
35. أولاد سرور
36. أولاد علوان
37. أولاد أبو حَوَّة
38. العارض
39. أم تِدِم

د. أولاد مُرُنج

1. أم كلايب
2. أم بركات
3. أم ضياب
4. أم فارس
5. النوقارة

هـ الجمرية[1]

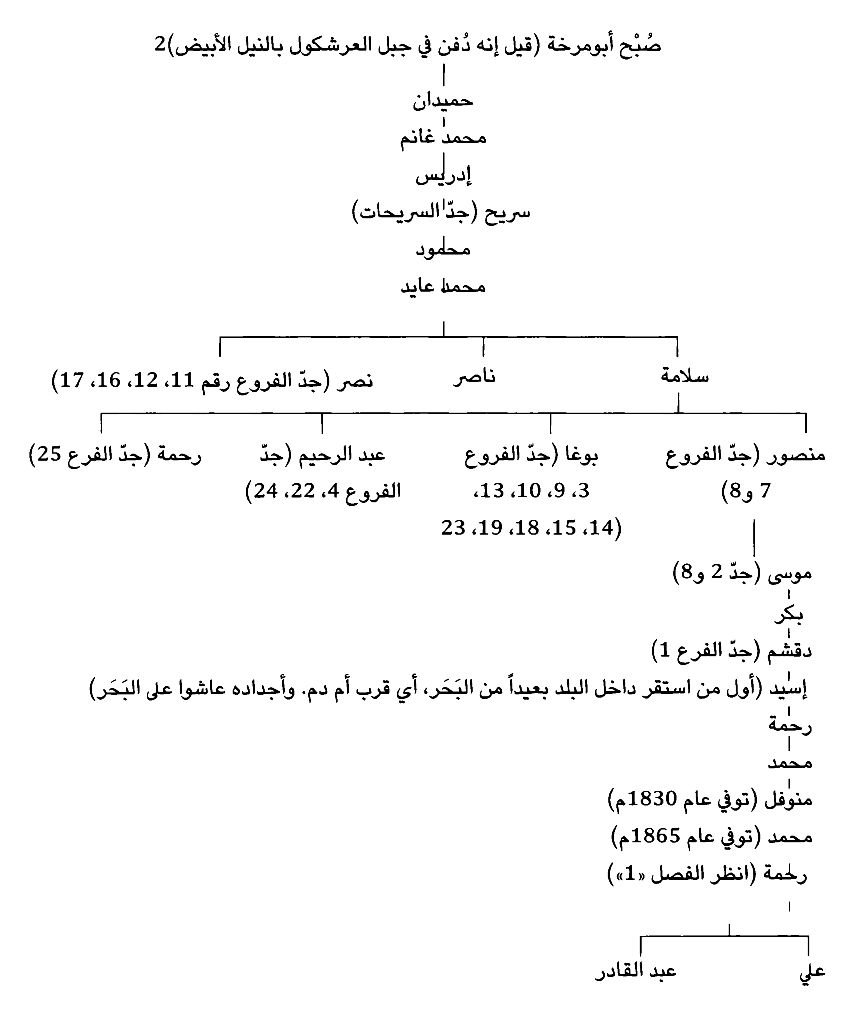
1. أولاد مالك
2. البدي
3. أولاد أبو تمام
4. العباية
5. أولاد حسن
6. العدلان
7. عبد الجبار
8. أبو حليمة
9. أولاد سوق
10. أولاد مؤمن
11. القرافيت

قدِّم الآتي بأنه نسب السريحات:

---

* سود من شمال غرب دارفور. انظر الملحق «4».

2 أولاد مُرنج والجمرية كانوا أصلاً فرعاً من السريحات أو من أولاد جامع، ولكن الآراء تختلف حول هذه النقطة. فأولاد مُرنج يسكنون شمال بارا على أطراف دار حامد ويسكن الجمرية جنوب شرق أولاد مُرنج حول البحرية.



و. الغنيمية[1]

1. أولاد صالح
2. أولاد عيسى
3. أم شِقِل
4. المرامرة
5. المجيدية
6. أولاد حَمِّيد

ز. الفضيليَّة

1 الغنيميَّة كانوا أصلاً فرعاً من الفضيليَّة، وقيل إنهم انضموا فيما بعد إلى الطريفية ولكنهم الآن مستقلون من أيٍّ منهما.

1. البعيقاب
2. أولاد توري
3. الفتحاوي
4. العبيديَّة
5. المحمودي
6. التُّنوِّي
7. البدلاوي
8. التبراوي
9. البراغيت
10. المجيليساب
11. الحليماب
12. الإزيريقاب
13. العجَّاكي أو العجاجيك

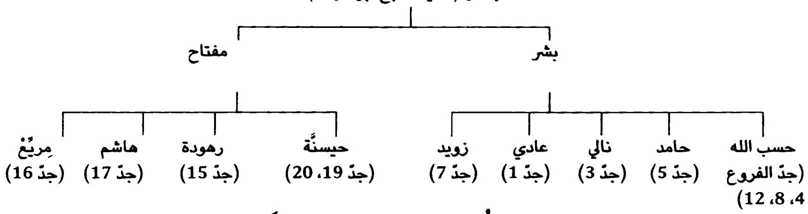
II.

الجميعة

أ. الجعفرية[1]

1. أولاد عادي
2. أولاد أم رحمن
3. الناليَّة
4. البطرانية
5. الحوامدة
6. أولاد قادم
7. أولاد زويد
8. الجرَّاراب*
9. المسيخاب**
10. الشكيت
11. الشبيليَّة
12. النقاريَّة
13. الرديساب
14. الزرقاب
15. أولاد رهودة
16. أولاد مِريِّع
17. أولاد هاشم
18. الدناكسي
19. الحايسنَّة
22. البِشر

1 يزعم فرع الجعفرية أنه ينحدر من نفس صُبح أبو مرخة الذي يزعم السريحات أنه جدهم، هكذا:



* اسم «جرّاراب» مشتق من الفعل جرَّ: فجدُّ هذا الفرع وجد جثماناً وجرَّه على الأرض ودفنه، واتهم بأنه كان القاتل (وربما كان)، كما أن اسم قبيلة بني جرار مشابه له.

** المسيخاب أخذوا التسمية من جدهم الذي كان مسيخاً، فقد كان الولد الوحيد من بين أسرةٍ من البنات وقد اعتاد أن يتنمر على أخواته.

20. القطاقيط[1]
21. المفتاح
23. أولاد حاشي
24. الحنتوشي

ب. الجماملة

1. أولاد متلوت
   (أ) أولاد رحيمة
   (ب) أولاد موسى
   (ج) أولاد آدم
   (د) أولاد محمد
   (هـ) أولاد تمساح
   (و) الصُّبيح
   (ز) أولاد عبد الحميد
2. أولاد الفكي الأطرش
   (أ) أولاد عبد الله
   (ب) الجقيميَّة
   (ج) الحليوين
   (د) أولاد الملوك
   (هـ) أولاد شيخي
   (و) الأضونة
3. العبي
4. أولاد أبوشر
5. الشعيليبي
6. أولاد بشارة
7. أولاد الحوش
8. أولاد هبود
9. أولاد جَفون
10. أولاد ركاب
11. أولاد عفَّان
12. الدشيناب

ج. أولاد بيكة

1. التويمات
   (أ) الفتاحة
   (ب) أبوعشي
   (ج) عطية الله
   (د) أولاد منَّا
2. الغبيشاب
3. العناقير
4. أولاد شين
5. العتور
6. أم كودي
7. أولاد مَساخ
8. أم شنب

من المحتمل أن تكون جميع فروع الجوامعة المذكورة أعلاه مع استثناءاتٍ قليلة جداً منتميةً في الأصل إلى نفس المجموعة التي يتكوَّن منها البديرية والجعليون والجمع

1 سُمُّوا هكذا لأنهم كانوا يتنازعون مثل القطط الوحشية.

ولكنها مرتبطة ارتباطاً رخواً[1]. فالبعض يقول إن فرع الحمران الطريفية هم بديرية تماماً، ويقول البعض إنهم ينتمون إلى فرع الجموعية الجعليين. وقيل ذات مرة أيضاً إن السريحات هم السريحاب ذاتهم، أي أنهم جعليون من جهة المتمة. وتقول روايتهم إن جدّهم سريح عاش قبل أربعة عشر جيلاً وأنه كان حفيداً لنفس إبراهيم «والد» الجعليين، ويبدو أن تقسيم السريحات إلى فروع صغيرة كان بعد أجيال عديدة تلته. وقيل أيضاً إن السريحات عاشوا جميعاً على ضفاف النيل إلى ستة أجيالٍ مضت. أما فيما يتعلق بالجعفرية فليس من المستبعد أن يكونوا فرعاً من القبيلة ذات النفوذ التي تحمل ذاك الاسم والتي استقرت بين إسنا وأسوان عند غزو العرب لضفاف النيل. أما فرع التويمات من أولاد بيكة فهم كواهلة في الأصل ولكن من غير المعلوم في أي تاريخٍ انضموا إلى الجوامعة. وعندما أعلن المهدي عن نفسه سرعان ما انضم إليه الجوامعة، وعندما زحف إلى أم درمان بعد سقوط الأبيض كان الجوامعة هم الذين شكلوا معظم قوته، وقد بقوا في أم درمان أثناء عهد الخليفة وقد فقدوا عدداً كبيراً من أفرادهم. كان أفضل أمرائهم المشهورين إدريس تنديَّة (من الجميعة) وعمر حُوار الشيخ (من الحُمران) ورحمه محمد منوفل (من السريحات) والشامي هباني (من أولاد بيكة) وحامد الدخيري (من الغنيميَّة). وقد عادوا الآن إلى قراهم القديمة واستأنفوا حرفهم في الزراعة ولقيط الصمغ حيث تمدهم غابات الصمغ في منطقة التيارة وفي أم أربعة بمصدر ثروةٍ لا ينضب.

1 الانحلال الشاذ للجوامعة هو ما ذكره براوت (1876م)، يقول: «عندهم أن الفتاة ليس لها الحق أن تتزوج حتى تقدم لشقيقها طفلاً ليكون عبداً له، وهي تختار والد هذا الطفل أين ومتى أرادت...» (صـ 34). وقد هُجرت هذه العادة الآن، ولكن قيل إنه قبل أعوام قليلة تم الصفح عن فتاة حبُلت بطفلٍ قبل الزواج، أي أنها [أعانت خالا] وأن شقيقها اعتاد أن يأخذ الطفل.

الجزء II.

الجِمِع مرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالجوامعة كما يبدو من شجرة أنساب القبائل ذات الوشائج الواحدة، وربما كانت تركيبة القبيلتين متشابهة رغم أن الجمع يعكسون مسحاتٍ أكثر من الدم العربي في هيئتهم وطريقة حياتهم، فربما يكونون قد هاجروا في وقتٍ متأخر من هجرة الجوامعة. ويقع بلد الجمع إلى الشرق من بلد الجوامعة وبالقرب من النيل الأبيض وهو بلد غنيٌّ بغابات الصمغ. والجمع أكبر مُربِّي ماشية بحيث يفوقون الجوامعة في تربيتها. وقد أخذوا رقصاتهم وطرق تزيين شعورهم من البقارة أصحاب الماشية الحقيقيين. لقد قدَّر براوت أعدادهم في عام 1876م بحوالي 25000 نسمة، وكانوا تحت زعامة عساكر أبو الكلام في نهاية التركية. وعندما تحرك عبد الله ــــ الخليفة مستقبلاً ــــ ووالده من الغرب في طريقهما إلى مكة لأداء الحج قبل ظهور المهدية بوقتٍ قصير حلُّوا ضيوفاً على شيخ الجمع الكبير لبضعة أشهر. وتوفي والد عبد الله أثناء الزيارة ودفنه عساكر في شركيلا[1] . وفي خلال أيام الدراويش كان عساكر أميرهم الرئيس لأنهم انضموا إلى المهدي مبكراً جداً في بداية مجرى حياته، ولكن عندما استدعاهم الخليفة عام 1885م إلى أم درمان أبدوا نفوراً من الامتثال لأوامره، ووفقاً لذلك سُجن عساكر وأرسل الأمير يونس ود الدكيم لإجبارهم على الطاعة وصودرت معظم ثروتهم التي كانت عيناً وتم قسراً نقل حوالي 7000 رجل من القبيلة مع عوائلهم عبر البَحَر إلى ود العباس قبالة سنار تاركين دار الجمع مهجورةً وأرغموا على الخضوع لنظام الدراويش[2]. وأطلق سراح عساكر أبو الكلام وأعيد إلى مركزه السابق ولكن بعد ست سنوات أو سبع سنوات لاحقاً تجرأ على الاستهانة بأساليب الخليفة ووُضع مرة ثانية في السلاسل ونفي إلى الرجاف[3]. ومنذ إعادة الاحتلال تسربت بقية الجمع تدريجياً عائدةً إلى الضفة الغربية من النيل الأبيض. وتعتبر قبيلة الجمع في الغالب الأعم قبيلة مستقرة، وقد أصبحت تحت سلطة مديرية النيل الأبيض منذ عام 1905م عندما فُصلت مديرية النيل الأبيض من كردفان. إن عدداً قليلاً منهم من فرع

1 انظر سلاطين، الجزء «1»، الفصل «4».

2 انظر سلاطين، الجزء «2»، الفصل «11».

3 انظر سلاطين، الجزء «3»، الفصل «16».

العبيساب خاصة يعتبرون من البدو أصحاب الإبل الخاضعين لمديرية كردفان وهم يقضون العام مع فرع الكواهلة التابع لدار حامد. وتعتبر الفروع الآتية من الجمع مستوعبة في كردفان في الوقت الحالي:

العبيساب (كبوياب وسيلاب)	الرواشدة
المسداب	حلوف
دار عواب	تينا

الفصل السادس

الجبال البحرية

الجبال الوحيدة المأهولة في شمال كردفان في الوقت الحالي هي: الحرازة وأبو حديد وأم درق وكاجا[1] وكتول وأبوتَبَرْ والعطشان. وجبل العطشان المذكور أخيراً يسكنه الزغاوة وسيأتي ذكره عند التطرق إلى تلك القبيلة. ويقع جبل الميدوب إلى جهة الغرب في دارفور وسيتم التطرق إليه بصورةٍ منفصلة، وقد كان كثيرٌ من الجبال الأخرى مأهولة فيما مضى وأن أنقاض القرى الحجرية تشاهد بعيداً في جهة الشمال حتى جبل نصب الحصان وغرباً حتى أم بادر[2]، ولكن النقص في الإمداد المائي والإجراءات الانتقامية التي اتخذها العرب الذين عانوا من النهب الذي تقوم به هذه المجموعات اللصوصية من رجال الجبال تسببت في هجران كل الجبال إلا الجبال المحددة هنا[3]. أضف لذلك أن من الدليل على مزيدٍ من الأمن هو أنه في الوقت الذي كانت فيه القرى حتى قبل عقودٍ قليلة تجثم بشكلٍ ثابت على سفوح الجبال أو مخبوءةً في التجاويف حيث يمكن حمايتها بسهولة، لكن نجدها الآن ـــ باستثناءاتٍ قليلةٍ جداً ـــ مبنيةً في العراء قرب سفح الجبال ووسط الزراعة. ومن غير المؤكد ما إذا كان هناك في أي وقتٍ من الأوقات عنصر متجانس وحيد قد سكن كل هذه الجبال، ولكن قيل بشكلٍ مُجمع عليه إن العنج ـــ كما ورد ذكره آنفاً ـــ قد شكلوا تقريباً السكان الأصليين في هذه الجهات، بيد أنه من الصعب مع غياب معلومات أكثر أن نقول ما إذا كان هناك أساسٌ صحيح للرواية أو ما إذا كان اسم العنج قد استعير من مكان آخر وأصبح

---

1 يضم كاجا: كاجا السُّروج على حدود دارفور، كاجا الحُفرة، كاجا سودري، ووفقاً لرواية الكثيرين فإن عدداً من الجبال غير المأهولة تقع بين الأماكن المذكورة.

2 يقال إن هناك أنقاضاً على نطاق واسع في أبو سفيان شمال غرب وادي الملك ولكنني لم أشاهدها.

3 يقال إن الكبابيش من الجيل الثالث إلى الجيل السابع من الوقت الحالي قد أبادوا كثيراً من النوبة من الجبال الواقعة أقصى الشمال. وطالما أنه لا توجد علامات لآبارٍ حُفرت ـــ وفي الحقيقة إن طبيعة الأرض الصلبة تجعل ذلك مستحيلاً ـــ فمن المحتمل أن يكون أهل هذه الجبال بحكم أنها كانت مأهولة ذات مرة ولكنها لم تعد كذلك قد عاشوا على ماء الأمطار المخزون في «القلوت» في أعلى الصخور

بحكم العادة مرادفاً للسكان الأصليين: أو من المحتمل أن تكون كل هذه الجبال قد سكنها العنج أو أن يكون العنج سكنوا جبل الحرازة، رغم أنهم لم يسكنوا في الجبال الأبعد في الاتجاه الغربي. ويقال في شائع الروايات إن أجداد السكان الحاليين ـــ بحكم اختلافهم عن العنج الأصليين البائدين ـــ كانوا نوبة من ذات عنصر النوبة الموجودين في جنوب كردفان: فهذا المصطلح [النوبة] يستخدمه العرب ليصنفوا أهل كل هذه الجبال بأنهم نوبة، وفي النهاية وفي حالاتٍ كثيرة بل في الواقع في أحايين كثيرة إذا سئل مواطن من الحرازة أو من كاجا.. الخ عن جنسه فسيقول لك حالاً إنه من النوبة (ويُستخدم المصطلحان كاجاوي وكتولاوي أيضاً). ولكن من الملاحظ أن القوة البدنية التي يتمتع بها نوبة جنوب كردفان غائبة في الشمال. ومن المحتمل وقبل أن يُطرد النوبة من النيل في غابر الأيام أن تكون هذه الجبال وضواحيها قد احتلها النوبة من عنصرٍ آخر أو قد يكون سيطر عليها عنصرٌ آخر كهذا من النوبة، وعلى أية حال ظلت الجبال في أيدي الفاتحين الذين أصبحوا بلا شك منصهرين مع المغلوبين حتى جاء العرب. وأباد العرب آنذاك كلَّ من استطاعوا إبادته وطردوا البقية لتتخذ لها ملجأً في الجبال الكبرى التي ظلوا ماكثين فيها حتى اليوم رغم أن نقائع الدم الدخيلة غيَّرت من عنصرهم مراراً وتكراراً[1]. ويوجد حتى اليوم في كل الجبال البحرية المأهولة «كُجُورا» (مفردها كُجُور)، أي مُنزِّلي المطر الذين لهم ذات وظائف الكجور الموجودين في جنوب كردفان، ولكن لديهم نفوذاً قليلاً جداً في كاجا وكتول والحرازة ولا يتضرعون إلا إلى الناس الأكثر جهلاً. ولكن «الملك» في أم درق وأبو حديد ـــ والذي كان أيضاً مُنزِّل مطر «الجبل» حتى قبل أعوامٍ قليلة ـــ سيتم عزله فوراً إذا كان موسم الحصاد فاشلاً.

سنعطي هنا أيضاً قصة عن الشيء القليل المعروف عن العنج: لم تكن لدينا إشارة تاريخية عنهم قبل عام 1286م رغم أنهم قد يكونون موجودين لعدة قرون، ففي العام المذكور[2] أتى السفراء إلى مصر من «أدور ملك الأبواب ومن أمراء برح (بزح)

1 يتحدث براوت (1876م) عن «مستعمرات من الزنوج» من الجنوب في كاجا وكتول وجبل كون (في منطقة التيارة شرق الأبيض). ويقول روبل (1829م) إن سكان الحرازة وأم درق وأبو حديد هم «خليط من النوبة مع الإثيوبيين أو الدناقلة». لاحظ أنه في الوقت الذي يعتقد فيه ليبسيوس أن نوبيِّي وادي النيل كانوا في الأصل متجانسين مع نوبة جنوب كردفان نجده يشير إلى أن اسم النوبة تم توسيعه بصور خاطئة ليشمل سكان كل تلك المناطق التي قدمت الرقيق الزنجي لسكان مصر.

2 انظر كواترمير، المجلد «2»، صـــ 100 و101.

والتاكا والكدرو ودنفو وأري وبيفال وعنج وكِرسا»[1] حيث كانوا يحملون شكوى ضد ملك دنقلا، وأدناه حادثة وقعت أثناء الحملة الثانية التي أرسلها السلطان قلاوون ضد شمامون ملك دنقلا في عام 1269م: «وجد المسلمون أنفسهم على ضفة النهر حيث أخبرهم الناس هناك أن الملك آني ذهب في اليومين الماضيين لطرد العنج. وقاموا بمطاردته عدة مرات وعادوا محملين بالغنائم بعد قتل جميع النوبيين الذين وجدوهم في طريقهم... وهرب الملك آني... وأعاقت ندرة الماء المسلمين من اللحاق به، أضف لذلك أن البلاد التي كان عليهم أن يعبروها كانت صحراء مخيفة تصلح مأوىً للأفيال والقرود والخنازير والزراف والنعام...». إن الإشارات إلى العنج منتشرة جداً في جبال شمال كردفان ذلك أن من المحتمل أن الشعب المشهور باسم العنج كان يقطن هناك وحيث بحث الملك آني عن ملجأ له. وفي ذات الوقت فإن المعابد المصرية والأديرة القبطية وحجارة القبور المخروطية والآبار الموجودة على النيل وشرقاً منه تُنسب جميعها نسباً صريحاً إلى العنج، وهي حقيقة تثبت فقط أن العنج عاشوا في المنطقة المجاورة وأنه لا يعرف شيء عنهم. وقد وجد مستر كروفوت أسراً في شلال السبلوقة وفي منطقة المسلمية بالنيل الأزرق يفترض أن يكونوا من العنج[2]، ويذكر كروفوت أيضاً أن بعض العرب المطلعين أخبروه أن العنج كانوا أقرباء لنوبة كردفان. وهناك عنصر يدعى أبو قنعان مرتبط في الذاكرة الشعبية وبصورةٍ غامضة بالعنج، وقد قيل لي إن هناك أناساً في سنار وفي جبل جِنِس يسمُّون أنفسهم عنج وأبو قنعان بدون تحيز: وبالتالي توجد هناك أيضاً في الحرازة وأم درق وأبو حديد ـــ ولكن لا توجد في كاجا أو كتول ـــ حلقات عديدة من حجارة الجرانيت والفلسايت والحجر الرملي وحُلي مخروطية مُجوَّفة أو أدوات (لم يخبرني أحد عن استخدامها[3]) حيث وُجدت في مواقع المستوطنات

1 حُددت بعض هذه الأماكن بواسطة مستر كروفوت في ورقةٍ تليت أمام الرابطة البريطانية في أغسطس 1907م كالآتي: الأبواب = كبوشية قرب مروي القديمة، برح (بزح) تقع شرق كبوشية، التاكا = كسلا، كِدْرو = الكَدَرو إلى الشمال قليلاً من الخرطوم، كِرسا تقع بين النيلين الأبيض والأزرق.

2 انظر ورقة مستر كروفوت المشار إليها أعلاه. لما سمع مستر كيري في يناير 1909م قصصاً عن حكم العنج للجزيرة حتى عام 1400م تقريباً حيث حكموها من عاصمتهم في قوز بخيت قام بزيارة المكان ووجد أرضاً كبيرة محفورة غير ذات طابع مسلم كما وجد أنقاضاً كثيرة قيل إنها للعنج.

3 أشار إليَّ د. سليجمان بأنها قد تكون صولجانات رؤساء احتفائية. وأكد مواطن في الحرازة إلى أنها كانت تستخدم بواسطة السكان الأصليين تفادياً للبرق.

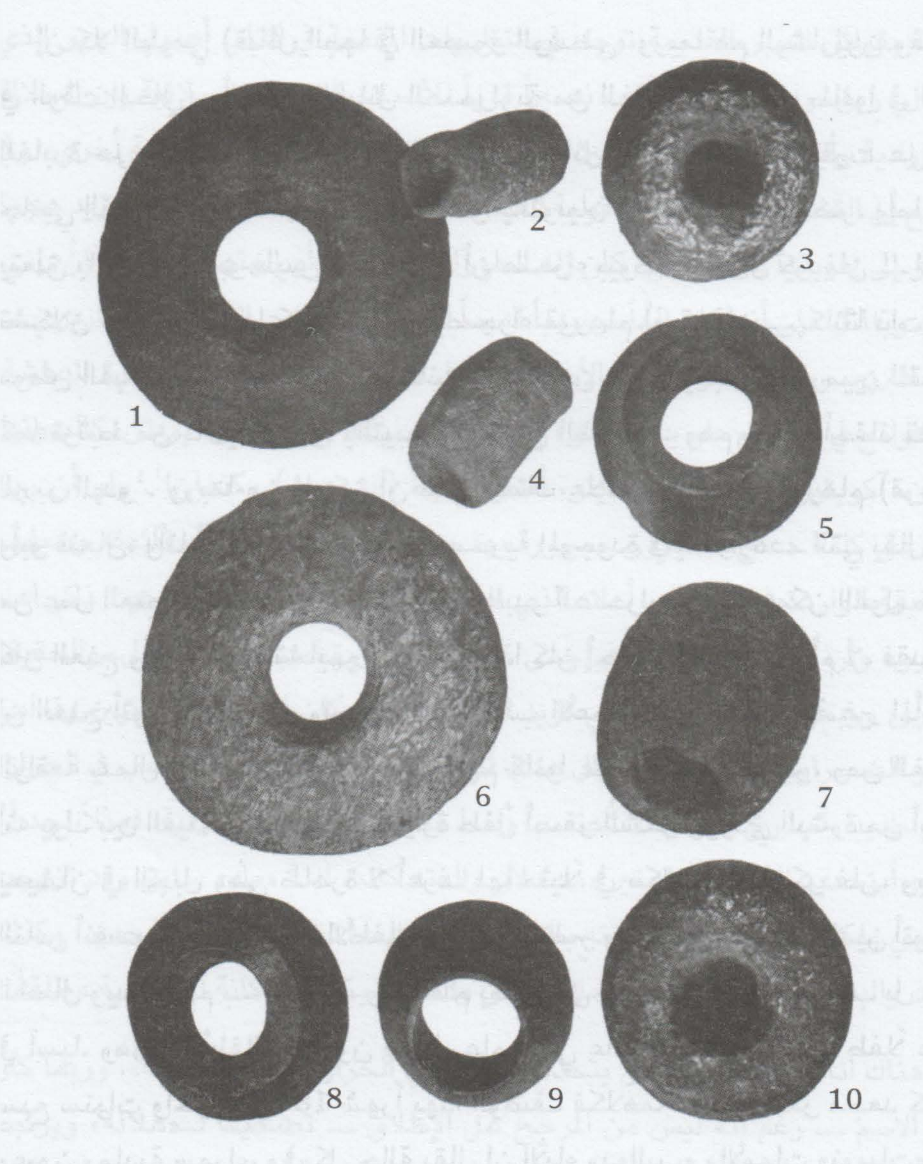
القديمة وعُلِّقت في الأكواخ تحفاً وتمائمَ ويطلقون عليها بلا تمييز «حجر أبو قنعان» أو آثار العنج، واعتقد أن هناك حجارة مشابهة اكتشفت في «جزيرة مروي». وبما أن هذه الحجارة لا توجد في كاجا وكتول فمن المفترض أن تكون من عمل أناسٍ استقروا في الحرازة وأبو حديد وأم درق لكنهم لم يستقروا في كاجا وكتول وكان هذا الاستقرار سابقاً لمجئ قبائل البُقيرة والشبيرقو والمطرة..الخ (ممن سنعرف عنهم أكثر لاحقاً)، لأن هذه القبائل موزعة تقريباً بالتساوي على كل الجبال الخمسة المذكورة وإضافة إلى ذلك فهي لا تعرف شيئاً عن أصل هذه الحجارة. ويشير شكل هذه الحجارة وصنعتها ـــ كما يُرى من الرسوم التوضيحية المصاحبة ـــ إلى التأثيرات الشمالية والمصرية لا إلى التأثيرات الجنوبية والزنجية. ومن المرجح أنها تمثل إلى حدٍّ ما وبقدر ما سمحت الظروف محاولاتٍ فجة لتقليد الحلي الخرزية التي كانت نمطاً سائداً بين أهل الشمال الأكثر تحضُّراً حتى عهود القرون الوسطى. وتقول الرواية في الحرازة إن أبا قنعان عاشوا في «أيام الأنبياء»، أي قبل الإسلام وكانوا شعباً ثرياً وملحداً وقد جمعوا ثروة طائلة، ولكن أصابتهم مجاعة خطيرة وكان سعر القمح وزنه بالذهب، وفي النهاية هلكوا جوعاً وذهبت ريحهم.

والآن توجد في الحرازة نماذج من الصور الصخرية ترجع إلى عصور مختلفة[1]: أولاً يوجد في جبل الشلاشي عمل مكتمل غاية الاكتمال ومفعم بالحياة والحركة وهو يمثل رجالاً وخيولاً وزرافاً وضباعاً تم تصويرها بخضاب أبيض أو أحمر، وتشبه هذه التصاوير «حجارات شمال إفريقيا المكتوبات». ثانياً يوجد في جبل كرشول شكل غير منتظم وبلا نكهة فنية من الكتابة التصويرية يماثل تحديداً الصور الصخرية المألوفة لـــ«الليبو ـ البربر» التي توجد في الجزء الأكبر من شمال إفريقيا وبلاد الطوارق[2]. ثالثاً توجد في جبل كُركيلا صور حيوانات قطِّعت بقسوة على كُتل من الجرانيت، وصحيح أن الصور الصخرية ذات الطبيعة المماثلة توجد تقريباً على نطاق إفريقيا لكن من الأرجح ربط تلك الصخور الموجودة في الحرازة بعنصرٍ غير نوبي لا بالنوبة.

---

1 انظر مادة «الصور الصخرية في كردفان» في المجلد رقم 34 (1909م) من مجلة المعهد الملكي لدراسة الآنثروبولوجيا.

2 توجد أمثلة مشابهة في جبل العفاريت قرب جبل أم شرش في دار حَمَر. شاهد لوجين صور الشلاشي (انظر هارتمان، نغريتير، صـــ 41).



"حجارة من جبل الحرازة وجبل أم درق"

1. صخر بركاني ذو حبيبات ناعمة. 2 و4. حجر رملي أصفر ناعم. 3. حجر رملي صلب (بعمق 1.5 بوصة، غير مكتمل). 5 و8. غرانيت. 6. صخر صوّاني ديوريتي (يوجد أيضاً حجر مثل الحجر الرملي الأحمر في الشكل، يبلغ قطره 2.5 بوصة). 7 و10. حجر رملي ذو حبيبات ناعمة. 9. حجر رملي صلب أحمر اللون.

إن كلا البليمي (قبائل البجا في العصور الوسطى، وربما هم البشاريون وغيرهم في الوقت الحالي) وأسلاف القبائل الصحراوية من البربر والتيبو قد طافوا في الأيام الغابرة على المنطقة الواقعة حول الحرازة، فقبائل البليمي مثلاً استقرت على كلا جانبي النيل في عام 200م وأنهم استعانوا بالنوبيين في غاراتهم على مصر، وأما فيما يتعلق بالبربر والتيبو فليس ثمة شك في أن صحراء بيوضة وشمال كردفان ــ اللتين تشكلان معاً تقريباً ما كانت تسمى بصحراء قورهام أو قرعان ــ كانتا ذات مرة موطن القبائل المتجولة التي ربما كانت ترتبط من ناحية بقبائل الجرميين القديمة كما ترتبط من ناحية أخرى بالتيبو والطوارق الشرقيين: وهم جزئياً أحفاد قدامى البربر البدو[1]. وربما من الممكن أن تكون هناك علاقة بين أسماء قورهام (قرعان) وأبو قنعان، وأنا أميل لنسبة الصور الصخرية الموجودة في الحرازة ــ التي يقال إنها من عمل العنج أو أبو قنعان ــ إلى هؤلاء البدو الصحراويين. ولا يمكن القول ما إذا كان العنج وأبوقنعان متشابهين أم لا وما إذا كان أحدهم يضم الآخر أم لا، فقد قيل إن العنج أتوا من الشمال واستقروا في الغالب الأعم في المنطقة الحالية غير المأهولة الواقعة شمال وادي الملك: وقيل أيضاً إنهم كانوا عنصراً أشقر الشعر، ومن الغريب أنه يولد بين الفينة والأخرى في الحرازة طفلٌ أصفر الشعر ووردي البشرة من أبوين يعيشان في الجبل وهي ظاهرة لا أعرف لها مثيلاً في مكانٍ آخر في كردفان. ويقول الناس أنفسهم إن مثل هؤلاء الأطفال هم بقية عنصرٍ وسيم من الأسلاف الذين أتوا من الشمال ويسمونهم بــ«الحُور»، وهو اسم يطلق على الأتراك ليس هنا فحسب بل حتى في آسيا. وهؤلاء الأطفال ناعمون بشكلٍ عام، ففي عام 1909م شاهدت طفلاً عمره سبع سنوات وآخر عمره 18 شهراً بهذا الوصف فكلاهما لديهما شَعَر مجعد كتاني وعيون رمادية سمراء، وفي كل حالة يقال إن الآباء «دواليب» والأمهات «نوبيات»، ولا استطيع القول ما إذا كانت هذه الحالة مجرد حالة مهق (برص) مكتسب أو ما إذا كانت نوعاً يتميز بالبشرة الفاقعة والشعر الخفيف الشبيه بذاك النوع الذي ما زال موجوداً متواتراً وسط البربر في المغرب وبلاد الأطلس[2]. إن الأدلة على أن العنج لهم

1 انظر الملحق "4".

2 »تصور الآثار المصرية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الليبيين (البربر) بأنهم ذوو بشرة قرنفلية وعيون زرقاء وشعر وسيم أو أحمر».... «توجد عَرَضاً بين هؤلاء الناس الأسر ذات الشعر الوسيم والعيون

علاقة بقبائل البربر القديمة توجد في النظريات المقدمة في كتاب أصول البربر الذي ألفه ل. رِين، ويعتبر هذا المؤلف نصيراً قوياً للأنساب اللغوية والسلالية بين السلالة الطورانية وأيضاً السودرا والآريين في الهند من ناحية والبربر من ناحية أخرى، وفي الواقع إن التشابه بين الأسماء القبلية الفيدية والبربرية تشابهٌ ملحوظ كما يؤيد هجرة البربر إلى إفريقيا من الشرق. كان إله الطورانيين الكبير أو إلهتهم الكبيرة (إنْ، إني، أنو)، وبالمثل فإن أنو كان إلهاً نوميدياً قديماً اسمه ثابتٌ في جبالٍ كثيرة في باربري ـــ بلاد البربر. ويكتشف رين هذا الأصل «آن» في عددٍ من الكلمات أكثر إثارة للدهشة، وفي الواقع في أي اسم علم يحوي «ن»، فمثلاً لونا، ديانا، ديونيزوس، بريتن، كاليدونيا، إيرين، آكويتين، هون، هيلين، أينو، أنامية، مينا (الفرعون) وكنعان![1]. ولو أن رين عثر على كلمة «عنج» سيكون مسروراً بها وسيضيفها بلا شك إلى قائمته وسيفهم الحقيقة الواردة في الاقتباس أعلاه الذي استشهد به كواترمير بالعنج حيث ذكر اسم «كدرو» وأن «كدرو» تلك كانت إحدى بنات براهما وتجسيد لأهل الجبل. والحقيقة الأخرى وربما الأكثر وثوقاً والتي تؤيد العلاقة بين سكان الحرازة البدائيين وقدامى البدو الصحراويين هي أنه ما تزال هناك آثار سلالة من جهة الأم تُحتسب في الحرازة وأبو حديد وأم درق كما كانت تُحتسب وسط قبائل الصحارى الشرقية. فمثلاً نجد أن «مك» أبوحديد الحالي قد اختير «مك» لأن والدته كانت ابنة «مك» سابق وقد تزوجت زغاوي ولكن الابن يحسب علاقته بالزغاوة أقلَّ من علاقته بـ«نوبة» أبوحديد. وكذلك كانت والدة «مك» أم درق ابنة «مك» ولكن والده لم يكن ذا مكانة اجتماعية مطلقاً.

هناك أناسٌ قدامى آخرون يتحدثون عنهم في الحرازة وهم «الحِنانة». وربما كان هذا الاسم ـــ رغم أنه ليس من المرجح على الإطلاق ـــ تصحيفاً لـ«هلالة» ويرتبط بالغزو الأسطوري لأبي زيد وبني هلال[2]. ولا يُعرف شيء أياً كان عن الحِنانة غير أنهم

اللامعة أو الرمادية»، أي [البربر]. كلا هذان الاقتباسان مأخوذان من رسالة د. براون في طبعة ليو آفريكانوس الخاصة بجمعية هيكلويت (المجلد «1»، صـ 202 وما يليها)، ويبدو أنهما ذوا صلة بالمسألة الخاضعة للنقاش.

1 يقول رين إن القالا والبقارة وتقلي ودارفور وودّاي والبرنو كلها أسماء بربرية! وقطعاً فإن «آج» من كلمة عنج ترمز لبادئة الطوارق التي تعني «ابن...».

2 انظر الفصل "2".

كانوا متأخرين عن العنج وأبو قنعان وأن اسمهم يستخدم فقط في رابطة واحدة، أي في استذكار الأدوات الحديدية القديمة (خصوصاً الحشّاش ورؤوس السهام) والتي توجد أحياناً باسم «حديد أم جِنانة»[1]. ولندلف الآن إلى الأزمنة المتأخرة، فالقليل الذي يمكن اكتشافه كالآتي: في مطالع القرن الثامن عشر هاجرت جماعة صغيرة من الركابية من المندرا قرب النيل الأزرق إلى الحرازة وطردت معظم السكان السابقين وتصاهرت مع البقية. وفي الشطر الأخير من ذات القرن تحارب أقارب هؤلاء المهاجرين في البَحَر مع الشايقية وهُزموا هزيمةً نكراء، ومن ثم انضم 70 منهم أو أكثر إلى أقاربهم في الحرازة، وبالتالي فإن السكان الحاليين ـــ بقدر ما يمكن رسم أيِّ خطٍّ ثابت ـــ هم خليط من الركابية والعناصر السابقة[2]. ويزعم الركابية أنهم حسينية أشراف ولذا يزعمون وجود علاقة لهم مع الكبابيش النوراب ومع الدناقلة الشبواب في الطويل والبشيري ومع العناصر العربية في جبل أبوتَبَر، والآن يُسمَّوْن «دواليب» تيمناً بمحمد ود دوليب أحد أجدادهم، وهم قبيلة ذكية ومقتدرة ذكاءً واقتداراً واضحيْن. ويجب أن نتذكر أن الأتراك قاموا بعد الفتح بتوظيف الدواليب متحصلي ضرائب على أوسع نطاق. وأدناه شجرة توضح نسبهم المزعوم[3]:

علي = فاطمة (ابنة النبي)

الإمام الحسين

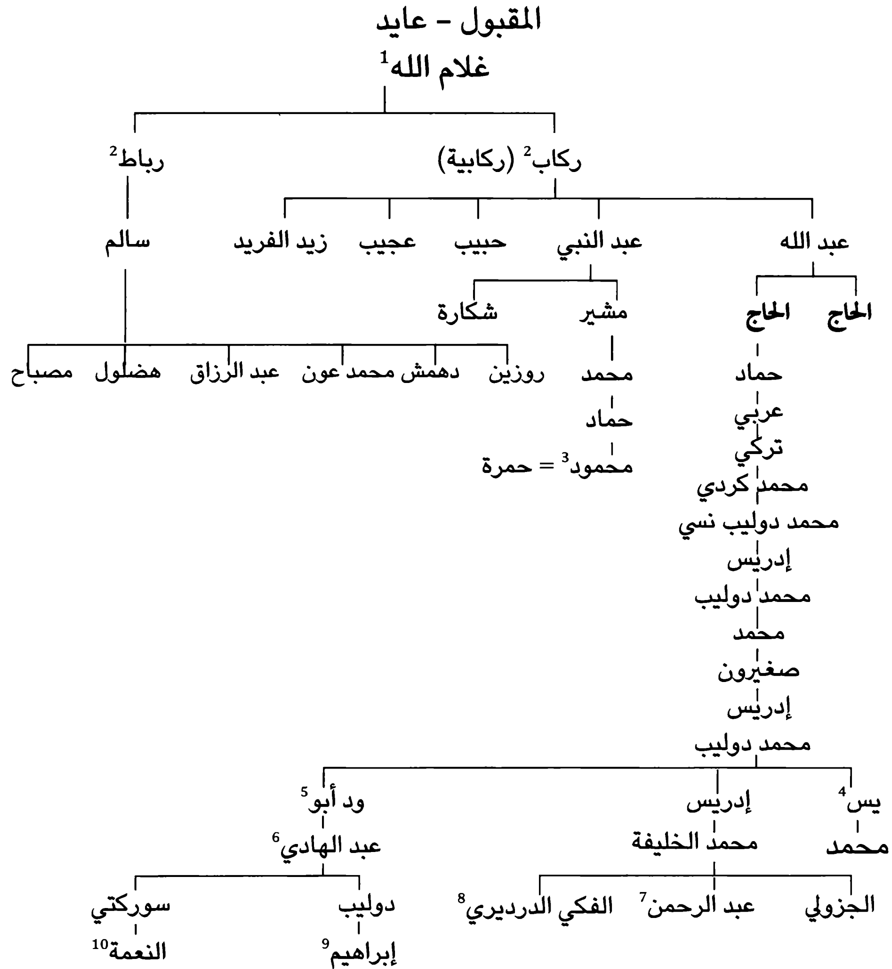
زين العابدين - محمد الطوخي - محمد النقي - محمد التركي - حسن العسكري - علي الرضا - محمد الباقر - جعفر الصادق - موسى الكاظم - زامل -

---

1 تسود خرافة الآن فحواها أن الأدوات الحديدية إذا تركت ملقاة على الأرض فإنها ستجذب ريح الشمال القوية وأن الرمل سيغمر الذرة: ونتيجة لذلك فقد تم جمعها بصورة جادة، وقام «الفُكَيَا» بالشكليات المطلوبة بإخفائها داخل الشقوق العميقة في الصخور. وقد اكتشفتُ أنا هنا كثيراً منها مغطىً بالحجارة. وألاحظ في كتاب المسعودي «مروج الذهب» (ترجمة شبرنغر، 1841م) إن الزَّنج (اسم يستخدم بصورة شائعة لكل العناصر السوداء) واقعون تحت التأثير الفلكي لساتورن إله الزراعة وأن «الرصاص والحديد مقدسان» بالنسبة له أو ربما كانت الترجمة الأفضل «أنه عدو الحديد». فهل لهذا أية علاقة بروايات الحرازة المذكورة أعلاه؟ راجع الفصل «3».

2 ربما كتب براون الآتي عن هؤلاء المهاجرين «سكان الحرازة وثنيون ذوو بشرة مختلطة، ومعظمهم ذوو لونٍ ضارب إلى الأحمر». ويذكر مرتين أن أهل الحرازة (وأبو حديد) لم يكونوا عرباً ولا مسلمين (انظر براون، الملحق «6»، صـــ 566).

3 هناك أجيال كثيرة لم تظهر في شجرة النسب طالما أن الراوي الذي روى لي يعتبر نفسه الحفيد رقم 35 لعلي صهر النبي.



1) مؤلف أول جزء من "نسبة دنقلا"، وقيل إنه أول واحدٍ من أسرته يأتي من الجزيرة العربية إلى إفريقيا.

2) تقول "نسبة دنقلا" إن أبناء وأحفاد ركاب ورباط هم أجداد الآتية أسماؤهم:

الحاج جدُّ الدواليب.

حاج (أو حجَّاج) جدّ العشيباب في دنقلا.

جدّ بعض الكواهلة في تقلي.

جدّ الحداحيد الموجودين في البَحَر.

جدّ الجنانة الموجودين في البَحَر.

3) كان محمود هذا هو زعيم أول مهاجرين ركابية من المندرا قرب النيل الأزرق، وقد تزوج حَمْرة من فرع الشبارقو في الحرازة. وكان حفيده معاصراً لود أبو.

4)"شيخ المشايخ" و"المعاون" المذكوران في الفصل الأول.

5) كان ود أبو هو زعيم الهجرة الثانية للركابية (الدواليب).

6) بالمي قابل عبد الهادي وقال إنه كان لديه 24 ولداً موجودون في ذلك الوقت (1838م). وقد وُظِّف جماعته في السرقة واصطياد الزراف (انظر بالمي، صـ 96 و240).

7) عمدة بارا الحالي (1910م).

8) أحد زعماء الطريقة التيجانية في السودان ورجلُ تقي ورع.

9) عمدة الحرازة الحالي (1910م).

10) ناظر كاجا وكتول الحالي.

إن الدواليب الموجودين في الحرازة حالياً يمكن تمييزهم بسهولة من بقية السكان من خلال بشراتهم الشاحبة ولكنهم متصاهرون إلى الدرجة التي لن يكونوا بها هُم هُم أنفسهم بعد جيلين من الآن. وسيُعطى لاحقاً تقريرٌ عن القبائل التي يقسِّم إليها أهل الحرازة أنفسهم، ولكن قبل أن نترك الحرازة يمكن أن نعطي تقريراً عن ملامحها الطبيعية، فالسلسلة الجبلية التي تشتهر عموماً بهذا الاسم تقاس بحوالي 17.5× 13 ميلاً ممتداً في خطٍّ مستقيم، وتُقسم بواسطة الأهالي أنفسهم إلى قسمين ويسمى القسم الغربي كيلوم ويسمى القسم الشرقي الحرازة كما يُميز الجزء الأبعد إلى جهة الشرق من القسم الثاني باسم كوبي. إن أية علامة من علامات القمم الجبلية المشكلة لديها لقبها الخاص، فتسمية الجبال ليست على العموم تسمية عربية وأن نسبة الأسماء الأجنبية بالقياس إلى الأسماء العربية ربما تمثل تقريباً نسبة صلة الدم العربي والدم غير العربي في سكان هذه الجبال. فخير أمثلة للأسماء غير العربية هي: أتكي، أنقل، كلودي، كرشول، تورللي، فاندنق، كوريدي، كوركيلا، توتو، آرتوزك، أرانقوق، كيسي، تقنقاندو. إن الصناعات الحديدية القديمة ما زالت بادية للعيان، ومن غير المعلوم ما إذا كان تاريخ هذه الصناعات يعود إلى القرعان أو إلى الكنجارة فقط، فبعضها يوجد في أرانقوق جنوب الحرازة وتوجد أخرى في كيسي: فالصناعات الحديدية في أرانقوق توجد في مدخل لدى سفح الجبل وتوجد الصناعات الحديدية في كيسي على ارتفاع 400 قدم فوق السهل والقرية الحجرية القديمة في ممرٍّ عالٍ في جبل كيسي. وقد رُتبت الجُدُر المقوسة (المبنية من طوب رائع محروق بارتفاع قدمين) في طبقات مثل مقاعد مدرّج السيرك وكلّ جدار أعلى من الآخر على المنحدر وهو في شكلٍ شبه دائري مسطَّح. هذا الجدار المقوس طوله في كل حالة 20 ياردة من نقطة إلى نقطة ويتكون من أربعة أو خمسة أقسام أصغر مقعرة مترابطة كان كلٌّ منها افتراضاً يستخدمه شخص آخر. وكانت النفايات مقذوفة على قمة الجدر المقوسة والأرض مغطاة بأسطوانات من طمٍ صلبٍ محروق كان واضحاً أن طرف أية أسطوانة منها يقبع وسط الحديد المنصهر ومن المفترض أن تكون أكيارُ الحدادين موضوعةً على الطرف الآخر. هذه الأسطوانات تطَّرح أفقياً جنباً إلى جنب على مسندٍ منخفض من الطوب مبنية بسلسلةٍ من التجاويف على سطحها الأعلى الذي أعدت فيه الأسطوانات. هناك



"صناعات حديدية قديمة على جبل الحرازة."

صناعات حديدية مشابهة في كوبي على الطرف الشرقي من الحرازة، ولا تختلف القرية الواقعة دونها بأية حال من نصف مجموعة القرى الأخرى التي تزدان بنقطٍ حول الإطار. وتقع القرية كالعادة في وادٍ ضيقٍ عميق في الجبال وقد بُنيت من صخورٍ رخوة ويجري خلالها خور، ويحمي المدخل المؤدي إلى الوادي متراس (مضاعف ضعفين أو ثلاثة أضعاف) من الحجارة المركومة. وما يزال الناس حتى السنين القليلة الماضية يقيمون على هذه المواقع القديمة وقد بنوا الأكواخ من الحجارة المطلاة بالطين ولكنهم تجرأوا الآن على الخروج إلى العراء وبناء أكواخ القش.

إن الإمداد المائي للجبال متنوع جداً، فأول الإمدادات وأفضلها أن هناك بئريْن «سواني» رائعتيْن جداً بعمق 100 قدم وقد حُفرتا خلال الطبقة الصخرية حيث قام بحفرها الدواليب في شمال غرب الجبل. ثانياً هناك بئر عادية يتراوح عمقها ما بين 20 قدم إلى 30 قدم تُحفر سنوياً قرب سفح جبل قوزي حتى تصل إلى الطبقة الصخرية (وهي طبقة تمنع فتح الآبار في أماكن أخرى إلا بعد عناءٍ شديد). ثالثاً هناك ينبوعان أحدهما يسمى «شِقمال» في جنوب كيلوم والثاني يسمى «شُنقل» على الناحية الشمالية من جبل سيغي، وهذان الينبوعان عبارة عن «قُلوت»، أي حُفَر كبيرة يتراوح عمقها ما بين 6 قدم إلى 10 قدم في وسط الصخور وعلى سفح الجبال، وتشرب القطعان فيها يومياً بل قيل إنها تمتلئ مرة ثانية في يومٍ واحد وفي أي وقتٍ من أوقات السنة. رابعاً هناك «خشم اللبن» وهي بئر كبيرة بديعة في جبل كوبي حيث حفرها أناسٌ سابقون خلال الطبقة الصخرية بعمقٍ يزيد على 100 قدم، وهي تقع في حوضٍ أنبوبي الشكل تحيط به الكثبان الصخرية العالية ويتم الوصول إليه دائماً بالقفز من صخرة إلى صخرة لمسافة نصف ميل. وكان الماء عندما رأيته بعمق 40 قدم فقط ولكن في وقتٍ متأخر من السنة أزيلت الرواسب المتراكمة عنه ليصل إلى عمق 90 قدم. ومع ذلك لم يتم الوصول إلى القاع إذ ليس هناك حاجة لذلك طالما أن هناك 15 قدم تحت طرفٍ من أطراف البئر يبدو أنها ستنهار وتشكِّل فجوةً كبيرةً ذات حائطٍ من الصخور والحجارة. خامساً هناك بِلبِلداي في جبل كوبي عبارة عن «تمد» بعمق 10 قدم تقريباً ويقع في خور تغذيه الصخور الواقعة حوله، ولكن هذا المصدر من مصادر الإمداد المائي يفشل أحياناً

في الصيف إذا شربت القطعان منه كثيراً. سادساً هناك آبار مياه عديدة أو «قلوت» من على فوق الصخور في جميع أنحاء الجبال وتعتمد في مائها على المطر وهي لا تدوم أكثر من أشهر الصيف. وأكبر هذه الآبار تسمى «كوي» وهي بئر كبيرة في الجزء العلوي من جبل كيلوم. إن النظام المعتمد لسقيا القطعان من واحدة من «القلوت» المذكورة سابقاً ــ أي التوبا ــ لهو نظام أكثر غرابة، فالماء يكون على طول 150 قدم تقريباً في الجبل وفي بئر تقع على قمة كتلة متحدرة من الصخر وترتفع بزاوية 80 درجة تقريباً. ويتسلق الرجل على هذا السطح العمودي من الصخر ويسحب الماء ومن ثم يفرغه مثل شلال على الحافة، ويشكل الكثير من الماء الذي لا يُهدر بركة صغيرة في الأرض عند أسفل الجُرُف وهناك تشربه الماعز. ويتوقف العمل بهذه الطريقة في الفترة الأكثر جفافاً من السنة بحكم أنها مبذرة شيئاً ما.

والآن وفي حين أن العناصر الدخيلة في الحرازة وربما في أم درق وأبو حديد (وإن كان بدرجةٍ أقل) قد أتت من الشمال والشرق لكن كثيراً من المهاجرين إلى كاجا وكتول أتوا من الغرب، فقد كان من الطبيعي أن تنتشر إليهما العناصر السوداء من دارفور بحكم موقعهم القريب من حدودها. وعلى أية حال فإن أسماء العناصر القبلية المختلفة في كل هذه الجبال متشابهة: وبعضها قد يمثل أسماء العناصر القديمة وبعض الفروع القبلية سواءً أكانت أصلية أو شكلت باحتذاء الأناس المحيطين بها. وهذا هو تصنيف هذه القبائل:

1. المطرة، في الحرازة خاصة.
2. الدُقاقة، في الحرازة خاصة.
3. الأدُنقيَّة، في الحرازة خاصة.
4. الدرهام، في الحرازة خاصة (مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالبُقيرة).
5. البرنجِرِّي، في أبو حديد خاصة.
6. الدُقَروس، في أبو حديد خاصة.

7. الكيراك، في أبو حديد خاصة (الأسرة الحاكمة).
8. الأسداب، في أم درق وكتول خاصة.
9. بني هلال، في كتول خاصة.
10. الشبرقو، يوجدون الآن في كاجا وكتول خاصة، وهناك بعضهم أيضاً في أبو حديد وأم درق. وقيل إن هؤلاء الناس أتوا من البَحَر تحت قيادة واحدٍ اسمه صلاح وذلك قبل مجيء الدواليب، وقيل إن هناك بعضاً منهم ما يزالون في ود مدني على النيل الأزرق. ووجد صلاح البُقيرة في الحرازة واحترب معهم وفي النهاية تزوج إحدى نسائهم وانتشر أناسه غرباً. ويجب أن نتذكر أنه عندما هاجر الدواليب تزوج زعيمهم امرأة من الشبرقو بطريقة مماثلة ولا شك لذات الأسباب السياسية. وهناك عددٌ منهم الآن في دارفور[1].
11. سرار بقر (أي سرايا الماشية) أو البُقيرة، ويوجدون خاصة في كاجا وأم درق.
12. سرار فار (أي سرايا الفأر)، ويوجدون خاصة في كاجا وكتول. وفروعهم الأصغر هي: أم دو، أم قو، سرار غراب (أي سرايا الغراب)، أبو خيرن، أبو عمرية. وقيل إنهم بقية من البديرية الذين كانوا مع بلول في كاب بلول وبعد أن هزمه هاشم[2] فروا إلى كاجا حيث استقروا هناك، ووسْم إبلهم (الإصبع) شبيه بوسْم البديرية.
13. سرار غنام (أي سرايا الغنم)، ويوجدون في كاجا خاصة.
14. سرار خشب (أي سرايا الخشب)، ويوجدون في كاجا خاصة.
15. سرار خيل (أي سرايا الخيل)، ويوجدون في كاجا خاصة.
16. برانقول، ويوجدون في كاجا خاصة وهم من أصل بديري.

يبدو أنه كانت هناك مستوطنات عديدة للغرباء في كاجا وكتول، فالكنجارة والبرقد والكروبات[3] من دارفور أو غرباً منها والبديرية من وسط كردفان قد استقروا جميعاً هناك وتصاهروا في أوقاتٍ مختلفة. فالبديرية جاءوا في حوالي منتصف القرن الثامن

1 قيل إن لهم علاقة بفرع الهوال من الكبابيش، فوسوم إبلهم متشابهة.
2 انظر الفصل "4" حول البديرية، الخ.
3 عنصر من دارفور واستقروا مؤقتاً فقط. ذكرهم بارث بأنهم من عرب ودّاي (المجلد «3»، صـ 543).

عشر وبعد فترةٍ قصيرة هاجم هاشم المسبَّعاوي كتول وقطع إمداداتها وقتل نسبةً كبيرة من سكانها وباع الكثيرين منهم رقيقاً. وكان هاشم أيضاً هو الذي ذهب إلى كاجا بعد أن قتل بلول وهناك فتح عدداً من الآبار بين الصخور في سودري، وهو عملٌ بطولي قيل إنه لم ينجز من قبل. وقيل أيضاً إن هاشماً قد حفر الآبار بين الصخور في فوجا والمزروب وكتول (بئر تنَّة) وكُجُمْ (بجانب جبل أبو فاس المفتِّح) والمقينص[1]. هناك عادة غريبة جديرة بالملاحظة توجد في كاجا وهي عادة غير عربية ولكن لا يمكن أن يقال إلى أيِّ عنصرٍ في السكان يمكن نسبتها بصورةٍ أخصَّ، وهي: أنه في وقت دَرْس الذرة تكون هناك رغبة عامة في هبوب كافية لتذروَ العصافة (القشور) من الذرة، ومن المألوف أن تثار الهبوب بالطريقة التالية: أن يأخذ أحد التوأمين ـــ ذكراً كان أم أنثى ـــ عصاً ينقِّب بها في أجحار فئران المزرعة إذ من الواضح أن الفكرة هي أن الهبوب المُحمَّلة بالرمل تتخذ موطنها داخل هذه الأجحار وربما تُضايق هذه الهبوب أو تترك حرةً طليقة. وبعد أن يفعل التوأم ذلك يتحرك إلى كوم قمامة القرية ويضرب عليه بعصاً حتى تكون هناك كمية كثيرة من الرماد المسحوق ومن ثم يقذف بحفناتٍ منه في الهواء في إيماءةٍ إلى الهبوب لكي تأتي وتدور به بعيداً. وهناك خطة ثانية أيضاً يتبنونها لذات الهدف هدف إثارة الهبوب وهي أن يُؤتى بدجاجةٍ حية وتغطس في الماء ومن ثم تطلق إذ يعتبر احتمالاً أن عمليات الهزّ الاهتياجي للدجاجة على فكرة تجفيف ريشها يغري الريح بالهبوب.

كانت الحرازة وأم درق وأبو حديد جميعاً تحت زعامة الدولابي عبد الهادي في أيام التركية لكن كاجا وكتول لم تكونا تحته. وقيل إن جزية كتول السنوية كانت 260 جنيه أسترليني، وكان أول ناظر أو عمدة لكاجا يوجد له توثيق هو العمدة أحمد سُرور، وكان عمدة كتول في عهده هو الضَّو ولكن عندما مات الضَّو وُضعت كتول تحت زعامة أحمد سُرور. ولكن سرعان ما أصبحت كتول مستقلة وكانت منذ عام 1841م ـــ أي لمدة 70 سنة ـــ تحت زعامة تَمَر أغا ابن أخ الضَّو وقيل

---

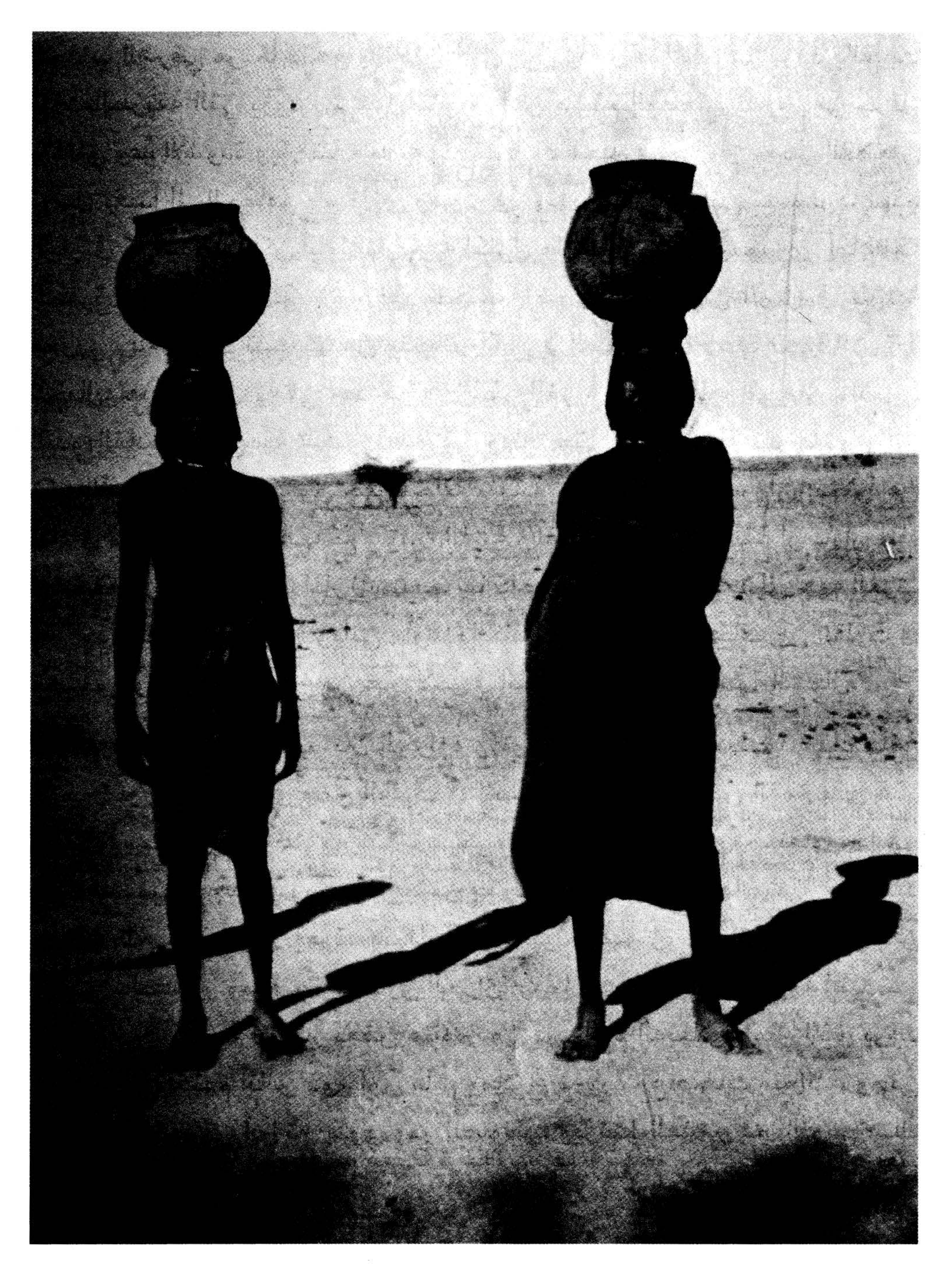
1 كان حامد جبر الدار الحفيد المباشر لهاشم يعيش في الأبيض وبالفعل باع بئره التي ورثها إلى نوبة كاجا عام 1908م. إن الآبار في الأماكن المذكورة حُفرت بالتأكيد في الصخر، وكان الجيل الحالي حتى عام 1911م كسولاً جداً إذ لم يفعل سوى فتح الآبار في الأرض اللينة أو يكتشف موقع «السَّواني» القديمة (مفردها سانية وهي بئر تحفر في الصخر) ويعيد فتحها. في عام 1911م حُفرت سانية جديدة في المزروب أما المقينص فلا ماء فيه الآن.

إن تَمَر أغا كان ابناً لمسؤولٍ تركيٍّ زار كتول[1]. وخَلَف أحمد سرور في كاجا سالم ود الكير الذي أعقبه في الخلافة الصافي صقير والصافي أبو قامبل وكان الصافي أبو قامبل في السلطة لدى اندلاع المهدية. وتُرك إبراهيم دوليب حفيد عبد الهادي عمدةً للحرازة لدى إعادة الفتح، وفي ذات الوقت تم تعيين شقيقه يس عمدةً على مكوك أبو حديد وأم درق كما تم إرسال النعمة سوركتي وهو حفيدٌ آخر لعبد الهادي بذات الوظيفة إلى كتول وكاجا (باستثناء السُّروج). وعُيِّن إبراهيم قرض القزم النذل الماكر عمدةً على كاجا السّروج. وفي الوقت الحالي ما زال إبراهيم دوليب والنعمة سوركتي يشغلان منصبيهما الخاصَّيْن بهما وتم عزل يس دوليب وأصبحت جباله تحت إدارة مكوكها أنفسهم وخَلَف إبراهيم قرض كاجاوي أقلّ احتيالاً منه.

إن الملامح الطبيعية لكاجا وكتول كما يلي: يتصرف ماء المطر النازل من الجبال في كاجا ـــ التي يبلغ ارتفاعها 200 قدم فقط ـــ في وادي سودري الذي يجري على طول واجهتها الجنوبية، ويبقى الماء عادةً في هذا الوادي في البرك حتى شهر يناير تقريباً ويستهلك كثيراً بواسطة العرب الذين يكونون في طريق العودة من أراضي الرعي الشمالية الغربية إلى وسط كردفان. ويستفيد الكبابيش أيضاً من آبار سودري في الفصول الجافة، وتؤول حقوق الأرض حصرياً لكاجا[2]. عندما تنضب مياه الأمطار يُعاد افتتاح الآبار القديمة بأعماقٍ تختلف اختلافاً غريباً وفقاً للمستوى المتفاوت للطبقة الصخرية القوية الأدنى. لم تكن هناك آبار أخرى في كاجا حتى عام 1910م ولكن الكبابيش اكتشفوا في ذاك العام الماء في الجبيلات على الطرف الشمالي منها بعمق 40 قدم فقط، فافتتحوا ما بين 100 بئر إلى 200 بئر حيث تكفيهم من بداية السنة حتى هطول الأمطار في يوليو. وفضلاً عن إمدادات الآبار هناك مستودعات طبيعية كثيرة تم تكييفها قليلاً بواسطة القوة البشرية وتعرف بـ«القلوت» ـــ مفردها قلتي، وهي توجد في شقوق في أعلى الجبال وتملأ بواسطة الأمطار وتحمل قدراً كبيراً من المياه. وجبل كتول الواقع على مسافة 23 ميلاً شرق

1 مكث تَمَر أغا في كتول حتى عام 1885م ومن بعدُ قضى سبع سنوات أو ثماني سنوات درويشاً في دارفور. وقد جُرح في موقعة أتبرة مع محمود ولدى إعادة الفتح أعيد إلى مركزه السابق في كتول.

2 حسب العرف المحلي فإن للعرب حقوقاً حرة للسُّقيا طالما ظل ماء المطر موجوداً ولكن بمجرد أن بدأت فتحات الآبار القديمة في الظهور فإنهم يتركون المكان لأصحابه أو يدفعون مقابل هذا الماء متى ما أخذوه. وتوجد الاستثناءات فقط عندما تسود ظروف الوئام.



"فتيات من كتول في عِدّ الأسُودة، 1911م"

الجنوب الشرقي من كاجا هو بالأحرى أعلى جبل وأكثر صلابةً وهو مزوَّد بالقلوت بذات الطرَيقة التي يُزوَّد بها جبل كاجا، ولكن معظم القطعان تشرب من جرقل وتفلنق وعِدْ الأسودة وبئر تنَّة وجميعها تقع قرب الجبل في حين أن بعض القطعان تُرسل بعيداً إلى الجمَّامة وأم ناوي وسودري. وتؤول الأرض التي تم حفرها لهذه الآبار في كل هذه الأماكن أيلولة حصرية لكتول ما عدا أم ناوي وسودري. أما كاجا الحفرة ــ وهي سلسلة من جبال منخفضة مع ركام عالٍ من الرمل في طرفها الغربي ــ فقد أتت تسميتها من منخفض كبير في السهل الواقع على الجهة الشرقية للجبال. هذا السهل يمتلئ بعد هطول المطر الغزير ويوفر الماء للجيران وللعرب البدو القادمين إلى جهة الجنوب الشرقي وذلك حتى نهاية العام تقريباً. وإذا لم تكن الأمطار غزيرة ستكون حفرة جافة بنهاية أكتوبر وعلى الناس أن يبحثوا عن الماء في سودري أو أبو عجاجة[1]. وبين الفينة والفينة تنتج بئر عميقة أو بئران الماء لفترة قصيرة بعد نضوب الماء المستديم. أما كاجا السُّروج فتقع أبعد إلى جهة الغرب على حدود دارفور الحالية ويأتي ماؤها بالكامل خلال الموسم الجاف من القلوت في الصخور ولكن الآبار تفتح من حين لآخر في القاشطة الواقعة في جهة الشمال.

تقع أم درق وأبو حديد بين الحرازة وكتول، ولديهما في وسطهما إمدادٌ مائيٌّ شحيح من عِدَّ الفكي وبعض القلوت في الصخور. وأسماء بعض القمم لدى هذه الجبال أسماء غريبة، مثلاً: كُبُرْكُنْكُرْ، سيكي، سي، تقماليدد، كلمان، سلنقاور، داسي، كارشنَّاد، مينانِّي، سِلِق. ويوجد قريباً من جنوب شرق أم درق وشمال شرق أبو حديد حوض ملح كبير ووفير يُعرف بـ«المَيَعْ». أما أبوتَبَرْ فهو زوج من جبلين صغيرين مغطى بالصخور ويقع جنوب شرق الحرازة ويطل على المنطقة المكشوفة التي تقع جنوبه. ويضم نوبة أبو تَبَرْ بعض عناصر من ذات الدم الدنقلاوي مثل الذي يوجد في الحرازة ولكنهم أناس ذوو لون قاتم وملامح شريرة مع صفاتٍ متماثلة، وحتى وقتٍ قريب لم يكن أبو تَبَر سوى وكرٍ للُّصوص. ويرتبط العنصر غير النوبي هناك بعلاقة مع الماجديَّة.

1 يشمل اسم أبو عجاجة الموقع المُعلَّم على الخرائط وكل المنطقة حتى جبل بكلاي. وتُحفر الآبار أحياناً في أبو عجاجة الأصل وأحياناً في الشُّويِّب قرب جبل بكلاي ولكنها لا تدوم طويلاً أبداً.

الفصل السابع

جبل ميدوب

تقول مصلحة الخرائط الفرنسية إن جبل ميدوب يقع غرب أم درمان على خطٍّ مستقيم مباشر تقريباً[1]. وينتشر حول جبل ميدوب عددٌ كبير من القرى التي يعمل سكانها في زراعة محصول الدخن في موسمه ويعتنون في بقية العام بقطعان أغنامهم ذات الأعداد الكبيرة جداً. ويحتوي المنخفض الواقع على الناحية الغربية من الجبل ــ ويُشتهر بالمالحة ــ على رواسب ثمينة من العطرون تقع على عمق قدم أو قدمين تحت سطح الماء، وقيل إنه يمتد في مساحة نصف ميل مربع أو أكثر.

إن الجيران الأقرب لأهل جبل ميدوب هم عرب الكبابيش البدو من ناحية الشرق والزغاوة من ناحية الشمال وبرتي دارفور من ناحية الغرب والجنوب. وفي الغالب الأعم هناك اسمٌ عربي واسمٌ محلي لهذا الجبل وأماكنه المائية المختلفة، فمثلاً الاسم المحلي لجبل ميدوب نفسه هو «تيدي» والميدوبي هو «تيدي»، ويُعرف المكان المائي بالنسبة للعرب باسم السِّريف («الزريف» على الخرائط الفرنسية) ويُعرف باسم «كوندول» بالنسبة للميدوبيين. إن الفروع الأصغر التي يقسِّم إليها أهل جبل ميدوب أنفسهم هي كالآتي:

كاجدِّي	توركدِّي
أرتي	أوسوتِّي
تورتي	أوردارتي

ويقول الميدوب عن أنفسهم إنهم مستعمرة قديمة من المحس والدناقلة القادمين من النيل ولكن ليس لديهم فكرة في أي تاريخ حدثت هجرتهم غرباً. ويقولون إن

1 لم يزر الكاتب جبل ميدوب، فالجبل يقع في المناطق الخاضعة لسلطان دارفور ولكن تم الحصول على المعلومات المقدمة من الميدوبيين الذين يأتون إلى كردفان ليتاجروا في الأغنام أو للعمل مقابل الأجرة والذين يفهمون اللغة العربية فهماً كافياً يجعل النقاش معهم سهلاً.

البعض منهم الذي زار البَحَر وجد أن لغة الميدوب تشبه كثيراً لهجة المحس أو الدناقلة وضرب مثلاً بكلمة «كوسي» التي تعني الطاسة الخشبية (التي يؤكل منها) بلسان الميدوب ولسان سكان دنقلا القدامى. وتشبه أسماء عدد من القمم في جبال الحرازة وأم درق وأبو حديد الكلمات الميدوبية شبهاً قريباً، ومما لا شك فيه أن مهاجرين من عنصرٍ متجانس مع قدامى سكان المنطقة المجاورة لدنقلا قد استقروا في الجبال الثلاثة المذكورة مثلما يُزعم أنهم فعلوا ذلك في جبل ميدوب. إن البادئات اللغوية المشتركة prefixes مثل «كا، كور، كار» توجد في أسماء قمم كثيرة في الحرازة وأم درق، مثلاً: كارشول، كوريدِّي، كوركيلا، كالودي، كارشناد قد تطابق كلمة «كار» الميدوبية التي تعني القرية. من ناحية أخرى فإن كلمة «تيدي» تشير إلى التيدا أو (التيبو) الذين يضمون إلى حدٍّ كبير الزغاوة، فلغة الزغاوة تبدو مشابهة للغة الميدوب[1]، والزغاوة هم الجيران اللصيقون بالميدوب، وليس ثمة شك في أن التيبو البدو اعتادوا أن يجوبوا البلاد التي تضم شمال كردفان وصحراء بيوضة والتي تعرف في العصور الوسطى باسم صحراء قورهام أو قرعان[2]. هؤلاء التيبو أنفسهم هم جزئياً من سلالة بربرية كما هو الحال بالنسبة لكثيرٍ من سكان دنقلا والمحس، وربما يوجد هنا مصدر الهجرة المزعومة للدناقلة والمحس إلى جبل ميدوب. وينفي الميدوب أنفسهم أية علاقة لهم مع الزغاوة ويقولون إنهم لا يفهمون لغتهم. ومن المحتمل جداً أن تكون لهم علاقةٌ ما مع العنج الغامضين[3] الذين يقال عنهم اختلاقاً إنهم سكنوا في شمال كردفان.

وللميدوب في الوقت الحالي «مك» أعلى أو ناظر «بالعربي» إضافة لمشائخ القرى، وتعكس عاداتهم في أوجهٍ معينة نظاماً قديماً من الخلافة الأمومية كالخلافة الرائجة وسط القبائل البدوية القديمة في أيِّ جانبٍ من النيل (مثلاً البجا)، ومن هذا فقد قيل إن المك إذا مات فإن الخلافة لا تؤول إلى إخوانه بل إلى ابن أخته أو بالعدم إلى ابن خالته، وأنه إذا قتل زيدٌ عبيداً فإن أقرباء عبيد يثأرون بادئ ذي بدء من زيد وإذا فشلوا في ذلك سيثأرون من ابن أخته أو ابن خالته. من ناحية أخرى وفي حالة الوراثة يُعطى

---

1 أرسلتُ عدداً من المذكرات حول لغة زغاوة دارفور وأهل جبل ميدوب إلى مجلة الآنثروبولوجيا الملكية بغرض النشر وربما تظهر في نهاية عام 1912م تقريباً.

2 انظر الملحق «4».

3 انظر الفصل «6».

الأبناء سهمين بالقياس إلى سهم البنت. لقد سمعتُ العرب يقولون إنهم يتذكرون زمناً كان الميدوب يعيشون فيه تحت حكم امرأة. ومن عاداتهم أنه قبل الشروع في أي مشروع يستشار العراف حول الفأل، ويكون هذا العراف دائماً امرأة ويسمى «تودي» وتأخذ العرافة سبع ودعات وتقذف بها معاً على الأرض بطريقة عشوائية، ومن خلال الوضع الذي تكون عليه الودعات بالنسبة إلى بعضها البعض تستنتج العرافة «تودي» حسن الحظ أو سوء الحظ بالنسبة للمشروع رهن اليد.

ملحوظة: فيما يتعلق بالصلة المحتملة لأهل جبل ميدوب بالقبائل الواقعة غرباً منهم تجدر الملاحظة إلى أن كلمة ميدوبي أو (مدوبي) هو اسم مكان شائع في بلاد الهوسا أو البرنو، وبالمثل فعلى نطاق الصحراء الغربية نجد أن «قار» هي بادئة مشتركة تدل على جبل أو قرية ولذا ربما تكون لها علاقة بالبادئة «كار».

الفصل الثامن

الزغاوة[1]

من المسلَّم به أن الزغاوة يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بسلالة التيبو أو (التيدا) ولكن النقاش يثار أحياناً عما إذا كان هؤلاء التيبو من سلالة زنجية أم حاميَّة. وعلى أية حال ففيما يتعلق بالزغاوة فإن دراسة بعض الإشارات إليهم من قبل الكُتَّاب في العصور المختلفة تبرهن على أنهم يضمون أعداداً كبيرة من كلا الزنوج والحاميين كما يعتقد بروفسور كين، فالبروفسور كين يصنف في مقالته الموجودة في الموسوعة البريطانية[2] الفولا[3] والتيبو والبربر باعتبارهم حاميين وذلك عندما يتحدث عن السلالات الحامية والسامية باعتبارها محمولة عنصرٍ زنجيٍّ في السودان، ولكنه يقر بأن الشعوب الحامية اختلطت مع الزنج بسهولةٍ أكثر من اختلاط الشعوب السامية بهم. ويرفض كين دعوى مُلر التي يقول فيها إن التيبو من الزنوج، ولكن فيما يتعلق بالزغاوة والإندي فإنه يصفهما بأنهما خليطٌ من التيبو والزنوج. ولكن في الوقت الذي يعترف فيه كوست بصلة قرابة الزغاوة بالتيبو (التيدا) إلا أنه يصنف التيبو بأنهم زنوج على أسسٍ لغوية[4]. إن كون الزغاوة خليطاً من التيبو الحاميين والزنوج أمرٌ تؤكده الإشارات إليهم في صفحات قدامى الكُتَّاب العرب ولكن يبدو أيضاً فيما أظن أنهم يضمون عناصر أخرى أيضاً وبالتالي فإن مفردة «الزغاوة» استخدمت في كثير من الأحيان لتشمل عدداً كبيراً من قبائل شمال ووسط إفريقيا: وسيتبيَّن أيضاً أن كلمة «الزغاوة» مشتقة من مدينة [زغايْ] أو مقاطعة [زغايْ] ويستخدم الاسم أيضاً للأناس الذين يسكنون في زغاي وبالتالي فإن مفردة زغاي هذي كانت ذات استخدامٍ واسعٍ ومطلق. وتوجد إحدى أولى الإشارات للزغاوة في جغرافية الإدريسي المكتوبة عام

1 انظر صفحة 134 ، الهامش 1.

2 انظر مادة «السودان».

3 أي الفلاتة.

4 انظر كوست، المجلد «1»، صـ 253.

1154م حيث يقول: «أهمُّ مسكنَيْن للزغاوة هما ساقوا وشاما، فهناك توجد قبيلة بدوية تسمى سودرايا تعتبر من البربر»[1]. ويقول إن سودرايا هؤلاء يشبهون الزغاوة في عاداتهم وأعرافهم ويتماهون معهم عنصرياً ويعتمدون عليهم تجارياً. ويذكر الإدريسي أيضاً جبلاً اسمه لوقيًّا في بلاد الزغاوة ويضع أهمية خاصة على حقيقة أن الزغاوة لا يأكلون الأفاعي. ويقدم ابن خلدون (1332م ـــ 1406م) شهادة على هذه العلاقة علاقة الزغاوة بالبربر وهو يقول في الحديث عن الطوارق (الملثَّمين) إنهم فرع من قبائل الصنهاجة البربر ـــ التي تضم القبائل ذات الصلة باللامتونا والزغاوة واللامتا ـــ والتي ظلت تتردد على الطرق التي تفصل بلاد البربر من بلاد السود منذ زمنٍ طويل قبل الإسلام[2]. ويقول السلطان بيلو (1816): «يحدها (أي بلاد الموسي) إقليم سانغي من الجهة الشمالية، وسكانها بقية من الصونهاجة (الصنهاجة) والعرب الرحل والفلاتين»[3]، ويعتقد كولي أن وضع «السنانغيين وملامحهم كما يصفها بيلو تكفي لمطابقة هويتهم مع زغاي التي أشار إليها ابن خلدون[4]. هناك الكثير بالنسبة لانتماءات الزغاوة البربرية، فالمسعودي يضع الزغاوة بين أحفاد كوش ابن كنعان وبين القبائل التي يسميها تسمية غامضة بـ«الحبشة», ويقول إن الزغاوة والدمادم انفصلوا بعد الطوفان من أقاربهم النوبة والبجا والزَّنج[5] واتجهوا غرباً. ويقول المقريزي أيضاً أو ابن سعيد الذي يأخذ عنه المقريزي إنَّ كل الأمم بين الحبشة (إلى الجنوب) وبلاد النوبة (إلى الشرق) وبرقة (إلى الشمال) وتكرور (إلى الغرب) تسمى

---

1 انظر ترجمة جوبرت.

2 انظر ابن خلدون، الجزء «2»، صــ 64. فالمرابطون الذين احتلوا جزءاً من شمال إفريقيا وإسبانيا كانوا أساساً من اللامتونا البربر رغم أن كثيراً من العرب قد ساعدوهم. ويؤكد مختلف الكتَّاب العرب أن الصنهاجة كانوا أصلاً عرب حميريين من اليمن. ويستشهد ابن خلدون (الجزء «2» صــ 105) بابن سعيد وهو يتحدث عن الزغاوة باعتبارهم مسلمين ويضمون فرعاً يسمى تادجوا (أهو الداجو؟).

3 انظر دنهام وكلابرتون وأودني. خَلَفَ السلطان بيلو أباه عثمان دان فوديو مؤسس سلالة الفلاتة الحاكمة في عام 1816م. وانظر أيضاً ديفيس.

4 انظر كولي، صــ 97 وما يليها.

5 انظر المسعودي، المجلد «3»، صــ «1» حيث حدث الآتي:
لما تفرق ولد نوح في الأرض سار ولد كوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر ثم افترقوا وسارت منهم طائفة متيممين بين المشرق والمغرب وهم النوبة والبجه والزنج وسار منهم فريق نحو المغرب وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوى والدمادمـ....

«زغاي»[1]. وكانت بلاد تكرور نفسها أول مقاطعة تعتنق الإسلام عام 1040م تقريباً وكانت من الواضح تُعرف بـ«زاغا» عند ابن بطوطة (وهي كلمة افتراضاً ذات علاقة بـ«زغاي»)، فابن بطوطة كان يستخدم كلمة زغاي[2] فقط منذ أن وصف ذاك المكان واعتناقه الإسلام. هذا الافتراض أكدته إفادة ابن خلدون الذي سمع من مفتي غانا في مصر أن أهله استخدموا اسم تكرور للإشارة إلى زغاي[3]. ويقول ليو آفريكانوس أيضاً إن لغة «سنغاي» (أي زغاي) استخدمت في خمس دول[4]. وحتى في أيامٍ متأخرةٍ نجد محمد الماسيني رفيق السلطان بيلو يتحدث عن قبيلة «سوكاي» التي تقع تحت حكم ملكٍ فوق الجبال قرب منبع النيجر الغربي ووراء تمبكتو، وتعيش أيضاً في الصحراء وسط الطوارق بين كاغو وسوكوتو. إن مما لا شك فيه أن «سوكاي» التي ذكرها محمد الماسيني هي نفسها زغاي ـــ كما يقول كولي ـــ وذلك عندما يستحضر المرء العلاقة المذكورة آنفاً بين الطوارق والزغاوة ووجه الشبه بين سوكاي وزغاي. ويبدو من العبث تقديم رأيٍ جازم حول العنصر الأصل الذي ينتمي إليه الزغاوة وذلك بالنظر إلى ما ذكر أعلاه وإلى التعقيد العنصري للشعوب المختلفة التي يبدو أن فروعها اشتهرت باسم الزغاوة بعد عملية انصهار أكثر، ويمكن للمرء فقط أن يعتبرهم خليطاً من الزنج والحاميين متخذاً كلتا الكلمتين بالمعنى الواسع الذي يمكن التسليم به.

سواءً أكان بارث صائباً في مطابقة هوية أولئك الجَرْميين القدماء الذين اعتادوا على مطاردة سكان الكهوف في مصر في المراكب الحربية القديمة ـــ كما يصف هيرودتس ـــ بهوية التيبو الذين اعتادوا السكنى في فزان إلى أن أجبروا على الرحيل جنوباً، أو ما إذا كان إ. ت. هامي أكثر صواباً في مطابقة هوية التيبو بهوية سكان الكهوف بدلاً

1 انظر هماكر، صـ 209. وتاريخ ابن سعيد هو 1214م ـــ 1286م، والمقريزي1400م.

2 انظر كولي، صـ 97 وما يليها. تبدلت الممالك الزنجية المختلفة في تواريخ تحددها الروايات المختلفة في أوقاتٍ مختلفة. انظر ليو آفريكانوس (بوري) الذي يعطى فيه العام الهجري 208 باعتباره العام الذي تلقت فيه كل الممالك الزنجية المنضمة إلى ليبيا القانون الإسلامي (المجلد "1"، صـ 163). ويكتب بارث (المجلد "4"، صـ 407 وما يليها) عقب كولي وبعد أن اكتشف "تاريخ سونغي لأحمد بابا" مستنتجاً من بابا أن تيلوتان زعيم اللامتونا اعتنق الإسلام وأرشد إليه الزنوج عام 837م تقريباً، وبالتالي فإن زاكاسي كان هو أول ملك مسلم لمملكة سونغي في بداية القرن الحادي عشر الميلادي. كان تاريخ ابن بطوطة هو 1302م ـــ 1377م. انظر المجلد «4»، صـ 441.

3 الجزء «2»، صـ 105 وما يليها.

4 انظر كولي، صـ 97 وما يليها.

عن مطابقتها مع مضطهديهم من الجرميين يظل هناك سبب لافتراض أن بعض أجداد الزغاوة على الأقل قد سكنوا البلاد التي يوجدون فيها حالياً لآلاف السنين وهناك سبب مماثل لافتراض أنهم قد خضعوا لتغييراتٍ واختلاطاتٍ عنصرية كبيرة خلال ذلك الوقت[1]. ولنأتِ إلى الأيام الأخيرة جداً: يقول المقريزي وأبو الفدا إنه في منتصف القرن الرابع عشر قامت قبيلة بُلالة الكبيرة (الذين ربما كانت لهم هم أنفسهم صلة بالتيبو) بإخضاع الزغاوة، ويقول بارث إنه في بداية ذات القرن أخضع منسَى موسى ـــ ملك ميلّي ـــ زاغا وسونغي ودولاً مجاورة أخرى[2]. ومنذ ذلك الحين فصاعداً لم يعرف إلا القليل عن تاريخهم، ومن المفترض أن يكون هناك إلى حدٍّ كبير سجلٌ من الأحداث المثيرة مشابهة لسجلِّ جيرانهم. وبرز الزغاوة في حوالي نهاية القرن الثامن عشر باعتبارهم دولةً تابعة في شمال دارفور تحت حكامٍ مستقلين عملياً[3]، وسمعنا عنهم أيضاً وهم يعملون في التجارة مع القوافل من مركزهم في بئر الملح[4]. وورد ذكرهم في القرن التالي بأنهم أصبحوا أغنياء في القطعان ويعيشون عيشةً هادئة في شمال ودّاي وشمال دارفور[5] في الوقت الذي قد يكون فيه آخرون يمارسون مهنة أكثر ملاءمة لهم كنهب القوافل التجارية وقيادتها بين فزان وبرنو[6] بشكلٍ متناوب.

ربما كان من المرجح أن قامت مجموعة من الزغاوة في بداية القرن الثامن عشر بالهجرة إلى الجبال الواقعة بالقرب من شمال كَجْمر في كردفان واستقرت هناك.

---

1 انظر كوست، المجلد «1»، صـ 253. والمرجع لبارث هو الجزء «4»، صـ 168 وما يليها. يطابق ملر ماهية الجرميين مع التيبو (التيدا) في طبعة كلوديوس توليميوس (الجزء «4»، صـ 743). ولوجهة النظر المختلفة انظر «الأنثروبولوجيا»، المجلد «2» (1891) الذي يعكس فيه هامي وجهة نظر ناختيجال التي تقول إنه اكتشف في التيبستي «كهوف الـتوبوس الأحفاد المباشرين لسكان الكهوف الإثيوبيين والذين يزعم هيرودتس أنهم كانوا ضحايا الجرميين».

2 انظر بارث، المجلد «3»، الفصل «51»، صـ 428، والمجلد «4»، صـ 407 وما يليها.

3 انظر التونسي.

4 انظر براون، صـ 205. يتحدث براون في صـ 566 (الملحق «6») عن «الزّراوي» (بين جبل أبوحديد وشرشار) إذ يروى عنهم أنهم لم يكونوا عرباً ولا مسلمين: ومن الواضح أنه لم يربط هؤلاء «الزّراوي» مع زغاوة دارفور رغم أن معلوماته كانت بلا شك تشير إلى مستعمرة الزغاوة قرب كجْمَر.

5 انظر بارث، المجلد «3».

6 انظر كاريت، صـ 312 وما يليها. إن التيبو فقط هم الذين ورد ذكرهم تحديداً لكن كان الزغاوة بلا شك من بينهم.

وتقول روايتهم نفسها إن زعيمهم كان هو الفكي أُبيِّض نجل أحد صغار مكوك زغاوة دارفور وكان سببَ هجرتهم شجارٌ عائلي، ولكن قبائل دار حامد تقول إن أحد سلاطين دارفور أرسل مجموعة من الزغاوة والقرعان ليساعدوا عبد الحميد شيخ أولاد قُويْ ــ الذي كان يتصرف في مكان محمد مَرْمَارْ كِريلو شيخ قبيلة دار حامد ويستحوذ مؤقتاً على نحاس القبيلة ــ لكي يجمع أفراد قبيلته ويُحضرهم إلى تندلتي (الفاشر): ويقولون إن عبد الحميد بعد أن قاد هؤلاء الزغاوة والقرعان إلى كردفان لم يُبدِ أية نية في العودة إلى دارفور وكسبهم إلى جانب قضيته عن طريق الرشوة والقوة مجتمعتين ثم عمل على توطين الزغاوة حول كَجْمر واسترقَّ القرعان وذهب هو نفسه إلى سنار. ومن المحتمل أن تكون هناك هجرتان مستقلتان، فالزغاوة يقولون إنه لدى وصولهم إلى كردفان وجدوا الماجديَّة محتلين جبال كَجْمَر وقاموا بطردهم شرقاً إلى الشِّقيق. وبما أنهم يقولون إن الجيل الحالي هو الجيل السابع في سلالة الفكي أبيِّض إذن يمكننا أن نعتبر وصولهم إلى كردفان قد حدث حوالي عام 1700م. وفي وقتٍ متأخر من نفس القرن أو بداية القرن التالي عندما زاد الزغاوة عدداً وقوةً اختلفوا مع أولاد قُويْ حول حقوق الشُّرب في كَجْمَر التي كان يمتلكها أولاد قُويْ أصلاً. ويقول الزغاوة إن أولاد قُويْ طلبوا منهم الجزية ولكنهم رفضوا دفعها ويقول أولاد قُويْ إن الزغاوة حاولوا منعهم من السُّقيا في كَجْمر. وعلى أية حال ترتبت على ذلك مشاجرة، وكان مراغة هو زعيم أولاد قُويْ وكان المك منصور هو زعيم الزغاوة[1]، وقد أدَّت المشاجرة إلى ذبح 99 شخصاً من الزغاوة، وذهب الزغاوة إلى الأبيض وقدموا شكوى إلى حاكم الفور هناك حيث أصدر الحاكم الحكم. ويختلف الطرفان مرة ثانية حول ماهية الحكم الذي صدر إذ يقول الزغاوة كان قرار الحاكم إما أن يُعدم 99 شخصاً من أولاد قُويْ أو أن يُسلِّم أولاد قُويْ كَجْمر للزغاوة تعويضاً عن الخسارة، وبالتالي اختار أولاد قُويْ البديل الأخير، ويضيفون قائلين إن الحدود التي وُضعت آنذاك للزغاوة هي كالآتي:

جبل المليسة	جنوباً
أم قرفة	شرقاً

1 الجيل الرابع من أُبيِّض.

خور الضُّل[1] شمالاً

الشاوة غرباً

وينكر أولاد قُويْ بالطبع هذا الكلام ويقولون إن السلطان أمرهم بدفع الدية وأنهم وافقوا بعد جدلٍ طويل أن يعطوا الزغاوة جبل الفيليَّة وجبل الشِّريف مقابل التسوية، وقد فعلوا ذلك واشترطوا في نفس الوقت أن يترك الزغاوة كل الحقوق المتعلقة بكجمر وجبل الجَهنيَّة رغم أنه سُمح للزغاوة بأن يستسقوا في كجْمَر بإذنٍ كريم من أولاد قُويْ. إن أفضل تعليق على هذه الروايات هو أن الزغاوة بالتأكيد لم يُطردوا من كجْمَر كما كان ينبغي أن يُطردوا إذا صحَّت الحقائق التي أوردها أولاد قُويْ، وأن أولاد قُويْ أنفسهم لم يدَّعوا في الوقت الحالي أيَّ حقٍّ لهم غرب أم قرفة.

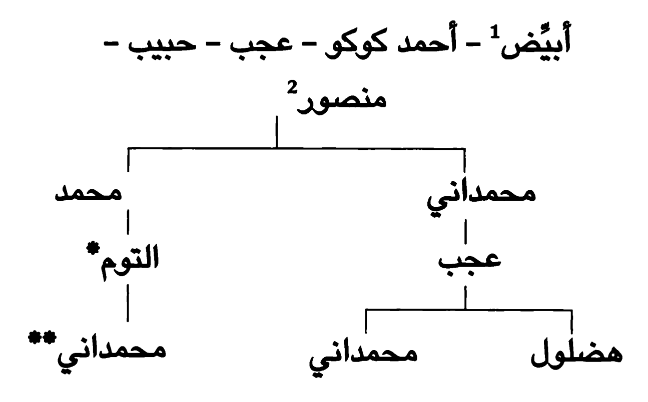
بُعيد الفتح التركي لكردفان قام عرب الكبابيش البدو من الصافية بمهاجمة الزغاوة في كَجْمَر ولكن تمت تسوية الأمر سلمياً، ومنذ ذلك التاريخ كان للكبابيش الحق في السُّقيا في كجْمَر رغم أن بدو بني جرَّار باتوا لمدةٍ طويلة أيضاً مطالبين بحق السُّقيا، ولكن بني جَّرار تراجعوا الآن إلا أن الحزازات بين الكبابيش والزغاوة ما زالت حيةً بعد. وفي معظم فترة النظام التركي كان الزغاوة الموجودون حول كجْمَر والذين يسكنون في جبليْ الرويان والعطشان يُعتبرون تابعين رسمياً لدوليب عبد الهادي الدولابي الذي يحكم كل الجبال البحرية من جبل الحرازة ويدفعون جزيتهم عبره، ولكن قبيل اندلاع المهدية بقليل استقلوا بأنفسهم وأصبح الملك التوم محمد يدفع جزيته إلى الحكومة مباشرة. هؤلاء الزغاوة الموجودون في كجْمَر انفصموا الآن بالكامل من أقاربهم في الغرب ولا يمكن لأحدٍ منهم أن يتحدث كلمة من أية لغة إلا اللغة العربية ولا يمكن أن يُسمي زغاوي واحد من دارفور. وقد اتخذوا لأنفسهم شجرة النسب الآتية:

خالد الجُهني[2] - زايد - عطا - أحمد الدريويش - علي المكاشف - حسن المجدوب - إبراهيم دلم - الفكي حسن - السلطان أحمد دورا - حسن كوراي - عمر - الفكي

---

1 تهجئتها «الظِّل» ولكن تنطق الضُّل.

2 تبدأ النسبة الملفقة المألوفة لقبائل شمال كردفان بـ«عبد الله الجُهَني». ولما شعر زغاوة كجْمَر بالحاجة لخلق تمييز طفيف بينهم وبين العرب تبنوا «خالد» شقيق «عبد الله» جداً لهم.



* كان هو «الملك» في وقت الاحتراب مع الكبابيش، وقد خَلَفَ هضلول بحكم أن هضلول كان لديه ولد واحد وقد مات.

** «الملك» الحالي في كجْمَر.

ويقولون إن هناك تسعة أفرع من الزغاوة ممثلة في كردفان، وهي:

أولاد دورا	أولاد بُترا
أولاد شريف	العيلاوي
أولاد تكرنو	المِلس
أولاد كوين	البديَّات
المِرَّة (المِرارة)	

ولم يكن البديَّات من بين هذه الفروع زغاوة حقيقيين في الأصل ولكنهم زغاوة بالتبني[3] وأن الفروع الوحيدة المعروفة بالاسم بالنسبة لزغاوة دارفور القليلين الذين حققتُ معهم هم أولاد دورا والمِرَّة، أما البقية فربما كانت فروع شُكِّلت منذ هجرتهم إلى كردفان. والفروع الآتية قد ذكرها الزغاوة من أهل دارفور باعتبارها تشكِّل قبيلتهم، ولكن لا شك أن القائمة غير مكتملة:

1 قيل إنه أتى بمجموعة الزغاوة إلى كجْمَر.

2 كان هو «مك» الزغاوة في وقت الاحتراب مع أولاد قُويْ.

3 هكذا يقول أهل كجْمَر ولكن زغاوة دارفور يقولون إنهم والبديَّات رجلٌ واحد ومن نفس العنصر. ولاحظ أن الزغاوة يسمُّون البديَّات «توبا»، أي تيبو.

أولاد دقين	أولاد شرَّا (الشَّريرا)
آرتيت[1]	أولاد عادي
عقبة	كليبا
المِرَّة (المِرارة)	دانقاري
نيقيرَي	بوقع
كورَّا[2]	كوبيرا
كايتنقا	توبا[3]
أولاد دورا (أي أهل كجْمَر)	

يتضح أن زغاوة دارفور أصبحوا مُسْتعرَبين بسرعة من خلال السهولة التي يتحدثون بها اللغة العربية والانتشار الواضح للعادات والأعراف العربية[4] ولكنهم لا يريدون أن يوصفوا بالعرب بعد. وعندما تسألهم مثلاً إلى أيِّ عنصرٍ ينتمي الداجو (الذين يحتقرونهم) يقولون لك إن الداجو هم «مجرد عرب»، وأن جدَّهم (أي الزغاوة) كان عبداً من الشرق يسمى مِعاميا. وعلى أية حال فقد قالوا إن كل أسماء رجالهم ونسائهم أسماء عربية، وأنا لم أجد أحداً منهم يحمل اسماً غير عربي ويتديَّنون جميعهم بإسلامٍ صارم ويقولون إن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة المكتوبة عند أهليهم، وبالتالي فإن «الفُكَيَا» الدينيين في بلدهم أكثر عدداً من فُكَيَا المناطق الواقعة شرقاً منها. وعندهم كما عند العرب أن آدم وحواء هما جدَّا البشرية.

إنه ووفقاً للعرف الإسلامي فإن جثمان الميت يوضع للدفن مواجهاً جهة الشرق ويوضع بطولٍ كامل على الجانب الأيمن مع الرأس إلى جهة الجنوب والقدمين إلى جهة الشمال، ولكن جثمان الشخص القتيل يوضع رأسه إلى الشرق وقدماه إلى الغرب، ولم

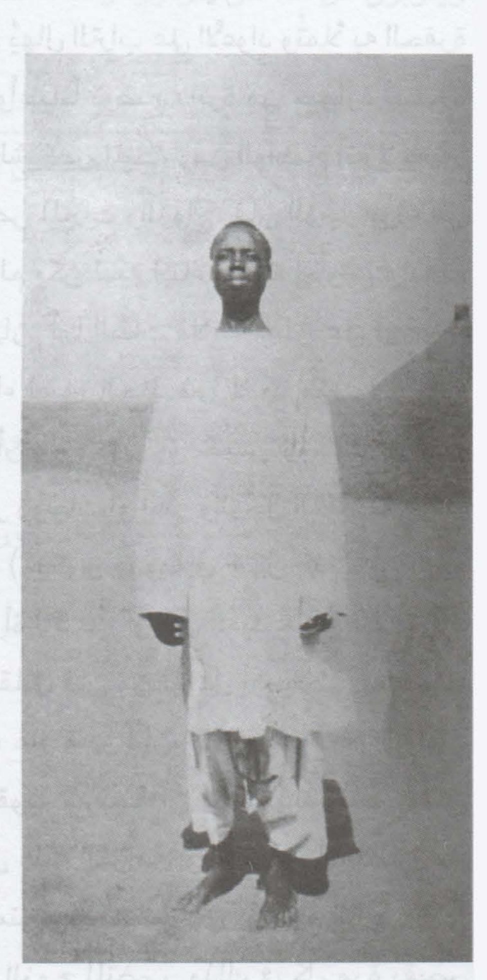
1 المقتبس التالي الذي أخذه د. أ. كاميرون من مادة (المجلة الأثرية الملكية، فبراير 1887) يعتبر مقتبساً شيِّقاً: «يروي الحمداني أن كنعان بن حام تزوج آرتيت ابنة بيناويل بن ترس بن يافث، وقد أنجبت حاكا والأساود ونوبا وكوران وزنج وزغاوة وكل قبائل الزنوج».

2 الزغاوة يقولون بلسانهم عن أنفسهم إنهم «كورَّا» ويقولون إن دارفور هي «كورَّا دار».

3 أي البديَّات. وتوجد قصة البديَّات وبعض عاداتهم الغريبة في كتاب سلاطين، الفصل «3».

4 لا يمكنني أن أقدم تقريراً كاملاً عن زغاوة دارفور طالما أنني استقي معلوماتي الوحيدة من الشباب الذين يأتون إلى كردفان للعمل مقابل الأجرة، كما لم أجد الفرصة لمقابلة الناس في بلدهم.





"زغاوة من دارفور"

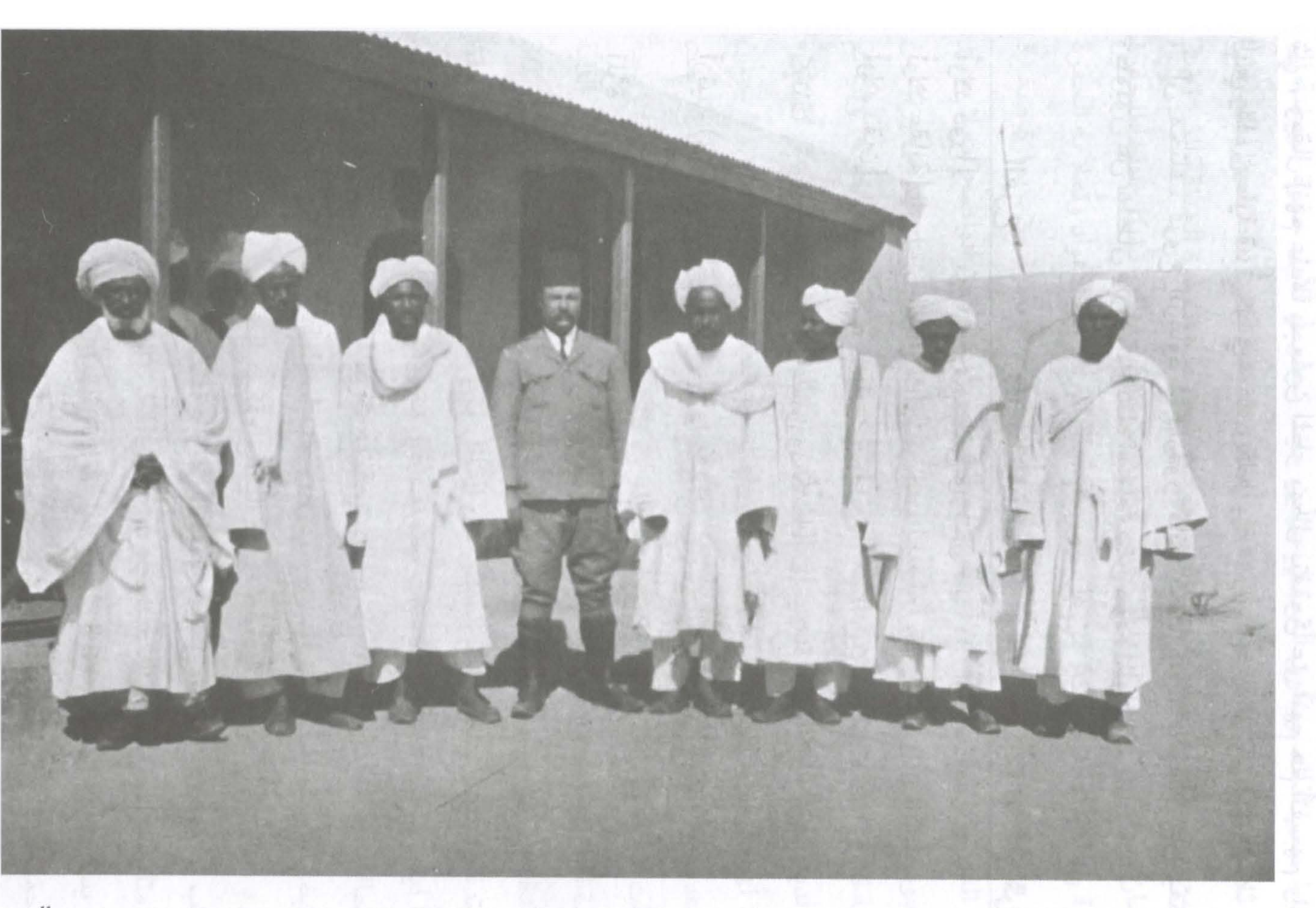
يستنبط مبرر لذلك. ويكون القبر في جزأين حيث تحفر في الأول حفرة عريضة إلى عمق ثلاثة أقدام تقريباً وتُجوَّف في داخلها حفرة ضيقة تكفي فقط لحمل الجثمان وتوضع الجثة داخلها ملفوفةً بأكفانها. وتوضع فوق هذه الحفرة الضيقة التي تضم الجثمان أعواد من خشب جنباً إلى جنب قريبة من بعضها لكي تشكل سقفاً للحفرة الثانية وطابقاً للحفرة الأكبر من علٍ. ومن ثم يُهال التراب على الأعواد وتُملأ به الحفرة الأعلى ويُنصب حجر على رأس القبر وقدمه وأحياناً توضع دائرة من حجارة صغيرة حول القبر. ولا تدفن أشياء من أي نوع مع الشخص الميت، ومن الواضح أنه لا يعتبر له وجود بعد الآن أو في الآخرة. أما فيما يخص الميراث والزواج، فإن الرجل يرثه من الوهلة الأولى أبناؤه بداية بالابن الأكبر، وإذا لم يكن لديه أبناء سيرثه إخوته، وإذا لم يكن لديه إخوة فإن الورثة تذهب إلى السلطان. أما البنات فلا يحصلن على أي شيء تحت أي ظرف من الظروف، وتعتبر النساء لسوء الحظ شراً لا بد منه ولا يجدن المساعدة. إن الرجل الثري العادي يتزوج أربع زوجات أو خمس زوجات أو ست زوجات أما الرجل الشهير فستكون لديه عشر زوجات أو أكثر والرجل الفقير له زوجة واحدة أو زوجتان. ويدفع الرجل المَهر عيناً (ويكون عموماً في شكل غنم). إن الديَّة المعتادة لقتل الرجل هي 100 ثور ولقتل المرأة 50 ثور ولقتل العبد حوالي 20 أو 30 ثور تدفع لسيده، وعندما يتم القبض على القاتل فإن من المؤمل أن يعطى أهله وقتاً كافياً ليدفعوا فيه الديَّة، وإذا حدث تسويف غير مبرر فإن القاتل يُقرع على الرأس. وفي حالة السرقة فإن العُرف لا يطالب بعقوبة شريطة أن تعاد المسروقات، ولكن إذا قبض الحاكم المحلي على المجرم سيفرض عليه الغرامة، وإذا قبض السلطان على المجرم فهو إما أن يعدمه أو يقطع يده اليمنى وقدمه اليسرى. ويدفع الرجل الذي يرتكب جريمة زنا بقرةً أو ثماني شياه إلى الزوج المتضرر وذلك في كل مرة يُقبض فيها متلبساً بالجريمة. هناك عدد كبير من مُنزِّلي المطر (الهوجي[1])، ويقال إن الوسائل التي يستخدمها الهوجي لإنزال المطر هي قراءة (القرآن) ويتفُّ مراراً وتكراراً على مسبحته. وهؤلاء الهوجي محبوبون ومحترمون ومن الواضح أنهم لا يخافون من أي

1 «الهوجون» هي الكلمة المستخدمة في هضبة هومبوري (أعالي النيجر) لمنزِّل المطر أو للساحر

شيء, ويقال إنهم عندما يجعلون المطر يهطل يتفقون على أنهم هم أنفسهم والمكان الذي يقفون عليه قد تُركوا في جفافٍ كامل.

إن مختلف فروع الزغاوة في دارفور كانوا تحت ملوك مستقلين عن بعضهم وينوبون عن سلطان دارفور، وأدناه أسماء بعض هؤلاء الملوك:

الفرع	الملك	قبيلة الملك أو فرعه
أولاد دورا] أولاد عقابة] أولاد دقين]	مصطفى ود بحر	أولاد عقابة
كيتنقا	حسن ود كُنْجُك	الفور
آرتيت (خاضع للكاتينقا)	طه ود نورين	كيتنقا
المِرَّة	حسب تور جكيل	المِرَّة



"عُمَد المجانين، الجليدات، الهبابين، النواهية، الجوامعة (الجمرية والغنيمية) والجلابة الهوارة"

الفصل التاسع

دار حامد

دار حامد عنصرٌ قبليٌّ مركَّب ويستخدم الاسم عادةً ليشمل المجموعات التالية:

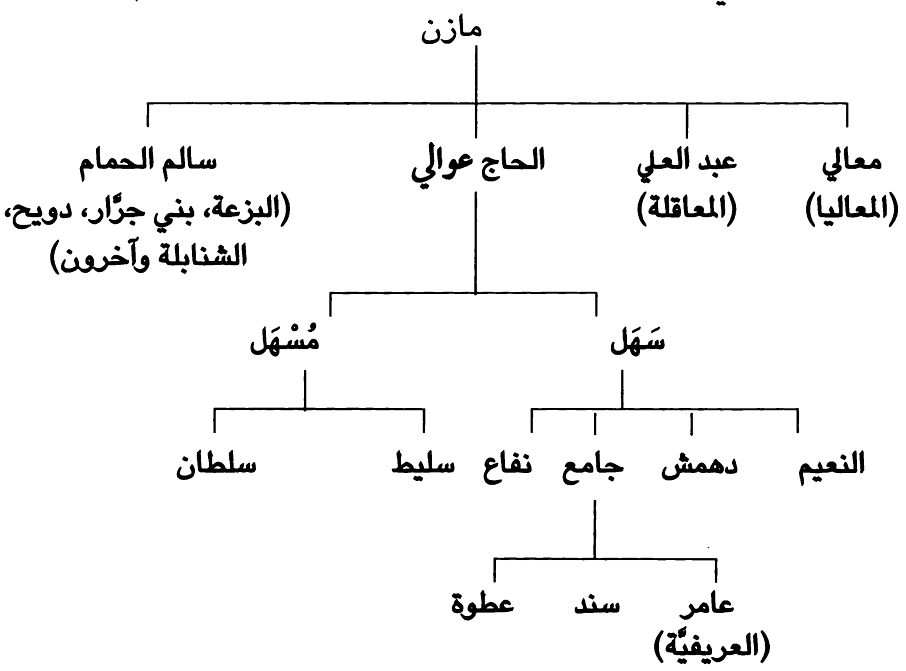
الفراحنة	النَّواهية	الجليدات
الهبابين	أولاد قُويْ	المجانين[1]
المَرَامْرة	العريفيَّة	

والفروع التي يُزعم عموماً أنها تملك الحقَّ الحقيق في لقب دار حامد هي الفراحْنة والهبابين والمَرامْرة والنَّواهية، أما بقية الفروع باستثناء المجانين فيعتبرها الجميع ــ ما عدا هي نفسها ــ ذات منزلةٍ أدنى باعتبارها إضافات ملحقة. من ناحية أخرى فإن كل الأنساب القبلية تعكس ــ بدافع الإطراء ــ علاقة معينة بين جميع القبائل الثمان، ولكن دائماً ما يُكتشف أن أياً من القبائل الثمان قد عدَّلت النِّسبة بشكلٍ معين لكي تناسب راحتها أو مجدها. لقد سبَّب هذا العامل مع غياب الوثائق المعتمدة ارتباكاً كبيراً، فرغم أن نفس الأسماء توجد في أية نسبة لكنها تظهر في تراتيب مختلفة كما أن الأب الموجود في واحدةٍ من النِّسَب يكون هو الأخ أو الابن في نسبةٍ أخرى. وأدناه قليلٌ من النِّسَب المختلفة التي تم جمعها من زعماء القبائل:

1 يجري الحديث حول المجانين أحياناً وبصورة غير دقيقة وكأنهم منفصلون عن دار حامد.

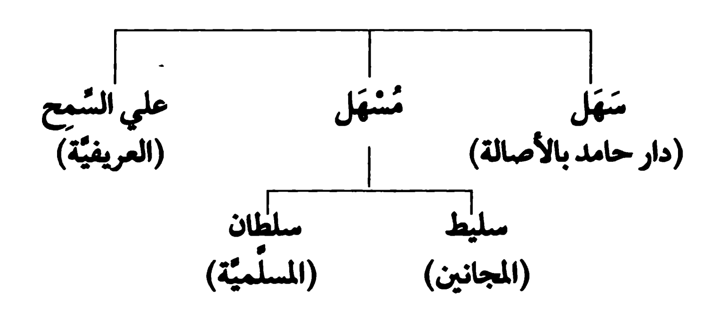
1. هذه هي رواية العريفيَّة:

عبد الله الجَّهَني[1] - ذبيان - حامد الأفزر - عَبْس - صابر - صارم - شاعوف



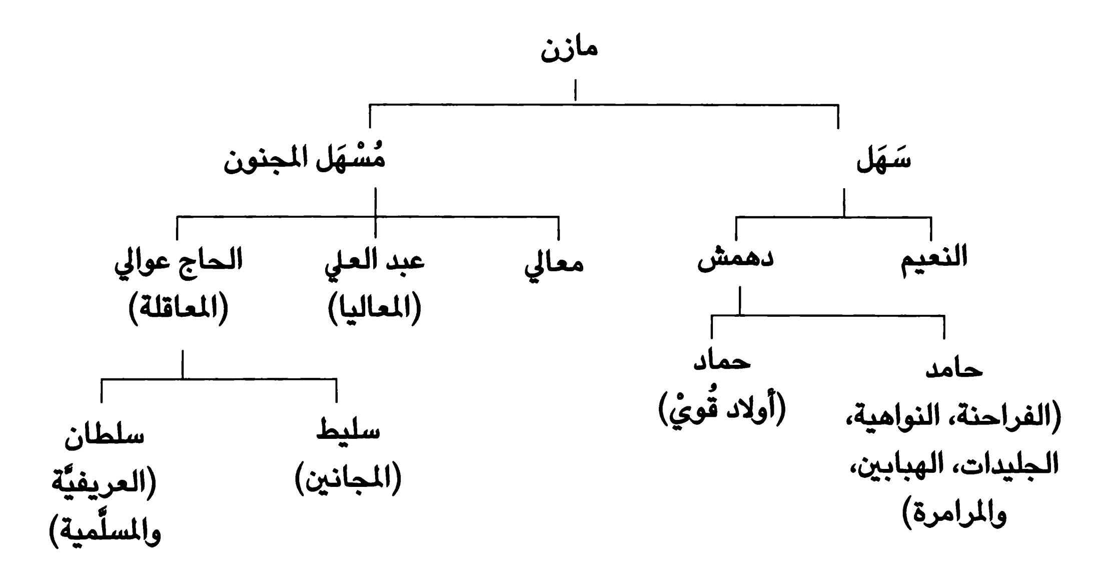
2. يقول المعاليا إن جدهم معالي هو ابن سَهَل.

3. المجانين يقدمون الروايتين التاليتين حيث يُحتذى عادةً بالرواية الأولى:



1 انظر الفصل الأول.

أو الرواية الأخرى:



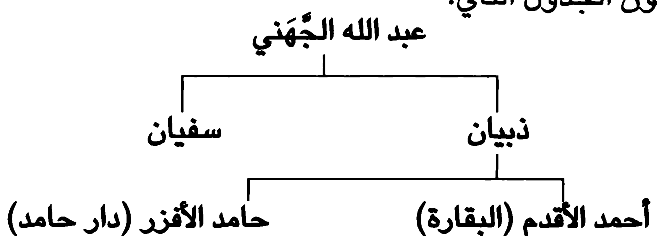
إن شجرة المجانين الأولى تعتبر في توافق لصيق ـــ على الأقل فيما يتعلق بسَهَل ومُسْهَل وأحفادهما ـــ مع نِسَب قبائل دار حامد الأخرى. أما المرامرة والفراحنة فيرتبون الشجرة كالآتي:

عبد الله الجَّهَني - ذبيان - سفيان - صارم - صابر - مازن - الحاج عوالي - سهل - دهمش -

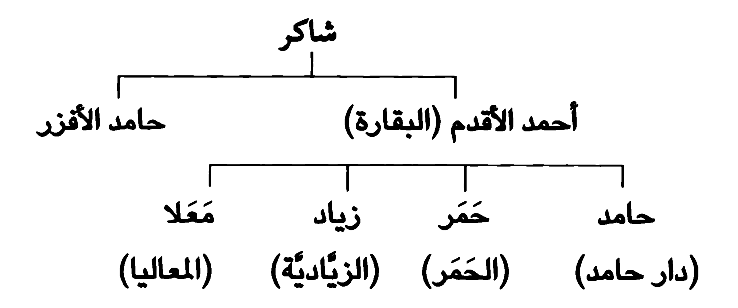
النعيم

حامد (دار حامد الأصل) — حماد (أولاد قُويْ)

وبالرجوع إلى الأنساب التي تقدمها القبائل الأخرى نجد مثلاً أن الحُمُر الفلايتة (البقارة) يقدمون الجدول التالي:

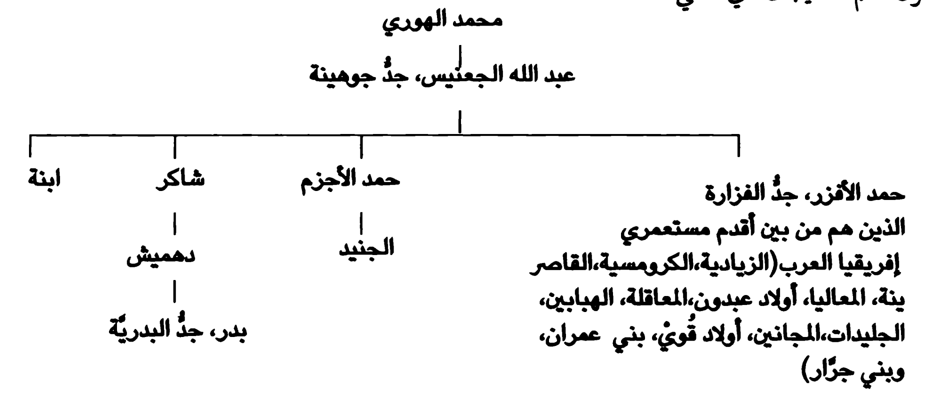


ويقدم التعايشة (البقارة) الآتي[1]:



إن الأجيال التي سبقت حامد مرتبكة في النِّسَب ارتباك الأجيال التي تلته وأن

١ انظر كتيِّب السودان وقارن القائمة المقدمة في كتاب «تاريخ العالم» للدكتور هلموت، صـ 585 خاصة حول قسم ناختيجال، أي الآتي:



الأسماء المستعملة هي مجرد أصداء لعاداتٍ نصف منسيَّة. وفي الحقيقة ورغم أن قبائل دار حامد الثمان قد تكون مرتبطة ببعضها ارتباطاً لصيقاً بحكم الأصل في الأزمنة القديمة وقطعاً هي كذلك بحكم المصاهرة في الأزمنة المتأخرة لكن من المرجح أن تجمُّعَها معاً تحت مسمَّىً مشترك يُعزى في الأساس إلى احتلالهم صُقعاً واحداً من البلاد تحت زعامة شيخ قبيلة واحد. وبذا ربما اتخذ حامد المشهور بـ«الخُوِيِّن» عشيرته الأقربين من أُسر الفراحنة والهبابين والمرامرة والنواهية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً ببعضها؛ ولدى قرع نحاسه يمكن أن يعتمد على تأييد القبائل الأربع الأخرى (إذا لم يعتمد على آخرين مثل المعاليا والمعاقلة). إن القالب المألوف الذي تصاغ فيه الروايات المأثورة هو أن الفراحنة والهبابين هم أحفاد حامد من امرأةٍ واحدة والنواهية من امرأةٍ ثانية والمرامرة من امرأةٍ ثالثة. ويعتمد الدليل الوحيد على التاريخ الذي عاش فيه حامد على النِّسَب، ووفقاً لهذه النِّسَب يكون حامد تقريباً هو الجدُّ الثاني عشر أو الثالث عشر أو الرابع عشر للأجيال الحالية، أي أنه قد مضى على زمن حياته ما بين 300 سنة إلى 500 سنة. والحقيقة التي تقال بصورة عامة عن أن حامد هو حفيد عبد الله الجُّهَني ليست مهمة بالمرة طالما أن أية قبيلة تقريباً في كردفان تعتبر عبد الله الجُّهَني جداً لها.

يقول أهل جبل كتول إنه عندما أتى حامد قادماً من الشمال طلب نصيحة أبي زيد الهلالي فيما يخص المكان الذي يجب أن يستقر فيه، فقال له أبو زيد إنَّ دارفور ليست ملائمة لأنها «دار عَبِدْ وملي كَبِدْ» وأن جنوب كردفان غير مفيدة أيضاً طالما أنها «كانْ مِطْرَتْ إتمقَّتْ وكانْ يبْسَتْ انشقَّت»، أي (إذا كان هناك مطر ستصبح أرضاً سبخة وإذا كانت الفصل جافاً فإن الأرض تتشقق): ولذا نصحه بالسكنى في منطقة الخيران (حيث تقيم قبائل دار حامد في الوقت الحالي) طالما أن هذه المنطقة هي «مركز سَلاطي ومَجَرْ بواطي»، أي أنَّ (هذه الأرض يختارها الحكام دائماً ليستقروا فيها وهي أرض غنية بالمياه). وعَمَلَ حامد بنصيحة أبي زيد. ولكن هذا لا يعين كثيراً على فهم الأمور، لا لأن معاصرة حامد وأبي زيد لبعضهما أمرٌ مشكوك فيه فحسب بل لأن وجود أبي زيد نفسه مشكوكٌ فيه على أية حال. وتقول رواية دار حامد المألوفة إن حامد أتى مع شقيقه حماد عابراً مصر على طول النيل واستقر في دارفور غرب الموقع الحالي للفاشر

في مكانٍ يُسمى أم دُخُن، وهنا تزوج وأنجب أبناءه: وكانت والدة الفراحنة والهبابين امرأة من جبل ميدوب اسمها فرحانة وكانت والدة المرامرة امرأة من قبيلة البديَّات المستوحشة بشمال دارفور واسمها حِديَّة وكانت والدة النواهية هي أم كساوين، وأم كساوين هذي امرأةٌ من بغداد حيث وجدها حامد وهي تتجول سائبةً وتحمل طفلاً صغيراً منفرجةً ساقاه على وَرِكها (البعض يقول إنه وجدها في صعيد مصر والبعض يقول إنه وجدها في دارفور أو كردفان) وتزوجها حامد وأصبح بزواجه إياها جدَّاً للنواهية، وأصبح الطفل الذي وُجد معها جدَّاً للبغادَّة[1] الذين لديهم عدة قرى في كردفان. أما حماد شقيق حامد فهو جدُّ أولاد قُويْ. ويقول البعض إن الجليدات قد انحدروا نتيجة زواج حامد من إحدى الإماء ويقول آخرون إنهم كانوا رقيقاً لدار حامد من زمنٍ قديم، وستأتي الإشارة إليهم لاحقاً.

إن قصة «نحاس» دار حامد ــ الذي يحوز حامله على الزعامة ــ لهي قصة معقدة ومرتبكة، لكن من الواضح أن حق الحيازة عليه لم يكن وراثياً من ناحية عملية ولكنه يؤول إلى الزعيم الأقوى في الحلف القبلي. وقد قيل إن أول من حمل النحاس بعد وفاة حامد هو ابنه محمد مَرْمَارْ أو مِريمِر (سُمي هكذا نسبة للشخشخة ذات الخرير التي كان يُصدرها وهو طفلٌ يحبو على الأرض). كان محمد مَرْمَارْ يُلقب بـ«كِريلو» وقد اشتهر بهذا الاسم بصورة عامة رغم أن المرامرة أخذوا اسمهم من اللقب الآخر. وهذا ما يظهر من نسبة المرامرة، ولكن من المرجح جداً أن يكون اسم محمد مَرْمَارْ اسماً خرافياً لكي يفسر اسم القبيلة في حين أن كِريلو هو شخصية حقيقية وأكثر حداثة. وعلى أية حال كان كِريلو في عهدٍ ما على رأس قبائل دار حامد في دارفور وكانوا جميعهم في ذاك الوقت بدويين ولم يستقروا في القرى كما هو في الوقت الحالي. ولسوء الحظ فقد دخل كِريلو في نزاعٍ مع سلطان دارفور[2] الذي إما كان مرتاباً في قبائل حامد

---

1 المفرد بَغدادي.

2 من المستحيل القول أيُّ سلطانٍ هذا الذي يُشار إليه، فإذا كان كما سيظهر لاحقاً أنه كان معاصراً لبادي أبو شلوخ سلطان سنار فربما يكون أي واحدٍ من هؤلاء السلاطين: محمد دورة (1722م ــ 1732م)، عمر ليل (1732م ــ 1739م)، أبو القاسم (1739م ــ 1752م)، محمد تيراب (1752م ــ 1785م). ولكن إذا كان كريلو حقيقة هو نجل حامد الذي عاش ــ وفقاً للنَّسَب» ــ قبل 12 إلى 14 جيلاً مضى إذن سيكون كل هؤلاء السلاطين متأخرين جداً. ومن المحتمل جداً أن كريلو كان زعيماً في القرن الثامن عشر متأخراً جداً عن حامد ولكن رُبط به في رواية شعبية لإضافة بريق لاسمه.

أو أراد أن يفرض عليهم ضرائبَ حيث أصدر أوامره لكِريلو لكي يجمع هؤلاء البدو المشتتين ويوطِّنهم حول العاصمة، ولكن كِريلو اعترض على الأوامر فأودع السجن. وعلى أية حال وقبل أن يُسجن حذره أحد عرب المحاميد الذي كان بارزاً في مجالس السلطان مما قد يحدث نتيجة موقفه، ولكنه وجد فرصة أرسل فيها إلى ابن أخته عبد الحميد شيخ أولاد قُويْ وسلَّمه النحاس واقترح عليه أفضل طريقة للتصرف لكي يتبعها. وسواءً أكان تسليم النحاس هذا تسليماً نهائياً أم أن عبد الحميد تم تعيينه فقط وكيلاً لكِريلو ليقوم مقامه فما زال الأمر يناقش باهتمام من جانب المرامرة وأولاد قُويْ. ولم يُطلق سراح كريلو من السجن أبداً ولكنه تظاهر بالتوبة ليصرف كل شك من عبد الحميد الذي وثق فيه السلطان وأرسله لتنفيذ أوامره السابقة إذ أرسل السلطان مع عبد الحميد مجموعة من الزغاوة (التيبو أو التيدا) والقرعان (زنوجٌ من شمال دارفور)[1] ليساعدوه في تجميع قبائل دار حامد. وقاد عبد الحميد هذه الأفواج إلى كردفان حيث استقر كثيرٌ من أبناء حامد في مواقعهم الحالية، ومن بعد ذلك استمال عبد الحميد الزغاوة والقرعان إلى جانب قضيته ــ جزئياً عن طريق القوة وجزئياً عن طريق الرشوة ــ ووطَّن الزغاوة حول كجْمَر (حيث توجد الآن مجموعة منهم) واسترقَّ القرعان الزنوج. وذهب عبد الحميد بعد أن فعل ذلك إلى سنار ليطلب الحماية من «مك» تلك البلاد في مواجهة سلطان دارفور، وتعتبر هذه خطوة طبيعية يجب اتخاذها لأن دارفور وسنار كانتا دائماً في علاقاتٍ سيئة خلال القرن الثامن عشر كله وكان وسط كردفان ينتقل سجالاً من هيمنة واحدةٍ منهما إلى هيمنة الأخرى، فجنوب كردفان كان خاضعاً بشكلٍ دائم لسنار وشمال كردفان خاضعاً لدارفور. واستقبل عبد الحميد بكلِّ عطف من جانب حاكم الفونج الذي قيل إنه كان بادي أبو شلوخ، ولكن كان على عبد الحميد بالمقابل أن يتعهد بتكريس ولائه لسنار وبدفع الجزية. وتم الاتفاق على ذلك وتحركت معظم قبائل دار حامد من دارفور إلى مواقعها الحالية في وسط كردفان. وقيل إن الفونج غزوا كردفان بعد سنين قليلة وبقوا في السلطة حتى طردهم منها هاشم المسبَّعاوي القادم من دارفور، وربما حدث غزوُ كردفان المشار إليه هنا عام 1748م تقريباً.

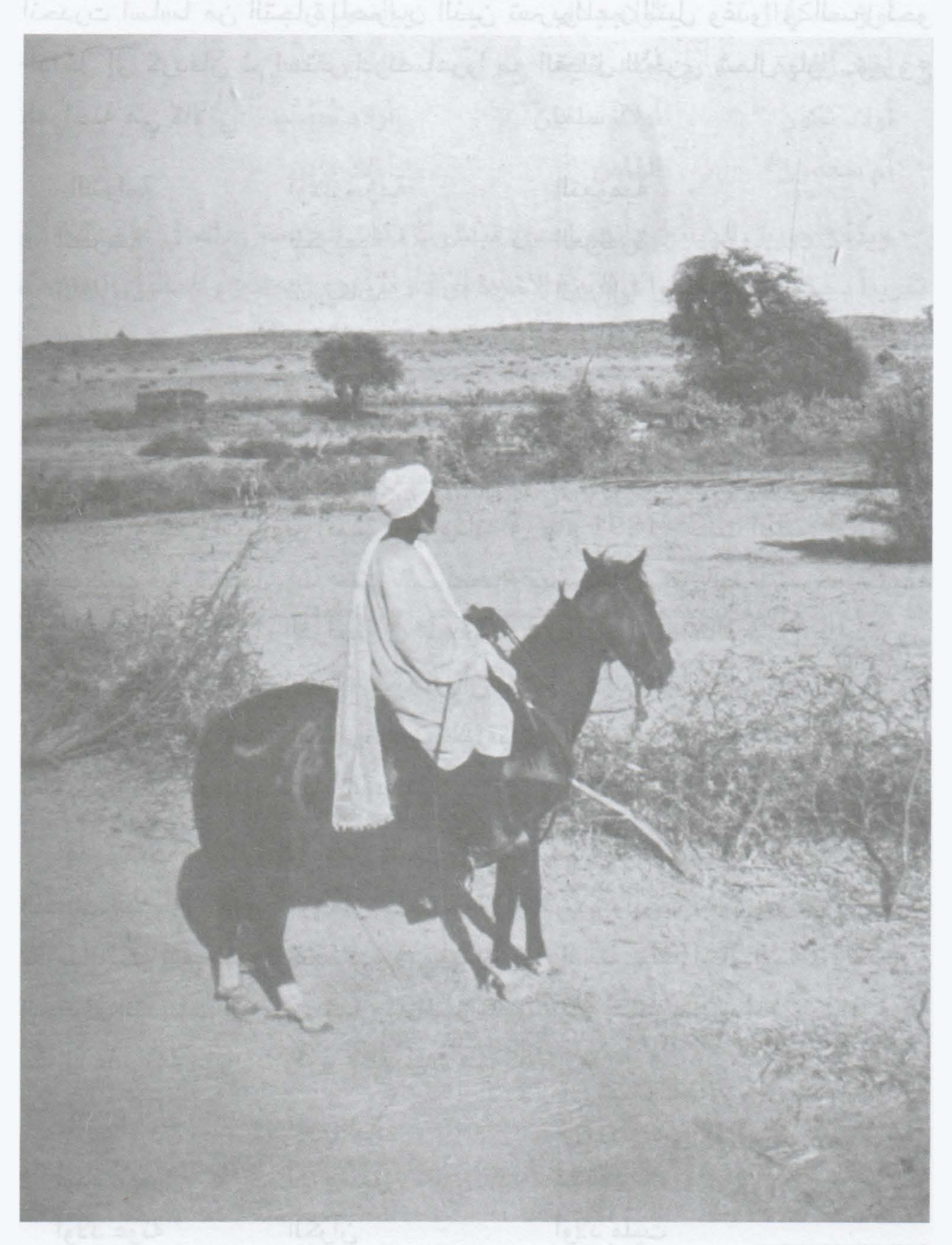
---

1 انظر الفصل الثامن.

انتقل النحاس لدى وفاة عبد الحميد إلى أحفاده في سلسلةٍ سلاليةٍ مباشرة على مدى ثلاثة أجيال إذ كان حاملو النحاس الثلاثة هم: النور ومَرَاغة ويوسف: ويوسف المذكور هذا هو جدُّ محمد إبراهيم عايف أحد عُمَد أولاد قُويْ الحاليين. وكان أولاد قُويْ حتى عهد يوسف أقوياء بما يكفي لمقاومة الاحتجاجات المطالبة بالنحاس، ولكن في تلك الآونة وقف المرامرة والفراحنة والهبابين جميعاً في مواجهة يوسف وأنكروا عليه حقوقه في الحيازة على النحاس ونصَّبوا شيخ الهبابين أم بدة ود سيماوي لحمل النحاس باعتباره أغنى وأقوى شيخ في الحلف القبلي. وكما هو متوقع فإن كلا المرامرة وأولاد قُويْ قد انشقوا من هذا النظام وانفصلوا لمدةٍ من الزمن عن الحلف، وكان المرامرة في ذاك الوقت تحت زعامة إِبيِّض ود حَمْدُوك. وانتقل النحاس من أمبدة إلى ابنه تمساح وانتقل فيما بعد إلى سيماوي ود أمبدة، وكان سيماوي هذا شيخاً لكل قبائل دار حامد بنهاية الحكم التركي وأصبح أميراً بارزاً تحت حكم المهدي والخليفة، وقد خدم في كردفان ودارفور تحت قيادة عثمان آدم وأخيراً مات ميتةً طبيعية في دارفور عام 1891م[1]. وبعد انتهاء ثورة الدراويش فرض الهبابين من جديد حقهم في النحاس على كل دار حامد، ولكن في الوقت الحالي تعتبر أية واحدة من القبائل المختلفة مستقلة عن الأخريات ولا تعترف بولاءٍ لأي أحد ما عدا شيخها المحدد. وعلى أية حال عندما حصل شيخ المجانين عام 1906م على نحاس للمجانين وحدهم اعتبروه عموماً رجلاً متجرئاً وأن قبيلته ذاتها ـــ التي ازداد حجمها إلى حدٍّ كبير وظلت أكثر بداوةً من البقية ـــ لن تتركه يستخدم النحاس حتى ولو لأغراض احتفائية وسلمية.

يجب أن يولى بعض الاهتمام الآن بشكلٍ منفصل إلى القبائل التي تشكِّل دار حامد: ففي الوقت الحالي تعتبر أكثر قبائل دار حامد عدداً هي قبيلة الفراحنة إذ لديهم 60 قرية ويمتلكون أغناماً وأبقاراً كثيرة ويستحوذون على أفضل أرض في كردفان، أي منطقة الخيران أو الأحواض المنخفضة القابلة للزراعة التي تمتد من قرب شرشار شمالاً إلى المنطقة المجاورة لبارا جنوباً، فالماء في هذه الأحواض موجود قرب سطح الأرض بما فيه الكفاية بحيث يتيح الفرصة للري بواسطة الساقية والشادوف. ولقد ذكرنا سلفاً أن الفراحنة أخذوا اسمهم من فرحانة زوجة حامد الميدوبية (أو محظيته كما يقول البعض)، ولكن قيل أيضاً إن اسمهم له علاقة بفرعون وبالتالي فإن سلالتهم

1 يُسمى عموماً سيماوي أمبدة أو «جريجير».



"عمر قش "عمدة" الفراحنة في خور أبو دَلَم، 1911م."

انحدرت أساساً من التجار المصريين الذين تسربوا عبر النيل وغذُّوا في السير نحو الداخل إلى كردفان ثم استقروا وتصاهروا مع القبائل الأخرى شمال بارا[1]. وفروع الفراحنة هي كالآتي:

الشرامة	أولاد حزمة	النعوميَّة
الطّرشة	الكريمية	العوامرة
الأقاريب	البريقات	الشوال
الرُّبشان	الفليعات	

لقد كان أشهر مشائخ الفراحنة في الأيام الأخيرة من «التركيَّة» هو عمر محمد قش، العمدة الراحل الذي كان العهدة الرسمية للقبيلة، وعيسى عبده. وأصبح عمر قش أميراً في المهدية وخلف سيماوي أمبدة لدى وفاته في عام 1891م حيث أصبح أميراً لدار حامد تحت قيادة عثمان آدم حتى شبَّ تمساح ود سيماوي عن الطوق. وكان رزيقة علي أميراً آخر من أمراء الفراحنة في المهدية. ومن واقع أن الرحالة نادراً ما يذكرون الفراحنة ـــ إن هم ذُكروا أصلاً ـــ يمكن أن نستنتج أنهم كانوا في عاداتهم أقلَّ بداوةً، إن لم يكونوا أقلَّ أهميةً أيضاً، من معظم قبائل دار حامد الأخرى، ولكن يمكن أن نسمِّيهم في الواقع بـ«الأثرياء الجُدد».

لقد سلفت الإشارة إلى أصل الهبابين ونفوذهم السابق، فهم يقيمون حالياً في الجانب الشمالي الغربي من دار حامد حول أم هشيم ولديهم خمس وعشرون قرية تقريباً ولكن نسبة كبيرة منهم بدو في معظم أجزاء السنة. ولقد أحال الحسدُ والتجاورُ الجغرافي التعاطفَ الحميمَ بينهم وبين الفراحنة ـــ بناءً على سلالتهم المشتركة المزعومة ـــ إلى عدم ثقة متبادل. وفروع الهبابين هي كالآتي:

ناس الشيخ	أبوعمار	ناس حمير
أولاد أنيس	أبْ وسِّيق	فلاتة
أولاد عونة	الكِران	أولاد مِلِّيت

1 قارن ـــ «إن العنصر الهجين الذي يقطن الآن وادي النيل يسميه الأتراك والعرب تهكماً بـ»جنس فرعون» ـــ بيرتون، الحج إلى المدينة...، المجلد «1»، صـ 10، الحاشية «1».

أولاد سكيران	أولاد بلال	النعورة
أولاد زغاوة	أولاد حامد	الككُّو
أولاد نكور	أولاد سلمان	أولاد مُحُمَّد
أم سعدون[1]	الفاس	أولاد داير

ويذكر روبيل الهبابين بأنهم إحدى قبائل كردفان الرئيسة وذلك في عام 1829م تقريباً بحكم أنهم ارتحلوا في الآونة الأخيرة إلى دارفور مع المجانين والمعاليا والجليدات تفادياً لقمع الحاكم التركي في الأبيض[2]. ويبدو أن وارن خلط بينهم وبين الهبانية إحدى قبائل البقارة الذين لم تكن لهم بهم علاقة[3]، وكذلك فعل بالمي ذات الشيء. أما مانسفيلد باركينز فيرمز بالهبابين إلى كل دار حامد بما فيهم المجانين والفراحنة وغيرهم، والسبب هو أن نحاس دار حامد كان بحيازة سيماوي ود أمبدة الهبَّاني في أيام باركينز.

يزعم النواهية أنهم من سلالة محمد ناهي ود حامد الذي أنجبته أم كساوين، وفروعهم كالآتي:

أولاد مُحُمَّد

(أ) أولاد عقيل

(ب) الرشدانة

(ج) أولاد سعد

(د) القنافيد

(هـ) أولاد كريم

البليعيَّة

(أ) البرابيش

الجموعية

المفتِّح

1 يقيم ناس أم سعدون وسط العريفيَّة.

2 يجب أن نتذكر أن الحدود بين كردفان ودارفور كانت آنذاك إلى الشرق أكثر مما هي عليه الآن.

3 "هبَّاني" هو مفرد لكلا "الهبَّانيَّة" و"الهبابين".

الحمدانة

أولاد جميعان

(أ) أبوعلوان

(ب) أولاد فريحة

أولاد عبد الدايم

أم برور

النُّصاريَّة

أولاد معافا

ولديهم 35 قرية في منطقة بارا وقرى أخرى في جهة الشرق في منطقة أم دم ويستحوذون أيضاً على واحدٍ من «الخيران» أو اثنين منها، ولم تكن لهم في الماضي أية أهمية كبيرة ولم يكن يشار إليهم بصورة عامة. وكان عهدتهم الرسمية في نهاية التركية هو سعد أبو سيل وكان الشيوخ البارزون تحته هم أبو الحسن بليلة والد العمدة الراحل بليلة أبو الحسن وأحمد أبو العباس وحامد منوفل. وفي المهدية كان أميرهم تحت زعامة سيماوي أمبدة في كردفان هو إبراهيم تكروري وهو حالياً عمدة النواهية في منطقة أم دم، وعمدة القبيلة الحالي في منطقة بارا هو إسماعيل زعيتير.

ما يزال المرامرة إلى حدٍّ كبير بدويين في عاداتهم ولديهم 12 قرية فقط في منطقة بارا وحوالي نفس العدد من القرى تقريباً في منطقة أم دم حول جبل المُقنص، وأنهم مثل الهبابين لا يملكون واحداً من الخيران. وتقع منطقتهم شرق منطقة قبائل دار حامد الأخرى وجنوباً من أولاد قُويْ، وتوجد مجموعات صغيرة منهم أيضاً داخل القبائل الأخرى، أي وسط الجوامعة (داخل فرع الغنيميَّة) ووسط حَمَر (داخل فرع بني بدر المنتمي للعساكرة). وفروع المرامرة هي كالآتي:

السامنيَّة

(أ) ناس هضلول

(ب) ناس معافا

(ج) ناس نُصار

(د) سلام

(هـ) أولاد حاتم

(و) ناس بهيل

(ز) القصيِّع

(ح) أبوتنيتن

(ط) الدواشنة

المصابيح

(أ) التركو

دار البعق

(أ) الغبشان

(ب) ناس أبوعلي

(ج) الكرومسيَّة1

كان شيخ المرامرة في نهاية «التركية» هو محمد منصور شقيق فكي القبيلة الراحل مُدْعَك منصور ووالد العمدة الحالي حامد محمد. وكان حامد محمد وبلال أحمد زعيمين للمرامرة في «المهدية» حيث كان حامد محمد تحت قيادة سيماوي أمِبدة في الغرب وكان بلال أحمد في أم درمان مع الخليفة. وفي عام 1906م انقسمت القبيلة إلى قسمين حيث بقي الموجودون في بارا تحت العمدة حامد محمد أما مرامرة منطقة أم دم (المصابيح أساساً) فقد اختاروا أحمد بلال نجل بلال أحمد عمدةً لهم.

لم يكن أولاد قُويْ كما رأينا أحفاد حامد بل أحفاد شقيقه حماد، فهم بالتالي أبناء عمومة أولاد حامد الحقيقيين. ويعيش معظمهم إلى جهة الشرق في منطقة أم دم ولكن يوجد عدد منهم في أم قرفة وهي أرض غنية في شمال شرق حيازات دار حامد في منطقة بارا. وجزءٌ منهم بدو يتجولون بعيداً في جهة الغرب تحت زعامة عمدة يسمى محمد عبد الله، وهناك جزء صغير منهم يوجد وسط الجوامعة، أي فرع الزرازير التابع لفرع الطريفية. وكان مشائخهم الرئيسون في نهاية «التركية» هم إبراهيم زراعتيَّة وعِشِيرة ودقيق. وفي «المهدية» كان معظمهم مع الكير محمد وأحمد دَكَّة وهما أميران يقيمان في أم درمان، أما البقية فقد كانت مع عِشِيرة وهو رجلٌ تافه من النوع

1 لاحظ أن كرومسيَّة (كُرُمسيَّة) ورد ذكرهم باعتبارهم فرعاً مميزاً من فزارة، وبعضهم موجودون وسط الزياديَّة الذين يرتبطون بهم ارتباطاً لصيقاً.

الردئ وكان يعمل تحت إمرة سيماوي أمبدة. وقد مات عشيرة قبل إعادة الاحتلال، أما الأميران الآخران السابقان فما يزالان على قيد الحياة. وفي عام 1906م قام أحمد دَكَّة بمحاولة فاشلة ليحلَّ محلَّ الكير عمدةً لأولاد قُويْ في منطقة أم دم. وفروع أولاد قُويْ هي كالآتي:

أولاد حِميد	أولاد جامع	أولاد حمُّود
فضليَّة	أولاد جمُّوعة	الطُّرشان
المقلان	العُتق	أولاد ريس
الحجج		

أقام العريفيَّة لمدةٍ طويلة في المناطق الواقعة غرب دارفور ومن المرجح أن يكونوا مرتبطين بدار حامد ارتباطاً واهياً في الأصل ليس إلا، فهم مختلطون كثيراً من ناحية الدم بالبرقو. وتبلغ قراهم حوالي 25 قرية وتقع أراضيهم في موقعٍ وسط إلى الجنوب من دار حامد وتحتوي على قليلٍ من الخيران. ويفسر العريفيَّة اسمهم بقولهم إن جدَّهم جامع عندما كان صبياً كانت على رأسه خصلة شعر طويلة ولذا سُمِّي «أبوعُرُف» وسُمِّي أحفاده عريفية. وهم يملكون أيضاً جنائن صمغ غرب القليت. كان آدم ود الفكي محمد شيخهم وعهدتهم في نهاية «التركية» وكان معه عبد السلام أبو جبر الله وعمر سلطان والد العمدة الحالي أحمد عمر، وفي «المهدية» خلف أحمد عمر ابن عمه آدم ليصبح أميراً حيث عمل تحت إمرة سيماوي أمبدة. وفروع قبيلة العريفيَّة هي كالآتي:

عامر

(أ) أولاد رمضان

(ب) ناس أم برش

(ج) الخنسور

سند

(أ) أبو سعود

(ب) ناس الضو

(ج) ناس كدُّو

(د) عبد السالم

(هـ) الحاج

(و) أبو حماد

عطوة

(أ) ناس بلال

(ب) ناس بلول

(ج) ناس بليل

(د) أبو كسيرة

(هـ) أبو الرعيان[1]

الجليدات أناسٌ مثيرون للاهتمام وكانوا بلا شك من بين أقدم سكان كردفان بعد النوبة. ومن المحتمل أن يكونوا هاجروا مع القبائل الوضيعة مثل الغديَّات والجوامعة التي من الواضح أنها جاءت من سنار بُعيد أن أكملت مملكة سنار تمازج الفونج مع العرب وصعدت إلى السلطة في النيل الأزرق. واستقروا لدى وصولهم كردفان في جنوب موقع الأبيض الحالي وعلى الطرف الشمالي من الجبال الجنوبية، ولا شك أنهم قُهروا بجحافل العرب التي أتت أخيراً والتي لم تمتزج بالسكان الأصليين بدرجةٍ مماثلة، وهذا هو السبب الذي ألحق بهم الامتهان الذي يتحدثون به أحياناً عن الجليدات رغم أن شعورهم بالولاء لدار حامد قد عزا إليهم أبوَّة حامد. وهم يعيشون في الوقت الحالي حول جبل أم شديرة أو (أم شجيرة) على الحدود الجنوبية الغربية لدار حامد وجنوباً من المعاقلة والمعاليا الموجودين في القليت، كما يوجد آخرون منهم في دارفور، ولديهم 25 قرية ويمتلكون بعض غابات الصمغ. وأماكن السُّقيا الوحيدة التي يستحوذ عليها الجليدات توجد في وادٍ يُعرف بـ«شَق الجليدات»، أي في أم كِريدِم والجبير ويمتلكون أيضاً أشجار تبلدي بالقرب من أم شديرة ويستخدمونها لتخزين الماء. ويُشتهرون بالاسم على الأقل عند بيركهاردت وروبيل وباركينز وبراوت، وفروعهم كالآتي:

الرُّودانة　　　　أولاد عِربود　　　　الأم بادريَّة

---

1 الفروع الـ14 الموضحة هنا هي من أصل متأخر، أي من أربعة أجيال أو خمسة أجيال أو ستة أجيال سابقة، وأن الفروع الثلاثة الرئيسة تعتبر الأقدم ومحددة تحديداً واضحاً.

النصيرات	أولاد وليد	الحربيَّة[1]
العكاشيَّة	أولاد دفين	

كان شيخهم في الأزمنة التركية هو جودة الدُّومة وخلفه ابنه بَكُر جودة، وكان بَكُر وشقيقه إيدام هما أميراهما في «المهدية» إذ كان بَكُر في أم درمان وكان إيدام في كردفان تحت إمرة سيماوي أمبدة. وخلف مالك بَكُر ابن أخ إيدام شقيقه محمد ليصبح عمدةً بُعيد إعادة الاحتلال.

وفيما يتعلق بالمجانين نقول: إنه عندما زار بارون ج. دبليو. فون مُلر كردفان بين عامي 1847م و1849م وجد بعض المجانين مستقرين في الهشابة وظن أنه اكتشف عنصراً مجهولاً من العرب[2]. ويقول مُلر إن مجانين الهشابة هؤلاء كان لهم شعرٌ مجدولٌ طويل ومضفَّر في خُصلٍ منسدلةٍ خلف الأذن وكانوا يتاجرون في الصمغ ويزرعون الدخن كما كانوا «معزولين تماماً». وما يزال هناك مجانين في الهشابة ولكن معظم القبيلة كان وما زال أبعدَ كثيراً إلى جهة الغرب وهم أساساً بدويون. ولأن المجانين الآن انفصلوا من دار حامد بدون هدف تجدهم إلى حدٍّ ما حذرين من الإشارة إلى الزمن الذي كانوا خاضعين فيه لنحاس دار حامد. ويوجد اسمهم في أية قائمةٍ من قوائم قبائل كردفان المِهمة في القرن التاسع عشر، وتوجد مشاتيهم ومصايفهم حالياً حول المزروب والضليل وشبُّوها والشقيلة على الجانب الغربي من دار حامد. والمزروب هو مكان الشُّرب الوحيد الذي يمتلكونه إذ إن جبل المقينص بات جافاً ظامئاً ولكن لديهم حقوق شرب في جرقل كما سُمح لهم بالتنسيق مع القبائل الأخرى أن يستسقوا في أماكن مختلفة مثل الراكب وأم قماري. ويمتلكون في الضليل بعض أشجار التبلدي المجوفَّة التي تخزَّن فيها المياه، وفي موسم الأمطار يرتحلون جميعهم تقريباً شمال غرب مع البدو الأخر. وكان مشائخهم في أيام التركية الأخيرة هم لبن من فرع طيبو وجمعة من أولاد ماضي وحمد بليلة، هذا في الوقت الذي كان فيه المساعيد ــ الذين لم يكونوا خاضعين للمجانين[3] كالآن ــ تحت زعامة سليمان درداب وأمبدة سليمان

1 إن عدداً من الحربيَّة الذين كانوا بدويين بالكامل في وقت إعادة الاحتلال قد وُضعوا آنذاك تحت عمدة المعاليا البدو.

2 انظر مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، المجلد «20».

3 كانوا يدفعون جزية غير ثابتة مقدارها 214 جنيه أسترليني بصورة منفصلة.

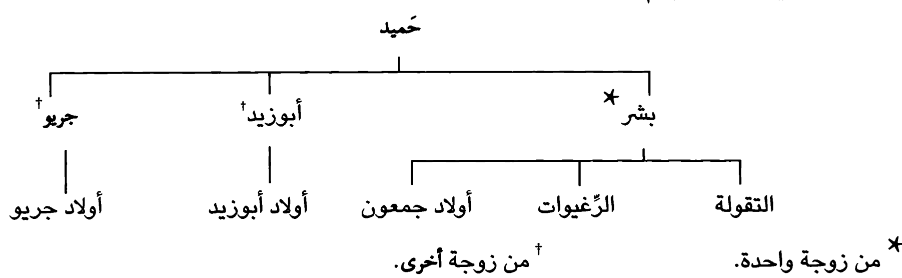
(والد الشيخ الحالي نصر الله أمبدة). وفي «المهدية» كان لديهم ثلاثة زعماء هم حمد بليلة الذي توفي في أم درمان بُعيد تسنم الخليفة للحكم وجمعان علي شقيق العمدة الحالي محمد علي الإخيضر وخليفة حمد بليلة وعجبنا جمعة والد الشيخ علي عجبنا من فرع أولاد ماضي. وبقي عجبنا جمعة في كردفان وعمل تحت إمرة سيماوي أمبدة.

يقال إن أصل اسم «المجانين» الغريب يُعزى إلى القصة الآتية: اعتاد أطفال سَهَل وعلي السِّمِح (انظر شجرة النسب) أن يتشاجروا معاً جرياً على عادة الأطفال، وفي ذات يوم تدخل سليط (أو مُسْهَل وفقاً لرواية أخرى) وأخذ دور أحد الأطفال ضد طفل آخر، ووبَّخه سهل على التدخل في مشاجرة أطفال على كِبر سنِّه وسماه بـ«المجنون». وقال سليط (أو مُسهل) إنه لا يكترث إن كان «مجنون» ــ فهو سيفعل ما يُعجبه ــ واشتهر منذ ذلك الوقت فصاعداً بـ«المجنون» واشتهر أحفاده بـ«المجانين». وأدناه هي فروع القبيلة:

1. **العيَّاديَّة**
   (أ) أولاد جميعة
   (ب) أولاد جمعة
   (ج) أولاد جامع
2. **الحميديَّة**[1]
   (أ) أولاد جـــــريو
   (ب) أولاد أبوزيـــــــد
   (ج) التقـــــــــولة

---

1 الحميدية يضعون نسبهم هكذا:



(د) الرِّغيـــــــــوات

(هـ) أولاد جمعون

3. طيبـــو

(أ) ناس الفكـــــي

(ب) ناس راكـــوبة

(ج) ناس أبوعجب

4. أولاد ماضي

(أ) نـــاس مُحُمـــــــــدَّ

(ب) ناس حمدت الله

(ج) أولاد رحمـــــــــن

5. أولاد روميَّة

(أ) ناس كتــــــرة

(ب) أولاد مُحُمَّد

6. الحيادرة

7. الغدينات

8. أولاد ساعد

(أ) أولاد راضـــــــي

(ب) ناس عمـــــارة

(ج) أولاد أبوعسيلة

9. أولاد فضالة

(أ) أبو رشيد

(ب) مركوك

10. المساعيد

(أ) أولاد حـــــــرَّان

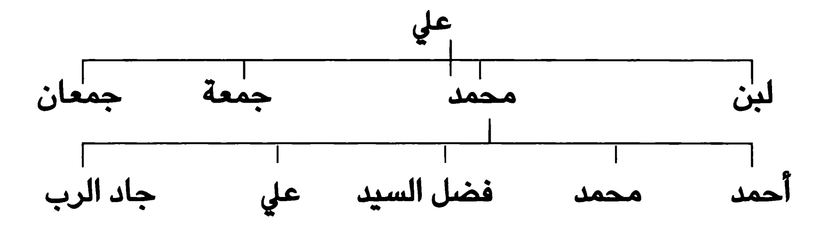
(ب) أولاد أبودقينة

(ج) أولاد مِنديـــك

(د) أولاد جـــــامع

يقدم العمدة الحالي محمد علي الإخيضر نسبه هكذا:

سَهَل - الإحيمر ود تبْيُويْ - حسن - موسى - كتر - جمع الله - جرَّاري - جمعة - قوت الله -



ولنترك المجانين وندلف إلى دار حامد كلها:

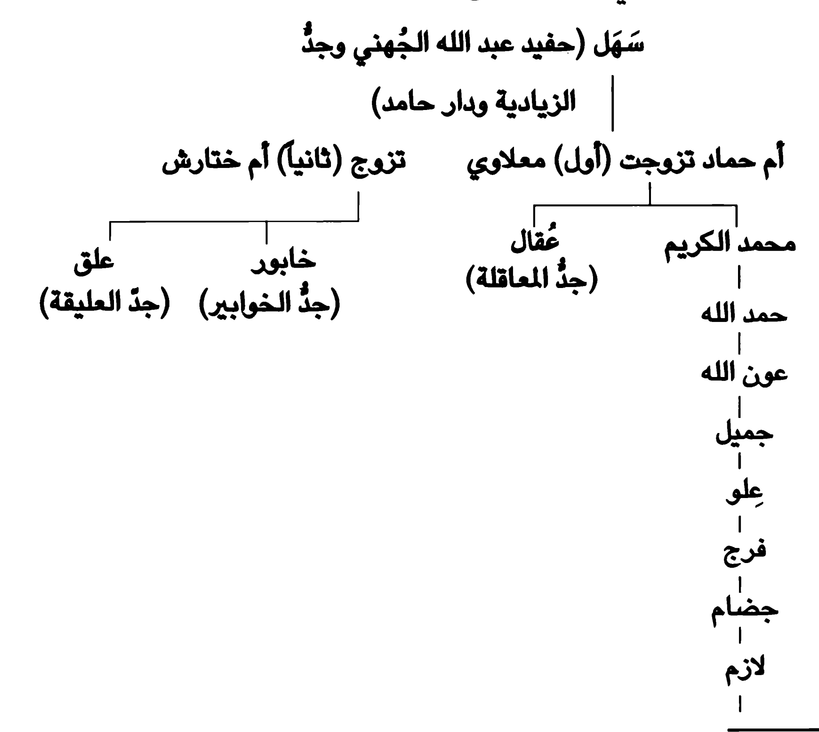
يوجد بين بعض القبائل البدوية الشمالية عدد من الأسر التي تنتمي أصلاً إلى دار حامد، والأمثلة البارزة تتمثل في الفرع الكبير من كواهلة دار حامد وفرع كبابيش دار حامد في مديرية دنقلا. إن الكواهلة قبيلة قادمة من الشرق وتختلف تماماً عن كل قبائل كردفان الأخرى لكونها ذات علاقة بالبشاريين والعبابدة.. الخ ولكن حتى اندلاع المهدية أدرج عدد كبير منهم وسط الكبابيش. وتربط مجموعة كبيرة من قبائل دار حامد نفسها بهؤلاء الكواهلة خاصة فرعا أولاد ماضي وأولاد فضالة من المجانين، وعندما انفصل الكواهلة من الكبابيش ذهبت معهم معظم هذه المجموعات من دار حامد وأصبحت فرعاً من الكواهلة وتخلف آخرون باعتبارهم فرعاً من الكبابيش في دنقلا. وإلى هذا اليوم ظل وَسْم إبل أولاد فضالة هو نفس وَسْم إبل ناس ود عمارة فرع كواهلة دار حامد، كما أن أولاد ماضي عموماً يستخدمون وَسْم «الدَّامع» و«القلادة» الذي يُميز عملياً كل إبل كواهلة دار حامد. وبالطبع فإن هؤلاء الكواهلة والكبابيش المنتمين لدار حامد بالتبني لا يملكون في الوقت الحالي أي حقوق في أراضي قبائل دار حامد الحقيقية ولا يدَّعون ذلك، بل إنهم يُعتبرون «غرباء في الأرض» مثل بقية الكواهلة، هذا على الرغم من أنهم يسيمون قطعانهم في مراعى أراضي دار حامد لجزءٍ كبير من السنة.

الفصل العاشر

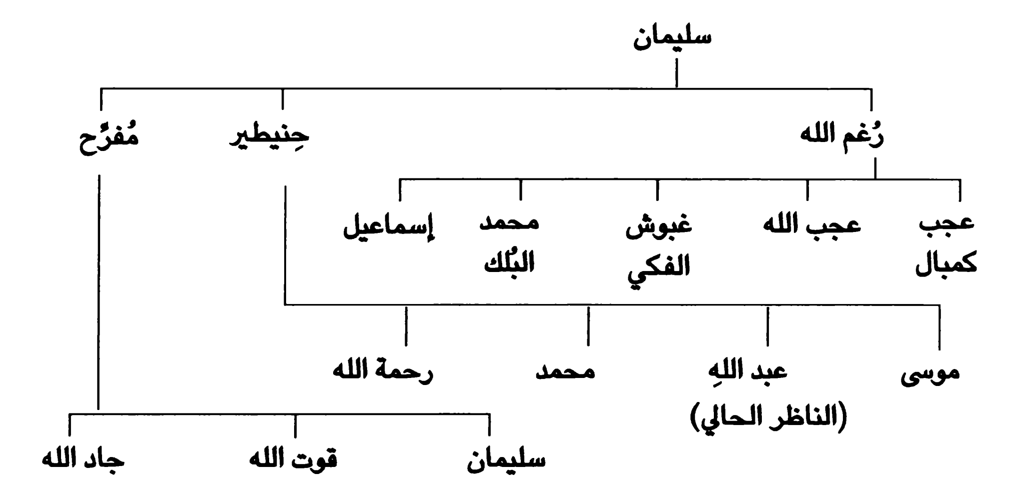
المعاليا، المعاقلة، والزيَّاديَّة

الجزء I. المعاليا

يرتبط المعاليا بقبائل دار حامد ويزعم كلا الطرفين عموماً أن حامد الأفزر وسَهَل هما من بين أجدادهم[1]. وعلى أية حال لم يكن المعاليا من بين أحفاد حامد الخُويِّن الحقيقيين رغم ما يقال من أنهم كانوا خاضعين لنفوذه ونفوذ بعض خلفائه. إن معظم المعاقلة الذين يفضل المعاليا ضمَّهم بين فروعهم وداخل أنسابهم هم من سلالة مختلفة اختلافاً واضحاً كما سنرى ولكنهم كانوا خاضعين للمعاليا لزمنٍ طويل. وشجرة النسب التالية هي شجرة شيخ المعاليا بكردفان وفقاً لروايته بنفسه:



1 ورد في دليل السودان أن حامد وحَمَر وزياد ومعلا كانوا تحت زعامة شيخ تعايشي بكونهم أبناء حامد الأفزر الأربعة.



رغم أن المرء يمكن أن يزعم أن المعاليا مرتبطون بقبائل دار حامد وهاجروا معها من جهة الشمال أو الشمال الشرقي إلى دارفور وكردفان، لكن لا يعرف إلا القليل عن تاريخهم الباكر. والمعاليا منتشرون الآن انتشاراً واسعاً في دارفور وكردفان وكان ذات الشيء هو ما كان عليه الحال تحت نظام الحكم التركي. ويشير بيركهاردت إلى أنهم من بين قبائل كردفان الرئيسة ويقول إن موطنهم يقع بين الأبيض وبلاد الشلك، أي جنوب شرق الأبيض، ويشير أيضاً إلى أنهم كانوا يزوِّدون الأسواق بالبخور[1]. وما يزال عددٌ محدد من المعاليا يقيم في تلك الجهة في منطقة التيارة، ولكننا نسمع من روبيل أن كثيراً منهم ـــ بعد أن كتب عنهم بيركهاردت بمدة قليلة ـــ قد أرغموا على الرحيل إلى دارفور جراء قمع الأتراك، ولا شك أنهم انضموا إلى معظم أقربائهم هناك.

في عام 1876م قدَّر العقيد براوت عدد القبيلة (التي سماها المهاليا) في كردفان بحوالي 2000 نسمة ووصفهم بالرُّحل ـــ كما هم الآن ـــ من جنوب غرب أبو حراز إلى كاجا شمالاً. إن كون معظمهم كانوا في دارفور تعكسه حقيقة أنهم قدِّروا عام 1883م بالنسبة للجزية حيث بلغت جزيتهم 1450 جنيه أسترليني في دارفور مقابل 149 جنيه أسترليني غير ثابتة في كردفان. ويواجه المعاليا في جنوب دارفور احتقاراً عظيماً من قبل البقارة باعتبارهم أناساً سكارى ومتهتكي الأخلاق[2]. وفي بداية اندلاع

1 انظر بيركهاردت، بلاد النوبة...

2 سلاطين، السيف والنار، الجزء "1"، الفصل "5".

"المهدية" عيَّن سلاطين بك علي ود حجير شيخاً للمعاليا في جنوب دارفور، وظل علي ود حجير مخلصاً له ولكن معظم أناسه ثاروا بصحبة الرزيقات والهبَّانية وفي عام 1882م قُتل علي بواسطة الرزيقات. أما محمد أبو سلامة شيخ المعاليا في شمال دارفور الذي منحه غردون "البكوية" فقد ظل أيضاً وفياً في بداية الثورة ولكن ما أن رأى معظم أناسه ينضمون إلى الدراويش وما أن رأى الرزيقات يضغطون بشدة على سلاطين قام بعقد تحالف مع مادبو شيخ قبيلة الرزيقات. وانضم المعاليا عملياً إلى المهدية قبل نهاية عام 1882م لكن صحيح أن قليلاً منهم حاربوا بجانب سلاطين بك في أم ورقات. أصبح حنيطير سليمان ـــ الذي كان أحد مشائخ المعاليا في كردفان في أيام التركية ـــ أميراً في "المهدية" وكان هو الذي أرسله الخليفة مع ود نوباوي شيخ بني جرَّار ليُعجما عود شيخ الكبابيش صالح بك فضل الله ويقنعاه بالمجئ إلى أم درمان ويُسلِّم.

خلف حنيطير شقيقه الأكبر رُغم الله في الشياخة، وقيل إنه تزوج 84 امرأة وكان له 100 ولد، وما يزال حنيطير على قيد الحياة رغم أن ابنه الثاني عبد اللهِ هو شيخ القبيلة في كردفان في الوقت الحالي. وما يزال المعاليا مشتتين، فبغض النظر عن أولئك الموجودين منهم في دارفور هناك مجموعات منهم قرب شركيلا والسُّنجُكاية والأضيَّة وجبل أبو سنون والقليت. ورغم أن لهم قرىً عديدة لكن ظل كثيرٌ منهم بدويين، وثروتهم الرئيسة هي الإبل والغنم، ولديهم إحدى عشرة قرية تقريباً وسط المعاقلة في القليت ووسط الجليدات في أم سرير ولكن القبائل الأخرى لا تعتبرهم أصحاب الأرض الأصليين. وأدناه بعض فروع المعاليا الصغيرة المنحدرة من أم حماد وأم ختارش على التوالي (انظر شجرة النسب أعلاه):

1. **أم حماد**

A. أم مُكْريم[1]

(أ) العقاريبة (يضمون ناس فرج)

(ب) أم عقيلي (يضمون الحربية[2])

---

1 أي أنهم أحفاد محمد الكريم (انظر شجرة الأنساب أعلاه).

2 الحربيَّة هم في الحقيقة جليدات (دار حامد) أكثر من كونهم معاليا. فقائمة القبائل هذي قدمها عمدة

(ج) دار الخادم

(د) أولاد أم جمعة

(هـ) أولاد خيارى

(و) أولاد عطا الله

(ز) أولاد أم حامدة

(ح) السُّروريَّة

(ط) الرشيدات

(ي) آخرون

B. المعاقلة[1]

2. أم ختارش

A. الخوابير[2]

(أ) أم فلاح

(ب) الجويل

(ج) أولاد رشدات

(د) الحديبة

(هـ) الخوابير الحُمْر

(و) القنابلة

B. العليقة

(أ) أبو قصير

(ب) (آخرون)

المعاليا وطالما أن بعض الحربية خاضعون له فهو يعتبرهم معاليا. انظر الفصل التاسع حول دار حامد.

1 قد قيل إن المعاقلة ليسوا في الحقيقة معاليا بالميلاد أبداً، وستوضح فروعهم لاحقاً.

2 ليس هناك خوابير في كردفان ولا أدري ما إذا كانوا حقيقةً معاليا، وقد عملوا في المهدية بالتعاون مع قبيلة الميما (انظر سلاطين، السيف والنار...). وهم يعيشون في دارفور.

الجزء II. المعاقلة

المعاقلة من سلالة مختلفة تماماً من سلالة المعاليا كما لاحظنا ولكن اندماجهم السابق مع قبيلة المعاليا يفسر كونهم ندُّوا عن ملاحظة الرحالة. ويقسمون تقريباً في كردفان إلى سماعين[1] وبشارية كلاً منهما تحت عمدته الخاص ولكن الفرعين متشابكان في بعضهما البعض وأن فروع كليهما قدمت معاً في القائمة التالية:

السماعين	أولاد حسب الله
العبَّادية	دار والد
العمامير	الشرَّك
الشعيلة	الربيدات
أم سلمان	النَّعاسنة
بلال	الكليبة
ناس لازم	الكناكيل[2]
الدورة	الكجابيل
طروم	أولاد حريِّز[3]
ناس سلام	أولاد جمعة
أولاد ظاهر	أولاد أبو حماد
الشليمات	أم زيادة
البشارية	عبد الحبيب
عيال شمبول	العلاونة
بشارة	الغرير

ويستخف السماعين بالبشارية لأن أسرة البشارية الحاكمة تعود بنسبها إلى مؤسس القبيلة من خلال امرأة فقط: ويعني هذا أن خضرة "والدة" البشاريين ــ وهي نفسها معقلية من دمٍ مشيخي ــ قد زُوِّجت للحاج بشاري وهو فكي قدم من

1 من إسماعيل، وتنطق إسماعين.

2 هذا الفرع لا يوجد في كردفان بل في دارفور.

3 هذا الفرع لا يوجد في كردفان بل في دارفور.

الشرق وأن الشيخ الحالي[1] انحدر من زواجهما. وربما يمكن لنا أن نرى هنا آثار العرف الأمومي القديم للقبائل الشرقية كالبشاريين والعبابدة[2]، ففكرة ربط كثير من المعاقلة بقبائل شرق السودان ستعزز عندما نجد بين الفروع كلا البشارية "بشارة" والعبادية. وإضافة إلى ذلك أيضاً فإن معظم البشارية يقولون إن كثيراً من أقاربهم يوجدون في الصحارى الشرقية، ويعترف كثير منهم صراحةً بأنهم ليسوا عرباً مطلقاً من ناحية الأصل ولكنهم بشاريون هاجروا غرباً وتصاهروا مع المعاقلة والقبائل الأخرى. ومن الغريب أن نسبة كبيرة من البشارية المعاقلة يمكن أن يقرأوا ويكتبوا ويعتبرون "فُكَيَا"، ولكن نادراً ما يمكن أن يقال هذا عن السماعين، وتعزى حقيقة هذا الاختلاف إلى الاختلاف في أصلهما. ويقول شيخ البشارية إن المعاقلة هم أبناء شخصين اسمهما الغالي والوالي ولكنه كان غامضاً فيما يتعلق بتفاصيل أكثر[3] ويتفادى مواجهة الاستفسارات الأكثر دقة. إن الرواية النمطية لأصل المعاقلة تقول كالمعتاد إن أجدادهم هم عبد الله الجُهني وحفيده سَهَل وبالتالي فهم مرتبطون ارتباطاً لصيقاً بدار حامد والمعاليا والزيادية.

كان هناك قليل من المعاقلة في كردفان أيام التركية وكانوا مشتتين كثيراً، وفي الوقت الحالي هناك 15 قرية تقريباً للسماعين والفروع المؤتلفة معهم توجد حول القليت في غرب منطقة بارا وهناك نفس العدد تقريباً من القرى للبشارية.. الخ حول السعاتة شمال شرق القليت. وهناك عدد من المعاقلة أيضاً ما زالوا يقيمون قرب شكا في دارفور، ويقوم كثيرٌ من هؤلاء في موسم لقيط الصمغ بزيارة أقاربهم في كردفان ويستأجرون "الجنائن" منهم. أما السماعين وغيرهم فقد كانوا حتى عام 1906م تحت زعامة المعاليا وكانوا يدفعون الجزية عبر شيخ المعاليا، وفي عام 1906م انفصلوا من المعاليا وسُمح لهم بتعيين عمدة خاص بهم ألا وهو بشير ضو البيت. وبعد عامين لاحقين خضعوا للضرائب بدلاً عن الجزية إذ قابلوا ذلك بكثير من الاشمئزاز، وفي عام 1910م أصبح العمدة هو عثمان علي خلفاً لبشير ضوالبيت.

---

1 الصافي سليمان.

2 انظر سي. ب. كلونزنقر "صعيد مصر"، صـ 257 وما يليها وانظر سير ج. ولكنسون "مصر الحديثة وطيبة"، صـ 386، الخ. وانظر مذكرات كواترمير...، المجلد "2" بالنسبة للنظام الأمومي البجاوي.

3 قيل إن غالي كان له ولدان هما حُبيش ورمضان.

الجزء III. الزيَّادية

كانت هناك رواية متداولة في دارفور فحواها أن زيد جدَّ الزيادية كان رِقّاً للمهاجرين الأوائل من التنجر إلى تلك البلاد[1] ولكن ربما صدرت الرواية من مصدرٍ عدائي للزيادية. ورغم أن هذه القبيلة ليست كبيرة أو مشهورة بحكم المظهر إلا أنهاً على الأقل تود أن تعتبر عربية مثل الأغلبية الكبيرة ممن يُسمَّون عرب السودان. وأشار بيركهاردت[2] إلى أنهم كانوا في عهده إحدى القبائل البدوية الرئيسة في كردفان ودارفور ولكن الجزء الأكبر من القبيلة كانوا يعيشون دائماً في دارفور ويجوبون الأودية الشمالية بإبلهم أو أنهم يقومون بتكديس الثروة باعتبارهم يقومون بتربية الخيول[3]. ويُصنفون في شجرة الأنساب القبلية مع قبائل دار حامد وخاصة مع المجانين لأن كلتا القبيلتين تزعمان الانحدار من سَهَل. ويقول الزيادية إن سَهَل كان له ولدان هما دهمش والنعيم، وكان دهمش هو جدُّ الزيادية وكانِ النعيم هو جدُّ دار حامد[4]. ويقول الزيادية الموجودون في كردفان إن القبيلة تقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسة وإلى كثير من الفروع الصغرى، ويقال إن أسماءها هي الآتية:

أولاد جربوع

(أ) ناس حسن

(ب) ناس أدرق

(ج) ناس شوك

(د) ناس شرِّي

(هـ) ناس أبو حمَّام

(و) عيال سُليم

---

1 انظر سلاطين، الفصل "2".

2 بلاد النوبة...

3 يشير إنسور الذي التقى ببعضهم في أم بادر في عام 1875م إلى أن بعضهم كان مستقراً بالفاشر.

4 انظر الفصل التاسع حول دار حامد.

(ز) العيساويَّة[1]

(ح) ناس التوم

(ط) النفاعيَّة

(ي) ناس كِرتوب

(ك) أم دريوة

(ل) أولاد فارس

(م) العميريَّة

(ن) المسيمير

(س) القاصرينة

(ع) الكرومسيَّة[2]

أولاد مفضَّل

(أ) أولاد عون الله

(ب) أولاد إمامة

(ج) أولاد بيبوش

(د) أولاد الزين

(هـ) أولاد وافي

(و) أولاد شحاوين

(ز) أولاد عوادة

(ح) أولاد عواديَّة

(ط) أولاد أم جمعون

أولاد جابر

(أ) عيال سبت النور

(ب) عيال رقيَّة

---

1 هناك بعض "العيساويَّة" الآخرين يعيشون على الجانب الغربي من النيل ويتبعون لناظر الكبابيش، ويرتبط العيساوية الموجودون مع الزيادية بالعيساوية الموجودين مع الكبابيش.

2 هناك كُرمُسية آخرون مع المرامرة (انظر الفصل التاسع)، ولكنهم مرتبطون ارتباطاً أكثر مصاقبةً مع الزيادية.



"الزيادية، 1907م"

(ج) عيال أبومِسْهِم

(د) أولاد تاتون

(هـ) أولاد أبو معالي

(و) أولاد حمُّود

(ز) أولاد جُبارات

(ح) أولاد زيد

(ط) أولاد بربوش أو (البرابيش)

(ي) ناس أم جمعة

في نهاية التركية كانت القبيلة كلها في شمال دارفور[1].ولم يكونوا من بين أول القبائل التي ثارت ولكن في نهاية عام 1883م أصبحوا هم والمهرية مستائين وبعد فترة قصيرة انضموا إلى الدراويش. وبعد إعادة الاحتلال وجد عددٌ منهم تدريجياً طريقهم إلى داخل كردفان واستقروا وسط مستعمرةٍ منتثرة من الجوامعة في أم أربعة شرق جبل أم شديرة على حدود أراضي فرعي الجليدات والعريفيَّة التابعيْن لدار حامد وشمالاً من البزعة. وفي عام 1906م سُمح لهم بانتخاب مُعزِب إدريس[2] عمدةً عليهم وتم تجميعهم وخُصصت لهم أراضٍ للزراعة في أم أربعة، ولكنهم لا يمتلكون غابات صمغ[3]. إن أغلب الزياديَّة ما زالوا في دارفور بدويين في عاداتهم ولهم علاقة حميمة بالزغاوة والأناس المجاورين الأخر.

1 كانت جزيتهم في كردفان عام 1883م 55 جنيه أسترليني فقط غير ثابتة في حين أن جزية أولئك الموجودين في دارفور قدِّرت بـ2500 جنيه أسترليني (انظر ستيوارت).

2 هاجر مُعزب مع عدد كبير من الأتباع حوالي عام 1904م، وهو ينتمي لفرع ناس حسن التابع لأولاد جربوع وهو ينسب سلالته كما يلي:
جربوع - مُفضَّل - سالم - حسن - إدريس - أمبدة - سلمان - إدريس - مُعزب

3 باستثناء واحد وهو أن جوامعة أم أربعة منحوا جنائن الصمغ القليلة ــ التي اكتسبوها على حساب البزعة ــ إلى الزيادية في نوفمبر 1911م.

الفصل الحادي عشر

قبائل البقّارة

يقول بروفسور بودج في كتابه (تاريخ السودان)[1] "إن بقارة كردفان هم بلا شك أحفاد الهكسوس المرعبين الموجودة آثارهم على النقوش المصرية". ولكن من الصعب أن تؤخذ هذه المقولة بأي معنىً سوى المعنى الاستعاري المبالغ فيه: وربما يكون الهكسوس قد عاشوا تقريباً في ذات المنطقة التي يعيش فيها البقارة الآن وربما ربّوا الماشية لذات السبب لكون الظروف مناسبة للغاية، ولكن من الصعب أن تقوم هذه الحقيقة ــ إضافة إلى الوحشية المألوفة لدى الشعبين ــ دليلاً وأساساً على افتراض السلالة المشتركة. ورغم أن البقارة يحملون قدراً من الدم الأسود في عروقهم لكنهم على الأقل عرب في الغالب الأعم بيد أن الهكسوس لم يكونوا افتراضاً كذلك. ويبدو من عاداتهم وعادات القبائل الأخرى أنهم أتوا إلى موضعهم الحالي من الشمال[2] عبر ممالك السود القديمة وأنهم يحملون بين صفوفهم عرباً قليلين نسبياً من البَحَر والشرق. إن عدداً كبيراً من البقارة ما زالوا في جهة الغرب بعيداً من كردفان، كما أن الرحالة القليلين الذين التقوا بهم في دارفور وجهة الغرب قدموا ملاحظات متناثرة عنهم، وهكذا يتحدث محمد التونسي الذي ذهب إلى تندلتي (الفاشر) في عام 1803م عن المسيرية الزُّرُق بأنهم بدو أصحاب إبل في دارفور، ويذكر التونسي الصعوبات التي شهدها السلطان محمد الفضل في الحصول على الجزية من الرزيقات والمسيرية الحُمُر. ويشير بارث أيضاً[3] إلى أن المسيرية كانوا في زمنه ثالث أكبر قبيلة عربية في ودَّاي وكانت لديهم مواقعهم في دومبولي كما كانوا مقسمين إلى المسيرية الزُّرُق والمسيرية الحُمُر: ووجد قبائل أخرى ذات صلة قرابة معهم، مثلاً قبائل أولاد راشد والسلامات وأولاد حميد والزيود.. لخ في كانم، وكان السلامات لصيقين بجنوب بحيرة تشاد.

1 انظر المجلد "2"، صـ 397.

2 غزا العرب مصر تحت قيادة عمرو بن العاصي في عام 641م وقاموا بتوسيع فتوحاتهم على الحدود الشمالية لإفريقيا على حساب البربر في القرون التالية. ومع طرد العرب للبربر أو اندماجهم معهم حدثت هجرات أكثر في اتجاه الجنوب بأعداد مضطردة من جانب القبائل العربية (انظر بارث وفورنل).

3 انظر المجلد "3"، صـ 40.

الجزء I. المسيرية والحُمُر

المسيرية والحُمُر هم في الحقيقة أفراد قبيلة واحدة، والمسيرية الحقيقيون يمكن تقسيمهم إلى الزُّرُق و الحُمُر، ولكن أصبحت المجموعتان في كردفان مميزتين جداً بحيث أن الحُمُر كفُّوا عن تصنيف أنفسهم مسيريةً إطلاقاً[1]. إن فروع المسيرية هي كالآتي:

A. أولاد أم سليم

1. أولاد سليمان
2. أولاد حمودة
3. أولاد أبو زيدان
4. أولاد مصباح
5. أولاد عِبدو

B. الغزايا

1. أولاد أم ريدان
2. أولاد خير
3. أولاد أبْ بلال
4. أولاد عجمان
5. أولاد عواضة
6. أولاد مسمار
7. الكعوك
8. أولاد أم كرابيج

C. الدِّرع

1. أولاد كُدو

(أ) أولاد فضلة

(ب) أولاد زلوت

(ج) أولاد غالي

1 استخدمتُ مصطلح المسيرية في كل النص بمعنىً حصريٍّ للحُمُر إلا حيثما أقرّ العكس.

2. أولاد سرير

(أ) أبوخريس

(ب) أولاد بَخَّات

D. العنينات

1. أولاد هجيليجة

2. أولاد كبيبة

3. أولاد هلال

4. القرون

5. الشكرية

6. أولاد نصَّار

7. أولاد أم فارس

E. أولاد أبو نَعمان

1. أولاد مهادي

2. أم مهيوب

3. أولاد الضو

F. الزُّرُق

1. أولاد غانم

2. أبو علوان

3. الدِّريهمات

4. بني سعيد

5. أولاد جِنيجِن

6. أولاد فايد

7. الكُرباج

8. الجناحات

G. أولاد هيبان

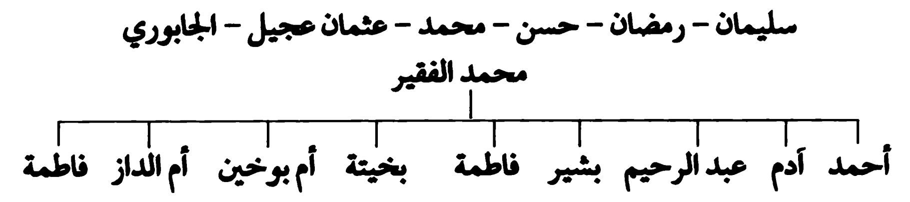
1. أولاد عيسى

2. أولاد جبريل
3. أولاد الشايب
4. أولاد فاتح
5. أولاد عودة

احتل المسيرية في حوالي منتصف القرن الثامن عشر وهم يشقون طريقهم شرقاً الأراضي الواقعة حالياً شرق دار المسيرية وكانت لهم اليد الطولى بين دار الحُمُر والبِركة والرهد وشركيلا. وعلى أية حال فقد قام الحوازمة الذين تحالفوا مع قبائل مثل البديرية والغديات والتُّمام والبِرقد وغيرهم بإزاحة المسيرية إلى الوراء نحو مواقعهم الحالية. ومنذ ذلك الحين بات الحوازمة منفصلين تماماً عن المسيرية ولكنهم كما سنرى قد تشرَّبوا كثيراً من دم حلفائهم الغريب. وظل كثيرٌ من المسيرية في مطلع سنيِّ المهدية موالين للحكومة، ففي عام 1880م أعانوا سلاطين بك ضد السلطان هارون في دارفور وفيما بعد أعانته فرقة في أم ورقات عام 1882م. في عام 1883م ثار بنو هلبة وانقضُّوا بقيادة البشاري بك ود بكر على المسيرية الموالين للحكومة والذين يقيمون حول دارا تحت زعامة عبد الله أم درامو وقتلوا كثيراً منهم. وأجبر ضغط الظروف عبد الله أم درامو على الانضمام إلى الرزيقات في ذات السنة التي حوصرت فيها دارا ولكنه حافظ على اتصالاته مع سلاطين بك حتى تم إخلاء دارفور[1]. واحتالت نسبة كبيرة من القبيلة في السنين اللاحقة لتفادي الخضوع لأوامر الخليفة الصادرة للقبائل لكي تنضم إليه في البَحَر، ونتيجة لذلك عرَّضوا أنفسهم للغارات المتكررة والرسوم القسرية. وبعد سقوط أم درمان في سبتمبر 1898م كرَّس عدد من المسيرية ــ تحت زعامة ناظرهم الحالي محمد الفقير ود جابوري[2] ــ أنفسهم لنهب فلول قوات الدراويش الذين كانوا عائدين شذر مذر إلى ديارهم في الغرب.

1 انظر سلاطين، السيف والنار.

2 محمد الفقير من فرع أم سليم، فشجرة نسبه كالآتي:



رغم أن المسيرية ليست قبيلة كبيرة في كردفان ولكنهم كانوا أثرياء نسبياً خاصة في المواشي والخيول، ولكنهم يعملون تحت وضعٍ غير مواتٍ داخل مناطقهم الضيقة وليس لديهم مجال كاف للتوسع الطبيعي، وكانت النتيجة طبيعياً هي المشاكل المستمرة مع جيرانهم. وتوجد زراعتهم أساساً حول السنوط ومحفورة وتستسقى مواشيهم وقطعانهم في وادي الغلة. وينقسم المسيرية الحُمُر إلى قسمين منفصلين هما العجايرة والفلايتة، وفروع الحُمُر العجايرة هي[1]:

A. أولاد كامل

1. الكلابنة
2. دار موتة
3. دار أم شيبة
4. دار سالم
5. أولاد كميل
6. المزاغنة
7. الفيارين

B. أولاد عمران

1. أولاد أم غِديَّة
2. أولاد نقيعة
3. أولاد أبو حماد
4. أولاد النواصحة
5. أولاد حِمِّيض
6. أولاد أبو إسماعيل
7. أولاد أم جود
   (أ) أولاد معلا
   (ب) أولاد حمودة
   (ج) أولاد عليان

---

1 من مادة أعدها النقيب/ دبليو. لويد.

8. دار زَبَلي
9. دار حِبَّ الله
10. دار بِنات
11. رَحَمَه
12. فضليَّة

وفروع الحُمُر الفلايتة هي:

A. **المتانين**

1. أولاد زيادة
2. الشاميَّة
3. أولاد شبيب
4. أولاد عرفة
5. عريف
6. الزّيود

B. **أولاد سُرور**

1. أولاد أبو خميس
2. أولاد جمعة
3. أولاد عليان
4. أولاد أم بوكتي
5. أولاد جفير
6. الجريفين

C. **الجُبارات**

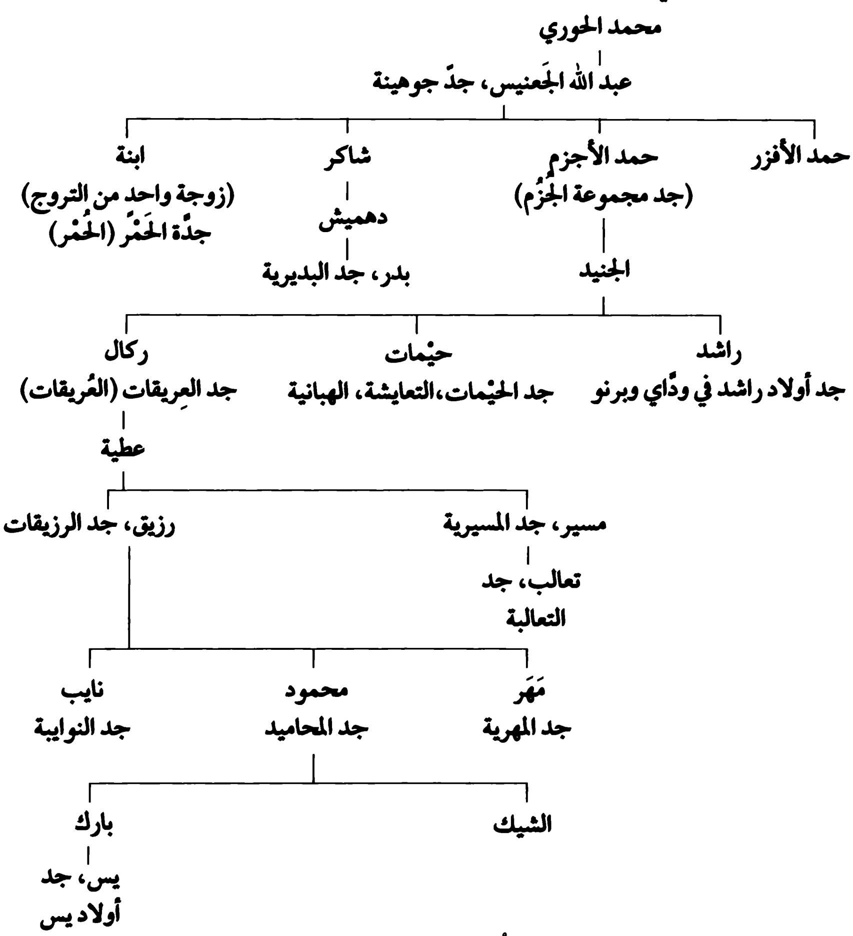
1. أولاد أبو هلال
2. أولاد مِحِمِّدْ
3. أولاد بُدران
4. أبو جكاك

D. **السلامات**

1. أولاد علي
2. أولاد سعيدة
3. أولاد أبو إدريس
4. الجبابرة

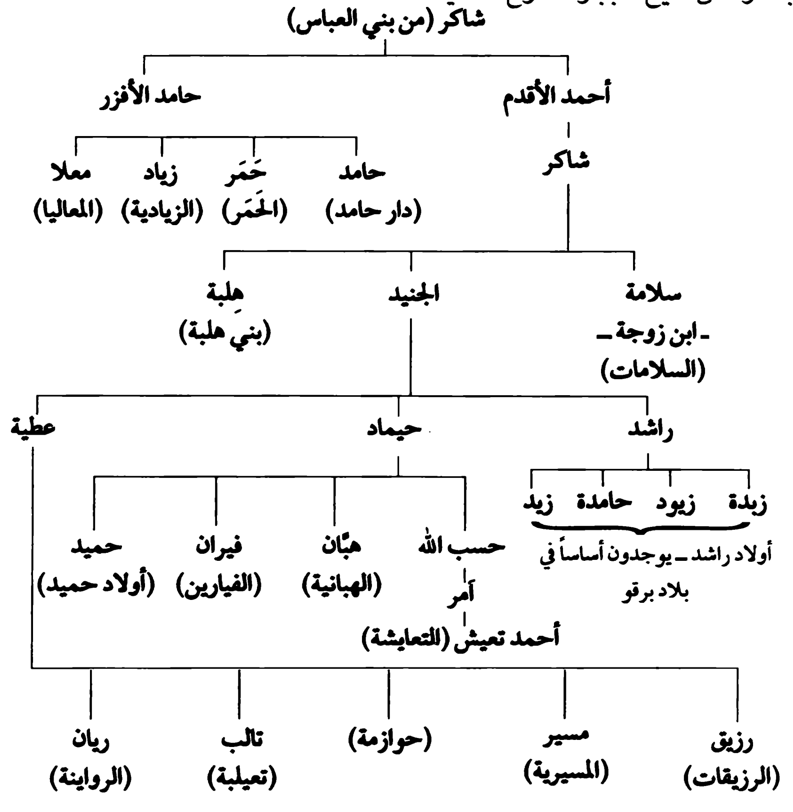
قيل إن كلا المسيرية والحُمُر منحدرون من عطية جدّ البقارة عموماً كما يبدو من القائمة التالية[1]:

1 هذه القائمة قدمها مكي حسيب ناظر الحُمُر الفلايتة، وللمقارنة معها يجب على المرء أن يقارن الشجرة التي قدمها د. هلموت، أي:

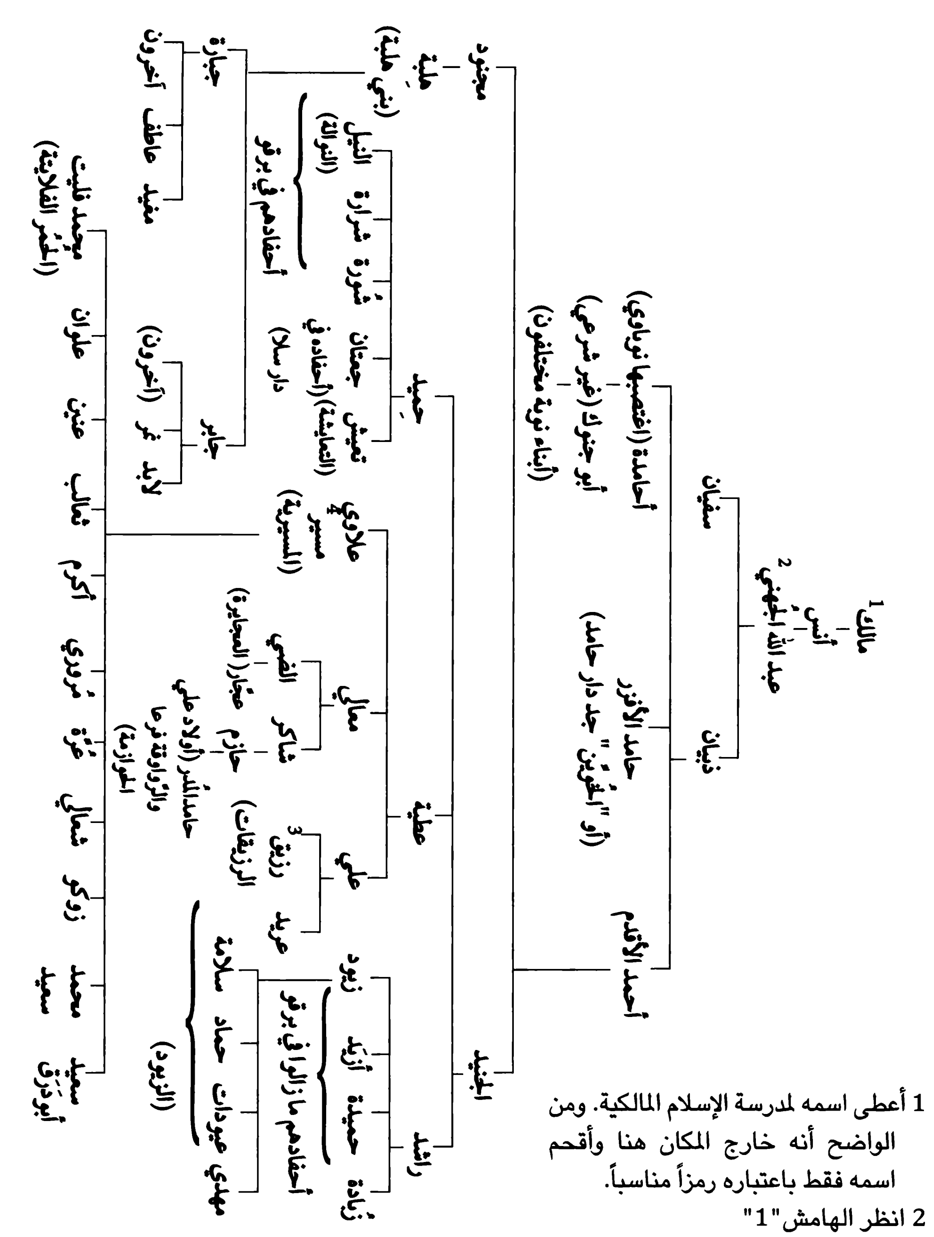


إن عبد الله الجعنيس هو بالطبع عبد الله الجُهني. فبالنسبة لأحفاد حامد الأفزر، انظر الفصل التاسع عن دار حامد. إن تعالب جد التعالبة شخصٌ مهم، فمن المحتمل أن يكون هؤلاء التعالبة "ثعالبة" فرعاً فقط من المسيرية منحدر من ثعالب الذي يرد ذكره في كلتا الشجرتين باعتباره ابن مسير، ولكن من ناحية أخرى ربما تم تضمين بقية الثعالبة القدامى الذين قيل إن المسيرية قد انحدروا منهم. إن إقحام "الحُمْر" بعد

"الحَمَر" بشكل توضيحي ربما يكون خطأً. إن حَمَر قبيلة مختلفة بالكامل ولا يجب خلطها مع الحُمر "الهُمْر". وربما يكون من السهل هنا أن نضيف الشجرة المطبوعة في دليل السودان والمبنية على إفادات كُبر عبد الرحمن شيخ الجُبارات فرع التعايشة:



كل أشجار النسب هذي مزيفة جزئياً بالطبع ولكن هذه الشجرة الأخيرة بها مسحة أكثر تزييفاً من الشجرتين الأخريين. تقول "نسبة دنقلا": "ينحدر عرب السلامات في الغرب من قضاعة [إحدى القبائل العربية القديمة] ومن السود... ويورد ابن دُقماق اسم قبيلة لها ذات الاسم لدى حصار الفسطاط بواسطة العرب (046م): ويورد بارث ذكرهم (المجلد "3"، صــ 554) بأنهم إحدى القبائل الرئيسة في باقرمي.



1 أعطى اسمه لمدرسة الإسلام المالكية. ومن الواضح أنه خارج المكان هنا وأقحم اسمه فقط باعتباره رمزاً مناسباً.

2 انظر الهامش "1"

3 تقول "نسبة دنقلا": "إن الرزيقات ينحدرون من رزيق الثقفي وينتسبون إلى بني ثقيف". كانت بنو ثقيف قبيلة عربية كبيرة ويرد ذكرهم كثيراً في التواريخ، الخ. انظر أيضاً كتاب سيل "القرعان"، صـ 14 و83.

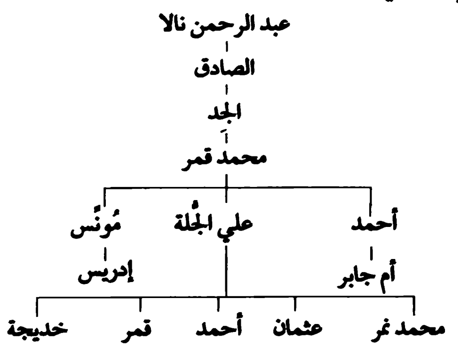
4 تقول "نسبة دنقلا" إن المسيرية منحدرون من قبيلة ثعالبة: "إن عرب المسيرية الذين يُسمَّون هكذا هم أبناء مسير ابن ثعالبة ابن نصر بن سعد بن نبهان وهي [أي قبيلة ثعالبة] فرع من قبيلة طي". وكانت طي قبيلة عربية قحطانية كبيرة في سالف الأيام، ويذكر المقريزي أن قبيلة ثعالبة استقرت في مصر في عهد فتوحات صلاح الدين (صلادين). انظر مذكرات كواترمير، صـ 190. وأخبرني كنانة أيضاً بطريقة عفوية أن المسيرية كانوا أصلاً فرعاً من قبيلة ثعالبة.

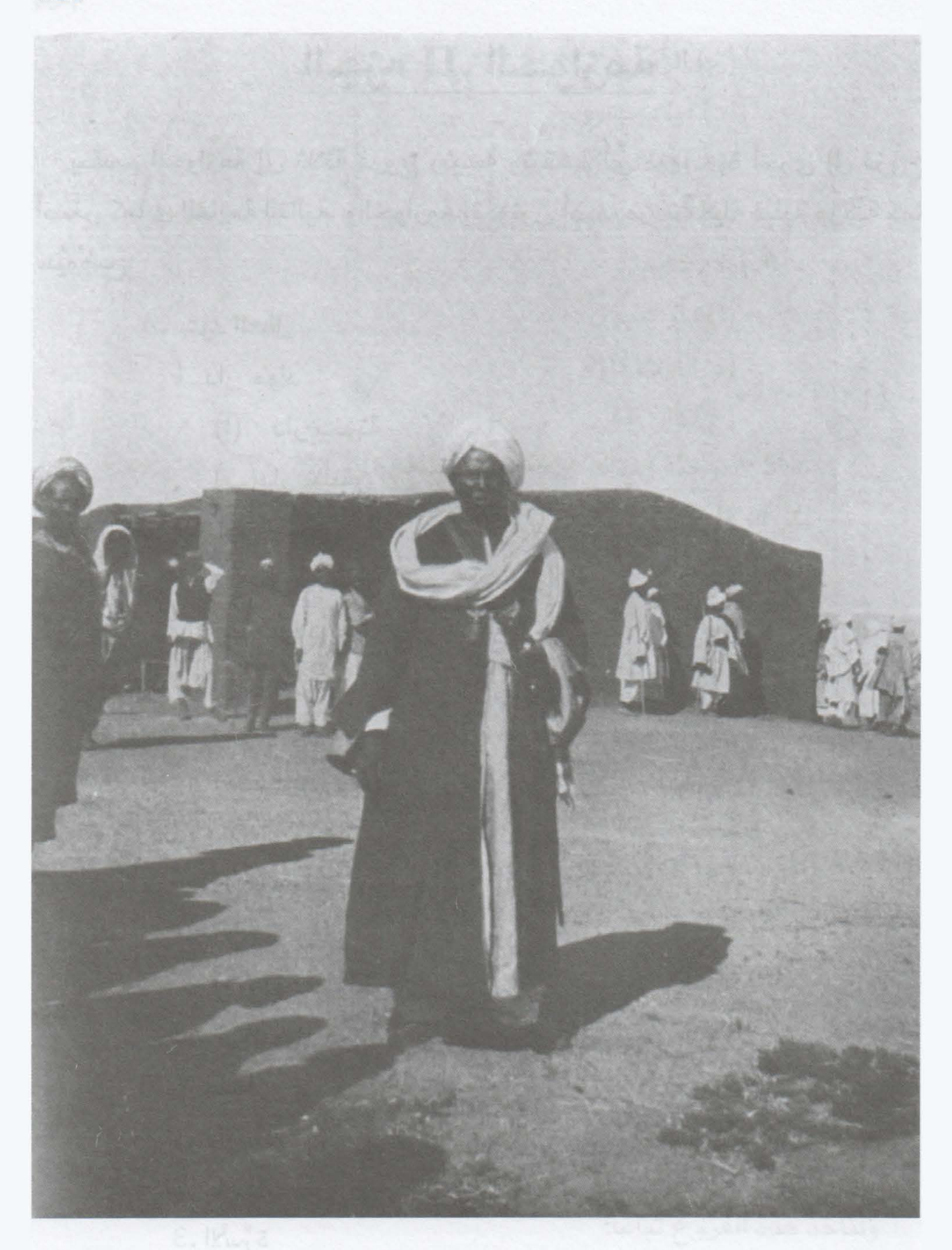
وأضيف أن أبناء عبد الله الجُهني قد هاجروا من الجزيرة العربية إلى فزان وأن حفيده الجنيد مات ودُفن في مصر، وقيل إن بعضاً من أحفاد عبد الله الذين ذهبوا إلى فزان استقروا هناك وغذَّ آخرون في السير جنوباً إلى بلاد برقو. وتقول القصة إن عجَّار جدَّ الحُمُر العجايرة قد تركه والده الضي وهو طفل مكشوفاً في الصحراء، وعثر مِسير ابن عم الضي على عجَّار وسلمه إلى ابنه محمد فليت لكي يقوم على تربيته، وموضوع هذه القصة بالطبع هو أن الحُمُر العجايرة مدينون بشدة للفلايتة. وقبل أن نترك الحُمُر نرى من الطريف ملاحظة تعليق "نِسبة دنقلا" حول أصلهم إذ تقول: "إنهم منحدرون من الأسود العنسي مدعي النبوة ذي الخمار، الكذاب، الذي ظهر في اليمن والذي كان اسمه عيهلة"[1]. وسبب العداوة الموضحة هنا هو أن الحُمُر كانوا دراويش متعصبين تعصباً صريحاً خلال حكم الخليفة كله، فناظر العجايرة الحالي علي الجُلَّة كان أحد "الملازمين" في مجلس الخليفة[2].

لقد عانت القبيلة معاناةً شديدة في "المهدية" جراء الحرب والوباء ولكن منطقتهم واسعة بما فيه الكفاية بحيث تسمح لهم في النهاية بالاستقرار وإعادة الانتعاش دون داعٍ للمشاكل مع جيرانهم على كل جانب كما يُرغم المسيرية على تلك المشاكل تقريباً. وهم يعملون في الزراعة أساساً حول المجلد وبَرَكة ولكن في موسم الجفاف يتجهون بقطعانهم جنوباً إلى بحر الحُمُر حيث تقع الغارات والغارات المضادة سنوياً مع الدينكا.

1 انظر كتاب سيل "القرعان"، صـ 139. وتقول نسخة متأخرة في "نسبة دنقلا" إن الحُمُر منحدرون من عرب الحِلب في صعيد مصر.

2 شجرة نسب علي الجُلة هي كما يلي:





"علي الجلة ناظر الحُمُر العجايرة، 1906م"

الجزء II. الحوازمة

ينقسم الحوازمة إلى ثلاثة فروع رئيسة وتنقسم أيٌّ منها مرة أخرى إلى فروع أصغر كما في القائمة التالية. والحوازمة يتكونون أصلاً من تشكيلة قبلية مركبة كما سيُوضح:

A. عبد العال

1. دار جواد
   (أ) دار بخوتة
   (ب)دار شلنقو
2. أولاد غبُّوش
   (أ) دار بطحة
   (ب) أولاد بعشوم
   (ج) دار دبل
   (د) المَعَانات
   (هـ) أولاد جماعة
3. دار بتي
   (أ) أولاد أبو آدم
   (ب) القرعان
   (ج) (فرعان آخران)
4. دار النِعيلة

B. الحَلفا

1. دار علي
2. دار فايد
3. الأسِرَّة
   (أ) أم ودغزّا
   (ب) أولاد جمعة

(ج) الزُّرُق

(د) أولاد مسيري

(هـ) أولاد سَرَّار

(و) أولاد معادة

4. أولاد غنيم

(أ) دار عجول

(ب) أولاد تاور

(ج) دار تنقل

5. التوجيَّة (هناك أربعة فروع صغيرة)

C. **الرواوقة**

1. دار جامع

(أ) الطُّوال

(ب) القصار

2. أولاد نوبة

(أ) أولاد رحمة

(ب) دار بلال

(ج) الفقرا

3. الدُّلَّة

(أ) أولاد تينا

(ب) السليمانية

(ج) أم ماجندة

(د) دار عَقول

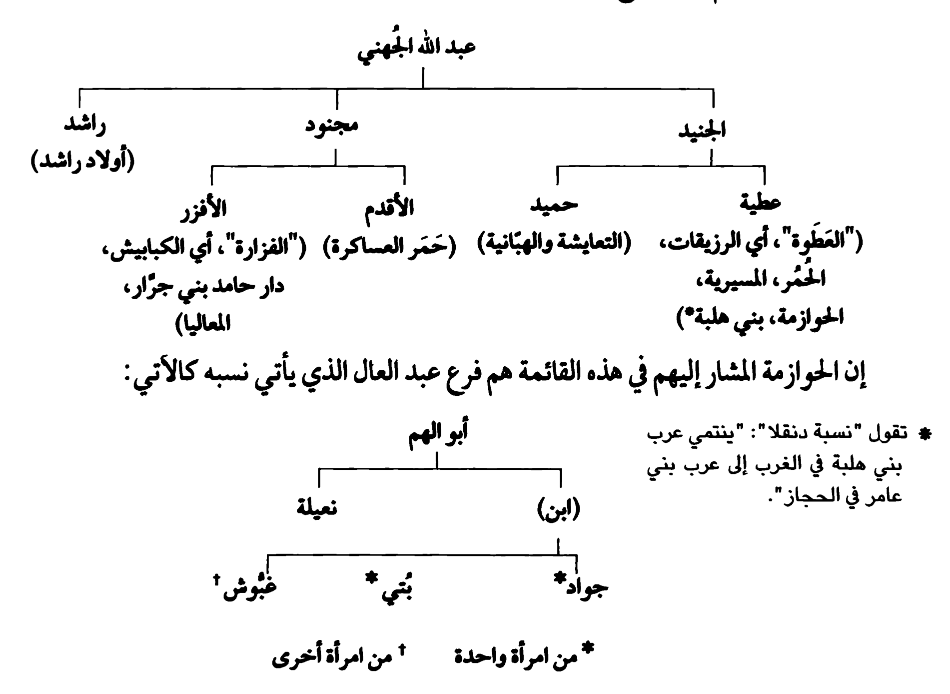
(هـ) المؤمنين

ولنأخذ هذه الفروع تباعاً:

A. يزعم فرع عبد العال أنهم ينحدرون كما هو موضح في القائمة التالية[1] وبالتالي

1 هذه القائمة وكثير مما يليها تحصلتُ عليها من شيخ غناوي المنتمي لفرع دار الجواد من حوازمة عبد العال.

فهم يعتبرون أنفسهم حوازمة أصيلين وأن بقية القبيلة عبارة عن زوائد غريبة أتت لاحقاً. وفي الواقع حتى هم لم يكونوا مطلقاً سلالة نقية، ذلك أن شيخهم حماد أسوسة وآخرين كثيرين هم بالأصح تكارير وليسوا عرباً.



ويروى أن الإخوة الثلاثة الجنيد ومجنود وراشد قد استقروا في دارفور حيث أتوا إليها من تونس، وامتلكوا هم وأبناؤهم ناقة رائعة لها ضرع مثل ينبوع ماءٍ دائم الجريان، واعتادت تلك الناقة أن تجوب المنطقة بجردلٍ مربوط تحتها حيث اعتاد الناس أن يشربوا منه. وقد سرقت قبيلة خوازم[1] هذه الناقة ونشبت معركة نتيجة لذلك، وهلك كثير من الخوازمة في هذه المعركة بحيث أن خواتم الزفاف (التي كان يلبسها الشباب لمدة أسبوع فقط بعد الزواج) غطت وحدها مقبض سهمٍ طويل. وبعد هزيمة الخوازمة أصبحت للمتغلبين عليهم اليد العليا وشقوا طريقهم تدريجياً إلى الشرق إلى كردفان مع إبلهم. وفي هذا الوقت اشتروا أولاً ثوراً وبقرة من حاج فلاتي كان في طريقه إلى مكة. وقام أحفاد أولئك الإخوة الثلاثة الذين استقروا في جنوب غرب

1 مستقرون في غرب السودان. كانت هناك قبيلة عربية مشهورة جداً تسمى خوازم، ويقول البعض إن فرع حَمَر الدَّقاقيم هو فرع من هذه القبيلة.



مشائخ الحوازمة، 1906م، ويظهر على اليمين حماد أسوسة.

كردفان بتربية الأبقار للمستقبل وتركوا تربية الإبل بحكم أنها غير ملائمة للظروف المحلية. وتقول رواية مختلفة من قصة الناقة[1] الرائعة إنها كانت لعطية وحِميد نجلي الجنيد، وكان حِميد أصغر الأخويْن تحت حكم أخيه عطية ولكنه تجرأ على أن يستولي على الناقة لنفسه ولجماعته. وتحارب الأخوان وأنصارهما، وكان عطية هو المنتصر وانتشر جماعته في كردفان وكانوا هم أسلاف بقارة كردفان الحاليين، أي المسيرية والحُمُر والحوازمة. واستقر حِميد وجماعته في الغرب وانحدر من سلالتهم الرزيقات والتعايشة والهبانية وبنو هلبة[2].

B. الحلفا: قيل إن الحلفا[3] يتكونون من ست قبائل مختلفة ليست فيها أية واحدة حازمية في الأصل، ففي منتصف القرن الثامن عشر تقريباً وفي أيام الفونج كان هناك مشائخ أسر معينة من ست قبائل وجدوا أنفسهم غير قادرين على الوقوف لوحدهم فأتوا إلى الحوازمة وطلبوا منهم الحماية ووافقوا على الانضمام إلى الحوازمة: وتمت الموافقة على اقتراحهم وأدى مشائخ الأسر الستة قسماً قانونياً لربط أنفسهم بالحوازمة، ومن هنا أتت تسمية "الحلفا". وكانت الأسر الممثلة كالآتي:

بديرية	جوامعة
تكارير[4]	زنارة[5]
جلابة[6]	عبيد

وانتشر بين هؤلاء الغرباء قليل من الحوازمة الأصليين. وكانت الأسِرَّة قبيلة منفصلة في كردفان حتى بداية القرن التاسع عشر وقد انضمت إلى الحوازمة مجتمعين، ومن

1 ذكرها الضي حاشي شيخ دار جواد الحوازمة (فرع دار بخوتي).

2 من ناحية البقارة انحدروا من عطية ومن ناحية حِميد فهي قضية شائكة دائماً.

3 هذه رواية الشيخ غناوي.

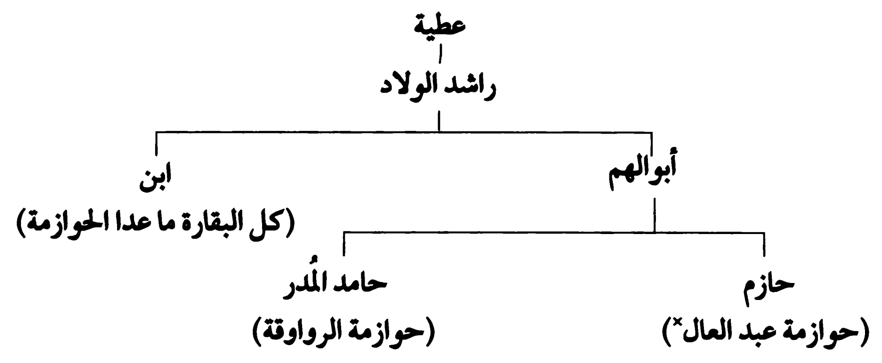
4 كل الفلاتة والقبائل الأخرى التي تأتي من الغرب وتعبر كردفان في طريقها إلى مكة لأداء الحج يشملها مصطلح "التكارير".

5 الزنارة أناسٌ مجهولو الهوية ووضيعون، فالمقريزي وابن خلدون والمسعودي يشيرون جميعهم إلى الزنارة باعتبارهم إحدى قبائل البربر التي استقرت ـــ مثلها مثل الهوارة ـــ في مصر والصحارى. انظر الفصل الرابع.

6 المقصود بهم الجلابة الهوارة. وينتمي الشيخ النور هنوَّة شيخ الحلفة إلى فرع الطوبيَّة وهو في الأصل جلابي هواري.

المرجح أن يكونوا مرتبطين بالبديرية. وفي البداية لم تكن قبيلة الأسِرَّة تابعة للحلافة كما في الوقت الحالي، ويزعم الحلفة أنهم كانوا يدفعون في أيام التركية نصف جزية الحوازمة ويدفع الأسِرَّة النصف الآخر. والمعنى الضمني (وهو معنىً زائف) هو أن أولاد عبد العال والرواوقة كانوا تابعين للحلافة.

C. يبدو أن الرواوقة أنفسهم غامضون حيال أصلهم، ويقول البعض إن سلالتهم كالآتي[1]:



وعلى أية حال ينفي آخرون[2] أن يكون الرواوقة حوازمة في الأصل ويقولون إنهم أتوا من الشرق ويقولون أمثلة محددة فحواها أن فرع السليمانية ينتسب انتساباً صحيحاً إلى بني سُليم على النيل وأن شيخ الرواوقة سومي تاور نفسه هو كناني في الأصل، ومن المحتمل أن يكون كثير من الرواوقة هم كنانة في الحقيقة. وقبيل ثورة الدراويش وفي عام 1874م حارب الرواوقة مع بقية الحوازمة حيث يُزعم أن سبب المشكلة هو التوزيع غير العادل للجزية، وكان نوَّاي آنذاك هو شيخ فرع عبد العال والحلفة وكان تاور هو شيخ الرواوقة. وقد شارك الحوازمة في الحصار الذي ضربه

1 حامد اللَّكَّة الذي ينتمي لفرع أولاد نوبة أعطاني هذه القائمة ولكن بشيء من التردد. فقد ذهب حامد إلى الحج عام 1907م وصرَّح لدى عودته من الحج بأنه قابل هناك حوازمة لديهم أنساب قبلية شبيهة بنسبه. وأنا لا أعرف إشارة إلى حوازمة يوجدون في الجزيرة العربية في شكل قبيلة في أي وقتٍ من الأوقات (رغم أن الحوازمة كثيراً ما يرد ذكرهم). يشير دوتي في كتابه (تجوالات في الجزيرة العربية، المجلد "2"، 135) إلى أن "حازم فرع من قبيلة حرب"، ويشير المقريزي إلى أن أولاد حازم هم فرع من عرب سِنبس (وسنبس فرع من قبيلة طي) الذين استقروا في مصر.

2 الشيخ غناوي مثلاً.

* إن نسبة اسم حازم إلى جدِّ قبيلة عبد العال لهو دليل على أن قبيلة عبد العال ـــ كما ذُكر أعلاه ـــ تعتبر حوازمة اصليين.

الدراويش على الأبيض ولكن عندما اقترح المهدي نقلهم إلى أم درمان ليساعدوا في الهجوم على الخرطوم تراجع معظم القبيلة إلى جبل الجُغُب في اتجاه الجنوب وبقوا قريباً من ذاك المكان حتى إعادة الفتح وتآلفوا إلى درجة كبيرة مع نوبة الجبال وانضم إليهم أيضاً عدد من المسيرية هناك. وعلى أية حال لم يكن مشائخ الحوازمة جميعهم محظوظين إذ قبض المهدي على نوَّاي وإبراهيم قيدوم شيخي الحلفة وقطية حماد شيخ دار بيتي ومحمد التوم شيخ أولاد غبُّوش واقترح أخذهم معه إلى البَحَر، وقد هرب نوَّاي وإبراهيم قيدوم لاحقاً ولكن تم القبض على إبراهيم قيدوم فيما بعد وأعدم ومات نوَّاي بالجدري بعد فترة قصيرة من هروبه. ومات قطية حماد في أم درمان وقُتل محمد التوم الناجي الأخير في معركة أتبرة.

يعتبر الحوازمة أنموذجاً جيداً للطبيعة المركبة لمعظم القبائل العربية بالسودان وأن وضعهم لخصته "نِسبة دنقلا" التي تقول ــ بعد أن أكدت أن الحوازمة هم فرع من قبيلة بجيلة وأنهم انحدروا من حازم ــ إن "عدداً من القبائل العربية والسود قد استهوتهم مزايا التماهي معهم والتمازج بهم فأصبحت السلالة الأصل وتوابعها متعذراً تمييزها"، و"يضم الحوازمة كذلك البدو القادمين من الحجاز والبديرية والتكارير وقبائل أخرى كثيرة".

الجزء III. الهبَّانية

الهبانية في كردفان هم مجرد فرع من الهبانية البقارة في دارفور، وهي قبيلة ترتبط ارتباطاً لصيقاً بالرزيقات والتعايشة وبني هلبة..الخ وتزعم أنها تنحدر من حِميد[1]. لقد هاجر الهبانية من الكَلَكَة إلى الشرق قبل أربعة أجيال أو خمسة أجيال تقريباً واتخذوا موطناً لهم لأول مرة في الرهد بإذنٍ من الجوامعة، وبعد فترة قصيرة هاجمهم الحوازمة ولكن الجوامعة نجحوا في إقرار السلام بين الطرفين. ولكن الهبانية أُجبروا على التحرك شرقاً واستقروا أخيراً حول شركيلا رغم أنهم كانوا يسيمون ماشيتهم في مرعى المنطقة الواقعة حولهم وخاصة إلى اتجاه الجنوب في المنطقة القريبة من تقلي. وذكر براوت عام 1876م أنهم كانوا بين الرهد وشركيلا وتقلي وقدَّر أن أعدادهم كانت 8000 نسمة تقريباً. لقد ظل الهبانية يدخلون في أوقاتٍ مختلفة في عداءاتٍ مع معظم جيرانهم بحكم أنهم كانوا طبيعياً أناساً قلقين ومشاكسين، فبُعيْد انتقالهم من الرهد مباشرة دخلوا في نزاع مع الملك ناصر مك تقلي وتدخل الجوامعة مرة ثانية وسوَّوا المشكلة. ودخلوا عدة مرات في صراع مع الجِمِع أيضاً، وكانت آخر حادثة ذات أهمية أثناء حكومة حسن باشا حلمي معركةً حامية دارت في العِقيلة. في عام 1881م تم تخفيض جزية هبانية كردفان من 748 جنيه أسترليني إلى 215 جنيه أسترليني غير ثابتة، وقد قدِّرت جزية هبانية دارفور بــ2640 جنيه أسترليني[2].

كان أمير فرع الهبانية في كردفان في أيام الدراويش هو التوم أودون وظل عمدةً لهم حتى وفاته في عام 1910م. وفروع الهبانية الرئيسة هي كالآتي:

A. الطارة	B. السُّوط
الشيبون	الشابول
السَّلمانية	الرَّيافة

1 تقول "نسبة دنقلا": "الهبَّانية هم أبناء هبَّان بن القلوص بن عمر بن قيس، وقيس فرع من باهلة [وهي] قبيلة منحدرة من قيس عيلان...". وقيس عيلان كانت إحدى قبائل الجزيرة العربية الرئيسة.

2 انظر ستيوارت.

الهليات

أولاد عايد

أولاد زيد

أولاد أبو عامر

أولاد جرجار

الدرابين

أولاد بيلو

الكمارسة

أولاد رحيمة

أولاد إدريس، أو أم إدريس

الكِجامة

أولاد معافين

المهدي

الهدايلي

المريرات

المساعيد

الفريجات

أولاد أبوعيَّاد

أولاد أم سُنطة

أولاد بُرجاوي

الغنَّايات

أولاد سعدان



مشائخ غرب كردفان، 1906م

الفصل الثاني عشر

حَمَر

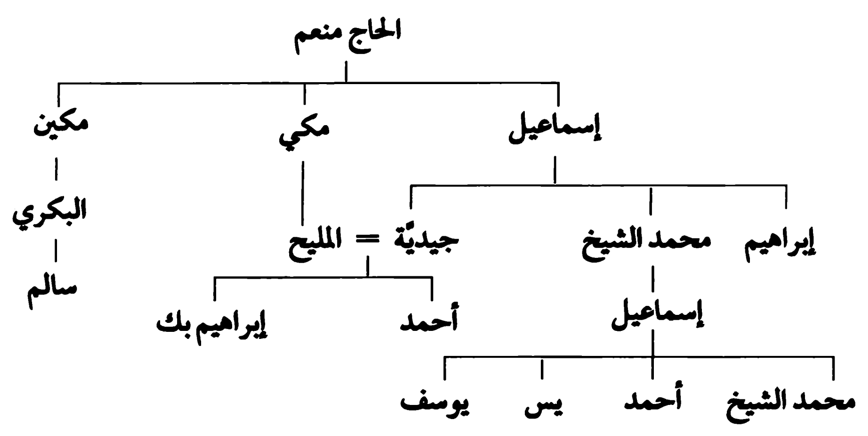
الحَمَر قبيلة كبيرة لكنها مترابطة ترابطاً مُهلهلاً ولديها صلات أقرب بالمجموعة التي تضم دار حامد والمعاليا وغيرهما أكثر من صلاتها بمجموعة البقارة والجوامعة والبديرية. ويعتبر الحَمَر بحسبانهم قبيلة من أصلٍ حديث نسبياً، ومن الواضح أن اسم حَمَر كان مجهولاً أو غير جدير بالذكر على الأقل إلى الخمسة أجيال أو الستة أجيال الماضية. وهم يزعمون بشكلٍ ملتبس أن لهم نسباً نهائياً من عبد الله الجُهني وأباً مشتركاً اسمه الأحمر وهو الذي يشتقون منه اسمهم[1]. ولكن كان أول اسمٍ مهم بينهم هو اسم الحاج منعم من فرع العساكرة الذين عاشوا في وقتٍ متأخرٍ جداً مع بداية القرن الماضي. وكان الحَمَر حتى زمن الحاج منعم قبيلة غير مهمة تعيش في دارفور حول أم شنقة. وقد ثارت المشاكل آنذاك بينهم وبين المعاليا فهاجر معظم الحَمَر شرقاً إلى ما يُعرف بكردفان الآن، وأصبح بعضهم بما فيهم أسرة الحاج منعم ذاتها مستقرين في القرى لجزءٍ من السنة ولكن المجموعة الرئيسة ظلت بدوية الطابع بشكلٍ دائم حيث يتجول أفرادها من الأضية إلى المنطقة المكشوفة شمال أم بادر وشرقاً حتى أبو حراز وأم صميمة وجبل أبو سنون وأم شديرة [أم شجيرة] وجبل أبو عسل. وكما كان متوقعاً لم يجدوا الترحيب من قبل بدو كردفان ونشبت العداوات بين الحَمَر من ناحية والكبابيش والزيادية (الذين كانوا إضافةً إلى ذلك في عداءٍ مع بعضهم البعض) من الناحية الأخرى ووقعت الغزوات والغزوات المضادة بصورةٍ مستمرة في الأراضي الرعوية الشمالية الواقعة بين أم بادر وأم سنيطة بعيداً عن كل سلطةٍ حكومية وذلك حتى نهاية نظام الحكم التركي.

ازداد عدد قبيلة الحَمَر بكثرة في كردفان ولم تفق قطعان إبلهم في "التركية" معظم

---

1 يقول حَمَر الغريسيَّة إنهم أتوا من اليمن في عهد الخلافة واستقروا في دارفور بين كبكابية وجبل مرة، ويقولون إنهم حاولوا في تاريخ متأخر جداً أن يهاجروا شرقاً مرة ثانية ولكن أعداداً كبيرة منهم أهلكها العطش قرب جبل السّرج وجبل أم عودين.

قطعان القبائل البدوية الأخرى الواقعة غرب البَحَر فحسب بل حتى قراهم احتلت الأصقاع الشاسعة بين النهود وجبل أبو سنون. هذا المجد الذي نالته القبيلة في مدىً قصيرٍ كهذا يُعزى بالكامل إلى مغامرة أسرة الحاج منعم، ولذا فمن المهم أن نعرف من هي هذه الأسرة:



خلف إسماعيل والده الحاج منعم وبعد أن فتح الأتراك كردفان بقي ناظراً للعساكرة في كردفان في الوقت الذي كان فيه شقيقه مكي — وفيما بعد المليح ابن مكي — شيخاً للحَمَر العساكرة في دارفور (كانت الحدود بين البلدين في ذلك الوقت في جبل بعشوم). واستقر إسماعيل في فرشاحة وأثبت أنه أفضل وأقوى حاكم عرفته القبيلة على الإطلاق وكان مقاتلاً شجاعاً وقاضياً عادلاً وإدارياً مقتدراً وسخياً[1]. وقد وضعه الأتراك في السجن لبعض الوقت وذلك لرفضه تقديم كشوفات الثروة التي تمتلكها قبيلته عيناً، وقد أطلقوا سراحه لاحقاً وأعادوه إلى السلطة لما وجدوا أن نزع يده القوية من القبيلة سببت لهم مشاكل ولم تجلب لهم فائدة. ولأن حَمَر كانوا أصحاب إبلٍ كثيرة فقد كان الأتراك يطلبونها مراراً وتكراراً لأغراض النقل إضافةً إلى حراسة حدود دارفور وأعطوهم بالمقابل حرية التصرف في زيادة جزيتهم بإرسال حملات النهب إلى دارفور وقد شجعوهم في الواقع بل وساعدوهم في شنِّ هذه الغارات[2]. وكان حَمَر هم الذين تولوا أيضاً في نهاية التركية أمر عقد عملٍ يقتضي مدّ خط التلغراف من الأبيض إلى

1 انظر بثريك، صعيد مصر...، الفصل "19".

2 انظر بالمي، صـ 143.

الفاشر[1]. وفي عام 1847م قدَّر بثريك أن حَمَر يمكن أن يبلغوا 2000 رجل يرتدي معظمهم أقمصة البريد والخوذ[2]، ويصف بالمي الحَمَر بأنهم من ألطف فئات الناس في هذه المديرية حيث قال عنهم: "لم أسمع أبداً بأنهم عاملوا إنساناً أجنبياً معاملة سيئة أو نهبوه وأقلَّ من ذلك بكثير أن يكونوا ارتكبوا حالة قتل"[3]. ويمكن للمرء أن يعلِّق بأنهم انحطوا الآن إلى مجتمعٍ حقيرٍ سِكِّيرٍ ذي عاداتٍ لصوصية. وفي الحقيقة سمع إنسور في حوالي 1876م بأنهم كانوا "من أكثر القبائل طراً ولعاً بالقتال وأكثرها لصوصية في دارفور"، وقد وجدهم هو نفسه "أشخاصاً سيئي التنشئة ومجموعة من الأناس الحقيرين بلا شك"، ويقول عنهم أيضاً: "الحَمَر هم أغنى البدو جميعاً في هذا الجزء من إفريقيا ويفوقون عدداً نسبة بدو الكبَّابِّيش وبالتساوي [ويساوون؟] تقريباً كل تلك القبيلة بما في ذلك المستقرين على ضفاف النيل". وكانت معظم نسائهم "من طرازٍ شبه زنجي أو من طرازٍ زنجيٍّ كامل بصورة واضحةٍ تقريباً. ويحتفظ الحَمَر بزوجاتهم العربيات الأصيلات معزولاتٍ في البيت إذ لم يكن لديهم كثيرٌ منهنَّ، وهم يرفعون من قدرهنَّ وفقاً لذلك... فأن تكوني زوجة حَمَر شيءٌ تحسدكِ عليه كثيرٌ من نساء القبائل الأخرى[4]".

في عام 1874م استولى الأتراك على دارفور وأصبح إبراهيم ابن إسماعيل وخليفته ناظراً للعساكرة في كردفان ودارفور، ولكن فرع الدَّقاقيم لم يكن تحت سلطته على أية حال، فالدَّقاقيم يزعمون أنهم كانوا مستقلين من العساكرة منذ قبل أيام الحاج منعم. وخلف الناظر إبراهيم ابنُ أخيه أحمد المليح نجل الشيخ السابق للحَمَر العساكرة في دارفور قبل فتح تلك البلاد، وخلف أحمد المليح شقيقه إبراهيم بك المليح الذي يدين بلقب "بك" للحكومة التركية. وقد حدث تقسيم أكثر في عهد إسماعيل باشا أيوب حيث فصل عبد الرحيم بك أبودَقل على رأس فرع الغريسيَّة نفسه من سيطرة الدَّقاقيم التابعين لشيخ حماد بك فتين وبقي مستقلاً إذ إن فرع الغريسيَّة كان يمثل طرفاً ثالثاً

1 انظر إنسور , صـ114.

2 انظر بثريك، صعيد مصر...، الفصل "19".

3 انظر بالمي، صـ 114.

4 انظر إنسور، صـ 86. لقد وجد إنسور عام 1876م أعداداً كبيرة من حَمَر في أم بادر. ويذكر أنهم قاموا قبيل ضمِّ دارفور (1874م) بالهجوم على مونزنقر باشا وطردوه من أم بادر (انظر إنسور، الفصل "9").

من الدَّقاقيم. وبالتالي ولدى اندلاع المهدية كان إبراهيم بك ناظراً للعساكرة وكان حماد بك فتين يحكم الدقاقيم في الغرب وكان أبو دَقل يحكم الغريسيَّة، وأصبح ثلاثتهم جميعاً أمراء دراويش: وقد وقع إبراهيم بك في سخط الخليفة قرب نهاية المهدية وأودع في السجن وقد مات بعد أربعة أعوام أو خمسة أعوام من إعادة فتح البلاد، ومات حماد بك عام 1905م تقريباً وما زال أبو دَقل حياً وناظراً لأهله.

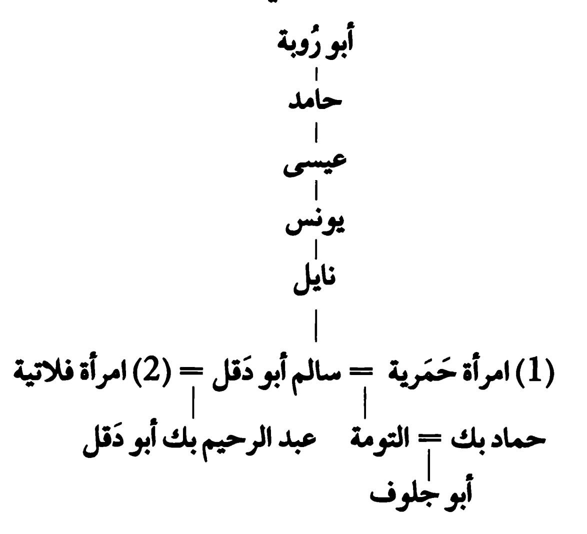
لقد فقد الحَمَر في أيام الدراويش كل ثروتهم وأهلكت أعدادهم، ويُضاف إلى هذه المحن التي حلَّت بهم أن خصومهم السابقين من الكبابيش أخذوا معظم الإبل المتبقية لهم بمجرد أن انتهت سلطة الخليفة، ونتيجة لذلك أصبحت كمية إبل حَمَر شيئاً لا يذكر في الوقت الحالي. وقد ازدادت كثافتهم السكانية مرة ثانية ولكنهم جميعاً أصبحوا مستقرين عملياً[1] ومهتمين فقط بالزراعة ولقيط الصمغ وشرب الخمر والمشاجرة. ولديهم مساحات واسعة من الزراعة وغابات الصمغ حول رهيوة (مسقط رأس ناظر فرع العساكرة الحالي إسماعيل محمد الشيخ ابن أخ إبراهيم ود إسماعيل المذكور آنفاً) ولكن يوجد معظمهم كثيراً إلى جهة الغرب حول النهود وفوجا. ولا يستطيع حَمَر أن يدركوا بعد أن "المجد قد أفل" وبالتالي فإن كل المنطقة التي كانوا يتجولون عليها بدواً في أيام إسماعيل ود الحاج منعم المزدهرة لم تعد تؤول إليهم، فدار حَمَر اليوم عبارة عن منطقة لا ماء فيها وذات سهوب مغطاة بالأدغال. فالإمداد المائي للسكان يؤخذ من أشجار التبلدي التي يستخدمونها في شكل خزانات وذلك باستثناء آبارٍ قليلةٍ معزولة في النهود والأضية وأم بَلْ، وتعتمد قطعانهم أساساً على البطيخ البري. ولسوء حظهم فإنَّ تدهور قبيلتهم قد تزامن مع اختفاء أماكن ريِّهم الرئيسة، فمثلاً فوجا التي كانت ذات مرة موقعاً لمئات الآبار الصالحة وكانت حامية ومديرية كبيرة هي الآن ظامئة شتاءً وصيفاً وأن أم بادر التي وجد فيها إنسور في مارس 1876م 500 بئر و10000 جمل يشرب يومياً فيها والتي قال عنها "إنه قبيل هطول الأمطار مرة ثانية يوجد أحياناً ماءٌ لا يزيد عن حاجة مائة بعير للشُّرب يومياً"[2] هي الآن ظامئة ظمأً كاملاً

1 فرع الجخيسات الذي يعتبر حَمَري هم في الأصل شنابلة، وهم بدو ويقتنون إبلاً كثيرة.

2 انظر إنسور، صـ 80 و134. إن التغييرات التي تحدث في إمداد المياه الجوفية في شمال كردفان لهي تغييرات ملحوظة، فالاتجاه العام يتعلق بنقصان في الإمداد المائي في أماكن الري القديمة، وفي ذات الوقت يتم اكتشاف مواقع جديدة من حينٍ لآخر (كما في الجبيلات مثلاً). هذه الظاهرة الحادثة على نطاق كردفان

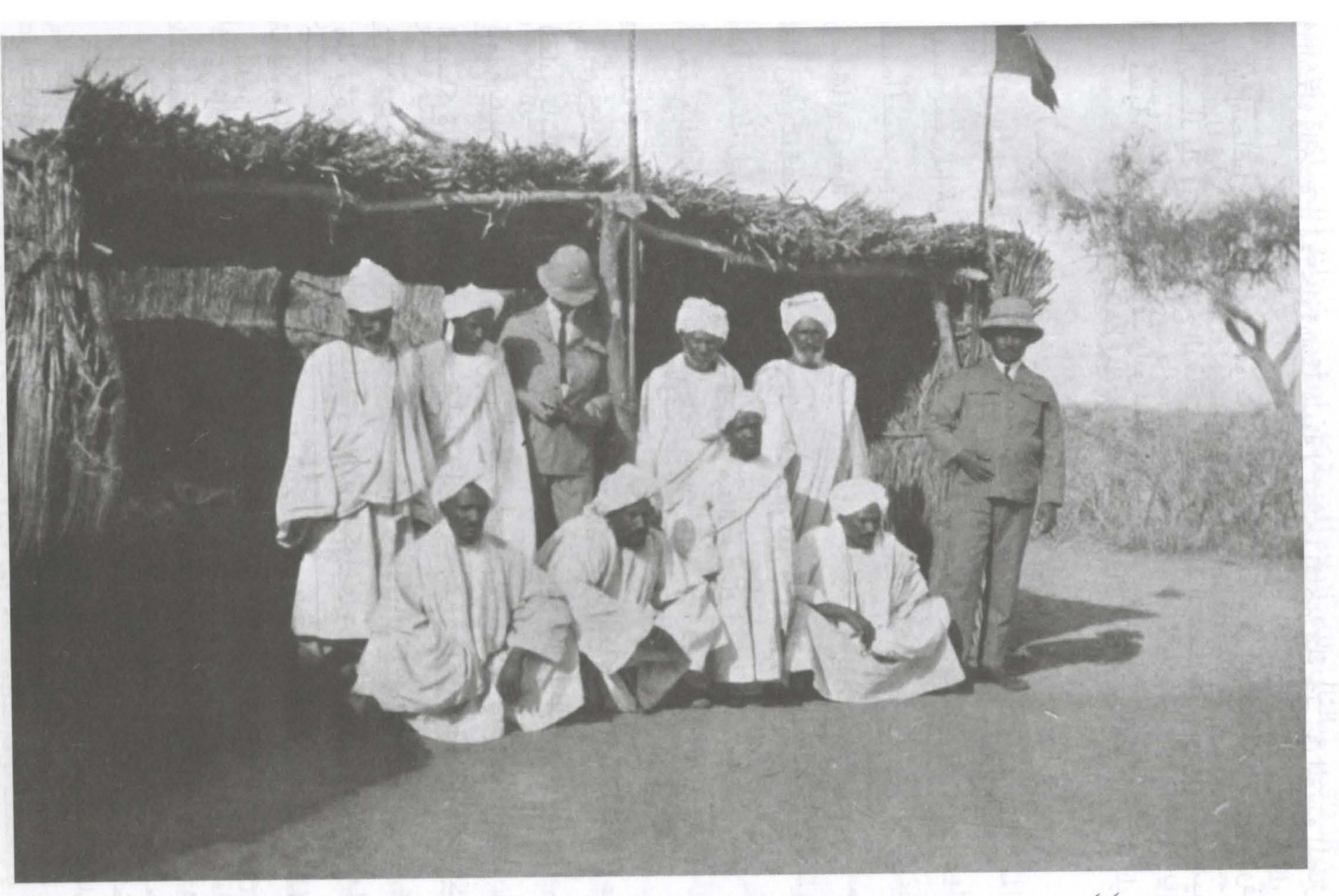
في الشتاء والصيف، وفي حلول سنةٍ سيئة لا تجدها تفيض ماءً حتى في الموسم المطير.

إن إسماعيل محمد الشيخ هو شيخ حَمَر العساكرة في الوقت الحالي وأبوجُلُوف نجل حماد بك فتين هو شيخ الدَّقاقيم الأصليين وعبد الرحيم بك "أبودَقل" هو شيخ الغريسيَّة، ويرتبط أبو جلوف وأبو دقل كالآتي:



تم تعيين أبو دَقل "بمباشي" بواسطة غردون باشا كما عُين "بك" بواسطة عبد القادر باشا، وعندما تخلى الأتراك عن السودان انضم أبو دقل إلى الدراويش وعُيِّن أميراً لجهة كسلا، وبعد هزيمة أحمد فضيل استسلم أبو دقل وناصبَ الخليفة العداء. إن العساكرة والدَّقاقيم والغريسيَّة مختلطون إلى درجة كبيرة ولكن عموماً فإن العساكرة يمتلكون كل المنطقة الواقعة غرب حدٍّ مرسومٍ عبر جبلي أم شِرْش والبعشوم ويمتد عبر غلَّة برَّة وجريبان وأيضاً عبر مناطق شلوتة والكول وأجزاء من شق الدود والسعاتة

يلاحظها إسكيارك دولوتور في كتابه "الصحراء والسودان" حيث أقنعته الشهادة المجمع عليها من الناس أنه من الضروري في أماكن كثيرة في الأعوام الأخيرة أن تحفر ثلاث مرات أو أربع مرات حفراً عميقاً للحصول على الماء كما كان عليه الحال في الأجيال السابقة. والآن مضت خمسون عاماً منذ أن كتب إسكيارك دولوتور وبعد ذلك ما تزال ذات الظاهرة ملحوظة، فمثلاً أن الحقيقة المعترف بها هي أن مستوى الماء في شرشار أدنى كثيراً مما كان عليه في وقت متأخرٍ جداً كما في أيام المهدي. يقول دولوتور (صـ 67): "على أية حال أراني افترض أن هذه التغييرات في المستوى والطبيعة تعزى إلى فعل التيارات التحتية العنيفة التي تتحرك على انحدارات حادة وتعمل على تغيير الطبقات التي تمر بها كما تعمل في كل لحظة على تمهيد المسارات الجديدة خاصة الترسبات الملحية التي تبدي مقاومة قليلة أمام فعلها القوي".



نظار حمَر، وعمدة المجانين، ونظار الكبابيش، كاجا وكتول، كاجا السّروج والكواهلة، 1909م

والهُوَيْ وفرشاحة. ويمتلك الدَّقاقيم والغريسيَّة المنطقة الواقعة شرق الخط المذكور آنفاً حتى النهود والأضية وأيضاً شق الحفيظة وأجزاء من مناطق شلوتة..الخ (ما عدا فرشاحة). إن الفروع الرئيسة للقبيلة هي كالآتي:

1. العساكرة

A. الغشيمات

1. أولاد جامع
(أ) أولاد معز
(ب) الشنابير
(ج) الغرارة
(د) المرازيق
2. السديرات
3. أولاد معالي
4. أولاد غاسي
5. أولاد علي

B. بني بدر

1. المَرَامرة[1]
(أ) المليحة
2. السعادات
(أ) أولاد غنُّوم
(ب) المحالحيل
(ج) ناس زيد
(د) ناس الصُّول
(هـ) ناس مطلوب

C. الخمسات

1. الميامين
(أ) أولاد صُبوح
(ب) البدرانيَّة
2. المناضير

---

1 هم دار حامد في الأصل.

3. الجخيسات[1]

(أ) أم حسين

(ب) أولاد ضياب

(ج) أبو ضان

(د) المراحيل

(هـ) ناس مُعمَّر

4. المنانة

5. الخريسات

D. الطّرادات

1. الدّاميع

(أ) الصّبيحات

(1) ناس سودري

(ب) القلادة

(ج) التّيايسة

(1) أولاد علي

(2) الجوابرة

(3) النّوارة

(4) العبّاسية

(د) الفواضل

(هـ) الغنيميّة[2]

(1) ناس أبو جبل

(2) ناس علي

(3) ناس بلال

(4) ناس جمُّوعة

(و) النّواجات

(ز) أولاد خَدرة

(ح) العبادية

(1) ناس أبو جمعة

(2) الجريني

---

1 الجخيسات هم أصلاً شنابلة من فرع العوامير ولكنهم انفصلوا من تلك القبيلة وانضموا إلى الحَمَر.

2 هم جوامعة في الأصل.

2. الدَّقاقيم

A. الوايليَّة[1]

1. ناس هازل
2. ناس الحُر
3. ناس أبو حميدان
4. ناس حمير
5. ناس حاروش
6. ناس راحة
7. ناس أبو عوين
8. أبوجمانين

B. ناس أبو زيد

1. ناس الساري
   (أ) ناس جبر
   (ب) أولاد صُبيح
2. ناس عبد السلام
3. ناس فرج الله
4. ناس أبو تينو

C. الشعيبات

D. أولاد شدوان

E. أولاد عامر

F. أولاد بُرعاص

G. أولاد سِهيَّة

1. ناس الصود
2. ناس فريوة
3. ناس ربيح
4. ناس أَبونعامير
5. ناس مُسلَّم
6. ناس خالا

H. الجمعانيَّة

J. الغراقة

---

1 يزعم أنهم يرتبطون أصلاً بالكواهلة.

3. الغريسيَّة

A. الحَداحْدة

1. أولاد حماد
2. أولاد أم بطنين
3. الدُّبُوبَة
4. أولاد شريف
5. أولاد نمر
6. البراعيم

B. أولاد شيقان

1. ناس إسماعيل
2. أم كسيبة
3. ناس نصر
4. ناس أبو مريكيح
5. ناس محمد
6. الحُمران

C. أولاد قايد

1. ناس أبوحجيوة
2. ناس ترفة
3. أولاد عادي
4. الهبابيش
5. ناس مرمي
6. السَّعَدية
7. أولاد جابر
8. ناس سحاريف

D. الصَّبحة[1]

---

1 الصَّبَحة ليسوا حَمَر في الأصل أبداً ولكنهم تابعون لهم.

الفصل الثالث عشر

الميما

ربما يمثل الميما إحدى قبائل غرب السودان القديمة التي نصْفها عربي ونصْفها أسود وأن أولئك الموجودين في كردفان هم مجرد فرع من القبيلة الرئيسة. وغنيٌّ عن القول إنهم يدَّعون أصلاً عربياً سامياً بل يتحدثون عن خليفة الإسلام الثالث باعتباره جداً لهم. لقد كانت دولة غانا في وقتٍ مبكرٍ جداً يعود إلى القرن الحادي عشر منهمكة في حربٍ مع شعب يسمى ميما، وبعد ثلاثمائة عامٍ لاحقة كانت تمبكتو "مكتظة أساساً بمواطني الميما"[1]. لقد كان هؤلاء الميما في كل الاحتمالات أسلافاً لقبيلةٍ تحمل الآن ذات الاسم.

عندما زار التونسي دارفور في عهد حكم السلطان محمد الفضل كان الميما لا يزالون تحت نفوذ سلطانٍ يدفع الجزية لدارفور ولكنه كان شبه مستقل: وكان الزغاوة والداجو والتنجر وغيرهم في حالةٍ مشابهة. وقد جعل الميما من أنفسهم في الأيام الأخيرة قبيلة مشاغبة وغير مستقرة، وبعد فترة قصيرة من تعيين غوردون حاكماً عاماً للسودان ثاروا هم والخوابير ورغم أنهم قُمعوا لكنهم ظلوا ساخطين[2]. وفي عام 1883م وبعد اندلاع المهدية قاموا بطرد سلطانهم داؤد وبتعيين سلطانٍ آخر وانفجروا متمردين مع أصدقائهم السابقين الخوابير، فأرسل سلاطين بك إليهم عمر دارهو الذي هزمهم وأنشئت المخافر في وُودا وفافا داخل منطقتهم ولكن قبل انتهاء السنة ثاروا مرة ثانية وأبادوا عمر دارهو ورجاله في وُودا. وأثبتت محاولات أكثر لإخضاعهم فشلها، وكانوا دراويش متحمسين في بقية فترة المهدية.

إن معظم القبيلة في الوقت الحالي موجودة في دارفور ولكن هناك عدداً منهم منتشراً

---

1 انظر كولي، صـ 86.

2 انظر سلاطين، الصفحات 2، 7، 9.

في صعيد مصر ودنقلا[1]، كما يوجد كثير منهم في كردفان حول الرهد وتقلي وسط الغديات، ويوجد آخرون أبعد شيئاً ما إلى جهة الشمال وسط قبائل دار حامد ووسط أولاد مُرُنج والجوامعة والبزعة والزغاوة: وقد منحت القبائل الأربع الأخيرة في كل حالة الميما الأرض ليزرعوها شريطة أن يقوموا بدفع جُعْلٍ بسيط. ويقول الميما الموجودون في كردفان إن الميما الموجودين في الغرب هاجروا إلى هناك من شمال إفريقيا مباشرة[2] ولكن كثيراً من الميما الآخرين أتوا إلى كردفان عن طريق النيل تحت قيادة واحدٍ اسمه الحاج موسى وقد منحهم الجوامعة ودار حامد أراضٍ وزوجات. ويقولون أيضاً إن قبيلتهم هي فرع من أمية (مفردها أموي) وبالتالي فقد سمَّوا أنفسهم ميما على مُسمى الحرف "ميم" الذي يرمز بشكله إلى التماسك والتضامن.

---

1 - ويزعمون أيضاً أن هناك وجوداً للميما بكثرة في مكة. وتربطهم "نسبة دنقلا" ببني ثعالبة الحجاز.

2 - ربما يكونون أتوا مع التنجر.

الفصل الرابع عشر

كنانة

اسم كنانة معروف بأنه إحدى أعظم وأشهر قبائل الجزيرة العربية لا لأنهم كانوا مجموعة كبيرة وقوية بل لأن قبيلة قريش نفسها لم تكن سوى فرعٍ منهم. وربما برزت قبيلة كنانة إلى حيز الوجود بعد مائة عام تقريباً من بداية العهد المسيحي واتخذت موئلها في الحجاز حول موضع مكة وفي اليمن. وكان أفرادها في تلكم الأيام الباكرة يعبدون العُزَّى ولا يُعرف إلا القليل عن تاريخهم المبكر ولكننا سمعنا عنهم عندما هزموا الحِمَيَرِيِّين في اليمن بين عامي 270م و272م. وفي عام 580م دخلوا في الحروب المهلكة التي عُرفت باسم حرب "الفجَّار" بين كنانة والقبائل ذات القربى معها من ناحية وبني هوازن من الناحية الأخرى. ولدى ظهور محمد لم يجد الإسلام تأييداً من كنانة وقريش وقد كانوا هم الذين هزموا النبي في أُحُد تحت قيادة أبي سفيان عام 625م، وبعد خمس سنواتٍ لاحقة تم تحطيم صنم العُزَّى بواسطة خالد بن الوليد واستسلمت كنانة لمحمد بعد فتح مكة. لم يكن ولاؤهم للإسلام قوياً — وهو ولاءٌ كان متأخراً ومستأنياً أصلاً — لأنهم تمردوا أثناء خلافة أبي بكر[1]. وعندما تم غزو إفريقيا هاجرت أعدادٌ كبيرة من القبيلة إلى هناك في حين أن آخرين منها بقوا في الجزيرة العربية حيث ما يزال أحفادهم موجودين على طول المناطق الشمالية والوسطى وخاصةً في الحجاز[2]. في عام 1249م أنشأت كنانة حامية دمياط وقد أمازوا أنفسهم بدرجةٍ كبيرة في الدفاع عن تلك المدينة ضد هجمات الصليبيين بقيادة لويس التاسع[3].

---

1 انظر كوسين دي بيرسيفال، المجلد "1"، صـ 193 إلى صـ 241.

2 انظر مثلاً بالقريف، المجلد "1"، الفصل "9"، صـ 459. ولاحظ أن ابن بطوطة (1353م) عندما عبر من سواكن إلى اليمن وجد سلطاناً كنانياً في ميناء حالي ووجد كنانة وبني حرام يقطنون في المنطقة المجاورة له. (المجلد "2"، صـ 162 وما يليها).

3 انظر لين بول، تاريخ مصر، صـ 232.

لقد غذَّ جزءٌ من كنانة السير جنوباً عبر مصر وسار آخرون غرباً حتى بلغوا المغرب. ويذكر المقريزي (1400م) أن كثيراً من كنانة استقروا حول ساقية "كولتا" في أيامه وأن فروعاً منهم انتشرت في أماكن أخرى في مصر. وقد قسِّموا إلى ثلاثة فروع، هي: الليث والدامرة وفرس[1]، ويقول ليو آفريكانوس عن أولئك الذين تحركوا من مصر غرباً إنهم أصبحوا في بداية القرن السادس عشر تابعين لملكة فاس[2]، ويذكر مارمول الذي كتب لاحقاً أنهم استطاعوا أن يجمعوا 23000 رجلاً مسلَّحاً في المغرب. وربما كان من المحتمل أن كنانة الذين استقروا في مصر هم الذين يوجد أحفادهم عموماً في السودان، وتقول رواية كنانة في كردفان إن جدهم السيد أحمد زَبَدَ البَحَر وهو فقير من مكة انحدر من حمزة أصغر أبناء عبد المطلب جد النبي، وبعد وفاته تشاجر أحد أبنائه ـــ منصور ـــ مع الأبناء الآخرين فيما يتعلق بالخلافة وغادر مكة إلى مصر مع شقيقه الأصغر عبد الله، ومن هنا لُقِّب بـ"الحردان". ومن مصر سار منصور مع النيل إلى السودان حيث أعطاه كلٌّ من الجموعية (من أصل الجعليين) ومحس دنقلا زوجة وأنجب ستة أبناء هم: يس وعلي أبو الفهرة وحماد الأصلع وسوار وإدريس سراج وعلوان. وكان هؤلاء هم أجداد فروع كنانة الموجودة الآن في السودان ما عدا الدودية الذين انحدروا من عبد الله. وقيل إن فرع السِّراجاب الكبابيش منحدرٌ أيضاً من إدريس سراج[3]، وفي الواقع ربما كان هناك مدَّعون كثيرون أخر لنسب كنانة منتشرون بين القبائل المختلفة. وقيل إن أوائل الوافدين من كنانة إلى السودان قد استقروا في جبل كرون جنوب تقلي ودخلوا فيما بعد في صراع مع فريق من الكواهلة[4] المستقرين في المنطقة وطردوهم إلى جهة الجنوب.

تقول نِسبة كنانة إن منصوراً عاش قبل 16 جيل من الآن وبعد 17 جيل من عبد المطلب، ومجمل هذا 33 جيل، فإذا قدِّر عُمر الجيل بـ40 عاماً فإن مجمل الفترة كلها يصبح 1320 عاماً وتقريباً هو عدد السنوات التي مضت منذ عهد عبد المطلب. ولذا فإن نِسبة كنانة ليست بالضرورة غير موثوقة مثل معظم النِّسب التي قدمتها القبائل

1 انظر كواترمير، المجلد "2".

2 انظر ليو، الجزء "1"، صـ 146.

3 انظر الفصل الخامس عشر عن الكبابيش.

4 انظر الفصل الأول والملحق "2".

الأخرى. إذن ربما تفترض الحقيقة أن بعضاً من كنانة ـــ واتباعاً للسابقة التي وضعها أقاربهم في القرون السابقة ـــ قد هاجروا من الجزيرة العربية إلى مصر في بداية القرن الرابع عشر تقريباً وشقوا طريقهم على النيل حتى دنقلا وهناك استقروا مؤقتاً وتصاهروا وانشقوا لاحقاً إلى فروع مختلفة ذهب فريقٌ منها جنوباً إلى جبل كرون وفريق ارتبط في النهاية بالكبابيش. ويوجد معظم القبيلة في الوقت الحالي على الجهة الشرقية من النيل الأبيض، وليس من المستبعد فضلاً عن التدفقات التي حدثت في أزمنة مختلفة من جهة الشمال أن يكون بعض كنانة قد عبروا إلى إفريقيا عبر مضايق باب المندب لأن القوات العربية التي احتشدت حول سنار تحت قيادة عبد الله القريناتي وعمارة دونقس حوالي عام 1500م[1] والتي اندمجت مع الفونج وتبنت إلى حدٍّ ما اسمهم قيل إنها كانت تضم كنانة وقبائل أخرى فرَّت من الجزيرة العربية عام 750م نتيجة للصراع بين بني أمية وبني العباس وتسربت تدريجياً عبر الحبشة إلى مقربةٍ من سنار[2]. وربما عبر آخرون البحر الأحمر إلى إفريقيا في تواريخ مختلفة من الأزمنة المبكرة جداً إلى الأزمنة المتأخرة جداً.

إن فروع كنانة الرئيسة في السودان كما هي معروفة لأولئك الموجودين في كردفان هي كالآتي:

A. السُّوارابـ3

1. أولاد يس[4] .
2. الزُّويدة
3. الإسيباع.

B. السِّراجيَّة[5]

1. أولاد دالي[6]

1 انظر الفصل السادس عشر عن الكواهلة.

2 انظر نعوم بك شقير.

3 أي أحفاد سوار بن منصور.

4 أي أحفاد يس بن منصور. وهناك قليل من السُّواراب في تقلي إضافة إلى أولئك الذين ورد ذكرهم.

5 أي أحفاد إدريس سراج بن منصور.

6 بعض أولاد دالي يعيشون في تقلي ويعيش آخرون مع مجموعة كنانة الرئيسة في كردفان.

2. أم بلال
3. أولاد رويا
4. الزيدان
5. الناميَّة.
6. الهبيليَّة.
7. أبو ريحان.
8. الكواتيل.
9. الجليراب.
10. البيلاب.

C. الأصالعة[1]

1. أولاد جُبارين.
2. أولاد هزيل.
3. السُّعوديَّة.
4. العماريَّة.
5. أولاد رِشيد.

D. الدوديَّة. (يضمون المناصير الذين يضمون بدورهم ناس حَمْدوك)

E. الفهريَّة[2].

F. العلاونة[3].

إن أفراد الفروع التي أمامها نقطة سوداء هم في الأساس من مواطني الجزيرة، وتوجد الفروع الأخرى وتحديداً من الأصالعة في كردفان ولكن لا يمكن رسم خط محدد بينهم. يبدو أن جزءاً من القبيلة كان في أيام التركية كما هو الآن موجوداً في سنار وجزءاً في أبو حراز في كردفان[4]. ويدل على عدم كثرة الموجودين في أبو حراز

1 أي أحفاد حماد الأصلع.

2 أي أحفاد علي أبو الفهرة .

3 أي أحفاد علوان.

4 يتحدث سير سي. ويلسون عن أن كنانة كانوا في سنار في عام 1821م وأنهم كانوا بعد 60 عاماً في جنوب غرب أبو حراز.

أن جزيتهم الاسمية قبل عام 1881م كانت 293 جنيه أسترليني غير ثابتة وأنه تم تخفيضها بحوالي 200 جنيه أسترليني[1].

قبل أن يكسب المهدي نجاحاته الأولى في الحرب المفتوحة وفي الوقت الذي ما زال فيه في الجزيرة أبا في عام 1882م انضم إليه كثيرٌ من كنانة وقد خرج بصحبتهم إلى جبل ماسا (كما يحلو له أن يسمي جبل قدير). وانضم إليه عددٌ أكثر من كنانة هناك واستطاع بمساعدتهم أن يهزم القوة التي كانت تحت قيادة راشد بك[2]. وفي عام 1885م عندما التقى الأمير موسى ود حلو بحرس المقدمة البريطاني في أبو طليح (أبوكلي) كان معظم قوته مكونة من كنانة والبربر والجعليين ودغيم، وقد أبيدت كنانة ودغيم تقريباً في هذه المعركة[3] ولكنهم تعافوا إلى حدٍّ ما منذ ذلك الحين. إن كنانة الموجودين في كردفان بين الدلنج وأبو حراز لا يقتنون قطعاناً كبيرة من الماشية، ذلك أن معظم القبيلة موجودٌ على الجانب الشرقي من النيل كما ورد ذكره آنفاً.

---

1 انظر تقرير ستيوارت.

2 انظر سلاطين، الجزء "1"، الفصل "4".

3 انظر سلاطين، الجزء "2"، الفصل "10".

الفصل الخامس عشر

الكبابيش[1]

الكبابيش ليست قبيلة متجانسة بمعنى أنهم لم ينحدروا في إطار الأزمنة الحديثة نسبياً من عائلة واحدة وبالتالي يكون هناك اختلاف عنصري مميز محدد بينهم وبين كل القبائل الأخرى في البلاد ــــ وسيتضح أن هذه الحالة ليست كذلك ــــ ولكن في نفس الوقت نجد أن العناصر العديدة التي تتكون منها قبيلة الكبابيش إذا أخذت إجمالاً هي عناصر أقلُّ تلوثاً بالدم غير العربي من أيٍّ من تلك العناصر التي تتكون منها أية قبيلة سودانية عربية أخرى تتفرد باسمٍ واحد الآن[2]. وتفسر هذه الحقيقة تفسيراً

---

1 ظهر جزء من المادة المضمنة في هذا الفصل مقالةً في المجلد "9" من المعهد الملكي للأنثروبولوجيا، 1910م.

2 يقول مستر باركينز "يؤرخ الكبابيش لأصلهم من الهوارة وهي قبيلة من صعيد مصر يقال إنها من أصل المُغرَّبين وقد هربت من تونس حيث طردها من هناك أبو زيد الهلالي". وأعاد إخراج هذه الرواية المأثورة بثريك وسير سي. دبليو. ويلسون استناداً إلى مستر باركينز. والهوارة قبيلة بربرية مشهورة حيث يروي المؤرخون العرب صراعاتها الطويلة مع العرب الغزاة في القرن السابع والقرون اللاحقة، ولا شك أن الهواوير الحاليين يمثلون هؤلاء الهوارة (انظر الفصل المخصص للهواوير). ورغم أن الهواوير الموجودين حالياً في دنقلا هم جيران للكبابيش لكنهم منفصلون منهم الآن، ولكن منذ عهد مستر باركينز كان الهواوير (الذين يتحدث عنهم بالمناسبة سير سي. دبليو. ويلسون بكونهم من "دم عربي خالص") يعتبرون فرعاً من الكبابيش فقط. ورغم أنهم تحت زعامة شيخ منفصل، لكن يبدو من المرجح أن الرواية المأثورة عن انحدار سلالة الكبابيش من الهوارة إما أن تكون أتت من واحدٍ من هؤلاء الهواوير الذي ربما كان تواقاً لتمجيد أهله في عيني مستر باركينز أو قد ترجع هذه الرواية إليهم على وجه الحصر على الأقل. وعلى أية حال فمن المؤكد أن أية رواية تعطي أصلاً واحداً لكل الكبابيش يجب أن تكون بالضرورة غير دقيقة. إن الإشارة إلى أبي زيد الهلالي ليس لها وزن طالما أن عرب كردفان يربطون بأية طريقة أو أخرى أية حادثة مهمة وقعت في الماضي القاتم باسم هذا البطل الأسطوري أو نصف الأسطوري والغريب بالكلية وبأهله هلالة (انظر الفصل "2" والملحق "3"). وقد خاطر سير سي. دبليو. ويلسون بإقحام افتراضٍ فحواه أن الكبابيش كانوا زنجاً قدامى (أشار إليهم ليو آفريكانوس) وكان أحفادهم في صحراء جوران (صحراء بيوضة) في حربٍ مستمرة مع ملك بلاد النوبة. ويقول "ربما لا تكون هذه الإشارة إلى الكبابيش الذين لم يستعربوا آنذاك. ويؤيد الفكرة القائلة بأن الكبابيش ليسوا عرباً كونهم يقولون بأن الكواهلة ــــ إحدى عشائرهم ــــ ليسوا كبابيش ولكنهم انضموا إليهم قبل أعوامٍ عديدة. فالكواهلة اسمٌ ذو شكلٍ عربي وأن بيركهاردت.... يشير إليهم بحسبانهم قبيلة مستقلة.... ويبدو من المرجح ألا يكون الكبابيش قد احتفوا بحكامٍ عرب ــــ مثلما احتفى العبابدة ــــ بعد صولهم إلى السودان". ولا يمكن تأييد رأي سير سي. دبليو. ويلسون: ففي المقام الأول شاهدنا كيف ثار الالتباس من انتماءات الهواوير البربرية وعلاقتهم المفترضة بالكبابيش، ومن المسلَّم به في المقام الثاني

كافياً عندما يتذكر المرء أن الكبابيش هم بدو صحراويون كما كان آباؤهم وآباء آبائهم جيلاً إثر جيل منذ الفتح العربي لشمال إفريقيا وفي القرون التي سبقته، وأن حياة البدوي ظلت تتغير تغيُّراً طفيفاً منذ الأيام التي سقى فيها يعقوب أغنام لابان في مدينة حاران. إن فروع الكبابيش في كردفان في الوقت الحالي هي كالآتي[1]:

A. النوراب

1. الربيقات
   (أ) العيابيد
   (ب) الضروساب
   (ج) الفروحاب
   (د) الإحيمراب
   (هـ) الباتعاب
   (د) أم سريح
2. دار كبير
3. دار أم بخيت
4. أولاد الكير
5. النقادة
6. دار سعيد
7. الكبيشاب
   (أ) ناس ود يوسف
   (ب) المساعيد
   (ج) ناس ود شدهان

أن الكواهلة ليسوا كبابيش تماماً (انظر الفصل السادس عشر عن الكواهلة) ولكن الكواهلة هم الأقرب صلة بالعبابدة برغم شكل اسمهم العربي، وبالتالي فإن الاختلاف العنصري بين الكبابيش والكواهلة لا يكمن في كون الكواهلة عرباً خُلَّصاً وفي كون الكبابيش ليسوا كذلك بنفس القدر بل في الافتراض المختلف. ولا يُنفى احتمال أن يكون الكبابيش يضمون عناصر بربرية وبجاوية ولكن العنصر العربي هو الغالب.

1 تؤول الأسماء داخل المعقوفتين إلى الفروع التي إما أن تكون متحالفة عنصراً مع الفرع الذي يوضع في أية حالة على رأس المعقوفة أو تابعة له. وليس من السهل دائماً أن ترسم خطاً ثابتاً بين الروابط التي شكلت بالقرابة من ناحية وبقوة السلاح من الناحية الأخرى.

(د) ناس ود دقُّوشين

8. أولاد عوض السيد

9. الحُواراب

(أ) أولاد دابو

(ب) أولاد علي

(ج) الرّهودة

10. أولاد نوَّاي

B. أولاد هوَّال

1. دار حامد
2. دار محمود

C. أولاد عون

1. اللبابيس
2. البراشة
3. القروناب
4. دار الحاج
5. التماسيح
6. اللكيرتاب

D. أولاد طَريف

1. المريقات
2. العِشيَّاب
3. العلاونة
4. الجرامدة

E. الغلييان

F. الطُّوال

G. العوايدة

1. العوايدة الزُّرُق

(أ) ناس ولد رحمه

(ب) ناس ولد مقبول

(ج) ناس ولد الهلالي

(د) ناس ولد رابح

(هـ) ناس ولد البشير

(و) ناس ولد النعيمة

2. العوايدة البِيِض

(أ) البشاراب

(ب) العدلاناب

(ج) السُّنوناب

H. العَطَويَّة

1. الفارساب

2. البقراب

3. دار علي

(أ) دار سليمان

4. المنوفلاب

5. الكفار

6. الشقيَّاب

J. أولاد عُقبة

1. الدرياب

2. دار علي

3. الشِّليواب

4. الحامداب

5. دار عمر

6. دار أبومصيَّة

7. الكراسوب

8. الشناشين
9. دار مُحُمَّد
10. السَّعدُّولاب أو السعديَّة

K. البرارة

1. أم إغيبش
2. ناس إتيرنَّة
3. العصيفير
4. ناس ود مُطَر
5. دار علي
6. الزرجنة

L. السِّراجاب

1. دار ساعد
2. الجنادبة
3. الدَّريميَّة
4. المَهَلاب
5. ناس ود الفزاري
6. الغجيريَّة
7. الشُّخوناب

M. الرَّواحلة

1. دار أبوجِنَّة
2. دار جامع
3. النشابة
4. المسراب
5. الجَّقاديل
6. العويضاب

N. الحمَّاداب

1. الرَّهوداب
2. الطِّريقات
3. البشارة

O. أولاد سليمان

1. الغناواب
2. دار مساعد
3. الأباطين
4. أولاد حمد الله

P. البشير

والآتية هي فروع الكبابيش الرئيسة في دنقلا:

أم متو[1]	الإحيمراب
المريساب	البليلات
الجُنجوناب	دار بشوت
العوايدة	الدَّلاديم
البيعوضاب	دار حامد

لقد حدث كثيرٌ من الغييرات في تركيبة القبيلة في القرنين المنصرمين: فالفروع أو الفروع الأصغر قد انفصلت منها أو انضمت إليها بصورةٍ دائمة أو مؤقتة ونتيجة لذلك فإن من الصعب أن تعطي تقريراً دقيقاً أو محكماً لتاريخ القبيلة وأن كثيراً من الالتباسات قابلة للظهور. فربما لم يكن اسم الكبابيش ذاته مفترضاً قبل مائة عام، وإذا سئل الكبابيش أنفسهم فإنهم كثيراً ما يقولون إن لهم جداً يدعى كبش، وهذا الشخص يظهر بين الفينة والفينة في "النِّسب" عموماً بأنه ابن الأفزر ابن ذبيان ابن عبد الله الجُّهني. ولا يظهر اسم "كبش" كثيراً في النِّسب ولا شك أنه اخترع ببساطة باعتباره رمزاً سلفياً ملائماً بهدف إثبات الوحدة العنصرية للقبيلة، ولا يُروى عنه شيء أكثر بل ولم تطرح حتى مُحاجَّة إزاء وجوده أبداً. اعتقد أن هناك قليل شك (كما يقول باركينز) في أن اسم "الكبابيش" مشتق من "الكبش"، فربما كانت القبيلة ذات مرة

1 قيل إن أم متو مرتبطون ارتباطاً لصيقاً بالسِّراجاب، وهم أعظم فرع في دنقلا. وقيل إن قبائل كبابيش دنقلا الأخرى قد امتزجت امتزاجاً كبيراً في الدم بالقبائل النهرية القديمة المختلفة.

مجموعة ضعيفة وفقيرة ولا تمتلك قطعاناً كبيرة من الإبل كما تمتلك في الوقت الحالي وربما أُسبغ عليهم الاسم في البداية من قبيل الاستخفاف[1].

إن القبائل التي كانت واقعة حتى قبل سنوات قليلة تحت مسمى الكبابيش إما انفصلت الآن أو ضُمت في قبائل أخرى وأن مجموعات الأسر أو الأفراد التي كانت تعتبر ذات مرة جزءاً من قبائل أخرى نجدها الآن تسمي نفسها بالكبابيش[2]. ومثال لهذا تظهر لنا أسماء القبائل التالية من بين أسماء أخرى في قائمة فروع القبيلة التي قدمها باركينز في عام 1850م، وهي:

الأحامدة (لحامدي)، جُهينة (جهينا)، الكواهلة (كُوهلي)، البطاحين، الشنابلة، القريَّات والغزايا: وكان الأحامدة والقريَّات والكواهلة والبطاحين والشنابلة من بين هذه القبائل مستقلين استقلالاً كاملاً لعدة سنين ولم ينضم سوى جزء منهم إلى الكبابيش. والتحق جُهينة بجُهينة المستقلين على الجانب الشرقي من النيل في عام 1909م و1910م واعتبر الغزايا جزءاً من الكواهلة. إن انحلال العلاقات التي تربط هذا الخليط المركب ــ الكبابيش ــ أصبح أكثر وضوحاً في أيام الدراويش، فالقبائل التي باتت تعيش معاً لمدة طويلة باعتبارها كبابيش ظلت في الغالب قوية ووفية مع صالح بك فضل الله. أما أولئك المنتسبون الطارئون الذين ربطوا أنفسهم بالقبيلة من أجل الحماية والمصلحة الناتجة عن المشاركة في الحقوق والامتيازات الخاصة بالكبابيش فقد انفصلوا وانضموا إلى الثورة. وقد عاد بعضهم بعد قمع الثورة ــ جهينة والبرارة مثلاً ــ إلى صفوف الكبابيش، وبقي آخرون منفصلين بصورة دائمة بعد أن شعروا أنهم أقوياء قوة كافية تجعلهم يقفون منفردين كالكواهلة والشنابلة مثلاً. لكن من الناحية الأخرى يجب ألا يفترض أن القبائل العديدة المشار إليها أعلاه

---

1 يجب أن تولى أهمية قليلة لتقرير مُلر في طبعته الخاصة بـ"كلوديوس بطليموس" والذي يقول إن القباشي الذين كانوا يعيشون وراء مروي هم الكبابيش الحاليون. إن تسمية واحدة أو اثنتين من القبائل العربية ربما يرد ذكرها باعتبارها أدلة تكميلية اشتقاقاً للكبابيش من "كبش" إذا دعت الحاجة لذلك: فمثلاً يبدو اسم معاذ مشتقاً بطريقة مماثلة من معَّاز "ماعز" واسم عَنَزة يشير إلى "عنز" وهي اسم آخر للماعزة.

2 يقدم إسكيارك دولوتور الأسماء الآتية باعتبارها فروعاً أصغر للكبابيش: النوراب، الغليَّان، العَطَويَّة، الكبيشاب، البرارة، القريَّات، عَمر، أولاد عُقبة، أم متو، السِّراجاب، الشنابلة، "الفزالة" [هل هم الفزارة؟)، الرواحلة، السوالمة، الغزايا، "الحيدوزة"، "الرفاعية"، "الضباينة"، أولاد أبو روف [أي رفاعة تحت أسرة أبو روف]، الحُواراب.



"مشائخ الكبابيش "اولاد عُقبة" في أم إندرابة، 1911م"

ــ باعتبارها متميزة من بعضها البعض ــ تختلف اختلافاً جوهرياً في تركيبتها: كلا، فالحقيقة ذات الأهمية هي أن أوجه العلاقة العديدة بين هذه المجموعات ذات الأسماء المختلفة وأيضاً أوجه الاختلاف من بعضها البعض تمنع المرء من البحث في تاريخ الكبابيش الماضي وكأنَّ الكبابيش يشكلون كينونةً عنصرية مميزة تمييزاً كاملاً. ونتيجة لذلك فمن المستحسن أن تبدأ بالبحث في فروعٍ معينة بشكلٍ منفصل. وفي هذا الصدد تشير روايات كردفان بالإجماع إلى أن أولاد عُقبة هم الكبابيش الأصليون أو الأساس الذي بُني عليه الهيكل القبلي الحالي. وسأحاول أن أوضح أولاً أصل أولاد عُقبة بقدر الإمكان. لقد ضُرب التعتيم إلى حدٍّ ما على التحقيق والاستقصاء بفعل الحقيقة القائلة إن هناك صحابةً كثراً يحملون اسم عُقبة، فمثلاً عُقبة بن عامر وعُقبة بن عثمان وعُقبة بن وهاب ولذا كان من الكياسة القول إن أولاد عُقبة ينحدرون من أحد المذكورين أعلاه ويُفضل انحدارهم من عُقبة بن عامر الذي كان جُهنيَّاً وأصبح حاكماً لمصر في عام 665م. وكثيراً ما يقال إنهم ينحدرون من "عُقبة بن ياسر حاكم مصر وصاحب النبي"، ولكن هناك القليل الذي يؤيد الرواية في أي شكلٍ كانت. ومن المؤكد أن أولاد عُقبة استقروا في شمال إفريقيا لمدةٍ من الزمن سواءً أكان جدُّهم حاكماً لمصر أم لم يكن، وتتفق كل الروايات اليوم على أن جزءاً كبيراً من أولاد عُقبة الذين عبروا من الجزيرة العربية إلى مصر قد عبروا طرابلس وانجرفوا في صفوف الفلاتة في غرب إفريقيا حيث يُعرف هذا الفرع من أولاد عُقبة في الوقت الحاضر بـ"ناس الشيخ عمر الفوطة" و"ناس الشيخ عثمان بن فوديو". ويقال إن أناساً آخرين من أولاد عُقبة قد استقروا في مصر حيث يُعرفون هناك بـ"أولاد علي"[1] في حين أن جزءاً ثالثاً استقر في الصحراء السورية قرب العَقبة. واعتقد أن هذا شيئاً كافياً لأن نحدد هوية أولاد عُقبة الموجودين الآن في كردفان بأن لهم علاقة ببني عُقبة الذين التقى بهم د. والن قرب العَقَبة في عام 1848م إذ يقول د. والن عن هؤلاء الناس إنهم يزعمون أنهم كانوا ذات مرة قبيلة كبيرة جداً تستحوذ على المنطقة الواقعة بين الصحراء السورية وداماء وبالتالي فإنهم ما زالوا يسيطرون على ميناء المويلح البحري وأنهم اعتادوا أن يرافقوا

---

1 هناك قبيلة ذات نفوذ وصاحبة إبل من العرب البدو تسمى أولاد علي وتوجد بين القاهرة وواحة سيوة. وكان أن ثاروا في النصف الأول من القرن الماضي وتم قمعهم. انظر جَنْكر، صــ 33. وأولاد على الآن هم القبيلة الرئيسة في الصحراء الليبية، وفروعهم قدمها كليبل.

الحُجَّاج الذاهبين إلى المدن المقدسة حتى يصلوا معهم إلى حدودهم في ظُبا. وأخبروا د. والن أيضاً بأنهم كانوا في بداية تاريخ الإسلام منقسمين إلى المُسالمة وبني عمرو وأن هذين الفرعين تشاجرا وأن فرع المُسالمة طرد فرع بني عمرو من المويلح وأجبروهم على الانضمام إلى قبيلة الحجايا التي ما زالوا مستقرين معها قرب الطفيلة. وأضافوا قائلين إن أعداداً من قبيلتهم عبرت إلى شمال إفريقيا وإن آخرين منهم اختلطوا بالفلاحين المصريين. ويستشهد د. والن وهو ينقِّب أكثر في سلالة بني عُقبة بالمراجع العربية العديدة التي تعزز أدلتها افتراض العلاقة بين القبيلتين التي كان هدفي تحديد هويتها: فمؤلف كتاب "العِبَر" يؤيد مؤلف كتاب "مسالك الأبصار" في القول بأن بني عُقبة مُلزمون بتأمين الطريق بين مصر والمدينة، ويضيف قائلاً: "هناك البعض منهم في آفريكيا في الغرب إضافةً إلى المناطق المجاورة لطرابولوس (طرابلس)". ويذكر كلا المؤلِّفيْن ذاتهما أن "بني واصل الذين توجد مساكنهم في مصر هم فرعٌ من بني عُقبة ابن مغرابة ابن جذام القحطاني"، ويستشهد د. والن أيضاً بالقلقشندي في تأييد سلالة بني عُقبة المنحدرة من جذام القحطاني. ويجب أن نقول كلمة هنا عن جذام هذا، فقد قال أبو الفدا إن جذام هذا ولخم هما ابنا عادي بن عمرو بن عبد شمس سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان شقيق فالج، وفالج بالطبع هو جدُّ النبي إبراهيم وجدُّ إسماعيل بواسطة إبراهيم وبالتالي فهو جدُّ كل العرب المستعربة بما فيهم عدنان والنبي نفسه. ومن ناحية أخرى أن قحطان مشهور بأنه جدُّ "العرب العاربة" الحقيقيين. وعاش هؤلاء العرب العاربة في البداية في جنوب الجزيرة العربية ولكن في فترة مبكرة جداً هاجرت كثيرٌ من قبائلهم (لا سيِّما قبيلة طي) شمالاً إلى الأجزاء الواقعة حول جبل شمر حيث امتزجوا بقبائل نجد وأصبحوا بدويين إلى حدٍّ كبير. إن القحطانيين الموجودين في جنوب الجزيرة العربية لديهم قدرٌ كبير من الدم الإفريقي في عروقهم وذلك من خلال المصاهرة مع الأحباش والجالا والقبائل الأخرى الموجودة في البرِّ الإفريقي، ومن المحتمل أن يكون لقدامى القحطانيين الذين حلُّوا محلَّ العرب المستعربة في الشمال دمٌ إفريقي أكثر.

إذن ربما يقال تقريباً إن بني عُقبة هم أحفاد العرب القحطانيين الذين جاءوا إلى الشمال وانصهروا مع السلالة السورية/ المصرية المستعربة غير النقية (مجسَّدةً في

إسماعيل) التي ضمت بدورها بلا شك خميرةً وفيرة من الأكراد والأقباط والتركمان والفينيقيين والأرمن وغيرهم في صفوفها. ومن الصعب أن نقول في أيِّ وقتٍ عبر بنو عُقبة إلى مصر وكم استنفدوا من الوقت للوصول إلى موطنهم الحالي. ويصف مارمول (1520م) "أولاد أوكبة" بأنهم فرع من بني هلال ويقدِّر قواتهم العسكرية بـ11500 رجل في الجزائر، وذكرهم قبل ذلك أيضاً ليو آفريكانوس (1495م ـــ 1552م) تحت مسمى "الهوسبن" بأنهم فرعٌ من ذات القبيلة وأنهم كانوا يعملون سراً لصالح ملك تونس، ووصفهم بأنهم "كانوا أناساً أجلافاً وهمجيين وأبعد ما يكونون عن الإنسانية"[1]. وهذا الوصف أبعد ما يكون عن أولاد عُقبة في الوقت الحالي.

إن جهينة الآن وكما سلفت الإشارة لا يُسهمون مطلقاً في تركيبة قبيلة الكبابيش ولكن طالما أن اللحويين "فرع جُهينة" يعتبرون كبابيش حتى عام 1910م وأن تاريخهم يوضح العملية العامة التي ظلت قائمة فسيتم البحث فيهم في المرة التالية. لا يوجد شك في تماهي جهينة هذي مع قبيلة جهينة الكبيرة بغرب الجزيرة العربية، وهؤلاء الجهنيون هم أيضاً قحطانيون بكونهم فرعاً من قضاعة، فهم ما يزالون قبيلة كبيرة في جبال الحجاز. ويقول بيرتون إنهم امتدوا من السهول الواقعة شمال ينبع (التي منحها لهم النبي في عام 624م) إلى داخل شبه جزيرة سيناء ويقول إنهم عنصرٌ نبيل ومحاربون ممتازون. ويذكر مستر سي. م. دوتي أنهم من بين "القبائل القوية طليقة الحرية" قرب تيماء ويتحدث عن قرية تقع حوالي أربعين ميلاً شرق خيبر حيث جعلت المصاهرة بين جهينة وآل حاتم لون القرويين فاتحاً في السنين الأخيرة. لقد مُثلت جهينة تمثيلاً جيداً بين القبائل التي دخلت أفواجاً في مصر، ويذكرهم المقريزي في وقتٍ مبكر من القرن الخامس عشر بأنهم من بين القبائل الست الأقوى والأكثر عدداً في صعيد مصر، وكانوا يقيمون في ذاك الوقت في منفلوط وأسيوط. ويذكرهم النويري أيضاً باشتراكهم مع فزارة وآخرين في حملة عام 647م ويذكرهم ابن سعيد بأنهم استقروا بأعداد كبيرة بين سيني (أسوان) والحبشة. وقد شكلت جهينة وربيعة في عام 869م المجموعة الرئيسة من المجموعة العربية التي غزت بلاد البجا واستقرت هناك

1 انظر ترجمة جون بوري لأعمال ليو، طبعة براون، الجزء "1"، صـ 144 وما يليها.

وتصاهرت مع البجا، وفي خلال قرنٍ من الزمان أمدوا عشائرهم بالمشائخ[1]. وما تزال أعداد كبيرة منهم تعيش شرق النيل وهاجر كثيرٌ من هذه الأعداد في غضون الأعوام القليلة الماضية. ويوجد آخرون في بلاد برنو ودارفور، وفي هذا الصدد يمكن للمرء أيضاً أن يستحضر الدعوى الشائعة التي تقول إنهم انحدروا من "عبد الله الجهني"[2].

لم تشكل جهينة جزءاً من الكبابيش حتى القرن الماضي وأن أفرادها لم يكونوا أبداً أكثر من أتباع مؤقتين والدليل على هذه الحقيقة هو أنهم يوسِمون إبلهم على الجانب الأيسر في حين أن أيَّ أحد يعتبر نفسه كبَّاشي بالمولد يوسم إبله على الجانب الأيمن. وفيما يتعلق بالعَطَويَّة (أي بني عطية) فليس لي علم بأي دليل مباشر يشير إلى أنهم مرتبطون ببني عطية الذين هم في الجزيرة العربية لكن يبدو ذلك مرجحاً طالما أن بني عطية كانوا قبيلة كبيرة لمدةٍ طويلة وكثيراً ما يرد ذكرهم مع جهينة والقبائل الأخرى التي تظهر أسماؤها مراراً وتكراراً وسط الكبابيش أو جنباً إلى جنب معهم[3]. لقد انضم بنو عطية كما انضم الفزارة إلى غزوات بني هلال لشمال إفريقيا لكونهم يُعتبرون في ذاك الوقت فرعاً من قبيلة هلالة الكبيرة التي تنتمي لبني الأثبج، ويقول ابن خلدون إنهم أقاموا في قسنطينة ولكنهم أصبحوا ضعفاء وقليلي العدد. ورغم ذلك فإن لدينا حجة م. كاريت الذي يقول لقد كان هناك 3000 شخص منهم في قسنطينة في منتصف القرن الماضي وسط قبائل العرب والبربر وكان هناك 500 شخص أو شيء من هذا القبيل في الصحراء. وأحصى بالقريف أعدادهم في جبل شمر بـ6000 نسمة تقريباً وقال إنهم وقبيلة حرب يجتاحون بأعدادهم الكبيرة طريق الحج إلى المدينة، ويذكر مستر دوتي أيضاً أنهم تابعون لأمير حائل ويعيشون مع جهينة قرب تيماء وعلى الحدود الغربية من الأراضي الخاضعة لحائل. ووجد د. والن أيضاً قبيلة عطية في سهول الحسمة شرق المويلح

---

1 مثلاً في حالة العبابدة. انظر الفصل السادس عشر عن الكواهلة.

2 انظر المقدمة.

3 يشير كليبل (صـ "5") إلى العَطَواني (وتسمى في مكان آخر عطيات، وكلتا الكلمتين هما في الأساس نفس كلمة عَطَويَّة أو بني عطية) باعتبارها قبيلة بدوية تسكن حالياً على ضفاف النيل قرب طيبة في مصر. وفي ذات الوقت وردت الإشارة ضمن آخرين إلى بني واصل، أولاد سليمان، أولاد عون، جهينة، الشنابلة والفزارة باعتبارهم ممثلين بين بدو مصر. وبما أن كل هذه الأسماء وُجدت أيضاً مرتبطة بالكبابيش في هذا الفصل، فمن الواضح أن كثيراً من الكبابيش قد انفصلوا من قبائل مصر العربية.

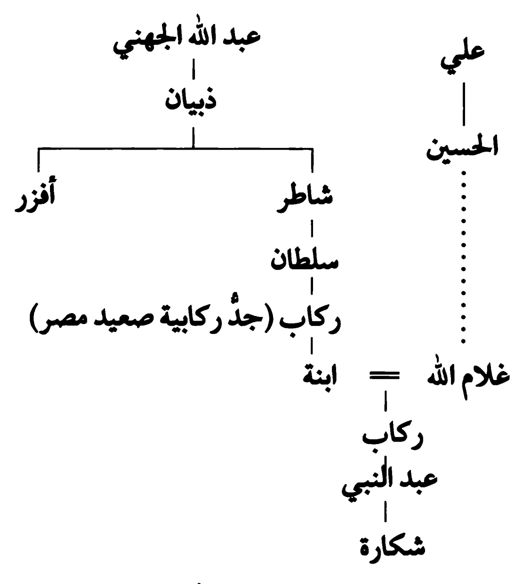
وأن لهم أراضي كبيرة حول تبوك (حيث كانت تعيش جهينة أيضاً في عهود المؤرخين العرب). إن العَطَويَّة في كردفان يُحسبون دائماً بأنهم مرتبطون ارتباطاً لصيقاً بالكواهلة إحدى أكبر القبائل في السودان، فالجزء الأكبر من قبيلة الكواهلة التي تزعم أنها من سلالة الزبير بن العوام القرشي (القصَّاب الشهير ابن عمة النبي) كان تابعاً للكبابيش حتى اندلاع "المهدية". ويمكن ملاحظة أن العطوية الكبابيش لديهم أقارب بذات الاسم وسط عرب الرزيقات بدارفور، وهؤلاء الرزيقات هم بقارة ومن ذات السلالة مثلهم مثل أغلب بقارة كردفان. وقد يكون من قبيل المصادفة أن بقارة كردفان بالإجماع يحددون عطية باعتباره جدهم المشترك حتى إذا ما ضغطتَ عليهم تجدهم ينسبونه بشكل مملٍّ شيئاً ما إلى عبد الله الجهني الذي لا مناص من الانتساب إليه، ولكنهم بمرور السنين وفي تحركاتهم من شمال إفريقيا عبر الممالك الغربية نسوا كل تفاصيل تاريخهم وأصلهم ويذكرون أسماء قليلة فقط. وربما يكون شيئاً خيالياً ــ لا لسبب آخر سوى هذا السبب ــ أن يزعموا أن لهم علاقة ببني عطية الموجودين في الجزيرة العربية: ومن الممكن على أية حال أن يكون بنو عطية قسَّموا قواتهم بعد دخولهم مصر فذهبت بعض تلك القوات غرباً عبر طرابلس وتحركوا في النهاية جنوباً حتى أصبحوا بقارة في كردفان ودارفور ومكث آخرون فترة قصيرة في مصر ثم ساروا تدريجياً مع النيل حتى انضموا إلى مجموعة القبائل التي تسمى بالكبابيش الآن. والقبيلة العربية الأخرى الشهيرة جداً التي ساهمت قطعاً مساهمة كبيرة في تشكيلة الكبابيش مثلما فعل معظم بدو السودان من أصحاب الإبل هي قبيلة فزارة. ويقول المؤرخون العرب إن فزارة هم من بين أحفاد ذبيان (من قبيلة قيس عيلان الإسماعيلية) الذي يستشهد به في النِّسب في الوقت الحالي باعتباره ابن عبد الله الجهني وبالتالي جدَّ كثير من قبائل كردفان رغم أن ذبيان في الحقيقة هو ابن بغيض من قبيلة غطفان. لقد زحفت فزارة وجهينة وقبائل أخرى في مجابهة المدينة في عام 627م وخلقت مشاكل مستمرة للنبي حتى استسلمت في النهاية. وقد اختلطوا على نطاق واسع مع القحطانيين واستعمروا الساحل الشرقي للجزيرة العربية عندما طُردوا من نجد. وأصبحت فزارة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إحدى أشهر القبائل في شمال كردفان كما شهد على ذلك

الرحالة، وقد استخدم عرب البقارة حتى وقتٍ قريب كلمة فزارة لتشير إلى أيٍّ بدو من أصحاب الإبل. وسواءً أشار ذكْر فزارة في مدونات رحلات القرن الماضي إلى أية قبيلة منفصلة كما يبدو ذلك أو ما إذا كان ذكرها يُعزى لمجرد سوء فهم فهذا ما لم يكن واضحاً ولم يكن مهماً معرفته. فالرأي القائل بأن ذكرها يُعزى لمجرد سوء فهم هو الأكثر رجحاناً[1]. إن الإشارات إلى فزارة لم تكن ناقصة مطلقاً لدى الكتّاب العرب، فالنويري يحدثنا بأن بعضاً منهم قد شارك في حملة عبد الله بن سعد التي اتجهت غرباً من مصر في عام 647م، ويخبرنا ابن خلدون بأن عدداً منهم كانوا مع بني هلال في غزوتهم الكبيرة في القرن الحادي عشر، ويتحدث الإدريسي (1154م) عن مناطق البطالسة القدامى التي قطنها الزناتة والفزارة الذين يصفهم بأنهم قبائل بربرية استعربت. ويشير ابن سعيد والمقريزي إلى وجود مستعمرةٍ منهم قرب برْكة من القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر، ويقول م. كاريت كان هناك بعضٌ منهم ما زال موجوداً في محافظة قسنطينة في عام 1853م.

إن الفروع الأخرى من الكبابيش هي الأخرى من أصلٍ مختلف، فقد قيل إن أوائل المجندين في صفوف المجموعة الأصلية كانوا هم الرواحلة وأولاد عون، ولم تمض فترة طويلة حتى التحق السِّراجاب وأولاد هوال والنوراب بأولاد عُقبة والرواحلة وأولاد عون وارتبطوا بهم لأن السِّراجاب وأولاد هوال والنوراب لم يرغبوا في ترك الحياة البدوية والاستقرار في البَحَر بصورةٍ دائمة كما كانوا يبحثون عن الأمان في الكثرة. وبما أن النوراب هم الأسرة الحاكمة فسيتم البحث فيهم أولاً: يزعم النوراب أنهم ركابية في الأصل كما توضح الشجرة التالية:

---

1 يتحدث التونسي عن بدو أصحاب إبل يسمون الفزارة ويتكونون من المحاميد والمجانين وبني جرّار وبني عمران والمسيرية الزُّرُق، وأن الخريطة الملحقة بطبعة بيرون تشمل أيضاً معظم هؤلاء الذين يقعون تحت المسمى العام لبني فزارة.



وشكارة هذا تقول عنه "نِسبة دنقلا" إنه "جدُّ النوراب الذين يعيشون في العفاض في دنقلا والذين انضم بعضهم إلى الكبابيش وتناسلوا معهم وأصبحوا بدواً". ومن ثم يمكن أن نزعم أن الكبابيش (حتى وإن لم يقتنوا الاسم في ذلك الوقت) بعد أن وصلوا دنقلا في تحركهم جنوباً انضم إليهم بعض الركابية الذين يسمون أنفسهم بالنوراب[1]. وسواءً أكان معلوماً أن النوراب تولوا زعامة القبيلة في الحال أم لا فسيكون من السهل نسبياً أن نحدد تقريباً تاريخ التحامهم بالزعامة طالما أن الشيخ الحالي علي ود التوم ابن أخ الزعيم الكبير صالح بك فضل الله يمثل الجيل التاسع من بعد الكَرْبَكان إذ كان الكَرْبَكان هذا من فرع الربيقات وأول من تولى الزعامة من تلك الأسرة. وقد سلَّم الكَرْبَكان الزعامة قبل وفاته لابن أخته كرادم (من النوراب) حيث توارثوها منذ ذلك الحين كابراً عن كابر. وقيل إن الكَرْبَكان حاز على هذا المركز الاجتماعي عن طريق شراء زعامة القبيلة من واحد اسمه عَبودة من أولاد عُقبة مقابل عشرين ناقةٍ قلوص بيضاء خالصة البياض ومع أية ناقةٍ حُوارها وعشرين بقرةً كل واحدة ذات لونٍ أحمرَ قانٍ وعشرين شاةً بيضاءَ خالصة البياض وفرسٍ بتابعه مع التخلي عن هذا التابع نسبةً لقلة أتباع الكَرْبَكان مقارنة بأتباع أقربائه النوراب.

1 ربما يلاحظ هنا أن اللاحقة "آب" التي تستخدم للإشارة إلى اسم الأب أو الأسرة لا تستخدم هكذا بين أيٍّ من قبائل كردفان أو الفروع التي لم تأتِ من جهة الشمال الشرقي، فهي غير معروفة مثلاً وسط البقَّارة الأصليين.

الفرع الآخر الكبير والمنتشر من الكبابيش هم السِّراجاب. يقول كنانة كردفان ـــ وهم عرب ممن يزعمون نسبياً الانتماء لسلالةٍ نقية من كنانة الجزيرة العربية كريمة المحتد والتي تُعتبر قريش نفسها فرعاً منها ـــ إن "فكي" قبيلتهم يعود بنسبه إلى عبد المطلب عن طريق واحدٍ اسمه إدريس سراج عاش قبل خمسة عشر جيلاً، أي في حوالي عام 1300م. ويقول كنانة إن إدريس سراج هذا ليس هو جدُّ السِّراجيَّة فحسب (أحد فروع كنانة الرئيسة في كردفان) بل جدُّ السِّراجاب الذين اندمجوا مع الكبابيش. والبرهان الإضافي لذلك تحتمله حقيقة أن السِّراجاب قد انشقوا من النوراب في ثورة الدراويش وانضموا إلى كنانة الذين يزعمون وجود صلة لهم بهم. وهذا أجدر بالملاحظة بحكم أن كنانة مطَّلعون اطلاعاً أكثر من المعتاد على تاريخهم الماضي، فإذا أُقرت حقيقة تطابق هوية جد السِّراجاب الكبابيش (أو نواتهم على أية حال) بإدريس سراج فإنها ستعطينا فكرةً ما عن زمن هجرة هؤلاء العرب المعينين إلى إفريقيا والظروف التي اكتنفتها[1]. وتقول النِّسبة إن إدريس سراج هذا عاش قبل خمسة عشر جيلاً مضت وثمانية عشر جيلاً بعد عبد المطلب: ويعطي مجمل الثلاثة وثلاثين جيلاً هذا ـــ إذا اعتبر عُمْر الجيل بمقدار أربعين عاماً ـــ إجمال 1320 عاماً، أي عدد السنين التي مضت تقريباً منذ عهد عبد المطلب. لذا ليس بالضرورة أن تكون "نِسبة" كنانة غير موثوقة كما هو الحال بالنسبة لأغلب "النِّسب" التي تقدمها القبائل الأخرى. إذن إذا تم التسليم بأن كنانة السِّراجيَّة والكبابيش السِّراجاب متطابقان في الأصل فسيكون الافتراض أن بعضاً من كنانة هاجروا من الجزيرة العربية إلى مصر في حوالي بداية القرن الرابع عشر وشقوا طريقهم مع النيل حتى دنقلا وهناك استقروا مؤقتاً وتصاهروا وانقسموا فيما بعد إلى فروع مختلفة ذهب جزءٌ منها جنوباً مع أقاربهم وربط جزءٌ منها نفسه في النهاية مع الكبابيش. و في الحقيقة ربما كانت لديهم سلفاً صلات قربى عديدة مع بعض فروع الكبابيش بحكم أن كنانة من أصلٍ نجدي واستقرت طويلاً على الساحل الشرقي للجزيرة العربية وسط القبائل القحطانية وفزارة[2].

ولنأخذ فرعاً آخر من فروع الكبابيش وهو فرع العوايدة، وإنما سُمُّوا بالعوايدة

1 انظر الفصل الرابع عشر عن كنانة.

2 لم ترد الإشارة إلى عدم ذكر كنانة في إفريقيا قبل القرن الرابع عشر، ونحن نعلم أنهم كانوا مذكورين.

نسبة إلى عايد مؤسس قبيلتهم. وتقول الرواية إن عايد هذا كان شيخاً شهيراً عاش في عدن، ويحكى عنه أن بعض الأتراك الكافرين الذين شككوا في خوارقه طلبوا منه دليلاً على ذلك فقال لهم فوراً إنه سيفعل أي شيء يقترحونه عليه، فقال له الأتراك: "إحلب اللبن من الهواء"، وفعل عايد ذلك. وطلب منه الأتراك الذين ما زالوا مشككين أن يجذب دماً من الهواء، ونفذ هذا الطلب أيضاً بمعجزة. ولم يقتنع الأتراك بعدُ وقالوا إنهم لن يؤمنوا بخوارق عايد حتى يبعث الميت حياً، وفي الحال أخذ عايد سيفاً وقطع رؤوس سبعة من الحاضرين ومن ثم التقط الرؤوس من الأرض وأعادها فوضعها على أعناق أصحابها الذين لم يشعروا بأذىً مطلقاً جراء هذا الفعل ولم يُبدوا علاماتٍ من الشعور بالأذى في المستقبل. واقتنع الأتراك رغماً عنهم في النهاية واشتهر عايد منذ ذلك الحين بجدارة بلقب "عايد الرؤوس". وعلى أية حال إن التحقيق في أسماء وأصول فروع هؤلاء العوايدة يعكس بوضوح أنهم لم يكونوا برُمَّتهم من أصلٍ واحد، فقد قُسِّموا بادئ ذي بدء إلى قسمين هما: العوايدة البيض والعوايدة الزُّرُق. ولا ترجع هذه التمييزات اللونية إلى رجال القبيلة بل إلى إبلهم، فعندما انضم العوايدة الزُّرُق إلى القبيلة جاءوا معهم بسلالةٍ سوداء من الإبل ونتيجة لذلك نالوا لقب الزُّرُق. والحقيقة التي ذكرها مستر سي. م. دوتي هي أن هذه الإبل الزُّرق الغريبة على قبائل جنوب الجزيرة العربية ووسطها مثل قبائل حرب ومطير وعتيبان ربما تعطي دليلاً للاتجاه الذي أتى به العوايدة الزُّرُق إلى إفريقيا. والدليل الآخر والمباشر فيما يتعلق بأسلافهم يقدمه بروس الذي أشار في مذكراته قائلاً: "إن إبل رِفْعة [أي رُفاعة] الموجودة قرب حسيب على الرهد والدندر هي إبلٌ سوداء اللون والموجودة على أتبرة إبلٌ بيضاء اللون". ولا يوجد عوايدة كثر قرب الرهد والدندر وأتبرة حتى الآن فحسب بل إن رفاعة وجهينة، كما يشير بروس أيضاً[1]،مرتبطون ارتباطاً لصيقاً. لذا ليس من المستبعد أن يكون العوايدة فرعاً من رفاعة وقد انضم إلى الكبابيش بذات الطريقة التي انضم بها أحد فروع جهينة. ويضم العوايدة البِيض بعض البشاريين الذين هم من أصل بجاوي من الصحراء الشرقية وبعض أولاد الكنز الذين عاشوا حول أسوان. وهناك فرع ثالث نذكره من أجل العذوبة الصوتية لاسمه ألا وهو فرع "الأدنالاب" ولكن الاسم يُكتب "العدلاناب" إذ الافتراض أن أصل حاملي هذا الاسم القبلي من الفونج أو من الشايقية

1 المجلد "6"، الملحق "46"، صـ 411 و413.

بحكم أن اسم عدلان مألوف لدى تلكما القبيلتين[1].

يعيش وسط الكبابيش أيضاً فرعٌ صغير من قبيلةٍ أخرى مشهورة هي أولاد سليمان. وقد استقر أولاد سليمان هؤلاء أصلاً بين خلجان سرت وفزان ولكنهم هاجروا بأعداد كبيرة إلى مصر بسبب الاختلافات مع حاكم طرابلس. وعادوا إلى فزان في حوالي عام 1811م ولكنهم أبيدوا تقريباً بعد أربع سنوات لاحقة، وعندما استردوا قوتهم استرداداً كافياً بدأوا في التحرك جنوباً حيث هبطوا ديار البرقو وكانم وأصبحوا مرة ثانية يشكلون مصدر رعب للبلاد، وفي عام 1850م أثاروا الطوارق البربر إثارة شديدة بحيث هاجمهم الطوارق بالقوة وأبادوهم للمرة الثانية تقريباً. ومن الواضح أنهم مكثوا بعد ذلك في دار البرنو واستردوا طاقتهم حتى أصبحوا مرة ثانية أقوياء قوة كافية جعلتهم يُرعبون أية قبيلة يلاقونها. وقيل إن الأتراك وظَّفوا بعضهم مرتزقةً في القرن التاسع عشر.

والفرع الآخر من فروع الكبابيش والأكثر تميزاً من بقية القبيلة هم البرارة، فهؤلاء البرارة هم من الجعليين وقد انضموا إلى الكبابيش في وقتٍ متأخر نسبياً وأصبحوا تابعين لهم، والدليل المؤكد على ذلك أنهم مثل جهينة يُوسمون إبلهم على الجانب الأيسر.

والآن نرى ــ ونحن نتحدث بشكلٍ تقريبي ــ أن الكبابيش في الوقت الحالي ربما يقال عنهم أنهم يمثلون مجموعة من مختلف القبائل العربية الصِّرفة تقريباً والممزوجة ببقايا قدامى سكان دنقلا النيليين، وبالتالي فإنهم وبمرور قرونٍ كثيرة تسللوا تدريجياً إلى جهة الجنوب متابعين مجرى النيل بصورةٍ عامة. إن أسلاف ذاك الجزء من القبيلة الذي شكَّل في الأجيال الماضية ــ كما في الوقت الحالي ــ عمودها الفقري الدائم ويشمل فروعاً مثل النوراب وأولاد عُقبة والرواحلة كانوا قبل قرنٍ مضى يحتلون الكثير من ذات المنطقة التي يقطنونها الآن ولكن وضع اليد على الأراضي الرعوية كان موضع تنافسٍ مستمر وعنيف بين الكبابيش وبني جرَّار ودار حامد والزيَّادية. وأصبحت للكبابيش فعلاً اليد العليا نتيجة قرنٍ من التقلبات: فبني جرَّار ضُغطوا إلى جهة الجنوب وأصبحوا مستقرين إلى حدٍّ كبير، وقامت دار حامد ببناء القرى في منطقتهم ذاتها إلى جهة الجنوب وأصبحوا يرسلون فقط نسبة صغيرة من

1 اسم العدْلاناب كانت تحمله معظم فروع الشايقية ذات النفوذ في عهد بيركهاردت.

مواطنيهم إلى الأراضي الرعوية في الشمال والغرب، واقتصرت أنشطة بدو الزيادية على دارفور، أما الهواوير فتربطهم علاقات حميمة مع الكبابيش ويرعَون ماشيتهم معهم حيثما شاءوا. وفي الأيام التي كان فيها نفوذ الفونج في ذروته وعندما كانت دنقلا وكردفان مقاطعتين خاضعتين لمملكة سنار اعتبر الكبابيش تابعين لها وكانوا يدفعون الجزية نظرياً عبر محمد ود العاقب "أمير العرب بالوراثة"[1]. وفي الواقع كانت تبعيتهم للفونج اسمية حيث يُجبى منهم قليل من الجزية سوى التي يتم الاستيلاء عليها بالقوة، فقد كان الكبابيش وبني جرَّار وغيرهما أكثر قليلاً من كونهم مهاجمين متوحشين مستعدين لقطع الطريق على أية قافلة تحاول عبور صحراء بيوضة أو تقوم برحلة من شندي أو أسيوط إلى دارفور، ولم يكن ذلك في أيام نفوذ الفونج فحسب بل على مدى نصف قرن بعد اضمحلال نفوذهم. ويُغيرون على ذات المنوال على موقع بئر العطرون[2] الواقعة بعيداً إلى جهة الشمال الغربي. ولا يبدو أبداً أنهم كانوا يمتلكون أسلحة نارية[3] كثيرة في أي وقت رغم أنهم يجيدون الفروسية، وقيل إنهم ساعدوا هاشم المسبَّعاوي في حروبه ضد تيراب سلطان دارفور[4]. وعندما فتح الأتراك السودان في الربع الأول من القرن التاسع عشر تظاهر الكبابيش بالخضوع "ولكن ربما بمجرد أن عادوا إلى صحاريهم نسوا أن عليهم أن يدفعوا جزية إبل لأنه لم تصلهم إشارة بالجزية"[5]. وعلى أية حال وبعد مرور جيل أو شيء من ذلك نزع الكبابيش إلى ممارسات أكثر سلماً رغم همجيتهم ونزعتهم الفطرية إلى شنِّ الغارات، وقد وضعوا يدهم سلفاً على تصدير الملح من شمال كردفان[6]. وبما أن قيمة غابات صمغ كردفان أصبحت ذات ثمن فقد أوكل للكبابيش ولقطعان إبلهم الهائلة مهمة نقل الصمغ، وقد ذكرنا آنفاً إلى أية درجةٍ تم ابتزازهم وأسيئت معاملتهم من جانب الأتراك النهابين[7]. وفي ذات الوقت فإن عجزهم عن حماية قطعانهم في الصيف عندما

1 انظر بروس.

2 تشتهر أيضاً بـ"بئر الملح" و"بئر السلطان". انظر بروس وبيركهاردت وبراون.

3 انظر براون صـ 205.

4 انظر التونسي.

5 كايو.

6 انظر كايو.

7 انظر الفصل الأول.

يُرغمهم الجفاف على الرحيل إلى البَحَر أو إلى أماكن السُّقيا المشهورة يجعل من السهل نسبياً على الحكومة أن تجبي الجزية عيناً منهم.

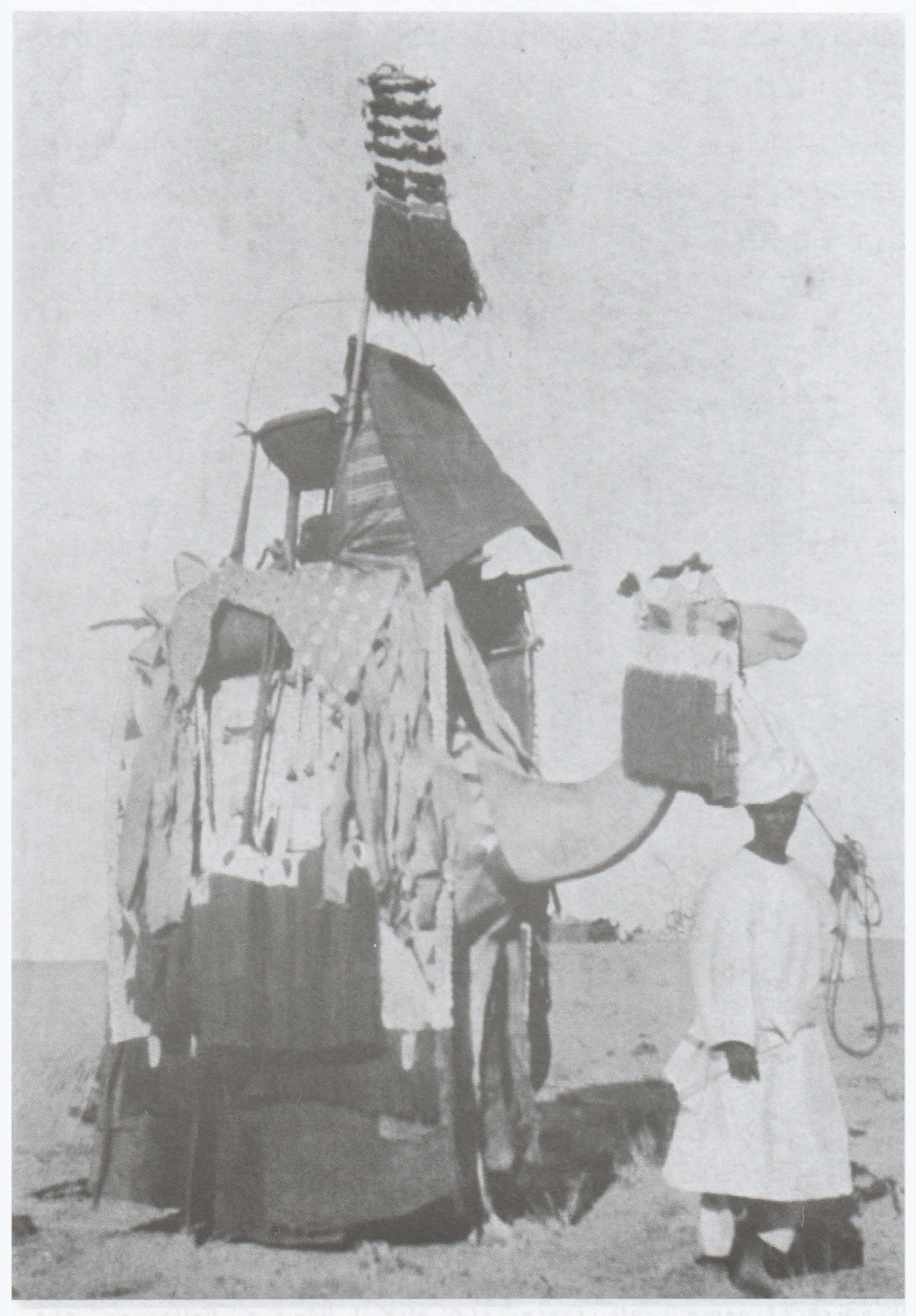
تُقسِّم ورقة مستر باركينز عن الكبابيش والتي تُليت أمام الجمعية الجغرافية الملكية في عام 1850م قبيلة الكبابيش إلى ثلاثة أقسام، هي:

1. الفروع التي تبقى طول العام "في الصحراء" والتي تُرسل فقط أفرادها بين الفينة والفينة إلى المناطق الزراعية لجلب مؤن الذرة. ويقال إن الحكومة هي التي أمرتهم بأن يبقوا في الصحراء لصدِّ غارات المُغيرين على طرق القوافل خاصة بني جرَّار: ومن المفترض أن يتم تسليم ربع الغنيمة التي أخذت إلى الحكومة ويتم الاحتفاظ بالثلاثة أرباع. وهذه الفروع هي الحُواراب ودار سعيد والأحامدة.

2. الفروع التي تقيم خلال موسم الجفاف في البَحَر أو الأجزاء المزروعة الأخرى وتقضي فقط موسم الأمطار في الصحراء، وعدد هذه الفروع خمسة عشر فرعاً ويشملون النوراب والعوايدة وأولاد عون وأولاد هوَّال والرواحلة والسِّراجاب والعَطَويَّة والغليَّان والحمَّاداب. وحذفنا الفروعِ المتبقية من هذه الورقة بحكم أنهم لم يُضموا في الكبابيش الآن.

3. الفروع المستقرة التي تسكن في القرى وتفلح الأرض، وعدد هذه الفروع أربعة عشر فرعاً وأسماء هذه الفروع ــ من ضمن أسماء فروعٍ أخرى ــ هي الهواوير وأم متو والقنقناب والمريساب ودار حامد (إن معظم الكبابيش يتبعون الآن لدنقلا وليسوا تحت زعامة الناظر الوريث لمجموعة الكبابيش الرئيسة)، وكذلك أولاد سليمان وأولاد عُقبة والبرارة والإحيمراب وأولاد طريف.

ويبدو أن الكبابيش في عهد باركينز كانوا إلى حدٍّ كبير أكثر استقراراً مما هم عليه في الوقت الحالي. ففي المقام الأول إن المناطق التي ضمها مستر باركينز في مفردة الصحراء، مثل الصافية والبَقريَّة وأبو سبيب وجبل أبو حديد ــ حيث يبقى فقط الجزء البدوي المحض من القبيلة في موسم الجفاف ــ لا تعتبر مطلقاً بعيدة كلَّ البعد من أيٍّ من كبابيش الوقت الحالي ربما باستثناء البَقريَّة. فهناك أعداد ضخمة من



بعير كباشي عليه "عُطفة" يتأهب لرحيل ابنة زوجة أحد المشائخ من دار إلى دار أخرى.



ذات الصورة السابقة ـ بمنظر أقرب.

الكبابيش في هذه الأماكن في فصل الجفاف ولكنهم لا يعتبرون مطلقاً الجزء الأكثر بداوةً في القبيلة. ولو كان مستر باركينز يكتب لنا الآن سيضع الأغلبية الكبيرة من الكبابيش تحت أول عنوان له ومع ذلك سيستخدم مفردة الصحراء للبقاع الأقل سخاءً مما كان يفعل حقيقةً. وترد الإشارة مرة ثانية إلى قرى الكبابيش، مثلاً قرى النوراب والكواهلة وآخرين حول الشِّقيق والعوايدة في كَجْمَر وأولاد عون وأولاد هوَّال في جبرة الشيخ والسِّراجاب في أم قناطير والعَطَويَّة والغليَّان في كرري والشنابلة في شات والزِّريقة وكبابيش دنقلا الحاليون في وادي الكاب وأولاد سليمان قرب شندي وأولاد عُقبة والبرارة وغيرهم في جبرة الشمالية وقرب كرري وأولاد طَريف في أبو حجر. وصحيح أن الكواهلة والشنابلة (لم يعودوا كبابيش الآن) ما تزال لديهم الآن مساحات زراعية كبيرة، فالكواهلة لديهم زراعة في الشِّقيق والشنابلة لديهم زراعة في شات ولكن مع ذلك فإن المجموعة الرئيسة من كلتا القبيلتين (وبالأخص من الكواهلة) تعتبر بدويةً بداوةً محضة. وللنوراب أتباعٌ قليلون يحترفون الزراعة في جبرة الشيخ وأبو سبيب والمَجَرْ ولكنهم هم أنفسهم بدويون بمعنى الكلمة، وأما العوايدة فهم بدو محض ولا يوجد كبَّاشي يحترف الزراعة في كَجْمَر. وما زال أولاد عون يوجدون في جبرة الشيخ في فصل الجفاف ولكن عملياً ليس لديهم زراعة، ويوجد أولاد هوَّال عادةً في أقصى الشمال الغربي ولا يحترفون الزراعة أبداً. أما السِّراجاب فقد هجروا أم قناطير ويعيشون بدواً في جهة الشمال حول أم سنيطة[1] وعِدْ المَرْخ حيث يزرعون أفدنة قليلة من الذرة قرب عِدْ المَرْخ. ويوجد معظم العَطَويَّة والبَرارة على الدوام في وادي المِلك ولا يحترفون الزراعة ومثلهم أولاد طَريف. رغم أن كبابيش دنقلا لديهم محاصيل في البَحَر لكنهم يُرسلون قطعاناً ضخمة إلى جهة الغرب ومعظم الرجال والنساء منهم بدويون أقحاح وبسطاء. وعندما تهطل الأمطار لزراعة الذرة يتخلف عن الزراعة فقط أفقر الفقراء وسط كبابيش كردفان وهم قلة قليلة وكذلك أتباع البدو وهم ليسوا كثراً أيضاً. وتهاجر القبيلة عموماً بعيداً وتبعث بالقوافل على فترات لشراء الذرة لأنفسهم وخيولهم من القبائل المستقرة بوسط كردفان. وفي الوقت الحالي تجتابُ الفروع الأكثر بداوةً الأراضي الرعوية لدى فصل الأمطار في رحلة أسبوعٍ أو أكثر شمال وادي المِلك وغربه، وفي موسم الجفاف يعودون ولكن قليلاً إلى الشرق من الوادي، ومن هذه

1 يزرع أتباع الكبابيش المختلفون أفدنة قليلة هنا بحكم العادة ولكن لا يزرعونها كل عام.

الفروع أولاد هوَّال والعَطَويَّة والبرارة والحُواراب وآخرون. وفي فصل الأمطار ترسل الأغلبية الكبيرة من الفروع المتبقية كالنوراب وأولاد طَريف والعوايدة والسِّراجاب وأولاد سليمان وغيرهم قطعاناً ضخمة ومعظم عوائلهم مع الفروع المذكورة آنفاً إلى جهة الشمال الغربي حتى ينتهي عشب "الجِزو"[1]، ويُحوِّلون خيامهم من مكانٍ إلى مكان حول أم سنيطة وكاجا وعِدْ المرْخ وجبل أم دم وجبل أبو حديد والصافية ووادي المقدَّم وجبل الحرازة وكَجْمَر، وجميعها مواضع ما عدا كَجْمَر التي اعتبرها مستر باركينز "صحراء".

أولاد عُقبة وأولاد عون هم أساساً أصحاب أغنام ورغم أن عدداً منهم يذهب بعيداً إلى جهة الشمال الغربي في فصل الأمطار مع بقية القبيلة لكن كثيراً من أولاد عُقبة يقضون السنة بين أبو تَبَر وأم إندرابة وأم سِدِر كما يقضيها أولاد عون حول جبرة الشيخ. والجزء الوحيد من القبيلة الذي يمكن أن يعتبر مستقراً حقيقةً هم قلة من الأشخاص الفقراء المنتثرين في الشرق قرب الهَلْبة وأم قرفة وبعض كبابيش دنقلا. إذن من الخطأ أن نتوقع أن يصبح الكبابيش مستقرين في المستقبل القريب: فأن تكونَ قبائلُ معينة أكثر استقراراً الآن مما كانت عليه في أيام التركية إنما يُعزى هذا في الأساس إلى ضياع كل ثروتهم عيناً تحت نظام الدراويش وأن بعضهم قد يعودون إلى حياة البداوة مرة ثانية عندما تزداد قطعانهم. إن العربي يكون سعيداً سعادة حقيقية عندما يكون في الصحراء وأثناء فصول الأمطار أو في الشتاء عندما يكون الماء قريباً من السطح، فكل الصحراء ملكٌ له يتجول فيها وهو يرى بهائمه تتغذى على العشب الأخضر الخصيب. ولا تزعجه سرقات القرويين البسيطة وهو بعيد كل البعد

1 "الجزو" اسم شامل لثلاثة أنواع أو أربعة أنواع من العشب الذي ينمو في الشتاء في الصحارى النائية في جهة الشمال وغرب جبل ميدوب. ويذهب العرب إلى "الجزو" عموماً في حوالي أكتوبر أو نوفمبر، أي في الوقت الذي تكون فيه مياه الأمطار قد جفت في الغالب، ويُرغم أولئك الذين لا يستسيغون المشقة إلى التحرك نحو جهة الجنوب الشرقي إلى حيث الآبار. وتُرسل قطعان الإبل والأغنام إلى "الجزو" بصحبة عددٍ كافٍ من الرجال لرعايتها وأن البهائم تعيش بالكامل على هذا العشب ولا تُسقى ماءً أبداً حتى تعود جنوباً في فبراير. والخيول لا تؤخذ إلى هناك بسبب عدم المياه، أما الحمير فيمكن أن تؤخذ إلى هذه المناطق فقط لأنها تطيق أكل البطيخ البري الذي يُعرف بـ"الحنظل". إن الحياة في "الجزو" حياة شاقة، فالبرد قارس نسبياً والملابس شحيحة والذرة وماء الشرب يجب البحث عنهما على ظهور الإبل على مسافة تتراوح ما بين يومين إلى ثمانية أيام، وعملياً ليس هناك وقود ولا غطاء ولبن الإبل هو السند الأساس للحياة. والميزة التي تبذ كل المساوئ هي المتعة النفسية المُرضية في رؤية البهائم وهي تكتنز لحماً!

عن كل سيطرة عليه، فهو يشعر بأنه رجلٌ حر وعربي حيث تنعكس هذه الحالة الذهنية في سلوكه إزاء شخصٍ أجنبي إذ يُحيِّيه بابتهاج وبشعيرةٍ كاملة في حين أنه إذا عسكرَ قرب بعض الآبار المألوفة في منطقة القرويين المستقرين فسيكون بارداً فاتر الهمة حذراً ولا يدخل في مشكلة أكثر مما ينبغي له. وتفرض غرائزه البدائية نفسها في الصحراء في موسم الأمطار وهي غرائزُ مستمدة من تليد الأسلاف ولا تخبو جذوتها أبداً، وأن تلتقي به يعني العودة إلى الأيام الأبوية، فلقد سمعته يهتف بابتهاج: "شيخ العرب خطر في وقت المطر".

ولنعد إلى مستر باركينز وهو يتحدث عن النوراب بحسبانهم أغنى فروع القبيلة ثروةً وأفضلهم تسليحاً، ويضيف قائلاً: "إن الكبابيش تحت زعامة الناظر فضل الله ود سالم (كل القبيلة باستثناء جزءٍ صغير مُهمل يعيش في دنقلا) كانت تفرض عليهم ضريبة ألفي بعير إذ تغيرت رسومها الآن إلى نقل 4000 شحنة من الصمغ من الأبيض إلى دنقلا. إضافة إلى هذه الشحنات فقد قاموا العام الماضي طوعياً بنقل 3000 شحنة مقابل الأجرة إذ تقوم الحكومة بدفع 80 قرشاً (16 جنيه أسترليني) مقابل كل شحنة يتم إيصالها... ويجب على جماعة فضل الله إضافة لهذا أن يدفعوا 100 حصان و2000 دولار يعادل كلٌّ منها 15 قرشاً ولا تؤخذ نقداً (وهي مساعدة كبيرة للعرب الفقراء!) بل تؤخذ أساساً من صفوة الأباعر لصاحب السمو إبراهيم باشا والتي تقيِّمها الحكومة بمبلغ 8 دولارات للبعير الواحد في حين أن قيمتها ربما تعادل 30 دولاراً عند العرب. وقد أخذ منها في هذا العام وحده 100 بعير، وتوضع بقية الجزية أغناماً... وإضافة لهذا كله فإنهم يدفعون 50 عبداً أو بالأحرى قيمتهم التي تقدَّر بـ30 دولار لكل عبد". ويقدم مستر باركينز من ثم تقريراً لهجرة البدو إلى الشمال الغربي على طول وادي المِلك في بداية موسم الأمطار وعن عاداتهم وتقاليدهم وعن قتالهم مع بني جرَّار[1]. وربما نلاحظ نقطة واحدة وهي أن مستر باركينز يتحدث عن مواقع معينة وكأنها مصايف سنوية ثابتة لفروعٍ محددة، وهذه رواية مضللة إلى حدٍّ ما، فكثيرٌ من الفروع التي يذكر أنها تنتاب أماكن معينة لم تعد تنتابها، ويفسر هذا الزيادة في الماشية والقطعان أو نقصانها. ففي موسم الجفاف تشق فروع القبيلة المختلفة

1 "محاميد ود السَّاني" الذي أشير إلى أنه لقي مصرعه على يد بني جرَّار هو محمد ود السَّاني ابن عم فضل الله سالم. انظر شجرة الأنساب في هذا الفصل.

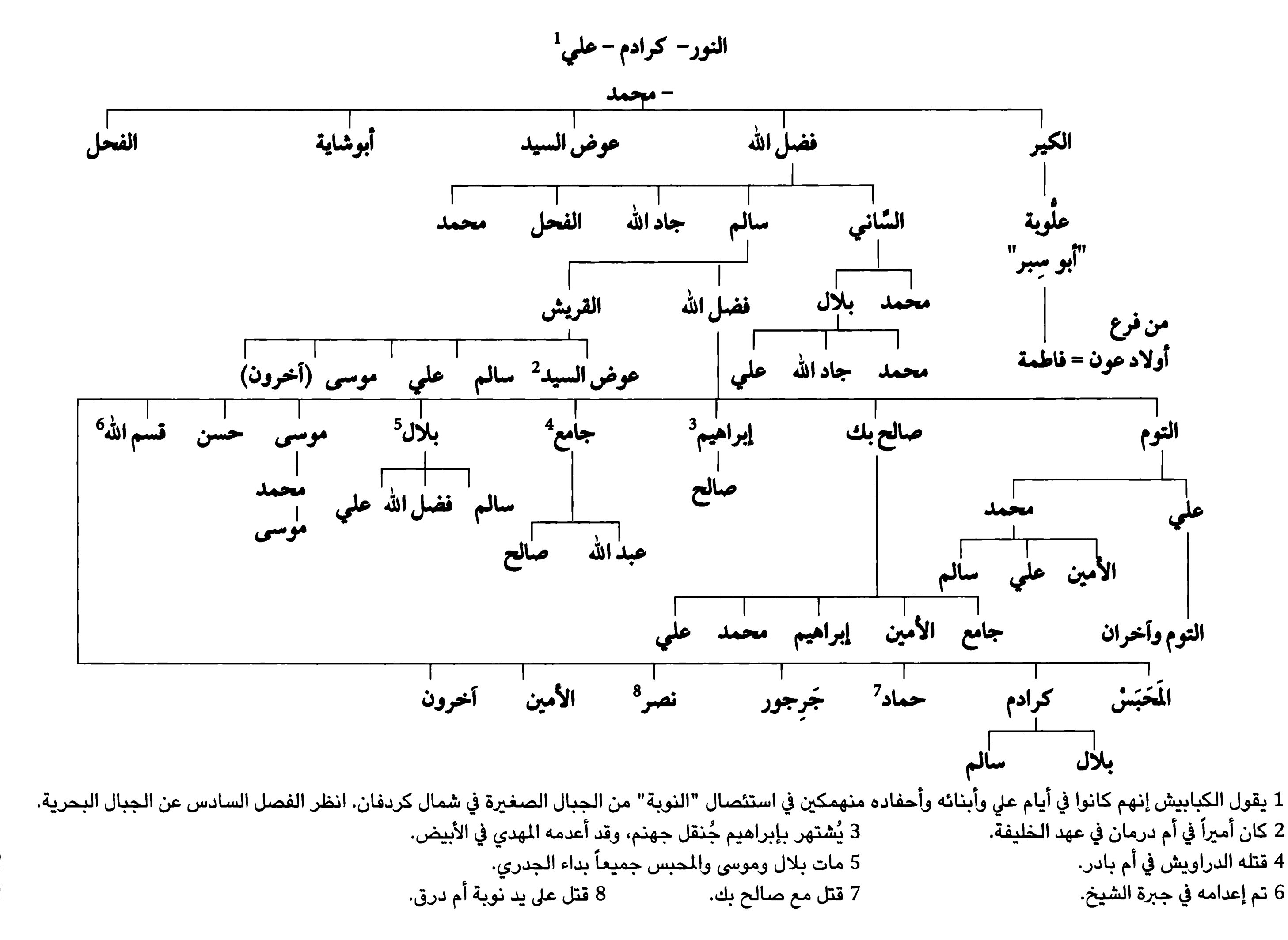
طريقها وتسير في اتجاهاتٍ مختلفة في أعوامٍ مختلفة، ولا تكون السنون معروفة لديهم إلا باسم المكان الذي يقضون فيه الموسم الأشد حرارة قبيل هطول الأمطار[1]، وعموماً ستجد أنهم كانوا مثلاً في واحدة من السنين في واحدٍ من الأماكن وثلاث سنوات في مكان آخر وسنة في مكان ثالث وسنتين في مكان رابع. ولكن بعض الفروع تقريباً تذهب دائماً إلى ذات المكان لأن لديها آباراً هناك مثل أولاد عُقبة الذين يذهبون إلى أم إندرابة وأم سِدر وأولاد عون الذين يذهبون إلى جبرة. ويوجد النوراب في موسم الجفاف دائماً بين كاجا وكَجْمَر اللتين تبعدان مسافة 80 ميلاً تقريباً، كما أن الناظر يمتلك أرضاً في جبرة الشيخ. إن أماكن سُقيا الكبابيش الرئيسة في الصيف هي: البَقرِيَّة والكُلجة وأبو زعيمة في وادي المِلك[2] وأم سنيطة وعِدْ المَرْخ والحبيسة والصافية وجبرة الشيخ وأبو عميرة وأم إندرابة وأم سِدِر وآبار مختلفة في وادي المقدَّم والمَجَرْ. ولديهم أيضاً حقوق سُقيا في كاجا سودري وكَجْمَر ولكن ذلك البلد ليس ملكاً لهم هناك. ويتم حفر الآبار في أماكن أخرى كثيرة في السنين المختلفة ولكن كمية الماء في هذه الآبار غير مستقرة وكثيراً ما تفشل في الشهور الأولى القليلة من السنة.

ولنعد الآن إلى تاريخ الكبابيش، فلقد رأينا أن شياخة القبيلة قد عُهِد بها في أيام التركية إلى النوراب التي انتقلت إليهم في زمن كرادِم، ويوجد في الصفحة التالية نسب عائلة كرادم الذي ما تزال أسرته تمسك بزمام الشياخة. وتختلف الروايات عن الخلافة قبل زمن سالم فضل الله ولكن يبدو أن السَّاني وفضل الله محمد وأبو سِبر والكبر تسلموا جميعاً الشياخة في وقتٍ أو آخر. وكان سالم فضل الله هو الذي استدعاه محمد علي في 1838م ـــ 1839م واستماله عن طريق التنازلات كما تقدم ذكره[3]، وفي نفس الأعوام هاجر عددٌ من الكبابيش إلى دارفور ممتعضين بسبب معاملتهم ولكنهم عادوا مطاردين من قبل سلطان دارفور بعد أن استولى على إبلهم.

1 يسمى الاستقرار في معسكر الجو الساخن بـ"الدَّمَرة" ويسمى المكان بـ"الدميرة". ويسمى الرحيل شمالاً في موسم الأمطار بـ"النَّشغة" ويسمى الرحيل بـ"النشوغ".

2 لا تبقى مياه آبار الكُلجة وأبو زعيمة بصورةٍ دائمة حتى نزول الأمطار.

3 انظر الفصل الأول.



1 يقول الكبابيش إنهم كانوا في أيام علي وأبنائه وأحفاده منهمكين في استئصال "النوبة" من الجبال الصغيرة في شمال كردفان. انظر الفصل السادس عن الجبال البحرية.

2 كان أميراً في أم درمان في عهد الخليفة.

3 يُشتهر بإبراهيم جُنقل جهنم، وقد أعدمه المهدي في الأبيض.

4 قتله الدراويش في أم بادر.

5 مات بلال وموسى والمحبس جميعاً بداء الجدري.

6 تم إعدامه في جبرة الشيخ.

7 قتل مع صالح بك.

8 قتل على يد نوبة أم درق.

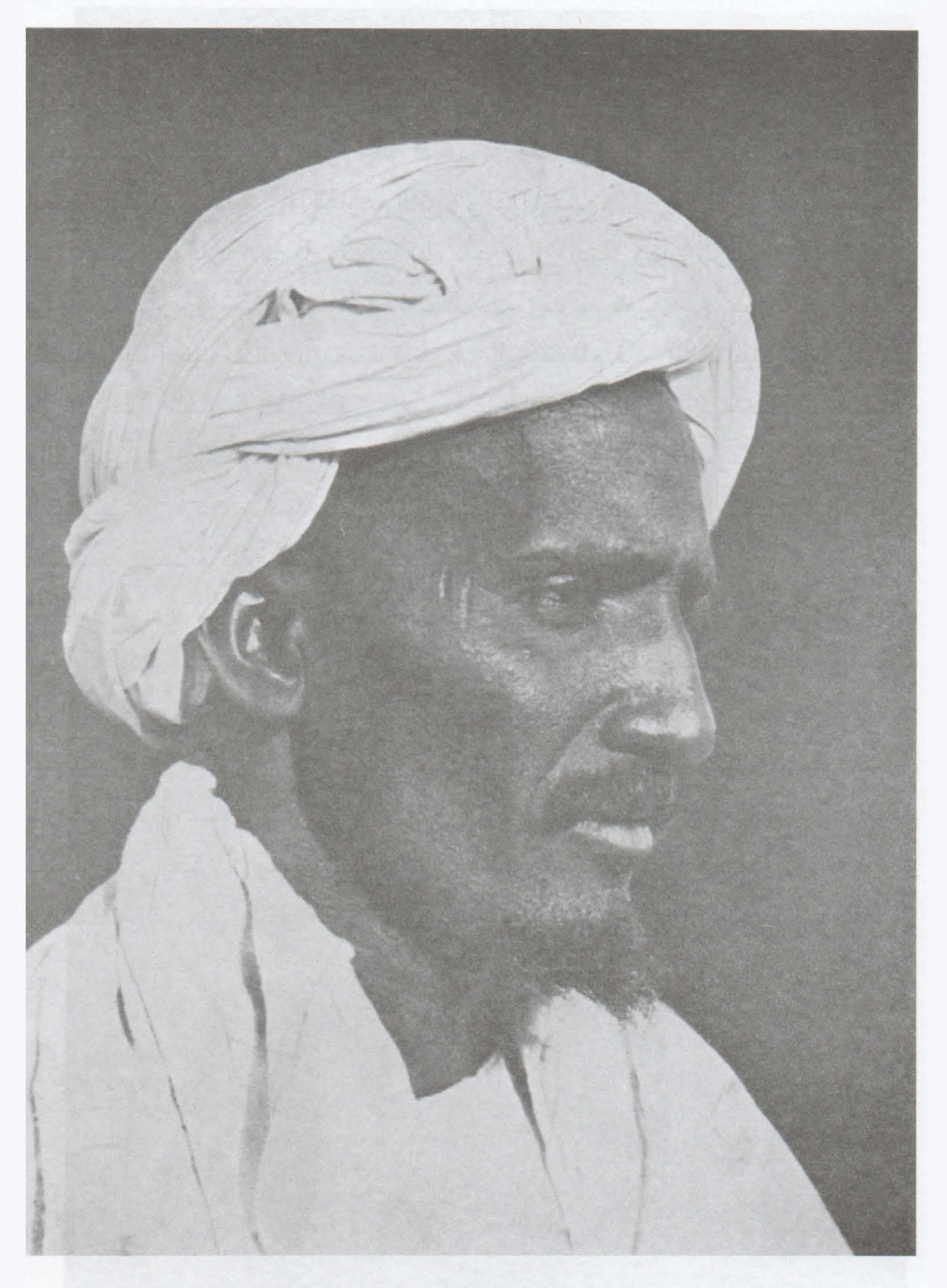
خلف سالم ابنه فضل الله، ويقول بثريك إن القبيلة في أيامه كانت تدفع لمصر سنوياً جزية مقدارها 5000 بعير. وقد حكم فضل الله ود سالم مدة 40 سنة، وقد أحصى إسكيارك دولوتور في عام 1853م إبل فضل الله خاصة بـ5000 جمل و5000 ناقة على أقل تقدير إضافة إلى عددٍ مماثل من الأغنام و300 حصان تقريباً، فلقد كان فضل الله أغنى شيخ عربي في السودان. وكان الكبابيش في ذاك الوقت في عداءٍ مميت مع الحَمَر الذين كانوا يحاولون حتى ذلك الوقت انتزاع ملكية الأراضي الرعوية الغربية[1]. وربما كانت القبيلة في أوج نفوذها لدى وفاة فضل الله، فجزيتهم كانت 8482 جنيه أسترليني غير ثابتة في عام 1880م ولم يتم تخفيض المبلغ عام 1881م. وخلف فضل الله ابنه الأكبر التوم بموافقةٍ من الجنرال غردون، وفي الوقت الذي كان فيه إلياس باشا ود أم برير حاكماً للأبيض عزل التوم وعيَّن في مكانه شقيقه صالح بك فضل الله، ولكن غردون ولدى عودته من دارفور ألغى هذا الإجراء وأعاد تعيين التوم الذي كان ناظراً رسمياً لدى اندلاع الثورة. وبعد أن استولى المهدي على الأبيض قام باعتقال التوم وقطع رأسه[2] وثارت أكبر فوضى وسط الكبابيش: فمعظم فروع الكبابيش انضموا إلى الدراويش ولكن النوراب وبطونهم ـــ مع بعض الاستثناءات ـــ تحدوا المهدي والخليفة على السواء وانسحبوا إلى داخل الصحراء وأداروا غاراتٍ وأعمالاً عدائية غير منهجية، وعانوا في تلك اللحظة من الهزيمة وأحدثوا في تلك اللحظة انقلاباً. لقد رُسمت سلفاً مسيرة حياة صالح بك بين عام 1885م ومايو 1887م: فقد أرسل عثمان آدم بتوجيهاتٍ من الخليفة حملة من كردفان فطاردت صالح بك من أم بادر إلى جبل العين في أقصى الشمال وهناك قامت بقتله وقتل كثيرٍ من أسرته. وكان المنتصرون في الحملة هم عرب دار حامد في الأساس، وفي طريق عودتهم إلى الأبيض وجدوا عدداً من الكبابيش حول جبرة الشيخ فساقوهم إلى الأبيض وهناك تم إعدامهم، وقيل إن أربع آبار مُلئت بجثثهم وتركت بقية الجثث لتتعفن في العراء[3].

بدا أن الكبابيش فقدوا وجودهم قبيلةً بعد وفاة صالح بك، فقد بات بعض النوراب

1 انظر بثريك وإنسور والفصل الثاني عشر عن حَمَر.

2 انظر أوهرولدر، صــ 62 و73.

3 انظر أوهرولدر، صــ 250ـــ 253. صودرت إبل وأغنام القبيلة وذبحت من أجل لحومها في الغالب.



"علي ود التوم ناظر الكبابيش، 1911م."

خارجين على القانون وانضم آخرون إلى الفروع التي أصبحت في زمرة الدراويش وأُرسلوا إلى أم درمان. وهنا قام الخليفة بتعيين عوض السيد القريش أميراً للكبابيش وأودعت أسرة صالح بك والتوم رهن الحبس. وقُتل عوض السيد في المعركة لدى إعادة الفتح وارتحل الكبابيش إلى قِفارهم الأثيرة وألهَوْا أنفسهم بقطع الطريق على مجموعات الدراويش الصغيرة الهاربة وبنهب إبل حَمَر والزيادية، وكان الرِّبيقات والسِّراجاب والعَطَوِيَّة ناجحين نجاحاً بائناً في ذاك الوقت. وقد تم تعيين علي نجل التوم[1] ناظراً للقبيلة، ولما أصبحت البلاد مستقرةً هرعت إليه معظم فروع الكبابيش المنتثرة. لقد ولى الآن عهد الغارات القبلية بين العرب رغم أن قبائل دارفور الهمجية مثل البديَّات والقرعان من جهة الشمال الغربي تقوم من وقتٍ لآخر بنهب مجموعةٍ صغيرة من إبل الكبابيش قبل أن يعود هؤلاء من الأراضي الرعوية في الفصل المطير وتتلو ذلك العمليات الانتقامية. يحدُّ منطقة الكبابيش من جهة الجنوب حدٌّ وهمي يبدأ رسمُهُ من شمال أم بادر بين جبليْ الصِّنيقير وأبو فاس إلى كاجا سودري، ومن هناك يمرُّ على كتول ومصاقباً لشمال شرشار حتى يصل كَجْمَر، ومن كَجْمَر يمرُّ شمال فضليَّة وأم سيالة إلى الشِّقيق قريباً من البَحَر. فالكواهلة والشنابلة يمكثون جنوب هذا الحد ما لم يسمح لهم الكبابيش بعبوره، ولكن حَمَر ودار حامد والهواوير وكل القبائل الأصغر تتجول بإرادتها حيثما شاءت على أيٍّ من جانبي الحد خاضعةً فقط لقيودٍ معينة فيما يتعلق بالمكان الذي يمكن أن يحفروا فيه الآبار. أما الحدّ الغربي للقبيلة فهو حدُّها مع دارفور وحدُّها الشرقي هي أراضي قبائل البَحَر وحدُّها الشمالي هو القفار الصحراوية فقط.

---

1 يبلغ علي التوم من العُمر الآن 37 عاماً (أي في هذا العام 1911م)، وهو ذو بشرةٍ داكنة ولكنه ذو ملامح عربية، وهو من طرازٍ رفيع للعربي المستنير كريم الأرومة ويجلُّه شعبه بأعظم إجلالٍ من المهابة.



"الكواهلة، 1911م"

الفصل السادس عشر

الكواهلة

لا ينتمي الكواهلة تحديداً إلى كردفان ودارفور مطلقاً ولكن الإضافات الفرعية الملحقة بالقبيلة في الآخر هي التي تدعي العلاقة بأيٍّ من القبائل التي تقطن في أيٍّ من هذين البلدين[1]. فموطنُ الكواهلة الأصل يقع على الجانب الشرقي من النيل وهم يرتبطون بالقبائل الشرقية، ومن المريح أن تجدهم لا يدَّعون عبد الله الجهني جدَّاً لهم ولكنهم يرجعون بنسبهم دائماً إلى الزبير بن العوَّام ابن عمة النبي. لقد بات اسمهم مشهوراً في شرق النيل لمئات السنين، ويجب على المرء أن ينظر في أصلهم بين العبابدة والقبائل ذات القربى التي ما زالوا يمتزجون بها. وهناك إشارة مهمة للكواهلة أو "بني كاهل" ـــ وهي بقدر ما أعلم أول إشارة ـــ موجودة في أعمال ابن بطوطة[2]، فلقد أبحر ذاك الرَّحالة الذي ازدهرت أعماله في عام 1353م من جدة إلى رأس الدواير بين عيذاب وسواكن وزار قبائل البجا التي تعيش على السواحل هناك: ووجد وسط هؤلاء البجا معسكراً لأولاد كاهل وهم يتحدثون اللغة البجاوية[3] كما وجد جنود السلطان في سواكن وهم يضمون بين ظهرانيهم البجا وأولاد كاهل وعرب جهينة[4].

يزعم الكواهلة في الوقت الحالي أن العبابدة والبشاريين هم من بين مجموعتهم، ويزعم البشاريون بالمثل أن كاهل هو جدُّهم وجدُّ العبابدة[5]. والحقيقة هي أنه بعد أن أصبحت هذه القبائل قبائل الشرق خاضعةً للغزاة العرب بعد فتح مصر بدأت

1 يقال إن فرع العَطَويَّة الكبابيش وفرع الوايليَّة الحَمَر هما كواهلة أصلاً، كما أن التويمات الفريع الصغير من أولاد بيكة الجوامعة يزعمون أن جدهم تويم هو حفيد بدران الكاهلي. ويقال إن فرع الكواهلة الكبير ـــ دار حامد ـــ يرتبط ارتباطاً لصيقاً بالمجانين.

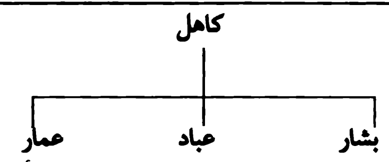
2 انظر ترجمة ديفريميري وسانغينيتي، المجلد "2"، صـ 161 و162.

3 "أولاد كاهل.... مختلطين بالبجاه عارفين بلسانهم".

4 "ومعه عسكر من البجاه وأولاد كاهل وعرب جهينه".

5 انظر دليل السودان، صـ 91 حيث يزعم البشاريون نسبهم كالآتي:

تتصاهر معهم إلى حدٍّ كبير فتَشكَّل عددٌ معين من الخليط الناتج في قبيلةٍ أصبحت تشتهر بأولاد كاهل أو الكواهلة. وبقي أغلب هؤلاء الكواهلة مستقرين في شرق النيل على ضفاف الرهد والدندر[1]، ولكن جزءاً منهم عبر النهر وانضم إلى الكبابيش البدو. ويشير بيركهاردت وكايو معاً إلى أن الشكرية والكواهلة[2] الذين يعيشون في المنطقة المجاورة لنهر أتبرا كانوا في عداءٍ مميت مع الجعليين في الفترة ما بين عامي 1814م و1819م: وفي ذاك الوقت كان العربُ البدو لا يدينون بأيٍّ ولاءٍ لأية حكومة إلا ما ندر ولم تكن جباية الجزية منهم أمراً ميسوراً، ولكن من الناحية الأخرى نجد بروس[3] يتحدث عن "عرب كوهالا" [الكواهلة] في الرهد باعتبارهم قبيلة مستقرة خاضعة لـ"مك" سنار ويدفعون الضريبة طوعاً وبانتظام. كان عددٌ كبير من الكواهلة يعيشون لعدة أجيال قبل المهدية مع الكبابيش وكانوا يُعتبرون فرعاً من تلكم القبيلة، ولكن بقي كثيرون آخرون منهم مستقلين في الرهد والدندر[4]. ولدى اندلاع المهدية انفصل الكواهلة من قبيلة الكبابيش وانضموا إلى الثوار[5]، وهنا يكمن أسُّ العداء الموجود بين القبيلتين: فالكواهلة يزعمون أن لهم حقوق رعيٍ وريٍّ في منطقة الكبابيش لأنهم كانوا يمارسون هذه الحقوق لعدة سنين، ولكن الكبابيش بالطبع يؤكدون أن الكواهلة



ويتحدث سير ج . ويلكنسون (صـ 386) عن العبابدة بحسبانهم سكان أصليين وما هم بعرب إلا في العادات فقط، ويشير إلى أن من بين فروعهم الرئيسة الجواليه (أي الكواهلة).

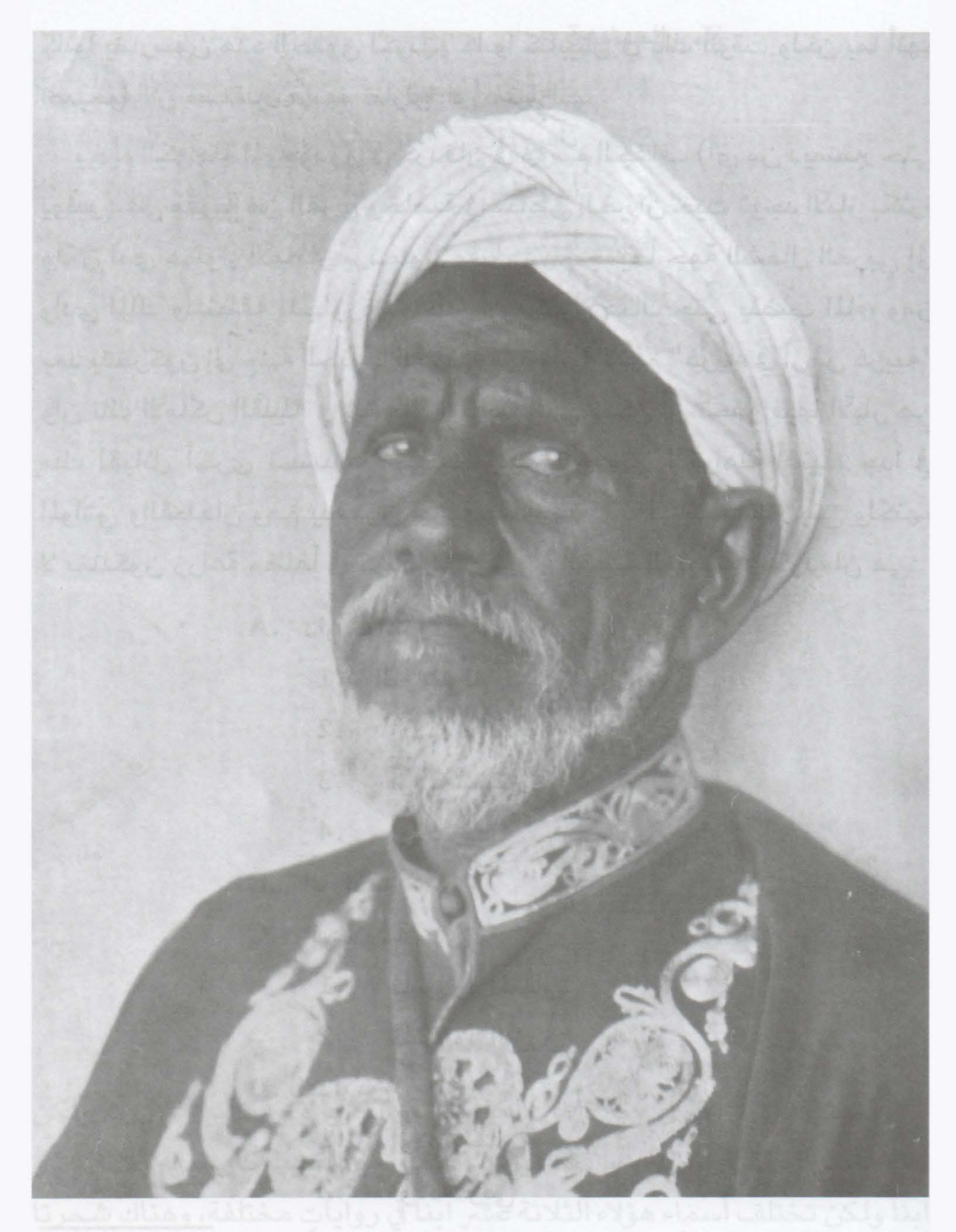
1 انظر مثلاً كايو... " الجزء الشرقي من الدندر وما وراء الرهد يقطنه عرب الكواهلة". ويشير أيضاً إلى آخرين منهم يسكنون قرب العطشان على النيل الأبيض.

2 يقدم بيركهاردت في (بلاد النوبة...) الكلمة بالعربية "قواحل" بدلاً عن كواهلة. ويقول كايو "القبائل العربية في المنطقة الواقعة جنوب شرق شندي جميعها مستقلة، ويعيش الشكرية والكواهلة في عداءٍ مستمر مع الجعليين الذين هم أكثر عدداً".

3 المجلد "4"، صـ 416.

4 انظر تقرير ستيوارت، فهو يشير أيضاً إلى أن الجزية الاسمية لقبيلة الكواهلة المستقلة تحت النظام التركي كانت حوالي 2759 جنيه أسترليني قبل عام 1881م ولكن تم تخفيضها من بعد إلى 1300.5 جنيه أسترليني.

5 كان أميراهما الرئيسان هما جاد الله بليلو من فرع العبابدة وأحمد عبد القادر من فرع دار حامد. وبعد إعادة الفتح اختير عبد الله ود جاد الله ناظراً، وفي عام 1910م تم فصله وعُيِّن أحمد عبد القادر في مكانه.



أحمد عبد القادر الإعيسر ناظر الكواهلة، 1911م.

كانوا يمارسون هذه الحقوق لكونهم كانوا كبابيش في ذلك الوقت ولكن بما أنهم أصبحوا الآن مستقلين فإنهم تنازلوا عن امتيازاتهم.

يخيِّم الكواهلة الموجودون في كردفان في موسم الجفاف (أي من ديسمبر حتى يونيو) على مقربةٍ من القرى وخاصة في مناطق الخيران حيث توجد الآبار بكثرة ولكن لدى هطول الأمطار يرتحلون وقطعانهم جميعاً جهة الشمال الغربي إلى وادي المِلك والمنطقة المجاورة لأم بادر ويمكثون هناك حتى ينضب الماء، ومن بعد يتحركون إلى جهة الجنوب الشرقي مرة ثانية لأنهم "غرباء في أرضٍ غريبة" وأن تلك الأماكن القليلة في الشمال الغربي التي يمكن أن تحفر فيها الآبار هي ملكٌ لقبائلَ أخرى تحسدهم على حظوتهم[1]. ويعتبر الكواهلة أغنياء جداً في المواشي والقطعان وهم يدفعون جزية مقدارها 1225 جنيه أسترليني ولكنهم لا يمتلكون زراعة مطلقاً في كردفان[2]. وفروع القبيلة الرئيسة في كردفان هي:

A. دار حامد

1. الحاشونا
2. أولاد جريس
3. أولاد شنيتير[3]
4. أولاد زيد

B. البراقنة

C. الحلايفة

1. ناس ود المطارق
2. ناس ود الأزرق

D. البدارين

1. أولاد رحال
2. أولاد عربي

---

1 التنازلات للغرباء للرعي أو السُّقيا من الآبار التي يحفرها أصحاب الأرض أمر مألوف جداً ولكن التنازلات لحفر الآبار شيء نادر الحدوث ما لم تكن الأطراف على علاقات حميمة.

2 لديهم زراعة في الشِّقيق على حدود مديرية النيل الأبيض مع كردفان.

3 *شنيتير تصغير لكلمة شناتر الحِمَيَرِّيَة ومعناها الأقراط.*

E. العبابدة

1. ناس ود المسيك
2. ناس باب
3. أم راضي
4. النفر

F. أم عمار

G. دار بحر

1. أولاد الشيخ
2. أولاد الدبيد

H. البقيراب

1. أولاد سليمان
2. أولاد آدم
3. الكرون

I. الجهيماب

J. الغزايا

1. العُمارات
2. أولاد طَريف

K. النفيدية

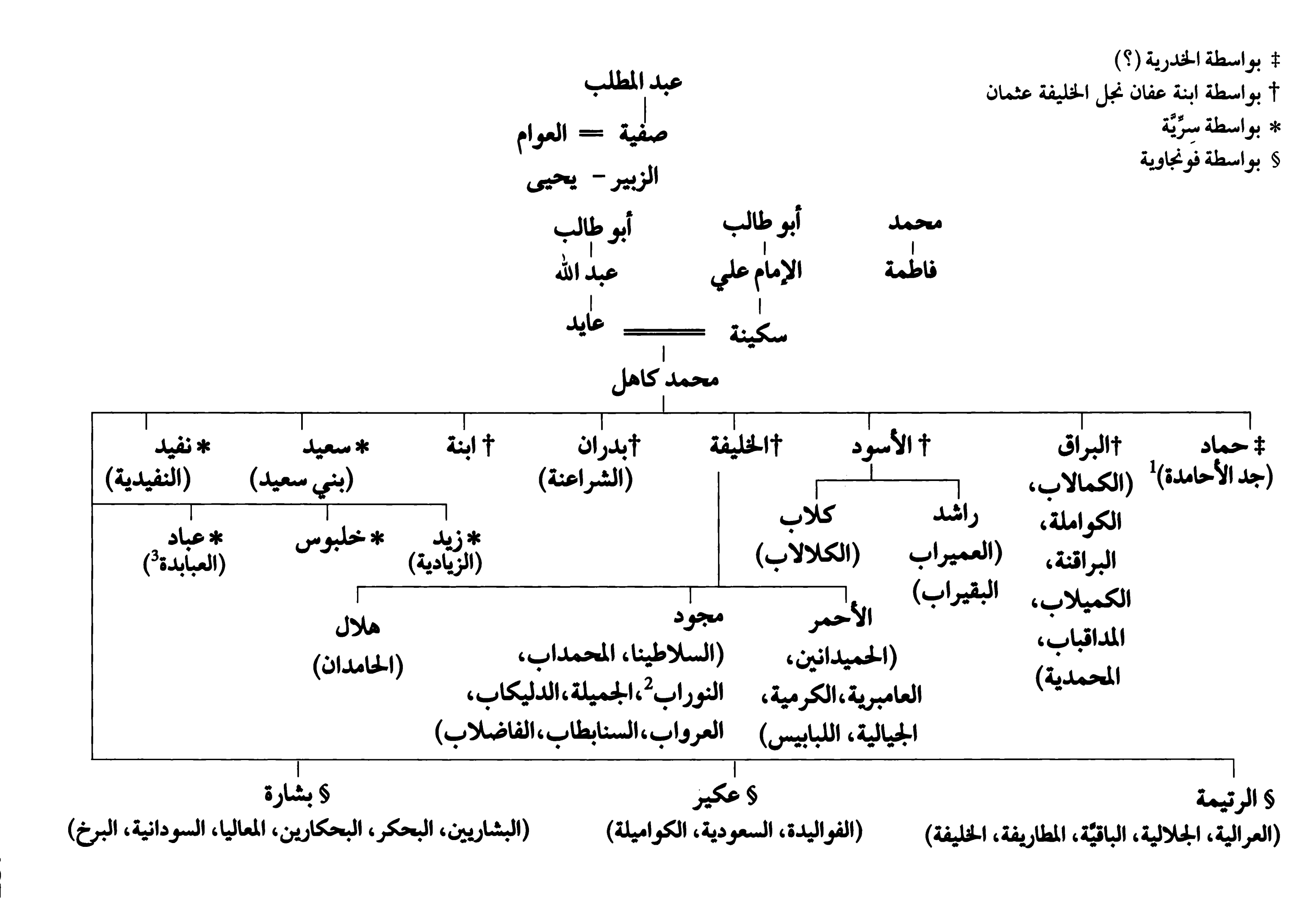
1. العُتيَّاب
2. الملكاب
3. الكوارا

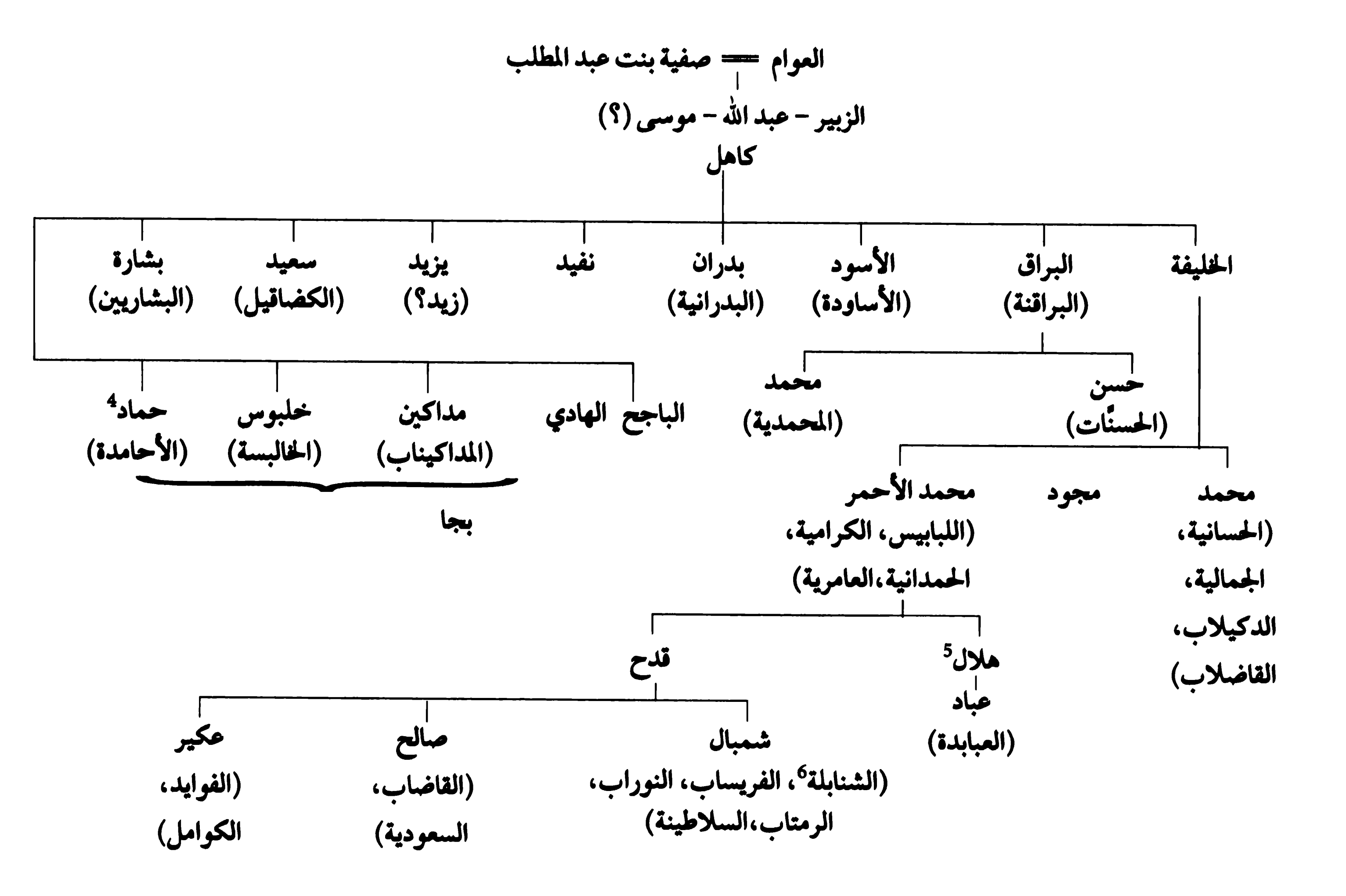
وتعيش فروعٌ أخرى كثيرة من الكواهلة في الجزيرة وفي النيل الأزرق ولكن هؤلاء أكثر استقراراً. وعموماً فقد قيل إن كاهل جدّ القبيلة كان لديه ثلاثة عشر ابناً ولكن تختلف أسماء هؤلاء الثلاثة عشر ابناً في رواياتٍ مختلفة، وهناك شجرتا نسب للكواهلة في الصفحات التالية[1]. وربما يتضح مما قيل وخاصة من أشجار

1 شجرتا النسب هاتان وُجدتا بين أوراق الناظر السابق عبد الله جاد الله: وكان كثيرٌ من أسماء القبائل الفرعية مستعصية على القراءة ولذا تم حذفها.

النسب المقدمة كيف أن الكواهلة يعتبرون أنفسهم مرتبطين ارتباطاً لصيقاً مع القبائل شبه العربية أو القبائل غير العربية الموجودة في شرق السودان بين النيل والبحر الأحمر. ومن الغريب أن تجد هناك مجموعة وضيعة من الكواهلة مستقرة وسط النوبة البدائيين في جبال كردفان الجنوبية في ويرنا والمنطقة المجاورة لها[1]. ومن الصعوبة أن نقول كم عدد الكواهلة الذين انشقوا من السلالة الأم وانضموا إلى القبائل الأخرى أو أصبحوا مجموعات مستقلة، ولكن يجب أن يكون العدد كبيراً.

1 يقال إنهم انحدروا من بدران المشار إليه في شجرتي النسب. ويقول أوهرولدر (صـ 8) إن أولئك الذين يعيشون منهم في جبل قدير "يستحوذون على حجرٍ مشهور ومقدس الذي تقول عنه روايةٌ مأثورة إن النبي محمد جلس عليه وصلى".


‡ بواسطة الخدرية (؟)
† بواسطة ابنة عفان نجل الخليفة عثمان
* بواسطة سِرِّيّة
§ بواسطة فونجاوية
عبد المطلب
صفية = العوام
الزبير - يحيى
أبو طالب
عبد الله
عايد
أبو طالب
الإمام علي
سكينة
محمد
فاطمة
محمد كاهل
‡ حماد
(جد الأحامدة)[1]
†البراق
(الكمالاب، الكواملة، البراقنة، الكميلاب، المداقباب، المحمدية)
† الأسود
راشد
(العميراب البقيراب)
كلاب
(الكلالاب)
†الخليفة
الأحمر
(الحميدانين، العامبرية، الكرمية، الجيالية، اللبابيس)
مجود
(السلاطينا، المحمداب، النوراب[2]، الجميلة، الدليكاب، العرواب، السنابطاب، الفاضلاب)
هلال
(الحامدان)
†بدران
(الشراعنة)
† ابنة
* سعيد
(بني سعيد)
* نفيد
(النفيدية)
* زيد
(الزيادية)
* خلبوس
* عباد
(العبابدة[3])
§ الرتيمة
(العرالية، الجلالية، الباقيّة، المطاريفة، الخليفة)
§ عكير
(الفواليدة، السعودية، الكواميلة)
§ بشارة
(البشارين، البحكر، البحكارين، المعاليا، السودانية، البرخ)


العوام = صفية بنت عبد المطلب
الزبير – عبد الله – موسى (؟)
كاهل
الخليفة
البراق (البراقنة)
الأسود (الأساودة)
بدران (البدرانية)
نفيد
يزيد (زيد؟)
سعيد (الكضاقيل)
بشارة (البشارين)
حسن (الحسنّات)
محمد (المحمدية)
الباجح
الهادي
مداكين (المداكيناب)
خلبوس (الخالبسة)
حماد4 (الأحامدة)
بجا
محمد (الحسانية، الجمالية، الدكيلاب، القاضلاب)
مجود
محمد الأحمر (اللبابيس، الكرامية، الحمدانية، العامرية)
هلال5
عباد (العبابدة)
قدح
شمبال (الشنابلة6، الفريساب، النوراب، الرمتاب، السلاطينة)
صالح (القاضاب، السعودية)
عكير (الفوايد، الكوامل)

1 الأحامدة: أشار بيرتون إلى قبيلة بهذا الاسم في كتاب (الحج إلى مكة...) باعتبارها فرعاً من بني حرب في الحجاز. والتقى بيركينز بهم (لحامدي) بين الكبابيش، ويشير إليهم ستيوارت باعتبارهم قبيلة منفصلة. وهناك كثير منهم في النيل الأزرق والجزيرة الآن.

2 النوراب هم فرع الكبابيش الحاكم وربما لم تكن لديهم علاقة بالكواهلة، وتم إقحام اسمهم هنا من قبيل التباهي فقط.

3 ربما توجد تفاصيل عبابدة شرق مصر وصعيدها عند بيركهاردت وكلونزيجر وويلكنسون (صـ 386) وسير سي. دبليو. ويلسون ورحالة آخرين عديدين. ويقال إنهم يمثلون قدامى سكان الكهوف وفيهم قدر كبير من الدم البجاوي، وكانوا بالطبع في إفريقيا قبل وقتٍ طويل من الغزو العربي بقيادة عمرو بن العاصي. والمفرد من عبابدة هو عبادي ومن البشاريين هو بشاري. واستخدمت كلمة عبادي أيضاً لتشير إلى عرب مسيحيين وأن "بشارة" تعني الإنجيل أو عيد البشارة، ولا أدري ما إذا كان هذا مجرد مصادفة ولكنه شيء غريب عندما يتذكر المرء أنه كانت هناك مملكة مسيحية في دنقلا حتى حوالي القرن الرابع عشر. إن فرع عبابدة كواهلة كردفان الحالي يعتبر فرعاً كبيراً وغنياً، وبعد أن انشق الكواهلة من الكبابيش كان عضو فرع العبابدة هو الذي يمثل زعيماً لكل القبيلة حتى عام 1910م.

4 في بعض الأوقات يجري الحديث عن حماد بلقب "النويكير".

5 إن نسبة هلال باعتباره أباً لعباد تذكّر المرء بإشارة بيركهاردت إلى أن العبابدة يتظاهرون بأنهم منحدرون من "سلمان أحد عرب بني هلال".

6 ربما لا يكون الشنابلة مرتبطين أصلاً بالكواهلة، وعلى أية حال كان الشنابلة فرعاً من الكبابيش في ذات الوقت الذي كان فيه الكواهلة كذلك وانشقوا من الكبابيش في ذات الوقت الذي انشق فيه الكواهلة.

الفصل السابع عشر

الشنابلة

الشنابلة بحسبانهم قبيلةً ليس لهم تاريخٌ ضاربٌ بجذوره وأن اسمهم لم يظهر قبل القرن التاسع عشر[1]، ويقال إن القبيلة الأكثر صلةً بهم في السودان هي دار حامد[2]. فعندما كانت كلُّ قبائل شمال كردفان في وقتٍ ما في القرن الثامن عشر قبائل بدوية تقتني الإبل قام الشنابلة بقطع علاقتهم مع دار حامد، فهاجر جزءٌ منهم إلى ضفاف النيل الأبيض الشرقية واستقروا قرب شات والزريقة وانضم آخرون إلى الكبابيش في الشمال. وانضم بعضٌ من المجموعة التي هاجرت إلى الشرق إلى المسلميةِ فيما بعد، والبعض الآخر ــــ وأعني بهم الجخيسات ــــ ربطوا أنفسهم بقبيلة حَمَر العساكرة في الغرب[3]. وبقي أفراد المجموعة التي انضمت إلى الكبابيش بدواً مع تلك القبيلة حتى المهدية إذ ناصروا قضية الدراويش آنذاك وربطوا مصيرهم مع أقاربهم في البَحَر. وكان أميرهم في المهدية هو عيسى بخيِّت الحُمراني الذي توفي قبل إعادة الفتح وخلفه منهل خير الله، وقد تم تعيين منهل خير الله ناظراً للقبيلة لدى إعادة الفتح. إن معظم أفراد القبيلة ما يزالون بدويين أصحاب إبل ولكنهم يمتلكون أيضاً أراضي قرب النيل الأبيض. وفي موسم الأمطار يتجولون مع الكواهلة في شمال غرب كردفان ويعودون عن طريق كاجا الحُفرة وجرقل ودار حامد في شهري أكتوبر ونوفمبر تقريباً. ويمكثون في الشتاء والصيف حول بارا وأم بوشة والتيارة وشركيلا، فهم لا يملكون أرضاً باستثناء أرضهم الواقعة قرب شات والزريقة ولكن الظروف هناك غير ملائمة لقطعانهم، ولذا

---

1 يشير بيرتون (انظر سوريا التي لم تكتشف، المجلد "1"، صـ 148) إلى أن بيركهاردت اكتشف في عام 1810م بعض "السهانبيل" جنوب شرق دمشق وهم يتبعون جزئياً إلى الدروز: وكانوا نهابةً سيِّئي السمعة وظلوا في هذا الحال منذ عهد هيرودس بن أنتيباتر. وطالما أن هناك شنابلة يعيشون في الوقت الحالي شرق وادي النيل في مصر (انظر كليبل، صـ 8)، فهناك افتراض مقبول لعلاقةٍ ما بين شنابلة كردفان والقبائل المذكورة آنفاً.

2 انظر قوائم الأنساب المقدمة في الفصل التاسع عن دار حامد.

3 انظر الفصل الثاني عشر عن حَمَر.

فإن وضعهم هو نفس وضع الكواهلة فيما يتعلق بإمكانات السُّقيا والرعي.

في عام 1911م أصبح من الضروري تقسيم القبيلة إلى قسمين هما: البدو وعلى رأسهم العمدة علي مُخمَّس حيث وضع هذا القسم تحت إدارة مديرية كردفان التي توفر لهم الأراضي الرعوية، والقسم الثاني هم أفراد القبيلة المستقرين الذين أصبحوا تابعين لمديرية النيل الأبيض. وفروع القبيلة هي كالآتي:

A. أم بريش

1. العاميرة
2. الجَعَبة[1]

B. أم عبد الله

1. الجوعارة
2. ناس جمعة
3. ناس أم جاد الكريم[2]

C. أولاد ناصر

1. ناس المقابل
2. ناس نكموشة

D. أولاد داني

E. ناس حدَّاد

1. ناس سلاس
2. ناس حدَّاد[3]
3. ناس فنيحة

F. العواميرة

1. أولاد الفاضل زوراب
2. ناس ود عبد الله
3. ناس ود النور

---

1 فرع منهل خير الله.

2 فرع علي مُخمَّس.

3 أنيطت شياخة القبيلة الأصلية بهذا الفرع.

4. الشويحات

G. أولاد هوَّال

1. ناس مريِّع
2. ناس معَّاك

H. الحامديَّة[1]

J. الصُّبيحات

1. أولاد أميرة
2. الخميساب
3. النافعاب
4. الكُويَّاب
5. ناس أم لعوتة

K. أبوعمير

1. النجاجير
2. التايبات
3. ناس ود الزين

L. أولاد هاشون

1. ناس نعيم
2. أبو رضي
3. المنان
4. ناس غريرة

1 أصلاً هو فرع أصغر من أبوعمير

الفصل الثامن عشر

البزعة وبني جرَّار

الجزء I.

البزعة قبيلة صغيرة تنتشر في وسط كردفان، وهناك مجموعة منهم توجد في الأصقاع الجدباء الواقعة في الجزء الجنوبي الشرقي من منطقة أم دم ومجموعة أخرى مع بني جرَّار في كدمول قرب بارا ومجموعة ثالثة تمتلك عدداً كبيراً من جنائن الصمغ حول أم شحِّيطة وأم قوزين جنوب جبل أم شديرة ومجموعة رابعة قرب أبو زبد في جهة الغرب، وهناك عددٌ من هذه المجموعة الأخيرة بدويون طول السنة. ويوجد قليلٌ منهم أيضاً في تيسوما بشرق دارفور. وفي الأصل هم مرتبطون ارتباطاً لصيقاً ببني جرَّار وكلتا القبيلتين ترجعان بنسبهما إلى واحدٍ يسمى سالم الحمام، ويعتبر سالم هذا في العادة حفيداً لحامد الأفزر ومن المحتمل أن يكون كلا البزعة وبني جرَّار فرعين من قبيلة فزارة الكبيرة[1]. ويُفسَّر اسم البزعة بأنه مَشتق من أبزع ابن سالم الحمام. ويقال إن مقرهم الأصل في كردفان كان في الموقع الذي ما زالوا يسكنون فيه في منطقة أم دم وأنهم حلُّوا محلَّ بعضٍ من قبيلة كنانة الذين كانوا هناك. ولا يبدو أن هناك أحداً منهم في شرق النيل ولا في شمال كردفان، ولقد تصاهروا إلى حدٍّ كبير مع بني جرَّار وإلى حدٍّ ما مع حَمَر. وأدناه فروع القبيلة الأصغر:

1 بالنسبة لقبيلة فزارة انظر الفصل الخامس عشر عن الكبابيش والرواية المتعلقة ببني جرَّار التي تلي في هذا الفصل. ولا علم لي بمذكرة تربط البزعة مع "البازا" الذين يتحدث عنهم بارث بأنهم قبيلة قوية مستقلة ذات لغة خاصة بها وتعيش في شرق برنو ولا بـ"البزاه" الذين يتحدث عنهم المقريزي بأنهم يعيشون في شرق السودان بين البجا وأهل علوة على النيل الأزرق (انظر كواترمير، المجلد "2"، صـ 17 وما يليها)، ووصفهم ويرن أخيراً في كتابه "تجولات إفريقية". وقطعاً إنها محض صدفة أن يرجع البزعة بنسبهم إلى سالم الحمام وأن تكون الطيور التي تسمى "حمام البازين" قد أتت من منطقة البَزاه (انظر كُواترمير، في المكان المذكور). وبالنسبة لنسب سالم الحمام المزعوم، انظر الفصل التاسع عن دار حامد.

A. المحمودية[1]

1. الحامدلّة
2. أولاد ناصر
3. أولاد الإحيمر
4. السّعايدة
5. أولاد عبد المحمود

B. الشفاعيّة

C. العيّادية أو (أبوعيّاد)

D. الجعديّة[2]

1. أولاد حسن
2. أولاد حسين

E. النواجيّة أو النّواجات

1. الفريسية
2. الصُّبيحات
3. أولاد عبد الرحمن
4. أولاد البشير

F. الحُصانة

G. أولاد ضان

H. الكريمات

J. الرزاقة

K. أم تيمان

L. الفويتة

---

1 ينحدر المحمودية من عبد الجبار محمود الذي تزوج وديدة بنت هوّال جد فرع أولاد هوّال الكبابيش. وكان ابنهم هو حماد وأن وديدة كانت تسمى لاحقاً أم حماد.

2 الجعدية هم الفرع البدوي من القبيلة، والبقية منهم مستقرون

الجزء II.

ربما يمثل بنو جرَّار أكثر من أية قبيلةٍ أخرى عرب فزارة القدامى الذين كثيراً ما ورد ذكرهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهم يجوبون شمال كردفان ودارفور[1]. ويبدو أنهم توسعوا على نطاقٍ واسع من البلاد على مشارف نهاية القرن الثامن عشر. ويتحدث بروس وهو يرتحل على شرق النيل من عام 1768م إلى 1773م عن عبور صحراء بيوضة ـــ بين جبل كرري وكورتي ـــ باعتباره عبوراً غير آمن بسبب وحشية بني فزارة وبني جرار والكبابيش "الذين يأتون من جهة الغرب قرب كردفان خوفاً من الحصان الأسود[2]"، ويتحدث بروس في ذات الوقت عن أن هذه القبائل الثلاث "طَرَدت في الآونة الأخيرة قدامى عرب بهيودا" [بيوضة] وأنها كانت تابعة اسمياً لملكة سنار من خلال محمد ود عجيب "أمير العرب الوريث". وكان لديه أيضاً تدوين في دفاتره مؤرخ بتاريخ أول أغسطس 1772م بحيث أن الأخبار التي وصلت إليه تقول إن أهل دارفور كانوا يزحفون لمهاجمة أبي اللكيلك في كردفان وأن "القافلة التي كانت تحمل كل الممتلكات الثمينة قد نُهبت في بحر الليس [أي النيل الأبيض] أو بالقرب منه بواسطة بني جرَّار وهي قبيلة من بني فيسارة". ونسمع بذات الطريقة من بيركهاردت أنه وفي حوالي عام 1814م أن هذه القبائل الثلاث ما زالت تشنُّ غاراتٍ خطيرة في شمال كردفان وفي الشمال الشرقي منها. وفي ذات الوقت أشار براون إلى أنَّ بني جرَّار وبني فزارة كانا من بين القبائل العربية في دارفور[3] في الأعوام 1792م ـــ 1798م، كما ذكرها التونسي بعباراتٍ مماثلة في 1803م. وربما كان بنو جرَّار في ذاك الوقت ولعدة سنينٍ تالية لا يدينون لأية سلطة إلا بولاءٍ قليل وكانوا منهمكين انهماكاً كاملاً في شنِّ الغارات وفي رعي قطعانهم في الصحارى الشمالية. وسمعنا عنهم مرة ثانية في عام 1850م من مانسفيلد باركينز الذي قضى بعض الوقت بين البدو إذ يقول "إن بني جرار ـــ أعداء الكبابيش القدامى وساكني الصحراء الواقعة بين دنقلا

---

1 بالنسبة للإشارات الواردة حول فزارة، انظر الفصل الخامس عشر عن الكبابيش.

2 ربما يشير الحصان الأسود إلى فرسان الفونج السود الذين كانوا في ذلك الوقت حكاماً اسميين لكردفان، وربما يشير إلى فرسان المسبَّعات الذين استولوا على السلطة آنذاك.

3 انظر براون، صـ 325.

ودارفور في السابق ـــ قد تشتتوا الآن في جهة الغرب على حدود دارفور. وتؤكد الروايات القديمة أنهم كانوا خصوم الكبابيش الألداء في كل الأزمنة القديمة رغم أن عَقْدَ معاهدةٍ بينهما في بعض الأوقات تسمح لهما بفترةٍ قصيرة من أجل الأعمال السلمية". ويقصُّ مانسفيلد قصة عن غارةٍ شنَّها بنو جرَّار على الكبابيش في "أحد مواسم الأمطار عندما كان المماليك ملوكاً في دنقلا" وأن الكبابيش أخذوا بالثأر في العام التالي. يبدو أن أسَّ الخلاف بين هاتين القبيلتين في غابر الأيام قبل الفتح التركي كان هو مكان السُّقيا الكبير في كَجْمَر، فبنو جرَّار ما زالوا يعتبرونه من الناحية النظرية ملكاً لهم رغم أنهم طُردوا منه قبل قرنٍ من الزمان تقريباً[1]. وربما أصبح عددٌ من بني جرَّار في وقتٍ ما في النصف الأول من القرن التاسع عشر مستقرين وبنوا قراهم على الضفة الغربية للنيل الأبيض وبعيداً في داخل البلد خاصة في البُساطة، كما استقر عددٌ منهم أيضاً مع البزعة في كدمول بوسط كردفان. وقد قدَّر براوت عام 1876م عددهم في كردفان في شرق خرسي وحول جبل التيُوس بـ2500 نسمة ولكن ربما قدِّر الرقم باستخفافٍ كبير. وتم ربط جزية بني جرَّار قبل عام 1881م بـ1134 جنيه أسترليني ربطاً غير ثابت، ورغم أن عدداً من التخفيضات قد أجري في الجزية عام 1881م لكن جزية بني جرَّار لم يُجرَ عليها تعديل. كان أمير قبيلة بني جرَّار في عهد الدراويش هو محمد نوباوي وقد قتله الكبابيش قرب جبل الحرازة في عهد الخليفة وخلفه ابنه حماد نوباوي ولكن حماد أفسح مجال الشياخة مؤقتاً لشقيقه محمد أحمد ومن بعد تسلم زمام الشياخة مرة ثانية.

يقال إن اسم بني جرَّار مشتق من الفعل "جرَّ" ويُعزى هذا الاسم إلى أن جدَّهم كان قاطع طريق مشهور إذ كان يقضي جلَّ وقته وهو يجرُّ رِجْل الشاة التي سرقها على الأرض لكي يأخذها إلى مكانٍ آمن[2]. والفروع الرئيسة الأصغر لقبيلة بني جرَّار هي كالآتي:

A. **المحابيب**
B. **أولاد ربيعو**

1 يُشار في بعض الأوقات إلى أن بني جرَّار كانوا مثلهم مثل الكواهلة والشنابلة تابعين للكبابيش قبل المهدية. وهذا خطأ.

2 هذه القصة يقدمها بنو جرَّار بكل فخر.

1. ناس الإحيمر
2. ناس الشعيبة
3. ناس الخلافة

C. الجُبارات

1. ناس أبُّوع
2. ناس جُويد
3. السنوط
4. أم سِمِيره
5. ناس سالم
6. أولاد جيوت

D. أولاد الحايلة

1. ناس موسى
2. البليلات

E. أبوهاجود

F. أولاد بركات

يرتحل الجزء البدوي من القبيلة مع الكواهلة في موسم الأمطار في اتجاه الشمال الغربي ويعود إلى الجنوب الشرقي إلى منطقة الخيران والمنطقة المجاورة لكدمول في الشتاء وأشهر الصيف الجافة.

الفصل التاسع عشر

الهواوير والجلابة الهوَّارة

في شمال كردفان وفي الصحارى الواقعة غرب دنقلا تتجول قبيلة الهواوير البدوية صاحبة الإبل، وفي وسط كردفان بالقرب من الأبيض تستقر مجموعة من الناس تعرف بالجلابة الهوارة، وهؤلاء الجلابة الهوارة هم أصلاً فرع من الهواوير رغم أنهم الآن حُطُّوا قدراً بامتزاج الدم الأسود وبُتروا بالكامل من هواوير الشمال البدو. وسترد الإشارة لاحقاً إلى العلاقة بين هذين الشعبين، ولكن فلنحاول أولاً أن نقدم رواية عن أجداد الهواوير. إنهم بقايا قبيلة الهوارة البربرية الكبيرة، فلقد بات تاريخ شمال إفريقيا لسنين عديدة بعد الغزوات العربية للقرن السابع الميلادي سجلاً من الحروب بين القبائل البربرية والعرب. وليس بمستيقنٍ إلى أية سلالة ينتمي البربر في النهاية ويجب ألا نقف عند ذلك هنا ويكفي أن نقول إن الروايات القديمة عموماً تقول إن البربر كانوا عنصراً حاميَّاً من سوريا وارتبط مع الفلسطينيين[1]، ويؤيد أغلب الكُتَّاب أن مجموعةً معينة من القبائل البربرية كانوا ذات مرة مستوطنين يمنيين حول مأرب. فابن خلدون يقدم تقريراً طويلاً عن الآراء المختلفة فيما يتعلق بأصل البربر ويستشهد بالبكري حين يقول إن قبائل كتامة وصنهاجة كانت يمنية مع اعتراضه على قبائل هوارة ولامتا ولواتة الحميرية[2]. وهو نفسه يميل إلى الاعتراف بأصل قبيلتي كتامة وصنهاجة العربي ولكنه يرفض كل الروايات التي تنفي أن المجموعة المتبقية من البربر قد انحدرت من كنعان بن حام وارتبطت بالفلسطينيين باعتبارها رواياتٍ لا يمكن التعويل عليها عنده. وعلى أية حال فإن من المهم أن نشير إلى أنه وفي وقتٍ مبكر في زمن كبار المؤرخين العرب أن البربر قد رفضوا ـــ مثلما بات الهواوير يرفضون لعدة قرون وحتى الآن ـــ إدعاء الانتساب لسلالةٍ عربية.

---

1 انظر مثلاً المسعودي، المجلد "3"، صـ 240 وما يليها وابن عبد الحكم مستشهداً به جلال الدين السيوطي، الخ.

2 دوسلين، الجزء "1"، صـ 167 وما يليها.

زعم رِن Rinn في وقتٍ متأخر أن هناك أصلاً هندياً للبربر واكتشف روابط لغوية بين البربر وبين عناصر الألفية الثالثة قبل الميلاد السابقة للجنس الآري، وأكثر من ذلك اكتشف روابط لغوية بين البربر والآريين "إن من السهل أن نبرهن على أن لغة البربر كان لها لزمنٍ طويل أصلٌ مشترك مع أولئك الذين يتحدثون اللغات الآرية الأولى قبل دخولهم إلى الهند". إن وجه الشبه بين الأسماء القبلية البربرية والأسماء الفيدية واضحٌ جداً، ويتضارب هذا الرأي قطعاً مع رأي الكُتَّاب العرب القدماء لأن رِن سيدَّعي بالمثل أصلاً هندياً لكنعان، وفي الواقع فهو يفسر "كنعان" بأنه يعني شعوب (الإله الطوراني العظيم). وقال رِن إن كلمة "هوارة" الحقيقية توجد على نقوش بهستاون في آشور ـــ بلاد طورانية ـــ باعتبارها اسماً أصلياً[1]. ويعتقد آخرون إن البربر كانوا سلالة سكنت في إسبانيا وفرنسا والجزر البريطانية قبل الغزو السِّلتي وأنهم تراجعوا عبر شمال إفريقيا واستقروا هناك. وأياً كان أصلُ البربر فإن العرب وجدوهم مسيطرين على شمال إفريقيا في القرن السابع الميلادي، فقد ساهم م. كاريت في عام 1853م بورقة حول أصل قبائل شمال إفريقيا الرئيسة وهجراتها، وفيما يتعلق بالهوارة فقد استشهد بالبكري والإدريسي وهما يشيران إلى "أولاد هوار" في مقاطعة وهران في الجزائر وإلى وجود أعداد كبيرة من الكُتَّاب مع الزناتة في مقاطعة قسنطينة (الجزائر). يبدو أن أكبر عدد من القبيلة قد عاش حتى القرن الرابع عشر على الأقل في طرابلس وفزان. وأشار الكتَّاب العرب إلى وجود مدينة واحدة فقط للهوارة في تونس ولا وجود لواحدةٍ في الجزائر نفسها أبداً، فقد قيل إن الهوارة القليلين الموجودين الآن في الجزائر مختلطون مع العرب ونسوا كل السلالة البربرية. ويشير الإدريسي وحده إلى وجود قريةٍ لهم في المغرب في أيامه وهو يتحدث عنهم بأنهم "بربر متجنِّسون بسبب قربهم من السكان الأصليين وعلاقاتهم معهم". ويعلق م. كاريت على ذلك بقوله "يجب أن يستنتج المرء من هذا أن الهوارة كانوا غرباء في البلاد". ويؤكد كاريت على حقيقة أن القبائل الموجودة في الشرق في طرابلس التي يُعتبر أفرادها بربر مستعربين يُعتبرون هم ذاتهم في جهة الغرب في المغرب عرباً متبربرين، وسبب ذلك هو أن موطن البربر الأصل كان إلى جهة الشرق حيث يُشتهر عنصرهم الحقيقي بأنه عنصرٌ بربري وأنهم استقروا في تاريخٍ متأخر في الغرب واستطاعوا أن يظهروا بمظهر العرب. وتُفسَّر الإشارات

1 رِن، صـ 342.

القليلة لذكر الهوارة والزناتة في المغرب ـــ حيث كثر عددهم أخيراً ـــ بافتراضٍ فحواه أنه كانت هناك هجرة مكثفة للبربر من الشرق إلى الغرب في الفترة ما بين وفاة ابن خلدون عام 1406م والفتوحات البرتغالية في منتصف القرن ذاته، ويعتقد أن قبيلة "الشاويَّة" الحالية تمثل الهوارة والزناتة القدماء.

تم توثيق الصراعات الطويلة بين العرب والبربر في شمال إفريقيا بتفصيلٍ كبير، ونحن معنيون هنا بقبيلةٍ واحدة من قبائل البربر. فلقد شارك الهوارة مشاركة بارزة في هذه الحروب وكالعادة لم يخوضوا المعارك فقط بل تصاهروا مع العرب وسرعان ما أبدوا ميولاً إلى الانضمام إليهم حلفاءً لهم. وبالتالي فإن عدداً من الهوارة صاحبوا القوات العربية التي غزت إسبانيا وساعد آخرون منهم في تاريخٍ لاحق في فتح جزيرة صقلية[1]، هذا على الرغم من أن معظم القبيلة ظلت على عنادها وصمودها. كان نفوذهم كبيراً منذ عام 640م بل قبل ذلك العام حتى عهد السلالة الفاطمية الحاكمة (908م ـــ 1171م) ولكنهم تلقوا آنذاك سلسلةً من الهزائم التي لم يُفيقوا من صدمتها إفاقة كاملة أبداً[2]. وفي عام 1049م استدعى الخليفة الفاطمي المستنصر قبائل بني هلال العربية الكبيرة وسُليم من منطقة سعيدة لسحق المعز زعيم الصنهاجة المتمرد في القيروان، وقد ساعد الزناتة وآخرون المعز ولكن معظم حلفائه الطبيعيين تركوه لمصيره وعمل العرب على تخريب البلاد وشلُّوا قوة البربر شللاً كاملاً[3]. وفي القرن التالي دمَّر الموحِّدون الذين كانوا أساساً بربر مسمودة مملكة الصنهاجة وهي مملكة المرابطين في المغرب. فالهوارة الذين تبنوا اللسان العربي سلفاً اقتدوا آنذاك بالموحِّدين وتبنوا التقاليد والعادات العربية وقدموا فروض الولاء للموحِّدين وأعانوهم في حروبهم ضد ابن غانية آخر ملوك المرابطين في إفريقيا. وبعد مرور أربعة عشر عاماً على وفاة ابن غانية وعندما كان أبو زكريا من السلالة الحفصيَّة الحاكمة في السلطة رفضوا دفع الضرائب وارتكبوا عدداً من الأعمال اللصوصية. وقام أبو زكريا الذي أغضبته هذه

---

1 انظر ابن خلدون، الجزء "1"، صـ 273 وما يليها.

2 كانت ثوراتهم الرئيسة في 741م ـ 742م و772م ولكن في كل حالة يتم سحقهم مؤقتاً (انظر فورنل وابن خلدون). في عام 811م استولوا على طرابلس ولكنهم هُزموا لاحقاً (انظر ابن خلدون، الجزء "1"، صـ 273 وما يليها).

3 يتحدث ابن خلدون (الجزء "1"، صـ 197) عن الهوارة بأنهم كانوا خاضعين لعرب سُليم.

الأفعال بذبح عددٍ كبير منهم بدمٍ بارد وكسر شوكتهم مؤقتاً في شمال غرب إفريقيا.

على أية حال يشير ليو آفريكانوس (1495م أو [1496م] ـــ 1552م) إلى أن الهوارة والزناتة والصنهاجة ما زالوا يقطنون في تلمسان في شمال غرب الجزائر[1] ومدينة الطفيلة الحديثة في المغرب[2] وكانوا نافذين جداً في المغرب بحيث أنهم استطاعوا أن يضعوا 6000 فارس في الميدان وكانوا يمتلكون 200 قلعة. ويقول مرمول كارفاخال (1520م)[3] إن الهوارة كانوا تابعين للزناتة. ولكن في الوقت الذي بدا فيه أن كثيراً من الهوارة تحركوا غرباً عبر المقاطعات الشمالية لإفريقيا ذهب آخرون منهم إلى الشرق، ويشير بالتالي ابن خلدون إلى أن مجموعة منهم كانت موجودة قرب الإسكندرية[4] في عهده ولكن أغلب أولئك الذين اتجهوا شرقاً إما أُجبروا على الهجرة أو هاجروا طوعاً إلى جهة الجنوب واستقرت مجموعة كبيرة منهم حوالي عام 1382م في صعيد مصر بأمرٍ من السلطان برقوق[5]. وسكنوا هنا وشرعوا في فلاحة الأراضي التي كانت صحراوية في السابق وفي ذات الوقت وطدوا سلطانهم إلى حدٍّ كبير، ويحدثنا المقريزي بأن بعضاً منهم هاجموا أسوان ونهبوها[6] بالتحالف مع العرب الأحمدية وعرب أولاد الكنز وذلك قبل نهاية القرن. وفي عام 1412م (شهر محرَّم 815هــ) عندما أربكت مصرَ الاضطراباتُ الداخلية ولم تعد أسوان تابعة لها هاجم الهوارة أسوان التي كانت آنذاك في أيدي أولاد الكنز ودمروها[7]. وبقي الهوارة في صعيد مصر لعدة قرون بعد عهد المقريزي حيث وجدهم بيركهاردت (1814م) ما يزالون مستقرين في القرى على أيٍّ من جانبي النيل من أسيوط إلى فرشوط على الضفة الغربية وقريباً من قنا على الضفة الشرقية وأنهم ما زالوا يتذكرون سلالتهم المغربية. لقد كانوا ذوي شوكةٍ قوية أثناء حكم المماليك في مصر وأن فرع الهمام فرعهم الرئيس في القرن الثامن عشر قد

1 انظر ليو، المجلد "1"، صـ 131 والمجلد " 2 "صـ396.

2 انظر ليو، المجلد "2"، صـ 780.

3 انظر الجزء "1"، المجلد "1"، صـ 69 ولكن المرجعية لا يعول عليها.

4 انظر الجزء "1"، صـ 9ـــ 11.

5 انظر المقريزي في مذكرات كواترمير.

6 يشير المقريزي إلى الأصل البربري لهؤلاء الهوارة وزعمِهم أنهم أتوا أصلاً من اليمن وأن مستوطناتهم القديمة كانت من سورت إلى طرابلس.

7 انظر المقريزي (الخطط) وكواترمير وبيركهاردت (بلاد النوبة).

تولى أمر حكومة صعيد مصر كلها وكذلك شمال السودان جنوب أسيوط حتى بلاد المحس حيث أُرغم المماليك على التخلي لهم عن هذه المنطقة الكبيرة عبر معاهدة[1].ويبدو أنهم استخدموا سلطتهم بصورةٍ عقلانية ولكنهم لجأوا إلى قمع الأقباط واسترقاقهم، وكانوا عملياً في حالة دائمة من التمرد ضد مصر وفي حالة من الاحتراب مع البدو الموجودين في المناطق المحيطة بهم. وفي أيام المماليك الأخيرة وعندما كان علي بك في السلطة هاجم الهمام وهزمهم في معارك عديدة[2]. وعلى أية حال لم يتم القضاء على نفوذ الهوارة بصورة نهائية حتى عهد محمد علي إذ قضى ذاك الحاكم عدة سنين في سحق الهوارة وكان ابنه إبراهيم هو الذي ذبح أكثر من 2000 شخص منهم في عام 1813م وأخضعهم في النهاية.

يشير كلا بيركهاردت وهاملتون (1801م ـــ 1802م) إلى ثراء القبيلة في الخيول ويشير هاملتون تحديداً إلى ما قيل من أن الهمام كان لديهم 36000 فارس في الميدان في الوقت الذي هزمهم فيه المماليك. وكتب سير ج. ويلكنسون في عام 1843م تعليقاتٍ حول شهرة الهوارة في تربية الخيول وترويضها[3] ويشير إلى أن كلاب حراسة الغنم الهائجة الضخمة ذات الشعر السلكي الخشن الموجودة في صعيد مصر هي من نسلٍ هواري.

إن كونَ هواوير (مفردها هواري) شمال السودان بقيةً من القبيلة ذات الشوكة التي قُدمت عنها بعض الرواية آنفاً لم يُستوثق عليه بهوية الأسماء فقط بل بانتقال المأثورات الراكزة التي ما زالت متداولة وهي أن الهواوير لم يكونوا أصلاً عرباً بل بربراً منحدرين من حام. ولديهم أيضاً عاداتٌ وتقاليدٌ غير عربية ولكنها أكثر قرباً من عادات وتقاليد الدناقلة وبرابرة شمال السودان: فالغناء والرقص الأثير للعرب لا يأسرُهم إلا قليلاً لكن يستحوذ عليهم بدرجةٍ ملحوظة الاعتقادُ في "الفكي" أكثر من

---

1 انظر بيركهاردت (بلاد النوبة).

2 يتحدث هاملتون (1801م ـــ 1802م) عن هؤلاء الهوارة بأنهم عرب ويقول إن "همام" كان شيخاً وليس فرعاً من القبيلة.

3 انظر ويلكنسون، المجلد "2"، صـ 114. يقول إن اسم "هواري" يعني بالضبط "فارس" وهو يستخدم لسائسي الخيول المحليين في مصر. وربما كان هذا قلباً للحقائق، فشهرة الهوارة هي التي جعلت لقب الهواري يطلق على سائس الخيل الماهر.

العرب البدو كالكبابيش الذين يجوبون معهم الصحراء الآن لمعظم أيام السنة. وربما نلاحظ أيضاً أنه في الوقت الذي يتحدث فيه سير سي. ويلسون (1887م) عن الهواوير بحسبانهم بدواً ذوي دمٍ عربيٍّ خالص يجوبون صحراء بيوضة يشير في نفس الوقت إلى أنهم يزعمون أن لهم صلة بالهوِّير [الهوارة] الموجودين في مصر الذين كانوا قطعاً ــ كما رأينا ــ بربراً أكثر من كونهم عرباً. إن الهواوير في الوقت الحالي هم بدو بالكامل تقريباً رغم أن قليلاً منهم مستقرون على البَحَر في دنقلا في أماكن شبيهةٍ بتلك الأماكن التي سكنها أسلافهم الأقوى شوكة في أيام المماليك. ويرتحل الهواوير البدو بصحبة قطعانهم في موسم الأمطار غرباً مع الكبابيش من وادي الكاب حتى حدود دارفور ويعودون في الموسم الجاف شرقاً إما إلى البَحَر أو على الأقل حتى آبار الكبابيش في الصافية والحبيسة وغيرها، ويبقى فقط قليلٌ من الذين لا مأوى لهم في غرب الصافية. وفروع الهواوير الرئيسة هي:

الحرارين	الحباساب	الجوتاب
الموالكة	الخماسين	الفزاراب
الرُّباب أو (أم روبة)	الصالحاب	التماسيح

أما الجلابة الهوارة الذين ورد ذكرهم سابقاً بأنهم يسكنون قرب الأبيض، أي بالقرب من خُمِّي وأم دِليكة وفي أمكنة أخرى فيقدمون الرواية الآتية عن أنفسهم: يقولون إنهم فرعٌ من ذات قبيلة الهواوير وأن أجدادهم عاشوا في صعيد مصر (الريف) وكانوا بيض اللون تقريباً. وكان أول واحدٍ منهم أتى إلى كردفان اسمه الحاج عيسى ود محمد ود منصور وكان بائعاً متجولاً من منفلوط (قرب أسيوط) وتبعه باعة متجولون آخرون من الهوارة ومن هنا أتت تسمية هؤلاء المهاجرين بالجلابة الهوارة. وقد حصلوا على منحة أرض من الجوامعة في خُمِّي واستقروا هناك، ولكن عندما وجد أفراد أول جيل بعد الحاج عيسى أنفسهم مضطهدين من قبل حكام كردفان بدأوا يعودون إلى مصر تحت قيادة الحاج محمد أبو منانة نجل الحاج عيسى ولكنهم لم يذهبوا بعيداً لأنهم عندما وصلوا دوم الخاتراب بالقرب من شريم ــ بعد رحلةٍ قصيرة ليوم واحد ــ أقنع الناس هناك الحاج محمد أن يوقف المسير ويبقى ليهم "فكي". وتوفي الحاج محمد ودُفن هناك ورجع جماعته إلى خُمِّي ومكثوا هناك. وقد تلقى أحد

مشائخهم قبل سنواتٍ قليلة دعوة من هواوير دنقلا يدعونه فيها لزيارتهم لأن من المؤسف أن تجد صلات العلاقة القديمة الإهمال ولكن المشروع لم يكن عملياً. تختلف فروع الجلابة الهوارة في كردفان من فروع الهواوير، وهي:

الكوامنة (ويشملون أحفاد الحاج محمد أبو منانة في خُمِّي وقليلين قرب جبل كون).

العدويَّة (في أم دِليكة وقليلون في أم روابة).

الضكيراب (في الأبيض).

أولاد كيسان (قرب أبو حراز).

وقد تكون هذه الفروع شُكِّلت منذ الوقت الذي هجر فيه الجلابة الهوارة القبيلة الرئيسة طالما أنهم يقولون إن الجيل الحالي هو الجيل الثامن من الحاج عيسى. إن الجلابة الهوارة الموجودين في الوقت الحالي داكنو البشرة وقذرون وذوو أخلاق باردة ويعكسون آثاراً واضحة من مزيجٍ جمٍّ من الدم الأسود. ومن الناحية الأخرى فإن الهواوير ذوو بشرةٍ فاتحةٍ نسبياً وشعرٍ أسودَ مسترسلٍ وذلك لكونهم بدواً وأقلَّ اختلاطاً بعناصر الجنوب الوضيعة.

الملحق (1)

كلمة "كردفان"

هناك أربعة آراء تتعلق بأصل كلمة كردفان.

1. كلمة كردفان مطابقة في الأصل لاسم منطقة جُوران (أو جُرهان أو جُرهام) التي أشار إليها ليو آفريكانوس وآخرون. ومن أنصار هذا الرأي كولي الذي يقول "لا يمكن أن تكون جُرهان مكاناً آخر سوى كردفان. فهذا الاسم يمكن أن يصبح بسهولة كُرهان بالكتابة المتهاونة أو كما يَكتب ليو آفريكانوس بوتيرةٍ واحدة كيج Kej بالحرف g ويحذف الحروف الحلقية فيضعها جُوران". ويستشهد دكتور براون في نسخته برأي كولي مع اتفاقه معه. وهناك أدلة كافية الآن على أن منطقة جُوران تمثل جزئياً الجزء الشمالي مما يسمى عموماً بكردفان في الوقت الحالي، ولكن الافتراض الصعب أن نقول إن هناك علاقة بين الاسمين جُوران وكردفان من وجهة نظر علماء اللغة، ومن المشكوك فيه قطعاً ما إذا كان هذا الرأي سيثبت على أنه رأيٌ منطقي، وذلك للأسباب التالية:

(أ) جُوران هي قطعاً تصحيف من قُرعان وهو اسم القبيلة الوثنية من أصل التِّيبو والتي ربما تمثل قدامى الجُرميين. ولكن رغم أن كلمتي "كردفان" و"قرعان" قد تكونان ظاهرياً متشابهتين بالنسبة للأذن الأوربية ولكنهما مختلفتان في الواقع: ففي اللغة العربية واحدة منهما هي كردفان والأخرى هي قرعان، وهو اختلافٌ لا يؤبه به على الإطلاق.

(ب) إن أيَّ أحدٍ في كردفان يعرف القرعان على الأقل بالاسم، ومع ذلك لا يشير أيُّ أحد إلى أية علاقة بين الكلمتين ولم يشيروا حتى بذلك إلى بثريك وروبل اللذيْن أجريا تحقيقاتٍ فيما يتعلق باسم كردفان في القرن الماضي.

(ج) أياً كان لا شك في أن اسم كردفان المنطبق على المديرية مشتقٌّ من الجبل الذي يحمل ذاك الاسم والواقع جنوب الأبيض حيث من غير المرجح أن يكون القرعان

نفذوا إليه أبداً: فاسم كردفان لم ينطبق أبداً على الصحارى والمنطقة المكشوفة لخط عرض 14:30 درجة، وحتى هذا اليوم يتحدث العرب الموجودون شمال هذا الخط عن "المشي إلى كردفان" ولا يعني لهم شيئاً أن تُسمى كل المنطقة من دنقلا إلى بحر العرب رسمياً باسم "كردفان" لأهدافٍ إدارية وذلك تحت حكم الأتراك والحكومة الحالية. فكردفان بالنسبة للعرب ما هي إلا المنطقة المنخفضة الواقعة بين الجبال الجنوبية (الداير وتقلي وغيرها) والجبال البحرية (كاجا وأبو حديد وغيرها). لم يستخدم قدامى الجغرافيين مصطلح "صحراء الجوران" كثيراً على هذه البقعة الخصبة نسبياً كما استخدموه للمنطقة المقفرة الواقعة شماله حيث يتجول القرعان والتي ينطبق عليها مصطلح "صحراء". ولو كانت كردفان مرتبطة بالجوران لكان من الطبيعي افتراض أن المنطقة التي عاش فيها القرعان محتفظة بالاسم المشتق منهم لمدة طويلة.

2. يقول بثريك (صـ 262): "يشتق الإقليم [أي كردفان] اسمه من... جبل... جنوب شرق الأبيض وربما يقع على مسافة 10 أميال منها. إن من الواضح أن اسم كردفان من اشتقاق نوبي، فالمقطع الأخير "فان" معناه بلد ولكنني لم استطع أن أعرف مضمون المقطعين الأولَيْن". إن بثريك حجةٌ مشكوك فيها فهو ينتحل رواية بالمي وأنا أشك في أن "فان" معناها بلد، فزغاوة دارفور وكثيرٌ من العرب ينطقون الكلمة كردفال وقد استشهد الرائد/ دنهام بخطابٍ صادر من شيخ في غرب السودان (في عام 1824م) يقول فيه: "... الأتراك الذين يوجدون في كُرْدَفَال أو كُرْدُفَال....". فاستخدام صيغة كُرْدُفَال بالنسبة لكُردفان قد تكون تصحيفاً فقط أو قد تمثل الصيغة الأقدم للكلمة. وإذا صحَّ أنها تمثل الصيغة الأقدم للكلمة فستقدم أيضاً حجة أكثر في مواجهة تطابق كردفان والقرعان.

3. من الغريب كل الغرابة أنه في الوقت الذي يظن فيه بثريك أنه يعرف معنى مقطع واحد، أي "فان" ولا يعرف معنى المقطعين الأخريين، نجد روبل بعد أن يؤكد الحقيقة القائلة إن المنطقة سُمِّيت على "جبل" يقول إن كُرْدُو تعني "رجل" وأن اسم "فان" غير معروف. وتؤيد حجةَ روبل حقيقةٌ فحواها أن كلمة "رجل" تقابلها كلمة "كُرْتاندو" في مجموعة جبال الدلنج.

4. إن غديَّات جنوب كردفان هم شعبٌ قديم وأصلاً من الفونج ولكنهم اختلطوا بالنوبة وبدمٍ عربيٍّ وضيع، ومن الأرجح أنهم كانوا ــ كما يقولون ــ أول من غزوا المنطقة وانتزعوا الأرض الواقعة حول جبل كردفان من النوبة. ويزعم هؤلاء الغديَّات أن "كردفان" هي تصحيف لكلمة "كُلدو فار" ومعناها "كُلدو استشاط غضباً". ويقولون إن كُلدو كان اسم آخر ملك للنوبة كان يحكم من جبل كردفان الذي أسبغ عليه اسمه. لكن النقطة الضعيفة في هذا الرأي هي أن المقطع "فار" ذو صلة واضحة بكلمة فارَ يفورُ العربية أي "يغلي". ولكن اسم كُلدو قد يكون حقيقياً أو ربما يكون ذا علاقة بـ"كُرْدُو" أو "كُرتاندو". ويبدو أن رأي روبل من بين هذه الآراء الأربعة هو الأقل رجحاناً تجاه الاسم. وإذا وثقنا في بثريك أيضاً فإن كردفان قد تعني في جملة القول "أرض الرجال"، أي "البلاد المأهولة" أو "البلاد الصالحة للزراعة". وقد يكون لرواية الغديَّات بعض الأساس أو قد تكون اختراعاً عبقرياً.

إن من الأرجح والطبيعي على الأقل أن أصلاً نوبياً يجب أن يُنسب إلى كلمة كردفان باعتبار أن النوبة حكموا البلد من حول جبل كردفان وبالتالي فإن المنطقة أخذت اسمها من الجبل.

الملحق (2)

الفونج

ما زال هناك التباسٌ كبير ماثلاً فيما يتعلق بمسألة ماهية الفونج. وكان السبب الرئيس لهذا الالتباس هو أن هناك مجموعتين من الناس بات الحديث عنهما دائراً تحت هذا المسمى، هما: (1) الفونج الأصليون والخلَّص نسبياً (2) المزيج من هؤلاء الفونج مع العرب الذي تشكل في عهد عمارة دونقس وبعده (1493م أو قريباً من ذلك). ولنبحث في المجموعة الثانية أولاً: تزعم بعض رواياتهم نفسها أنهم عرب على أساس الدم العربي الذي كان قطعاً يجري فيهم، وكما يقول غليشن (الدليل...) إنهم يقولون عن أنفسهم بأنهم مسلمون سلفيون لهم علاقة بالقبائل العربية الأكثر احتراماً ولفقوا لأنفسهم أنساباً ترجع بسلالتهم إلى آل النبي: "كانوا عنصراً مختلطاً أُقتسر في قالبٍ عربي وتم تغييره بواسطة الدم العربي بدرجاتٍ متفاوتة".

يقول نعوم بك شقير (تاريخ السودان): "تقول رواياتهم ومزاعمهم إنهم من بني أمية ويقولون إنه وبعد أن هزم العباسيون بني أمية في سوريا وانتزعوا السلطة منهم في عام 132هـ قبضوا على كثيرٍ من بني أمية في حين أن الذين هربوا قد انتشروا في جميع أنحاء العالم، فبعضهم ذهب إلى إسبانيا وأسسوا مملكة الأندلس وبعضهم ذهب إلى السودان واستقروا في سنار": ويقول شقير إن أسلوب هذا الاستقرار في سنار كان كما يلي: لقد ذهب الأمويون بادئ ذي بدء إلى بلاد الحبشة ولكن بسبب احتجاج العباسيين ضد استضافتهم هناك قام ملك الحبشة بطردهم وتوطينهم في جبال سنار "التي كان سكانها سوداً يضمون الفونج". وتصاهر بنو أمية آنذاك مع هؤلاء الفونج السود وأخضعوهم وأصبحوا هم أنفسهم تدريجياً سودَ اللون وسمُّوا أنفسهم بالفونج". وتؤكد التقاليد المأثورة في الوقت الحالي عموماً هذه الرواية، ويشير بروس ــ رغم أنها إشارة ملؤها التشكك ــ إلى أن مك سنار يزعم أنه منحدر من بني أمية (المجلد "6"، الملحق 46، صــ 417). وهذا أبعد ما يكون عن السلالة العربية لدى الفونج المتأخرين، لكننا لم نقترب بعد من معرفة ماهية تلكم القبائل السوداء في جبال

سنار التي تُسمى أيضاً بالفونج. وقد سمع بروس الذي كان في سنار عام 1772م شيئاً أكثر عن سلالة هؤلاء الفونج من الجانب الزنجي ولم يسمع كثيراً عن سلالتهم العربية إذ يقول: "كان أفراد الأسرة المالكة زنوجاً أصلاً وما يزالون هكذا في الوقت الذي كانت فيه أمهاتهم زنجياتٍ مثلهم، ولكن إذا حدث أن تزوج الملك امرأة عربية ــ كما يفعل في كثير من الأحيان ــ فإن لون الأب الأسود يتراجع لصالح دم الأم الأبيض ويكون الطفل أبيض، وليس ذلك فحسب بل إن العربي الأبيض الذي يتزوج بأَمَةٍ سوداء سينجب قطعاً أطفالاً بيض اللون، فقد كان الملك إسماعيل أبيض اللون عربياً[1] ولكن أباه وجدَّه كانا أسودين". وقد أشار بونسيه قبل قرنٍ من الزمان تقريباً إلى أن ملك سنار كان في تلك الأيام حسن الهيئة رغم أنه أسود البشرة وقال عنه "لم تكن له شفاهٌ غليظة ولا أنفٌ أفطس مثل بقية أتباعه. ويقول بونسيه بعد ذلك عن أهل سنار (صــ 70) "إنهم مفلطحو الأنوف غليظو الشفاه ذوو وجوهٍ حالكة السواد".

إذا بحث المرء في دفاتر بروس ومخطوطاته فضلاً عن نصوص أعماله المنشورة يجده يقدم رواية ملتبسة نوعاً ما عن عامة سكان سنار، فربما تؤخذ الاقتباسات التالية من دفاتره ومخطوطاته:

1. (المجلد "6"، الملحق 46، صــ 416)

"يسيطر ملك سنار على كلا جانبي النيل على طول المجرى حتى قرب أجو-مايدر، فهناك الشنقالا حيث يأتي الذهب من هناك... ويحكمهم الشيوخ الذين يعينهم ملك سنار أو بالأحرى الوزير. فهؤلاء الشنقالا أو أهل المنطقة هم أقارب الملك ورجال عظام في بلاط الملك، وهم الفونج ــ كما يُسمونهم ــ أي الشنقالا الذين اعتنقوا الإسلام، ومن البلاد التي أتى منها أولئك الشنقالا قاموا بطرد العرب الذين كانوا تحت قيادة ود عجيب (أي حوالي 1493م ــ 1504م)، وتتكون الحكومة من هؤلاء الشنقالا. والشلك العاديون أو جنود الملك هم في الغالب وثنيون حتى الآن ولديهم كهنتهم ويعبدون الشجرة وغيرها ويتخذونها إلهاً لهم. ويوجد بين النيل

---

1 إذا كان بروس يعني بـ"مك سنار" - كما يبدو - "ملك سنار" يكون قد أحدث تناقضاً لأنه يتحدث عن"الملك" بأن لديه "شَعَراً صوفياً وقسماتٍ مفلطحةً سوداء". وذلك كما ورد في حواشي مخطوطته (المجلد"6" ,صــ417) رغم أنه يصفه بالأبيض مرتين في المتن .

الأزرق والأبيض أو بحر أليس نوع آخر من النوبة، وهؤلاء نوبة أصليون وهذه بلاد الذهب. ويوجد بالمثل أيضاً وراء بحر أليس في نفس خط العرض ذهب وعاج وغيرهما وأن السكان أيضاً نوبة ووثنيون وأن لغتهم لغة مميزة". إن استخدام مصطلحي "الشنقالا" و"النوبة" بصورة ملتبسة يشاهد من خلال إشارة لاحقة (صـ 419) تقول: "جنوب دارفور هم شنكالا أو نوبة من دارفِرتيت".

2. (المجلد "6"، الملحق 46، صـ 420)

"أهل سنار لديهم كل الملامح المختلطة لكل الزنوج، فالشلك والفونج لديهم رؤوس أطول وأعرض في أسفل الرأس وتميل جماجمهم إلى الشكل المخروطي وتبرز عاليةً وأنوفهم طويلة وتمتد إلى أسفل... والشفاه ليست غليظة بشكلٍ ملحوظ... والهمج الجنوبيون لديهم رؤوس ضخمة وحسنة الهيئة... وأنوفهم منبسطة في أطرافها وتنعطف نوعاً ما إلى أعلى ومناخيرهم كبيرة ومفتوحة، وتنخفض الأنف في منتصفها وهي سمة سرعان ما يفقدها الأطفال الذين يولدون في سنار، والشفاه سميكة وغليظة... وهم أقوى بنيةً من أيٍّ من السود وأطول عُمْراً وأعظم ميلاناً، وتزداد هذه الصفات كلما توغلوا أكثر إلى جهة الجنوب ولذا فإن أفضلهم جميعاً هم أولئك الموجودون بين جوبا وأجو- مايدر...".

3. (المجلد نفسه، صـ 420ـــ 421)

"يحدُّ النوبة من جهة الشرق ببَحَر الليس، ومن جهة الغرب بدارفور أو الصحراء الواقعة بينها وبين كردفان، ومن الجنوب بسلسلة الجبال العالية، الداير وتقلا، ومن الشمال تحدها الحرازة... ويحتل الفونج بَحَر الليس ويمتدون على طوله حتى المنطقة الجبلية الواقعة جنوباً التي لم تكن سوى امتداد لجبال فازوكلو وكُوارا حيث تنتهي هناك. والهمج هم أولئك الواقعون غرب كُوارا تحدُّهم أجو من الجنوب ونهر يابوس على الجنوب وعلى الآخر أو الجانب الغربي من النيل جميعهم فازوكلو إلى الداير وتقلا حيث يحدُّهم النوبة".

4. (المجلد "6"، الملحق "46"، صـ 471).

"يسمِّي الأحباش كل الأمم السوداء التي تحيط بهم من الشمال والغرب والجنوب

الغربي "الشنقالا" وهو اسمٌ شامل يطلقونه حتى على الناس الذين يعيشون في المقاطعات التابعة لسنار. ويُسمَّى النوبة والفونج والشلك والدينقا بـ"الفرتيت" و"الدوبا" و"الدوبينا"، وباختصار فإن كل السود يحملون هذا اللقب. وتشكل هذه الأمم عنصراً مختلفاً من العرب والجالا ويبدو أنهم سكان إفريقيا الأصليون". (ملحوظة: لا يبدو أن المفردات الحقيقية المستشهد بها في هذا المقتطف الأخير هي مفردات بروس بل مفردات محرر أعماله).

يقول بروس في نصه إن الفونج يدَّعون أنهم مسلمون ولكنهم أبعد ما يكونون عن محاولة تحويل رفيقهم النوبي إلى الإسلام أو دفع مالٍ للكهنة الوثنيين في أية قرية. وقيل له إن الشلك غزوا سنار في عام 1504م في قوارب من على غرب النيل الأبيض (على خط 13 درجة تقريباً) وأسسوا العاصمة: وقد كانوا وثنيين وتبنوا الإسلام اسمياً ليس إلا وذلك من أجل التجارة، ومن ثم اتخذوا اسم "الفونج" ومعناه "الأسياد" أو "المواطنين الأحرار". وفيما يتعلق بالسؤال الأصعب عن العنصر الذي ينتمي إليه هؤلاء السود ــــ أي الفونج الحقيقيون والأصليون ــــ نجد نعوم بك شقير يشير أيضاً إلى الرواية المأثورة التي تقول إنهم كانوا فرعاً من الشلك، وأن كوست يُضمِّن في كتابه (اللغات الحديثة...، المجلد "1"، صـ 142)مجموعة النوبة/ فولا والنوبة والكنجارة والفونج والهمج والنيام نيام والمونبوتو. ولكن الروايات الأوفى والأكمل التي تعطي فكرة عن أصلهم منذ الأزمنة المبكرة يقدمها كايو في كتابه (رحلة في مروي) في عام 1819م وأخرى يقدمها تريموكس في (رحلة في إثيوبيا..." في عام 1863م. يقول كايو: "تقول الروايات إن مملكة سنار كانت هي مروي القديمة في عهد قمبيز، ذلك أنه بعد أن حكم قمبيز تلاه اثنتا عشرة ملكة وعشر ملوك ومن بعدُ أتى الفونج الذين ألحقوا اسمهم بجزء من المملكة باسم بوروم وأيضاً باسم جبل الفونج أو موطن الجنود... ويقولون إن مك الفونج هو من السودان وقد عبر النيل الأبيض ووصل إلى أربجي: ودارت هناك معركة كبيرة كان النصر حليفهم فيها مما جعلهم سادةً للبلاد". ويقول تريموكس: "كان العنصر الأسود في العصور القديمة يقطن سنار وأن الفونج الذين عاشوا في وقتٍ لاحق في هذا البلد ينبغي أن يكونوا آنذاك في منطقة الصحراء لأن الملك أوسركون الذي كان يحاربهم في جنوب مصر قبل حوالي 2000 سنة من عصرنا

قرر طردهم بعيداً". ويضيف قائلاً: "في عهد قمبيز لم تستقر الشعوب ذات الأصول السامية التي أسودَّ لونها بفعل المناخ في المملكة الإثيوبية التي كانت عاصمتها نبتة فحسب بل ما زالت موجودة في جزيرة مروي حيث كانت تميَّز باسم الإثيوبيين ـــ المُعمِّرين Macrobians، وأن مدينة مروي كانت عاصمتهم طالما أن هذه المدينة كانت دائماً هي العاصمة بعد عهد هيردوتس ومقر الإثيوبيين.... أما مستوى الحضارة والعادات المصرية التي عكسها قمبيز كما اكتشفت في مروي لا يمكن تصنيفها في جانب العنصر الزنجي". ورأيُ تريموكس هو أنهم يمكن أن يكونوا فونج طالما لا يمكن أن يكونوا زنوجاً وأن اسمهم يميزهم من بقية الإثيوبيين. ويقول أيضاً: "هؤلاء الفونج ازدادوا في مصر منذ عهد الملك أوسركون وفي فترة مبكرة قبله، وبالتالي فإننا نجد في أجزاء كثيرة من السودان أنهم أتوا ليستقروا في المناطق المجاورة للنيل الأزرق التي طردوا منها الزنوج إلى الجنوب. ولدى عودتهم إلى الشمال أطلقوا على أنفسهم اسم الفونج. ولأنهم ينتمون إلى العنصر السامي كان عليهم إذا لم يجدوا بالضرورة حلفاء أن يستعينوا بالإمبراطورية الإثيوبية للسيطرة على العنصر الزنجي". ويضيف قائلاً إن هؤلاء الفونج حافظوا في البداية على عاداتٍ مصرية كثيرة (مثلاً في حلاقة شعرهم وأن ملكهم كما يروي بروس كان دائماً يمتلك قطعة أرض ويفلحها بنفسه) ولكنهم أضاعوا هذه العادات بعد أن ذهبوا جنوباً، واندمجوا لدى عودتهم مع العرب وتبنوا صورة اسمية من الإسلام. هذه العودة التي تحدث عنها تريموكس توافق غزو عمارة دونقس وتفسر بالتقريب الروايات المختلفة اختلافاً شديداً عن الفونج وفقاً للعنصر الأصل أو السلالة المختلطة الأخيرة التي يجري الحديث عنها.

فيما يتعلق بالإثيوبيين المُعمِّرين المشار إليهم أعلاه فيصفهم هيرودتس بأنهم كانوا طوال القامة وسيمي الصورة لهم عاداتٌ تختلف عن عادات الأمم الأخرى ويقطنون في ذاك الجزء من ليبيا الذي يقع على البحر الجنوبي (الجزء "3"، 17). واحترب قمبيز الفارسي في عام 525 ق.م تقريباً ـــ عندما كان ناستاسن يحكم معظم السودان ـــ مع ملكيْ مصر أماسيس الثاني وبسماتيك الثالث وحاول غزو السودان وهاجم الإثيوبيين المعمِّرين، ولكنه فشل في أن ينجز شيئاً محدداً[1]. ويرى بروس (المجلد "2"، صـ 562)

---

1 انظر بودج . التقارير المبالغ فيها عن نجاحات قمبيز يقدمها سترابو وديودورس.

أن هوية هؤلاء المعمِّرين تماثل هوية الفرع الغربي من الشنقالا الذين يعيشون على جانبي النيل شمال فازوغلي. ويعتبر بروفسور بودج أن قبائل سنار السوداء تمثل بلا شك أولئك الهاربين من الجندية الذين وصفهم هيرودتس كما يلي: "يصل المرء بين الفيلي [أسوان] ومروي إلى بلاد الهاربين من الجندية Automoloi الذين يعود تاريخ أصلهم إلى عهد بسماتيك، ففي عهده كانت هناك حامية في ألفنتين لمجابهة الإثيوبيين ويبلغ عدد جنود هذه الحامية 240000 جندي لا يُسمح لهم بمغادرة مكانهم لمدة ثلاث سنوات، ولذا تمردوا وانضموا إلى ملك إثيوبيا الذي أعطاهم أرض المعمِّرين التابعين له في الجنوب. وعلَّم هؤلاء الهاربون من الجندية الإثيوبيين عادات مصر وساعدوا على تحضُّرِهم". (انظر هيرودتس، الجزء "2"، وانظر سترابو أيضاً، الجزء "16"، صـ 770: ويسمي سترابو الهاربين من الجندية "سمبريتي" Sembritae ويقول إنهم كانوا تحت حكم ملكة مروي. انظر أيضاً ديودورس سيكيولاس، الجزء "1"، صـ 77). ومن الصعب أن يُقرر بشكلٍ قاطع ما إذا كان الفونج مرتبطين في أصلهم بالجنود المصريين الهاربين أو بالإثيوبيين المعمِّرين أو بكليهما أو غير مرتبطين بأيٍّ منهما: ويتحدث بروفسور كين في مقالته عن السودان في الموسوعة البريطانية عن الفونج بأنهم "عنصر زنجي خليط" ـــــ ويجب أن يترك الأمر إلى هنا في الوقت الحالي.

الملحق (3)

قصص مرويَّة عن أبي زيد الهلالي

1. أتى أبوزيد من الشرق عبر كسلا مع مجموعةٍ كبيرة ويُشتهر أيٌّ من الأماكن التي يعسكر فيها أثناء تحركه بمحطة أبو زيد، ثم عَبَرَ النيل الأبيض قرب موقع كوستي الحالي وواصل سيره غرباً، وقد انخذل كثيرٌ من أتباعه وكثيرٌ من عبيده من المجموعة أثناء السير واستقروا بين قبائل البقارة التي تصاهروا معها. [نقلاً عن جمعة بخيت ــ التمامي ــ علُّوبة، 3 نوفمبر، 1908م].

2. أتى أبو زيد الذي ينتمي لقبيلة هلالة العربية الكبيرة إلى دارفور من الشرق، وكان لديه شقيق اسمه أحمد وقد حاول أحمد هذا أن يُغوي زوجة أبي زيد، وأمر أبو زيد الغاضب عبيده أن يضربوا أحمد وقد فعلوا ذلك وعقروه في رجله، ولذا سُمِّي أحمد بـ"المعقور". وتحرك أبو زيد الذي استاء من دارفور في اتجاه الشمال إلى تونس تاركاً أحمد وراءه. وتزوج أحمد ابنة سلطان التنجر ونجح في وقتٍ ما في اعتلاء عرش دارفور. [نقلاً عن السلطان حامد جبر الدار المسبَّعاوي، الأبيض، 1907م].

3. تحرك أبو زيد الهلالي عبر كسلا وعَبَرَ النيل الأبيض في محطة أبو زيد في طريقه إلى تونس الخضراء، وكان معه قريبه أحمد الذي عُرف لاحقاً بـ"المعقور" بسبب جرحٍ ألحقه به أقارب امرأةٍ لعبت دور زوجة امرأة العزيز إزاءه. ودخل أبو زيد لدى وصوله إلى تونس في حربٍ مع المغاربة (المُغربين) وقهرهم، وفي أثناء هذه الحروب شُغف ابن أخيه حباً بأميرةٍ مغربية وأدار الاثنان العاشق والمعشوق علاقتهما الغرامية السِّرِّية دون علم أبي زيد، وذلك كالآتي: أمرا بتجويف فجوةٍ كبيرة في الأرض مبطَّنة تبطيناً جيداً وعليها قبة مبنية فوقها وتُركت الفجوة مليئة بالكامل باللبن وتحولت الفجوة كلها إلى مَلْبَنة ولا يبدو أن هناك مساحة فيها لأيِّ شيء إلا اللبن: ووضع ابن أخ أبي زيد الماكر في هذا اللبن أريكة مرفوعة على أربع أرجل حيث مارسَ فيها غرامياته دون أن يتهم بشبهة. [نقلاً عن كنانة ــ الإنجفاوة، أكتوبر، 1908م].

4. في أيام بني أمية عاش أبو زيد في شمال إفريقيا واقتتل مع الزناتة الحميريين وأخضعهم، لكنهم ثاروا مرة ثانية تحت قيادة واحدٍ اسمه خليفة، وزحف أبو زيد ضدهم وساقهم أمامه إلى جهة الجنوب حتى وصل العاديك حوالي 40 ميلاً شمال بارا في كردفان. وقام أبو زيد في النهاية بذبح خليفة في صخرةٍ عالية قريبة من هذا المكان أصبحت تعرف منذ ذلك الحين بصخرة الزناتي وأكمل أبو زيد هزيمة الزناتة. [نقلاً عن مِسر محمد، فراحني (دار حامد). سراج، 11 سبتمبر، 1908م].

5. أبو زيد الهلالي شيخٌ عربيٌّ عاش في صحراء جرداء مقفرة في الجزيرة العربية أو سوريا ولم يستطع أن يجد هو وجماعته مرعىً كافياً لقطعانهم إلا بصعوبة، ونتيجة لذلك أصبحت الإبل جميعها هزيلة وضعيفة إلا حُواراً واحداً اعتاد أن يعود إلى المخيم ببطنٍ منتفخة وبديناً سميناً. ودُهش أبو زيد غاية الدهشة من ذلك إذ لا أحد يعرف أين يجد هذا الحُوار هذا العلف الخصيب الذي يقتات عليه، وقرر أبو زيد أن يكتشف اللغز، ولذا بات ساهراً طول الليل قرب مَعطن الإبل وتظاهر بالنوم. وفي منتصف الليل نهض الحُوار وبعد أن أطرق قليلاً لكي يتأكد من عدم المراقبة انطلق بكامل السرعة في اتجاه الغرب وامتطى أبو زيد ظهر بعيره الأسرع وطارد الحُوار، وبعد مطاردةٍ طويلة في أثر الحُوار أتى فجأةً على واحةٍ خصبةٍ جميلةٍ خضراءَ بكل أنواع العشب والأشجار. وعُرف هذا المكان بالنسبة للأجيال اللاحقة بتونس الخضراء. ورجع أبو زيد أدراجه متعجباً وأخبر قبيلته بالأرض الرائعة التي اكتشفها فقرروا في الحال الهجرة إلى هناك حيث حزموا أمتعتهم وخرجوا. تحركوا عبر كسلا والقضارف وشركيلا والرهد إلى الفاشر في دارفور، وعندما كانوا يعبرون دارفور راودَ أحمد حفيد أبي زيد جدته ـــ والدة أبي زيد ـــ عن نفسها، فقام والد أحمد بقطع وتر عرقوب ابنه بسيفٍ حتى يوقف تكرار هذا الفعل وحمله على بعيرٍ لبقية الرحلة. وفي ذات ليلةٍ وعندما كان أحمد مرهقاً ومغمىً عليه سقط من البعير مغشياً عليه، وعندما عاد إليه صوابه زحف إلى مخبأ تحت أجمةٍ وهناك عثر عليه السود الوثنيون واعتنوا به وفي النهاية علَّمهم كيف يقرأون القرآن ويتحدثون اللغة العربية وهداهم إلى الإسلام: وأخيراً أصبح ملكاً عليهم ومؤسساً لسلالةٍ حاكمة عظيمة، وفي ذات الأثناء استأنف أبو زيد وقبيلته السير إلى

تونس واستقروا هناك. لقد كان أبو زيد بطلاً شجاعاً ومرآةً للفروسية، فقد كانت هناك فتاةٌ عذراءُ في معسكرٍ قرب معسكره وأومأ إليها أبو زيد أن تأتي إليه وتصبح زوجة له، فردت عليه العذراء قائلة: "انتظرني تحت هذه الشجرة قرب معسكر العرب وسآتي إليك". وجلس أبو زيد الذي وثق في كلامها تحت الشجرة وانتظر ولكن الفتاة العذراء لم تظهر، ومن ثم هطلت الأمطار وارتحل كلُّ العرب إلى مراعٍ جديدة وذهبوا بعيداً من أبي زيد ولكنه بقي صابراً في مكان الموعد. ومرَّ عامٌ كامل وما زال أبو زيد منتظراً ومن بعدُ ومع عودة الصيف رجع العرب أدراجهم وعادت معهم العذراء الجميلة وعسكروا قرب مخيمهم القديم. ولدهشة الناس الذين فقدوا الأمل في رؤية أبي زيد فقد شاهدوه ــ منهكاً بالياً ــ جالساً تحت الشجرة حيث تركوه، ولكن أولئك الذين يعرفون أبا زيد معرفةً حقيقية أكدوا طول الوقت أنه سيفعل ما أعلن نيته على فعله. وعزمت العذراء التي رضيت عن هذا الأنموذج من الحب الحقيقي والصبر البطولي على أن تتزوج أبا زيد ولكن بعضاً من أقاربها قالوا إنه لا جدوى من رجلٍ ظل صائماً تحت شجرةٍ لمدة سنة. وعلى أية حال فقد حيَّر أبو زيد عاذليه: لقد اقتات على اللحم واللبن لمدة خمسة عشر يوماً وفي نهاية تلك المدة عاد إلى الظهور في طاقةٍ ونشاطٍ كبيرين وتزوج محبوبته. [نقلاً عن الشيخ غناوي من فرع دار جواد الحوازمة (البقارة). السنجكاية، 13 أكتوبر، 1908م].

6. خرج أبو زيد وجماعته إلى تونس من الشرق ومرُّوا بكسلا وشركيلا والرهد، وعندما وصل دار الحُمُر ضعفت معنوياته بسبب هجمات ذبابة التسي تسي على إبله وصعوبة شق الطريق مع إبله على فوق التربة القطنية. ولذا ترك شقيقه حامد المعقور هناك ورجع مع جماعته وساقهم إلى دارفور عن طريق الأربعين الذي يسير من النيل عبر شمال كردفان. [نقلاً عن مكي حُسيب شيخ الحُمُر الفلايتة، 21 أكتوبر، 1908م].

7. (انظر الفصل التاسع عن دار حامد لقصةٍ مروية عن اللقاء الذي تم بين أبي زيد وحامد الخُويّن).

الملحق (4)

القرعان والجَرَميُّون (الجرامنت)

القرعان عنصرٌ أسود من الوثنيين، وهم يقومون في فتراتٍ متقطعة من بلادهم الواقعة شمال ودَّاي ودارفور برحلاتٍ ويُغيرون على العرب الموجودين في جهة الجنوب والجنوب الشرقي بحثاً عن الغنيمة. وقد هاجر عددٌ معين من القرعان أيضاً إلى شمال كردفان في ذات الوقت الذي هاجر فيه الزغاوة الموجودون الآن في كَجْمَر، ولهؤلاء المهاجرين من القرعان قرىً قليلة في كردفان قرب أم دم[1] وهم يُسمُّون أنفسهم مسلمين ولكنهم يُعتبرون من طبقةٍ وضيعةٍ جداً وأدنى منزلة من الزغاوة. ويمكن أيضاً أن نستهل التعليقات التالية بأن نقول إنه لا يبدو أن هناك أسساً كافية لافتراض وجود أية علاقة بين اسميْ كردفان وقرعان كما سلفت الإشارة[2]، وبالتالي فإن بارث كان بلا شك صائباً عندما قال في حديثه عن التيبو إن العرب عموماً يضيفون لاسم تيبو (الذين يشملون الزغاوة) مصطلح قرعان و"الذي اعتقد أنا شخصياً أنها إضافة مبررة بالرجوع إلى منطقة جوران التي كثيراً ما يشير إليها ليو آفريكانوس"[3]. إن بارث يتحدث عن الزغاوة والقرعان باعتبارهما "فرعين كبيرين من فروع التِّبُو [التيبو] أو التيدا يسكنان الصحراء إلى الشمال من ودَّاي وأنهما أغنياء في القطعان[4]".

ولنعد إلى ليو آفريكانوس[5]: إن الحسن بن محمد الوزَّان الفاسي ـــ المشهور باسم ليو آفريكانوس ـــ كان مغربياً وولد عام 1495م أو 1496م. زار ليو آفريكانوس

1 هناك أيضاً قليلٌ منهم مختلطون مع الطِّرادات فرع حَمَر العساكرة.

2 انظر الملحق "1".

3 انظر بارث، المجلد "3"، الملحق، صـ 499.

4 المجلد "3"، التقرير الإثنوغرافي عن ودّاي. يُدرج بارث القرعان وسط القبائل السوداء سكان البلاد الأصليين ووسط القبائل الزنجية المهاجرة. في الواقع إن كلمة قرعان تستخدم في كثير من الأحيان استخداماً غامضاً لأيِّ سودٍ وثنيين. ويضم الحمداني النوبة والقرعان والزنج والزغاوة وزنوجاً أخر من بين أحفاد كنعان بن حام. انظر كاميرون. وأشير إلى أن والن يضم (في صـ 302) "القرعان" من بين عشائر الحويطات في وادي الأزلم وحول الويغ في شمال الجزيرة العربية.

5 تتبعت النسخة التي أعدها الدكتور ر. براون الخاصة بترجمة جون بوري (1600).

إفريقيا الوسطى في 1513ـــ 1515م، ويقول في حديثه عن الخمس عشرة مملكة من ممالك الزنوج التي زارها "لديهم ممالك أخرى كثيرة تنتهي حدودها لدى حدود الممالك الجنوبية منهم، أي بيرو وتميام ودوما وميدرا وجورهام...[1]". ويقول أيضاً: "تنتهي بلاد النوبة على الجانب الجنوبي بصحراء جوران... ويشنُّ ملك بلاد النوبة حرباً مستمرة ضد شعب جوران (الذين انحدروا من أناس يُسمَّون زنجاني يقطنون الصحارى ويتحدثون نوعاً من اللغة لا تفهمه أمة أخرى، كما يشنها على أناسٍ أخر معينين" (أي البوجيها أو البجة في جهة الشرق). والزنجاني افتراضاً هم الزنج وهو اسمٌ عام للسود عند الكتَّاب العرب. ويقول مارمول في تقريره عن إفريقيا ـــ وقد اختلسه أساساً من ليو ـــ تُحدُّ بلاد النوبة على جنوبها بصحراء جرهان. والعاصمة (أي عاصمة بلاد النوبة) هي "دانقالا" "... يشنُّ الأمير (أي أمير دنقلا) عادة الحرب ضد الجرهان وهم نوع من المصريين يعيشون في الصحارى ويتحدثون لغة معينة، وفي ذات الوقت يشنُّ حرباً أخرى ضد الأناس الذين يعيشون في شرق النيل في الصحراء"[2]. ويشير بوري أيضاً إلى أن بلاد النوبة تحدُّ جنوباً "بصحراء جوران"[3]. ويقتبس آخر محرر من كتاب ريتشارد بلوم (الوصف الجغرافي لاتجاهات العالم الأربعة)، 1670م، الآتي: "تقع جرهام على النيل وعلى ساحل جزيرة جوقوير isle Gueguere ويخلق سنيوتس مملكةً وصحراءَ وشعباً من هذا الاسم ويمدُّها تقريباً على طول جزيرة جوقوير ولا يورد أي ذكر للمدينة المسماة بهذا الاسم بل ولا يورده جون ليو في (إفريقيا) ولا الإدريسي في (عرب بلاد النوبة) ولا فنسينت بلانك الذي يقول إنه كان في هذه المرابع ويتحدث فقط عن صحراء جرهام. ويورد مؤلِّفون آخرون ذكراً لهذه المدينة ويصفونها بأنها تقع على النيل، ويقول سنيوتس إن هناك زمرُّداً في هذه الجبال التي تحدُّ جرهام من الجنوب". ويضيف د. براون قائلاً "إن جرهام أو جرهان هي من الواضح كردفان"[4]، ويستشهد بأدلة كولي لذات الشيء[5]، ويشير أيضاً إلى أن

1 صـ 128.

2 انظر المجلد "3" من ترجمة بروت (1667).

3 صـ 28.

4 صـ 28. وفي ذات الوقت هناك مذكرة لأحد المحررين تحدد "صحراء جوران" بأنها "الصحراء الليبية".

5 انظر صـ 128 من نسخة الدكتور براون الخاصة بالمؤرخ ليو، وصـ 129ـــ 130 من كولي. ومطابقة كولي لكلمتي كردفان وجوران تم البحث فيها في الملحق "1". واستشهد سير سي. ويلسون أيضاً في ورقته

جوقوير أو جونقير هي مروي [أي ما يسمى بـ"جزيرة مروي"]. ونشير الآن إلى فقرةٍ كتبها الدكتور بيرناردو آلدريت (آثار قرطبة) في عام 1614م في عملٍ بعنوان [العديد من الآثار من إفريقيا إسبانيا وغيرها من المقاطعات]، يقول في صفحة 425: (تثير الحقيقة القائلة بأن بلاد آشور لها علاقة بالبدو العرب السؤال عما إذا كان هؤلاء البدو هم "الجراماي" الذين تحدث عنهم بطليموس، وتبعاً لذلك ما إذا كانوا هم ذاتهم "الجورمني" الذين أشار إليهم إستيفانوس بـ"منطقة الجوراما... الخ"[1]، وما إذا كانت هذه المنطقة ـــ لكون الاختلاف بسيطاً جداً ـــ هي منطقة "الجورامورم" التي يتحدث عنها إبيفانيوس. ويثور سؤالٌ آخر على إثر هذا السؤال وهو ما إذا كان هؤلاء "الجرماي" أو "الجورمني" أخذوا اسم الجرميين، وما إذا كانوا جميعاً شيئاً واحداً وأنهم ذات العنصر الذي أتى من الجزيرة العربية واستقر في إفريقيا. ليس لديَّ وسيلة للفصل في هذه الأسئلة ولذا يجب أن يبقى الأمر موضع شك ريثما يفصل فيه شخص آخر).

يربط ليو بدو إفريقيا على نحوٍ مماثل بـ"الجورانيتس"، ويكرر ليو إشاعة بحيرة كبيرة (التي لم يكن لديها وجود في الواقع كما يشير إلى ذلك د. براون) توجد بين فزان وآلكير (القاهرة) ويقطن على ضفافها السينيتس والجورانيتس[2]. ويجب أن نستشير الآن المؤلفين الكلاسيكيين في ما يقولونه عن موطن الجرميين.

I. يتحدث هيرودوتس بادئ ذي بدء عن قبيلة الجرميين غير المولعة بالحرب التي كانت تقطن قرب شاطئ البحر المتوسط شمال موطن البسيلي والناسامونيين، ويتحدث ثانياً عن داخل البلاد في الصحراء عن (1) الآمونيين (2) واحة أوجلة حيث كان الناسامونيون يجلبون البلح من هناك (3) الجرميين الذين يصطادون سكان الكهوف في مصر في المراكب الحربية القديمة ويعيشون مسافة 30 يوماً من بلاد اللوتوفاجي (آكلة اللوتس). ويقول هيرودوتس إن كل هؤلاء الناس الموجودين في

حول قبائل وادي النيل بالمؤرخ ليو بالإشارة إلى هذه المسألة...

1 انظر القاموس التاريخي الجغرافي لاستيفانوس (1670م): فهنا وُصفت "جوراما" بأنها قبائل عربية وأن القبائل العربية هي قبائل بدوية من شبه الجزيرة العربية تسكن الخيام: وبالطبع فإن مصطلح بدو عرب ينطبق بالمثل على بدو إفريقيا.

2 صـ 173.

داخل البلاد هم بدويون[1].

II. يقول كلوديوس بطليموس وهو يبحث في المنطقة الداخلية لليبيا: "إن قبائلَ كبيرة جداً تقطن في ليبيا، وهي قبيلة الجرميين الذين يمتدون من منابع نهر باقرادا حتى بحيرة النوبة... وقبيلة الميلانوجوتيولي..."[2].

III. يقول بومبونيوس ميلا: "يوجد فوق تلك (البقاع) التي يغمرها البحر الليبي الليبيون المصريون والإثيوبيون ذوو البهق وأمة الجيتولي (البربر) الغفيرة المعقدة. ومن ثم يأتي المرء إلى أرضٍ خواءٍ واسعة غير مأهولة من طرفها إلى طرفها الآخر، ويقال إن الناس الذين يقطنون وراءها إلى جهة الشرق هم الجرميُّون ويليهم الأوجيليون وسكان الكهوف وأبعد عنهم غرباً الأطلنطيون. وفي الجزء الداخلي من البلاد (أي في اتجاه الجنوب) ــ إذا كان المرء يصدِّق ذلك ــ يوجد الإيجيبينز والبليميون (البجا) وهم بالكاد أناس بيد أنهم أنصاف بهائم،... هم بدو وليس لديهم منازل أو مساكن ثابتة وهم يسيطرون على البلاد لا يقطنونها"[3].

IV. يتحدث بليني قائلاً: "وأشهر مدينة هي جاراما، عاصمة الجرميين"، ويقول "ليس هناك مدخل إلى بلاد الجرميين..."[4].

إن الفكرة العامة المستنتجة من هذه المقتطفات هو أن الجرميين كانوا عنصراً بدوياً يغطي رقعة واسعة من البلاد تبدأ من فزان (بل وشمالاً منها) حتى صعيد مصر بل وربما امتدوا أكثر إلى جهة الجنوب لأن مساحات الجنوب الواسعة تكون مختصرة طبيعياً بالنسبة للرسم التاريخي في الشمال. لذا إذا التمسنا كل العذر لالتباسات قدامى الجغرافيين ستبدو لنا من جهة الغرب المنطقة التي يقطنها القرعان في الوقت الحالي ومن جهة الجنوب الشرقي "صحراء جوران" ومن جهة الشمال الجزء الجنوبي من منطقة الجرميين القدماء بحيث يقال إنها تشمل معاً تلك البقاع الماحلة التي ما زال يتجول فيها التيبو والطوارق الشرقيون (الذين يُعتبرون جزئياً من أحفاد قدامى

1 انظر هيرودوتس، الجزء "4"، صـ 168 وما يليها.

2 انظر نسخة مُلر، الجزء "4"، صـ 743 باللغة الإغريقية.

3 انظر بومبونيوس ميلا (حول حالة العالم، الفصل "4") باللغة اللاتينية.

4 انظر بليني (التاريخ الطبيعي، الجزء "5"، الفصل "5") باللغة اللاتينية.

البربر البدو). فالحدود الجنوبية الشرقية لهذه المنطقة على الخريطة الحديثة هي صحراء بيوضة وشمال كردفان، وتمتد الحدود غرباً إلى الصحارى الواقعة شمال كانم وودّاي وشمالاً إلى واحات ليبيا. وبالتالي وتأييداً للإشارة التي توحي بأن القرعان قد يمثلون الجرميين القدماء فقد رأينا في المقام الأول أن كليهما ربما سكنا في المنطقة التي وُضِّحت حدودها التقريبية. ويمكن توضيح نقطة ثانية وهي أننا نعلم أن القرعان من سلالة التيبو وأن بارث بالتحديد يطابق هوية الجرميين القدماء بهوية التيبو الذين نعلم أنهم كانوا يستقرون في فزان حتى أُرغموا على الخروج منها جنوباً بسبب هجرات البربر[1]. وهناك أيضاً تشابهٌ واضح بين أسماء "جَرَمَا، جرامانتيوم" ـــ التي ذكرها المؤرخ بليني ـــ وجوران أو (جورهان أو جورهام) التي لها بالتالي علاقة بـ"القرعان".

تشير هذه الحقائق إلى تماهي الجرميين مع القرعان خاصة لا مع التيبو عامة، وهي حقائقُ تجعل المرء يفكر في أن الكلمتين يجب أن تكونا مرتبطتين، فالتصحيف بالطبع لا يكمن كثيراً في كلمة القرعان كما يكمن في كلمة الجرميين الكلاسيكية. ونتذكر الآن الاستشهاد السابق بالمؤرخ سنوتس وهو يقول إن جُرهام كانت "مملكة، صحراء وشعب، وامتدت تقريباً بطول جزيرة جوقوير" ـــ أي مروي. واعتقد أن مدينة جَرَمَا تمثل بافتراضٍ عام مدينة غدامس الحديثة. فإذا كان الافتراض أن سنوتس كان يقصد جَرَمَا باعتبارها "المملكة" وجورهام (بيوضة وغرباً منها) باعتبارها "الصحراء" والجرميين (أي القرعان) باعتبارهم "الشعب" فإنه ربما لم يدرك المسافة من صحراء بيوضة إلى غدامس: وعلى أية حال لم يكن هذا أمراً مدهشاً ولا استثنائياً، فالموضوع هو أن العلاقة بين كل هذه الأسماء كانت أمام ناظريْ عقله. واعتقد أن الحجج المقدمة

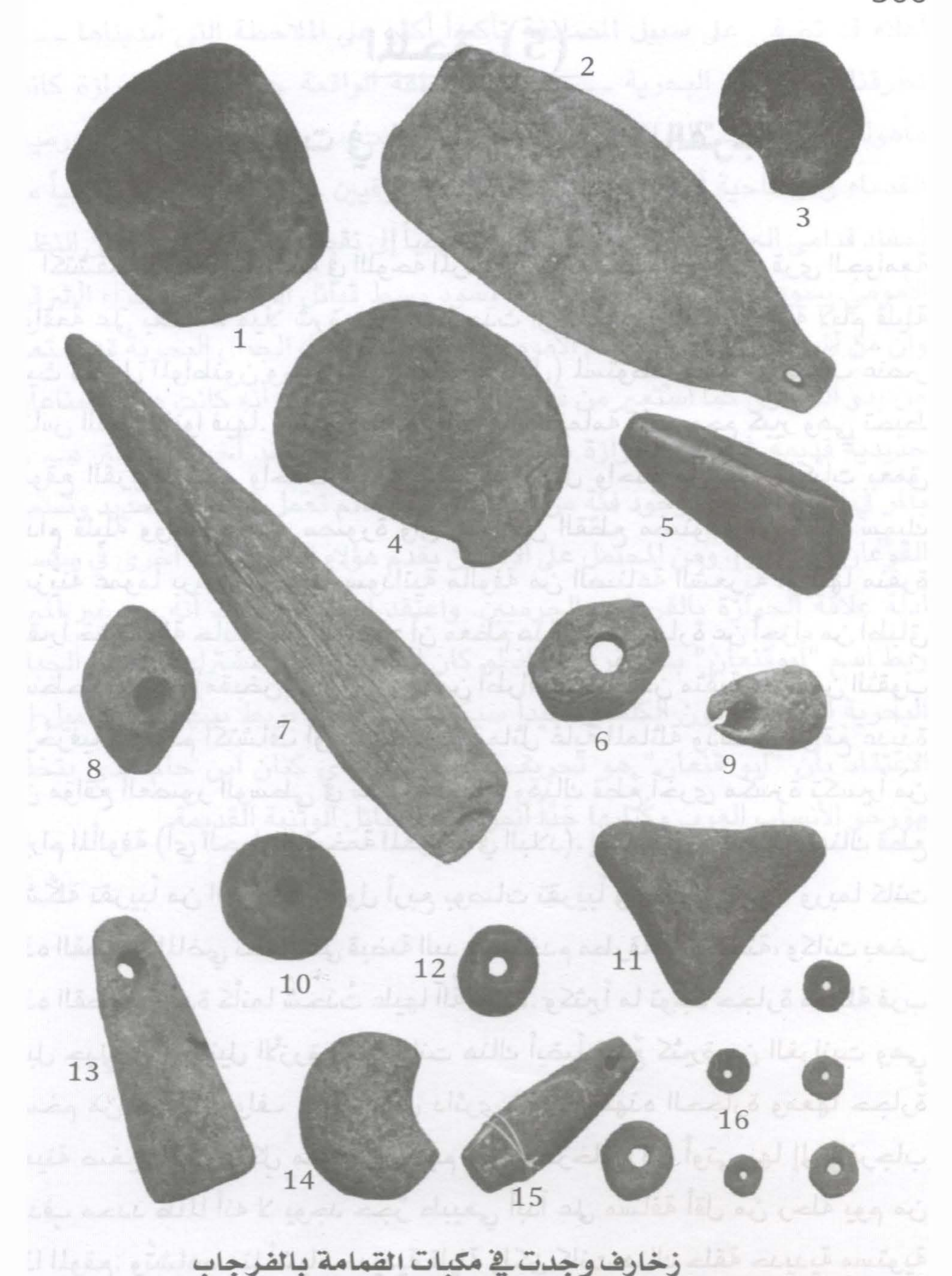
1 يوافق مُلر في نسخته الخاصة بكلوديوس بطليموس على تماهي الجرميين والتيبو ويتخذ مرجعاً من بارث ومن كتاب هارتمان، يوم السواد، المجلد "1"، صـ 74. ومن ناحية أخرى نجد مستر إ. ت. هامي وهو يطابق هوية التيبو مع سكان الكهوف بدلاً عن مطابقته إياهم مع مضطهديهم الجرميين (انظر الآنثروبولوجيا، المجلد "2"، 1891)، ود. شورتز (انظر تاريخ العالم، صـ 532) حيث يقول "إنهم [التيدا] قطعاً لا يتطابقون هويةً مع الجرميين الذين كانت لديهم مملكة في فزان... ولكن من المحتمل جداً أن تكون لهم علاقة بعناصر سكان الكهوف جنوباً من الفزان والذين يضعهم هيرودوتس من بين الإثيوبيين".لماذا؟ وأرى أيضاً أن سير هـ جونستون يقول في كتابه (التنقيب في النيل ـــ صـ 20) إن الرومان كانت لهم علاقات ودية مع طوارق جَرَمَا بالقرب من فزان. والمعترف به الآن أن الطوارق مختلطون اختلاطاً كبيراً مع التيبو.

أعلاه قد تضفي على سبيل المصادفة تأكيداً أكثر على الملاحظة التي أبديناها ــــ في تطرقنا إلى الجبال البحرية ــــ وهي أن المنطقة الواقعة حول جبل الحرازة كانت مأهولة ذات مرة بـ"القبائل المتجولة التي ربما كانت من ناحية ذات علاقة بالجرميين القدماء ومن ناحية أخرى بالتيبو والطوارق الشرقيين ــــ الذين يُعتبرون جزئياً من أحفاد قدامى البربر البدو". ويمكن الإشارة أيضاً إلى نقطتين إضافيتين: أولاً إن النظام الأمومي يسود وسط بدو الطوارق كما يسود وسط قبائل البجا في الصحراء الشرقية وأن من المرجح أن يكون النظام الأمومي المماثل الموجود في الجبال البحرية قد استعير من بدو الطوارق كما استعير من قبائل البجا. ثانياً قد نتذكر أنه كانت هناك صناعات حديدية قديمة في جبل الحرازة هُجرت منذ زمنٍ طويل، وقد أخبرني مستر هـ. ر. بالمر في الآونة الأخيرة بوجود فئةٍ من الناس في بلاد كانم تعمل في صنع الحديد وتسمى القرعان [جوران]، ومن المحتمل على الأقل أن يقدم هؤلاء الناس حلقة أخرى في سلسلة أدلة علاقة الحرازة بالقرعان والجرميين. واعتقد إضافة إلى ذلك أنه من غير المبرر ربط اسم "أبوقنعان" بـ"القرعان" إذ لو كان للكلمتين أصلٌ مشترك فإن أهل الجبال البحرية الذين يعرفون الكلمتين جيداً سيكونون أول من يربط بينهما. وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن "أبو قنعان" هو تحريف لـ"كنعان"، أي كنان ابن حام الذي يتخذه مؤرخو الأنساب العرب وكُتابها جَدّاً أنموذجياً للقبائل الوثنية القديمة.

الملحق (5)

أشياء وُجدت في مكبَّات القمامة بالفرجاب

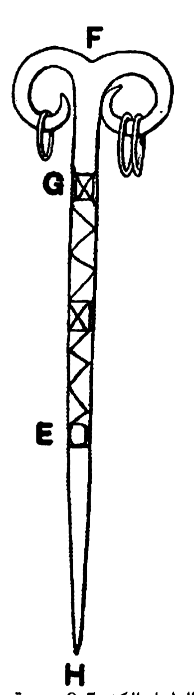
اكتُشِفتْ الأشياء الموضحة في اللوحة المرفقة في قرية الفرجاب إحدى قرى الجوامعة الواقعة على بُعد 22 ميلاً شرق بارا. لقد حدث أن تأخرتُ في هذه القرية لأيامٍ قليلة حيث ذكر لي المواطنون وجود أكوام قمامةٍ (تنادل) لمستوطنةٍ قديمة لا يُعرف عنصر الناس الذين كانوا فيها. وقد وجدتُ مكبَّات هذه القمامة ذات حجمٍ كبيرٍ وهي تحيط بموقع القرية القديم وأخذتُ قطعةً مصنوعة داخل واحدةٍ من هذه المكبَّات بعمق أقدامٍ قليلة ووجدت المواد مصورة وأن عدداً من القطع مصنوعة من فخارٍ سميك ومزيَّنة عموماً برسوماتٍ فنية سودانية مألوفة من الصناعة الشَّعَرِية أو أنها منقَّرة تنقيراً خشناً بآلةٍ حادة. ومن الواضح أن معظم هذه القطع عبارة عن أجزاء من أطباقٍ مسطحة لها أذنٌ (مقبض) في كل طرفٍ من أطرافها، وكلُّ أذنٍ مثقبة بعددٍ من الثقوب الزخرفية. لقد تم اكتشافُ أوعيةٍ بتصميمٍ مماثلٍ غاية المماثلة وذلك في مواقعَ عديدةٍ من مواقع العصور الوسطى في مديرية دنقلا. وهناك قطعٌ أخرى مكسَّرة تكسيراً من البُرام المألوفة (أي الجِرار الضخمة المعروفة في البلاد). إضافة إلى ذلك كانت هناك قطعٌ مُشَكَّلة تقريباً من الغرانيت بطول أربع بوصات تقريباً وسُمك بوصتين، وربما كانت هذه القطع في الماضي تُحمل على قبضة اليد وتستخدم مطرقةً أو مطحنة، وكانت بعض هذه القطع مخدَّدة كأنما شُحذتْ عليها آلةٌ حادة. وكثيراً ما توجد حجارة مماثلة قرب جبل جيلي شرق النيل الأزرق، كما كانت هناك أيضاً قطعٌ كثيرة من الغرانيت وهي أضخم من كرات الغولف وذات شكلٍ دائري تقريباً. فهذه الحجارة ومعها حجارةٌ معينة صغيرة ذاتُ شكلٍ مستدير بحجم قطعة الرخام ربما أوتي بها إلى الفرجاب لهدفٍ محدد طالما أنه لا يوجد حجرٌ طبيعي أبداً على مسافة أقل من رحلة يوم من هذا الموقع. وتُشاهد هنا أشياء حديدية قليلة ولكن كانت هناك حلقة حديدية مستوية وخشنة قطرها بوصة ومِشْبَكان من الحديد بهما حلقتان معلقتان بهما كما يعكس الرسم التوضيحي المرفق. وربما كان هذان المِشْبَكان يستخدمان دبابيس شَعَرٍ أو



زخارف وجدت في مكبات القمامة بالفرجاب

1/ حجر سماقي. 2/ 6، 7، 8، 9، 13، 15. من المحتمل أن تكون عظام. 3/ 11 و14. حجر رملي.
4/ آنية من الفخار.5/ صوان "حجر القداحة". 10/ أهو زجاج منصهر؟ 12/ عقيق أبيض.
16/ خرز قرصي (أسود وأبيض) مصنوع من قشر البيض "أهو بيض نعام؟".
(يبلغ حجم هذه الرسوم التوضيحية ثلثي الحجم الحقيقي)

لوضع الكحل في جفون العين. كان هناك قليلٌ من الحديد بشكلٍ مختلف باستثناء قصاصات قليلة غير محددة الشكل من الواضح أنها كانت أجزاءً من نصال أسهمٍ أو معازقَ (حَشَّاش). إن الحديد يمكن الحصول عليه في المنطقة المجاورة مباشرة وكان يتم تصنيعه إلى وقتٍ متأخر بمنتصف القرن التاسع عشر. ويبدو أن قطع العظام المكتشفة كانت لحيواناتٍ محلية وهي يتم سحقها بهدف استخلاص النخاع. ولم أجد في أيِّ مكان أية حلقات حجرية ضخمة كتلك التي اكتشفتْ في الحرازة وأم درق. وفيما يتعلق بالأشياء الموضحة في اللوحة المرفقة فربما قيل إنها تعكس علاقة ملحوظة بالمؤثرات الشمالية مثلها مثل الحجارة التي اكتشفتْ في الجبال البحرية. ويصحُّ هذا خصوصاً على الخرزات القرصية (انظر الرقم 16) التي توجد في مكبَّات قمامة الفرجاب، فبعضها أبيض ضاربٌ إلى الصُّفرة وبعضها ذو لونٍ رمادي وبعضها أسمر محمرٌّ باهت وبعضها أسود تقريباً. ويبدو أنها من قشرة بيض النعام والأغرب من ذلك أنها تحمل شبهاً ملحوظاً بخرز بيض النعام الذي اكتشف في ما يسمى بمقابر الناقوسية بمصر pangraves والتي تعتبر الآن ملكاً للِّيبيين. ويجب عليَّ أن أسدي الشكر إلى البروفسور وليم ردجيواي للفت انتباهي لهذه الحقيقة[1].



الطول الكلي 9.5 بوصة. من G إلى E مربع مقطوع (حوافه أقل من ربع بوصة)، ومن F إلى G ومن E إلى H مستدير.

1 أنا مدينٌ للحصول على التفاصيل التالية للدكتور ف. أ. باظر ود. سي. دبليو. آندروز ومستر دبليو. كامبيل سميث من المتحف البريطاني. والتفاصيل هي:

سُمك الخرزات الضاربة إلى البياض 2.55. ويبدو أنها تتكون من كربونات الكالسيوم.

سُمك الخرزات الضاربة إلى السواد 2.52. وهذه المادة تفور بحامض النتريك المخفف ولكنها تخلِّف رواسبَ سوداء غير قابلة للذوبان: وظهرت في البداية في شكل لوح جيري أو صخرٍ طينيٍّ صلب، ولكن عندما رُكِّبت أجزاء الخرزات الضاربة إلى البياض والخرزات الضاربةً إلى السواد وُجدت متطابقة تطابقاً لصيقاً، ولذا فمن المحتمل أن تكون كلتاهما قشرة بيض.

سُمك الرقم 7 على اللوحة المرفقة 1.7 وجد هشاً جداً وذا مسامات، وعَكَست الاختبارات النوعية وجود الكالسيوم بكمية كبيرة مع وجود الفوسفات. وليس هناك أثر لمادة عضوية وربما تكون هذه المادة مصنوعة من قطعة عظمٍ طويل لبعض الحيوانات ذوات الثدي.

بيبلوغرافيا

بيبلوغرافيا

ابو الفدا. «تاريخ ما قبل الإسلام» نسخة فليشر (باللغتين العربية واللاتينية). 1831م.

آلدريت. «العديد من الآثار من إفريقيا وإسبانيا وغيرها من المقاطعات».

الدكتور برناردو آلدريت، القانون في كنيسة قرطبة المقدسة. 1614م.

البكري. «كتاب المسالك والممالك» (استشهد به ليو آفريكانوس وكولي وابن خلدون وبارث وكاريت، نُظر في نص الكتاب).

بارث (هـ). «رحلات واكتشافات في شمال ووسط إفريقيا» 1849م ــ 1855م. 5 مجلدات. د. هاينريش بارث. 1857م ــ 1858م.

براون (ر). نسخة «تاريخ ووصف إفريقيا... الخ» إعداد ليو آفريكانوس (نظر في نص الكتاب) في منشورات جمعية هاكلويت، تحرير د. روبرت براون. 1896م.

براون (دبليو. ج). «رحلات في إفريقيا ومصر وسوريا من عام 1792م إلى عام 1798م» لندن، 1806م.

بروس (جي). «رحلات لاكتشاف منبع النيل، في الأعوام 1768م ــ 1773م» 6 مجلدات. إدينبيرج، 1790م.

بودج (إ. إيه. دبليو). «السودان المصري، تاريخه ومعالمه الأثرية» 1907م.

بيركهاردت (جي. ل). «رحلات في بلاد النوبة» لندن. 1819م.

بيرتون (ر. ف). «قصة حج إلى مكة والمدينة» لندن، 1879م (الطبعة الأولى. 1855م ــ 1856م).

بيرتون (ر. ف) & دريك (سي. ف. ت). «سوريا التي لم تكتشف» لندن، 1872م.

كايو. «رحلة إلى مروي، النهر الأبيض وما وراء فازوغلي... نفذت في السنوات 1819م، 1820م، 1821م، 1822م» باريس، 1826م ــ 1827م.

كاميرون (د. إيه). «عن قبائل شرق السودان» مجلة المعهد الآنثروبولوجي. فبراير، 1887م.

كاريت (إيه. إ. هـ) «بحث حول أصل قبائل شمال إفريقيا الكبيرة وهجرتها وخاصة

في الجزائر». (الاكتشاف العلمي للجزائر. العلوم التاريخية والجغرافية. 3) باريس، 1853م.

كلوديوس بطليموس. «الجغرافيا» نسخة كارولس مُلر. باريس، 1883م.

كولي (دبليو. د). «اكتشاف بلاد العرب الزنجية ووصفها» لندن، 1841م.

كروفوت. «الحقل الآنثروبولوجي في السودان الإنجليزي/ المصري» تقرير الرابطة البريطانية. 1907م.

كوست (ر. ن). «مشهد لغات إفريقيا الحديثة» (سلسلة تروبنر للدراسات الشرقية) لندن، 1883م.

ديفيس (ن). «أمسيات في خيمتي، أو تجولات في بلد الجريد» لندن، 1854م.

دنهام، كلابرتون... الخ «قصة رحلات واكتشافات في شمال ووسط إفريقيا في الأعوام 1822م، 1823م، 1824م» لندن، 1826م.

ديودورس الصّقلي. «مكتبة المؤلفات التاريخية القائمة. المترجم لورانس رودومانو، مراجعة بيتروس ويسلنقيوس». أمستردام، 1746م.

نِسبة دنقلا. مخطوطة عربية في حرز الفكي الدرديري راجل خرسي في كردفان. توصف كالآتي «هذا العمل هو تأليف من جهود ثلاثة أشخاص مختلفين: من البداية وحتى الوصول إلى قصة الخلفاء وقصة نبي الله عيسى تمت الرواية بواسطة السيد غلام الله: من الأول تنبيه (وقف كامل) وهو الموضع الذي يبدأ فيه تاريخ خزام وبني خزيمة بواسطة السيد محمد ود دوليب الأكبر: ويستمر عمل محمد ود دوليب حتى بلوغ التنبيه الثاني حيث يبدأ أصل السودانيين. ومن هنا حتى النهاية يكمل العمل محمد ود دوليب الأصغر المدفون في خرسي. هذا التاريخ نسخه والدي (أي والد الخليفة الحالي محمد الخليفة) بخط يده في عام 1252هـ الموافق (1836م) من تاريخ العام 1151هـ الموافق (1738م)، وأعددتُ أنا هذه النسخة في شهر رمضان 1302هـ».

بالنسبة إلى نسب الأشخاص المذكورين أعلاه وتواريخهم التقريبية انظر الفصل السادس عن الجبال البحرية.

دوتي (سي. م). «تجولات في الجزيرة العربية» لندن، 1908م.
إنسور (ف.س) «أحداث في رحلة عبر بلاد النوبة إلى دارفور» لندن، 1881م.
إسكيارك دولوتور (أ) «الصحراء والسودان» باريس، 1853م، (ب) «مذكرة حول السودان» نشرة الجمعية الجغرافية. باريس، 1855م.
فورنل (هـ). «البربر. دراسة حول فتح العرب لإفريقيا» باريس، 1875م — 1881م.
جلال الدين السيوطي. «حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» مجلدان. طباعة حجرية. القاهرة. غليشن (انظر عنوان فرعي «الكتيِّب»).
همكر. «أنموذج من فهارس المخطوطات. الشرقية...» باريس، 1820م.
هاملتون (دبليو. ر). « إشارات حول أجزاء عديدة من تركيا. الجزء 1. المصريون، أو قصة دولة مصر القديمة والحديثة» لندن، 1809م.
هامي (إ. ت). «بلاد سكان الكهوف» الآنثروبولوجيا، المجلد «2»، 1891م.
الدليل. «دليل السودان» تأليف النقيب كاونت غليشن. لندن، 1898م.
هارتمان (ر). (أ) «صورة وصفية لنهر النيل» برلين، 1866م، (ب) «يوم السواد» برلين، 1876م.
هلمولت. «تاريخ العالم» تحرير هـ. ف. هلمولت. المجلد «3».
هيرودوتس. ترجمه هـ. كاري من نص بير. لندن، 1891م.
هولرويد. «مذكرات حول رحلة إلى كردفان في 1836م — 1837م» ر. ج. س. المجلد «9»، الجزء «2». فبراير، 1839م.
هيوارت (سي). «تاريخ الأدب العربي» لندن، 1903م.
ابن بطوطة. «رحلات ابن بطوطة» النص العربي، ترجمه سي. ديفريميري والدكتور ب. ر. سانغينيتي. باريس، 1853م — 1859م.
ابن دقماق. «وصف مصر» نشره الدكتور فولرز. القاهرة، 1893م.
ابن خلدون. «تاريخ البربر والممالك الإسلامية لشمال إفريقيا» ترجمه م. بارون دي سلين. الجزائر، 1852م — 1856م.
ابن سعيد (استشهد به المقريزي).

الإدريسي. «جغرافية الإدريسي» ترجمها إلى الفرنسية ب. إيه. جوبرت. باريس، 1836م، 1840م.

جونستون (سير هـ هـ). «التنقيب في النيل» لندن، 1903م.

جُنكر (دكتور دبليو). «رحلات في إفريقيا خلال الأعوام 1875م ـــ 1878م» ترجمه إيه. هـ كين. 1890م.

كين (إيه. هـ). (أ) مادة «السودان» الموسوعة البريطانية، (ب) «الإنسان في الماضي والحاضر» كامبريدج، 1899م.

كليبل (إيرنست). «دراسات حول الفولكلور البدوي في مصر» [من منشور الجمعية الجغرافية الخديوية، السلسلة «7»، رقم 10] القاهرة، 1911م.

كلونزنجر (سي. ب). «صعيد مصر: شعبه ومنتجاته» لندن، 1878م.

لين (إ. دبليو). «تقرير عن أساليب وعادات المصريين الحديثين كُتب في مصر خلال الأعوام 1833م ـــ 1835م» لندن، 1836م.

لين بول (س). «تاريخ مصر في العصور الوسطى» لندن، 1901م.

ليو آفريكانوس. «تاريخ ووصف إفريقيا». ترجمه إلى الإنجليزية جون بوري،1600م، حرره ر. براون (نشرته جمعية هاكلويت). لندن، 1896م.

بسيوس (ر). «النحو النوبي» برلين، 1880م.

لينانت (إيه). «دفتر يومية رحلة على النيل الأبيض...» مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، المجلد «2»، 1832م.

ماكمايكل (هـ إيه). (أ) «صور صخرية في كردفان» مجلة المعهد الملكي للآنثروبولوجيا. المجلد «39»، 1909م (ب) «الكبابيش، بعض الملاحظات حول أصل قبيلة عربية سودانية» مجلة المعهد الملكي للآنثروبولوجيا. المجلد «40»، 1910م (ج) «الزغاوة وأهل جبل ميدوب» مجلة المعهد الملكي للآنثروبولوجيا. المجلد «42»، 1912م.

المقريزي (استشهد به كواترمير).

مارمول. «إفريقية مارمول» ترجمها ن. بروت. 1667م.

المسعودي. «مروج الذهب» إعداد النص وترجمته، سي. ب. دوميناردو& ب. دوكورتيل. باريس، 1861م.

مُلر (سي) (انظر كلوديوس بطليموس).

فون مُلر. «مقتطف من مذكرات خلال رحلات في إفريقيا في 1847م ــ 48ــ 49م» مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، المجلد «20»، 1851م.

ناختيجال (ج). «الصحراء والسودان» برلين، 1879م.

نعوم بك شقير. «تاريخ السودان» (النص العربي). القاهرة، 1904م.

النويري. (المخطوطات العربية 683، صفحة 17، استشهد بها كواترمير).

أوهرولدر (انظر ونجت).

بالقريف (دبليو. ج). «قصة رحلة عام عبر وسط وشرق الجزير العربية». لندن وكامبريدج، 1865م.

بالمي (جي). «رحلات في كردفان» لندن، 1844م (الترجمة).

باركينز. «عرب الكُبابيش بين دنقلا وكردفان» مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، المجلد «20»، 1851م.

دوبيرسيفال (إيه. ب. كوسن). «مقالة حول تاريخ العرب قبل الإسلام...» باريس، 1847م.

بثريك (جي). (أ) «السودان ووسط إفريقيا...» إدنبيرج، 1861م، (ب) «رحلات في وسط إفريقيا واستكشافات غرب النيل» مجلدان. لندن. 1869م.

بليني. «التاريخ الطبيعي، الفصل 37 من الكتاب» المحرر السابق. ج. بروتير (كلاسيكيات دلفين).

بومبونياس ميلا. «حالة العالم» طبعة بازل. 1543م.

بونسيه. «رحلة إلى إثيوبيا في الأعوام 1698م، 1699م و1700م» الترجمة. لندن، 1709م.

بوري (انظر مرجع ليو آفريكانوس).

براوت. «تقرير عام حول مديرية كردفان 1876م» القاهرة، 1877م.

برودو (اللورد). «مقتطفات من مذكرات خاصة محتفظ بها اللورد برودو في رحلة من القاهرة إلى سنار في 1829م»، مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، المجلد «5»، 1835م.

كواترمير. «ذكريات جغرافية وتاريخية عن مصر والبلدان المجاورة» مجلدان. باريس، 1811م.

رِن (ل). «أصول البربر. دراسات لغوية وأعراق بشرية» الجزائر، 1889م.

روبيل. «رحلة في بلاد النوبة وكردفان وجزيرة العرب» فرانكفورت، 1829م.

شورتز (فصل من إعداد شورتز في تاريخ العالم، المجلد «3» [انظر مرجع هلموت]).

شفاينفورت (ج). «قلب إفريقيا» ترجمه فريوار. لندن، 1868م.

«تاريخ سنار» مخطوطة عربية وجدها في سنار اللواء/ سير رودلف بارون فون سلاطين. ويبدو أنها كانت ستنهى في «19 شعبان وهي تقدم تاريخ سنار اعتباراً من عهد عمارة دونقس (1509م) فصاعداً.

سلاطين (سير ر.سي.). «السيف والنار في السودان، 1879م ــ 1895م» ترجمه سير ف. ر. ونجت. لندن، 1896م ــ 1897م.

سبرينجر (إيه). «الموسوعة التاريخية»، بعنوان [مروج الذهب...] المسعودي، ترجمه أ. سبرينجر. المجلد «1». لندن، 1841م.

ستيوارت (سي. إ). «مقتطفات من تقرير حول السودان من إعداد المقدم/ ستيوارت. الخرطوم، فبراير 1883م» (ملحق «المهدية والسودان المصري» مرجع ونجت).

إسترابو. «كتاب جغرافية الأشياء 17» نسخة كسوبون. 1620م.

تريموكس (ب). «رحلة في إثيوبيا وشرق السودان وداخل بلاد السود» باريس، 1862م.

التونسي. «رحلة إلى دارفور» قام بها الشيخ محمد بك عمر التونسي. ترجمه بيرون. باريس، 1845م

والن (ج. إيه). «مذكرات أُخذت خلال رحلة عبر شمال الجزيرة العربية في عام 1848م» مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، المجلد «20»، 1851م.

ولكنسون (سير جي. ج). «مصر الحديثة وطيبة» مجلدان. لندن، 1843م.

ويلسون (سير سي. دبليو). «حول قبائل وادي النيل شمال الخرطوم» مجلة المعهد الآنثروبولوجي، أغسطس، 1887م.

ويلسون (سي. ت) وفلكن (ر. دبليو). «يوغندا والسودان المصري» مجلدان. لندن، 1882م.

ونجت (سير ف. ر.). (أ) «المهدية والسودان المصري» لندن، 1891م، (ب) «عشر سنوات من الأسر في معسكر المهدي...» (من المخطوطة الأصلية للأب جوزيف أوهرولدر). الطبعة الـ15. لندن.

رقم الإيداع: (527/2016م)